محمد بن عبد القادر الجزائري

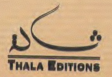
تحفة الزائر

في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر

شرح و تعليق:
د. ممدوح حقّي

الجزء الأول





محمد بن عبد القادر الجزائري

تحفة الزائر

في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر

شرح و تعليق:

د. ممدوح حقّي

الجزء الأول





تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر- الجزء الأول.

بمساهمة مؤسسة الأمير عبد القادر

لصالح "تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007".

الإيداع القانوني:215-2007.

ردمك: 978-9947-834-08-4


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

من المهام التي أولتها مؤسسة الأمير عبد القادر اهتمامها منذ نشأتها، هي لا محالة، محاولة جمع كل ما تركه الأمير عبد القادر من مآثر فكرية، شعرا أو نثرا، مخطوطا كان أو محفوظا في طبعة قديمة تحتاج إلى إعادة نشر في طبعة مستحدثة، تتماشى ومكانة الرجل ومتطلبات الساعة. كما أنها حاولت أن تنقذ من الضياع والاندثار التحف الأثرية التي امتلكها ووظفها لتأدية مختلف مهامه السامية، في السلم وحين البأس، دفاعا عن حرمة الأوطان، وقدسية القيم، وكرامة الأمة، في حله وترحاله، عبر مختلف مناطق القطر الجزائري، وأثناء أسره بأراضي العدو، وفي منفاه بالمشرق العربي الإسلامي.

وأولت المؤسسة نفس الاهتمام، بكل المؤلفات التي تتضمن ذكرا للأمير عبد القادر، وظروف مبايعته، ونظام دولته، ومساعيه لتوحيد الصفوف، وتعبئة الطاقات، ومعاركه العسكرية الباسلة، ونشاطه السياسي في اتجاه الخصم، والشقيق، والصديق، ومميزات شعره ونثره واتجاهاته الصوفية. وهي كتب كثيرة صادرة عن جزائريين، وقادة حرب فرنسيين وأجانب عملوا في صفوف جيش الغزو الفرنسي، ومؤرخين وملاحظين من عرب وأجانب، عاصروه، وتعاملوا معه فخصوه بشهادات حية بالخط، واللوحات الفنية، والصور الفتوغرافية.

وجمعت مؤسسة الأمير عبد القادر، العديد من هذه الآثار القيمة، فخصت المؤلفات بالدراسة، والتنقيح، والتعليق، وبالترجمة إلى العربية بالنسبة للوارد منها في غير لغة الضاد، وكونت من التحف التي امتلكها الأمير من سيوف، وسروج، وسجاد، وغيرها شبه وحدات عرض تصطحبها إلى الأماكن التي تحيى بها ذكراه داخل الجزائر وبالعواصم الأجنبية.

وتكتسي "تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر" مكانة خاصة ضمن السير الخاصة بالأمير، لأنها من تأليف أقرب الناس إليه، وأعزهم عليه، نجله الأمير محمد، الذي لازمه في البأساء والضراء، وكان يتمتع بثقافة تؤهله لفهم الأحداث، وتدوينها في نسق يربط بينها وبين مسبباتها وعواقبها، يراجع في تدوينها الأمير عبد القادر نفسه، ويدعمها بتصريحات مناسبة لضباط جيش العدو، وبشهادات ملاحظين وذوي الاطلاع والخبرة من جنسيات مختلفة. ويجد فيها القارئ ملخصا مفيدا لجغرافية الجزائر، وذكرا لسكانها وتذكيرا بأهم مراحل تاريخها، مع تلخيص لمختلف الدول التي تعاقبت عليها من بني الوطن، وغزاة وفاتحين. وفيها إشادة بكل عمل صالح وجهاد مخلص ولو كان صادرا عن ألد الخصوم والأعداء.

وترى مؤسسة الأمير عبد القادر في إعادة طبع "تحفة الزائر" وتوزيعها دعما لمسعاها الرامي إلى التعريف بالأمير عبد القادر، وبتاريخ الوطن والأجداد، وفائدة يقتنيها الدارس، ومتعة يلقاها كل مثقف يتذوق الأدب، والشعر، والتصوف، وموعظة لمن يحسن قراءة الماضي في سعيه المخلص نحو الغد الأفضل.

رئيس مؤسسة الأمير عبد القادر

خطـــة الكتـــاب

نهدت أمامي، وأنا أتتبع تطور الحركات الفكرية والتحررية في الشرق الأدنى، خلال القرن التاسع عشر، خمس صور قوية، أخذت عليّ معالم البحث، ووقفت دوني، تتحدّى تتبُّعي، وتجذبني إليها جذبا قويّا جداً كسف عن نظري ما عداها كسفا مبينا. وتكشَّفت لي عن حقيقة، ما إن تعمقتها؛ حتى اتّضح لي بأنّ هناك خيطًا سرّياً، يربط بينها جميعًا، ويؤلف منها نغمة موحدةً متصاحبة[1] تصاحبا "هارمونيا" وإن تباينت أساليبها وتفاوت أمدُ نضالها وشدّته، وتباعد توقيتها أو تقارب. أما أهدافها، فلم تختلف نبلا وكرما وحزما. وأما نهاياتها، فمتشابهةٌ حزنا وألما وانكساراً ...

خمس صور من الصراع المرير، قامت بها خمسة شعوب إسلامية، في: الجزيرة العربية وليبيا، والجزائر، والقفقاس، والسودان؛ تستهدف التحرّر من مخالب الاستعباد والتملص من براثن الاستعمار، وبناء دولة مستقلة متقدمة، على أساسٍ ديني محض؛ ارتكاسا منها ضد الحضارة الغربية

---

1. الفيلسوف الكندي أول من سجل (الهارموني) في العالم منذ 1200 سنة وكان يسميه فن الاصطحاب. وهو تناسق نغمات متفاوتة حتى تؤلف نغما موحدا منسجما انسجاما تاما يترل على السمع برفق ولين كأنه نابع في الأصل، من مصدر واحد. وهذا عنيناه في المتن، لم نستعمل كلمة الهارموني الأفرنجية بل استخدمنا اللفظ العربي الأصيل "الاصطحاب".

الآثمة، الهاجمة علينا بكل قواها المادية والتاريخية، المنيخة بجمّاع ثقلها على الشرق الإسلامي، تستعمر شعوبه. وتستغلّ خيراته وتستنبط ركازه وتجنّد كتله البشرية؛ لتقذفها في تنّور المجازر والحروب وتمزّقه إلى إمارات ومشائخ ودويلات... وتحطّم عقائده وتقاليده وتفسد سننه وقسمه ودينه وتحدث في نفوس أبنائه جوّاً فراغيًّا يجعله مستعدًّا لتلقّي ما يصبُّ فيه من أفكار ومعلومات وعقائد تخلصا من القلق!

خمس صور من الكفاح العنيد، تنازع الغرب البقاء نزاع النمر الجريح وتزأر في وجه المغير المتشنّج بالحقد والطمع زئير الأسد الثائر. وتدافعه بلا هوادة. لكن ماذا يفعل السلاح البالي المتهالك، وعقلية القرون القرون الوسطى، والتفكير الرجعي والجمود... أمام سلاح النهضة الأوربية الحديثة؟ كيف يقف السيف والرمح والنشّاب؛ أمام البارود والمدفع؟ وكيف يتكافأ الشراع أمام البخار؟ والمركب الخشبيّ أمام البارجة الحديدية؟ كيف يقف السلفيّ المتراجع إلى الوراء، والمتقدّم الهادف إلى الأمام على صعيدٍ واحد، ويتكافئان؟

لقد كانت النهاية المحتومة معروفةً ومتوقعة، انهزم فيها الحقّ الضعيف أمام الباطل القويّ وسقط النبل الاتّكالي المستكين صريعا تحت أقدام الطمع الوقح المسلح ...! هكذا انكسرت الثورة الوهابية في الجزيرة وانحلت السنوسية في ليبيا وتلاشت دولة الأمير عبد القادر في الجزائر وانهارت إمارة الشيخ محمد شامل في القفقاس وتهاوت ثورة المهدي والتعايشي في السودان ... فتمزقت البلاد الإسلامية، وتشتّتت شعوبها متخاذلة مقهورة. وانتصر الغرب بماديته وفيزيائيته، على الشرق بروحانيته

وميتافيزيكيّته، وثمل الظافرون بخمرة الانتصار يطربون ويرقصون على قبورنا ... لكن إلى حين!

ما هي إلا سنوات حتى عاد الشرق إلى صوابه. واسترجع رشده ولملم أنفاسه وفتح عينيه إلى النور وأصغى فإذا صوت جديد يرن في مسمعيه تتعالى أصداؤه في جواء السياسة الشرقية؛ فتردّدها الأجواء الغربية، بشيء كثير من الشك والوجل! وإذا وترُ النغمة العربية يعزف في مكان الوتر الإسلامي فيستجيش الشعور الجامد ويحرّك الفكر الهامد ويتمخّض الشرق بحركات جدية.

فالباحث في حركات القرن التاسع عشر لا يمكنه أن يتخلى عن الاعتراف بهذه الثورات التحررية الخمس، واستشفاف شعارها الموحد، من خلال معاركها في السلم والحرب وأنها -على تباين أقطارها واختلاف مناطقها وأزمانها لم تحمل إلا العلم الإسلامي وحده. ولم تشرب إلا من ينبوع السلف الصالح يربطها -جميعا- هذا الخيط السحري الخلاب؛ فتتناغم في لحن موحد متناسق.

فثورة محمد بن عبد الوهاب في نجد إسلامية سلفية حنبلية وثورة الشيخ محمد شامل في القفقاس إسلامية حنفية متأثرة في حكم الجوار بالدولة العثمانية وثورة محمد بن علي السنوسي في ليبيا إسلامية سلفية مالكية وثورة الأمير عبد القادر في الجزائر إسلامية مالكية وثورة المهدي والتعايشي إسلامية سلفية كذلك.

وكل ما تخلل هذه الثورات المسلحة من حركات فكرية تحررية في ظل السلام كحركة عبد الرحمن الكواكبي في سوريا، ومحمد عبده في مصر والآلوسي في العراق ... لم تقم إلا على أساس دينيّ محض.

وكل ما جمجم به الأدباء والشعراء في القرن التاسع عشر، من دعوات إصلاحية لم تنهض إلا على قاعدة دينية.

فقصة الأمير عبد القادر الجزائري إذن، ليست وحيدة من نوعها في القرن التاسع عشر أو منعزلة في تاريخها وموضوعها عن سائر القصص البطولية في سلسلة النضال التحرري بل هي حلقة من جملة حلقات وقف فيها الشرق المسلم الوديع موقف المدافع أمام الغرب المهاجم بكل ما في فكه من نيوب وما في أكفه من [مخالب] وبراثن. ولو تعمقنا التاريخ قليلا لقبضنا على الكفّ الخفية التي حركت الحروب الصليبية بين الشرق والغرب فحفرت هذه الهوة العميقة بين الإسلام والمسيحية، وخلّفت أسوأ ما يخلفه التنابذ من آثار حزينة والاحتراب من جروح عميقة لا تندمل ... وما زالت تحرك الفتن، وتثير الاضطراب والقلق غير آبهة بالشرف، ولا مهتمة بالإنسانية والمثالية، وما فيها جميعا من نبالة وسمو.

قصة الأمير عبد القادر تتلخص بهجوم شنته فرنسا الغربية على الجزائر العربية المسلمة، سافرة، قالصة مشفريها، عن كل قسوتها الاستعمارية، وتعصبها ورغبتها في التوسع ... بعد أن اطمأنت إلى سكوت بريطانيا وسائر الدول عنها. لم تبررها إلا بحادث تافه حقير!

– لقد صفع داي الجزائر التركي؛ قنصل فرنسا بمنشّة الذباب!

– لكن لماذا صفعه؟

– أما فرنسا فتقول : إن حاكم الجزائر أهان كرامة فرنسا بإهانته قنصلها. وهذه الإهانة لا يغسلها إلا الدم.

– وأما الحقيقة التاريخية فتقول بأنه إنما صفعه انتقاما منه لوقاحته، واستنقاذا لشرفه، وإشارة منه لدولته اللصة بضرورة دفع ما عليها من حقوق وديون للجزائر ثمن ما صدر إليها من قمح أطعمت به شعبها الجائع المتهالك. وقد نهكته ثورتها التي فجرها هدم الباستيل (14 تموز 1789) وأوهته حروب المغامر العالمي نابليون.

لقد طال الأمد على الدَّين. وما طلت فرنسا عدة سنين، وحاولت التملص من دفع الحق، والتهرب بكل وسيلة!

أفتريد من الداي، حاكم الجزائر، المسئول عن شعبه، أن يتغاضى عن حقوقه المشروعة إرضاء لكرامة فرنسا الجشعة، وقنصلها المراوغ، وقاح اليد واللسان؟ ليقال عنه إنه كريم؟ أفلا يقال عنه بأنه حاكم مهمل، وراع متهاون لو سكت؟ أيريد اللص الزنيم أن يسرق في وضح النهار ثم لا يقال له بأنه مغتصب سارق ولا يطالب بردّ المسروق أو ضمان المسلوب؟ فإذا طولب بعد طول إمهال، ثار وتشدَّق ومدَّ لسانه بالسباب والشتائم، ويده بالحديد والنار ليدافع عن كرامته؟ وأي كرامة لسارق وقح؟ ...

تلك هي قصة الجزائر على حقيقتها، يسكنها شعب طيب مطمئن إلى أسلوبه في الحياة فتهاجمه فرنسا غيلة وتسلب منه أرضه وتسرق جهده وتفسد عليه عقيدته ودينه ولغته وتزيّف تاريخه وآدابه ... فإذا أبى ودافع عن حقه وكرامته ودينه فهو المجرم المتأخر، يحق أن يجلد ويساط ويحبس ويجرد من كل ما يملك ويطرد إلى الصحراء ليعيش في فلواتها -إن استطاع- عيشة الوحش السادر! لم؟ ... ليتمتع ابن فرنسا بخيرات بلاده وليعيش سكيرا داعرا عربيدا في ظل السلام! أي سلام هذا؟ السلام الذي دعا إليه المسيح -عليه السلام- أم سلام فرنسا المستحم بالدم؟

عاشت فرنسا في الجزائر مئة وثلاثين عاما، جندت -خلالها- كل قواها العسكرية وحشدت جميع إمكاناتها العلمية والمادية لتحطيم الجزائر وفرنستها، والجزائر تقاوم وتدافع وتثور حتى كانت النهاية المحتومة، نهاية الظالم العاتي المستبد! واستقلت الجزائر، وعادت إلى نفسها وعروبتها وتاريخها، أشدّ إيمانا، وأعظم نشاطا. عادت إلى تاريخها القريب لتستعيد ذكرى المناضل الأول، الأمير عبد القادر الجزائري، فتستمدّ منها حيوية وقوة وإيمانا. عادت لتذكر البطل الذي زعزع قوى فرنسا العسكرية فقهر مئة وخمسين قائدا كبيرا، وعشرة مشيرين (مارشالية) وخمسة أمراء من العائلة المالكة، وستة عشر ممن تولّجوا وزارة الحربية[1] وجيوشا لا يقل عددها عن مئتي ألف مقاتل!

1. ذكر ذلك الكونت "سفري" الفرنسي... وورد في كتاب "الأمير علي بن الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية، وسلطان الأرباض الجزائرية"، ص 33.

وهُدر ما وراء ذلك ملايين ومليارات من الفرنكات زعزعت الاقتصاد الفرنسي، وعجزت الدولة بعده عن التوازن المالي لأمد طويل...

ولقد رأيت الجزائر محطمة حزينة قبل الاستقلال، ورأيتها فرحة مستبشرة بعد الاستقلال وقارنت بين الحالين فأدركت أن هذا الشعب الحرّ لا يمكن أن يغلب، مهما تطاول به الزمن وتضافرت عليه من قوى وأن عناده وإصراره على حقه في الحياة الحرة الكريمة لا يشبهه فيها شعب من شعوب العالم، ولم استغرب ذلك! أليس القرآن الكريم في دمائهم؟ واللغة العربية تسبح في أفواههم[1] وتترنّم؟

وما عبد القادر إلا رمز هذا الإيمان وهذه اللغة، وما يدعمهما من تاريخ وأمجاد وبطولات. ولن أطيل عليك البحث فيه، فستقرأ فيما يلي من صفحات تاريخية، مشبعا إشباعا لا حدّ للمزيد عليه. سترافقه منذ طفولته حتى وفاته، وتعيش معه في حلّه وترحاله، في سلمه وحرابه، في بيته وفي مخيمه، في عزّ صولته، وكمونه في أسره، في الجزائر وفرنسا وإستنابول وبروسة ودمشق ومكة والمدينة وبغداد ومصر. ستقرأ ما قرأ، وتطّلع على ما لم تعلم، وتدرس ما كتب، وتلتذّ ما نظم وألف وراسل ... سترى أمة في رجل، وموسوعة في إهاب ... فهو أديب، شاعر، محدّث، صوفيّ، ثائر محارب، مسالم، مهادن، متسع الآفاق الذهنية والفكرية والعلمية والصوفية، متواضع في عظمته، كريم حتى في محنته... وما شئت من شيم كريمة، وخلق رفيع، وتديّن على غير تعصب واستكانة للعلماء، على علم

---

1. كتاب "الجزائر العربية"، لإحسان حقي.

غزير وتدين فهو نسيج وحده بين زعماء عصره من الثائرين، يمتاز عنهم بالكثير وإن كان يشبههم بالكثير.

والكتاب الذي بين يديك سيرة مفصلة جد التفصيل، مسهبة أوفى الإسهاب في تاريخ هذا الرجل الفذّ كتبه ابنه محمد باشا وقد رافقه منذ إعلان ثورته عام 1830 حتى يوم وفاته عام 1883. سجل فيه تاريخ حياته تسجيلا يكاد يكون يوميا، وسرد فيه رسائله ورسائل سواه ممن لهم أدنى تعلق به، فما مرت به حادثة حتى استوفاها بحثا وأشبعها نقلا. فهو -بهذا المعنى- ليس كتابا في التاريخ كما نفهمه نحن، أبناء هذا القرن من المثقفين ثقافة عصرية عالية بل كتاب في سيرة الرجل، وقصة متحدث عاد، لم يناقض حادثا مبالغا فيه أو يتعرض لقصة مستغربة بالتمحيص أو يلم الموضوع لما علميا أو ينظر إليه بمنظار موضوعي ... إلاّ عرضا وفي القليل النادر، وبصورة سطحية جدا.

وهذا لا يقدح في الكتاب، بل يزيد -في نظري- من قيمته. لأن ما فيه من بساطة وسرد يساعد المؤرخ على التقاط وجهة النظر العربية، من غير مشقة.

ولم يكن المؤلف يعرف من اللغات إلا ها ولم يدرس سوى علوم الدين ولم يطلع من العلوم العصرية على شيء. وكيف نريد من ابن القرن التاسع عشر أن يلم بعلوم القرن العشرين؛ وهو لم يعشها؟ وكيف نتطلب من رجل قضى أكثر حياته في الجهاد أن يتفرغ لما يتفرغ له الخلي المسالم المرفه؟

ولهذا لن نحاسبه على نظراته الضيقة الخاطئة في بعض المفاهيم التاريخية أو تقصيره في فهم الأسباب السياسة والاقتصادية لتجييش فرنسا الجهود العسكرية ضد الجزائر ولن نؤاخذه في تهاونه بغربلة الأنباء والأحداث، أو جهله بربط الأسباب بالنتائج؛ فذلك أمر لا يدخل في حساب كتب السّير، ولا في طريقتها.

والملاحظ أن الذي دفعه إل تأليفه التفاخر بالمجد، وتسجيل المحامد الذي اشتهرنا به -نحن العرب- منذ قديم الزمان. ألم نسمع بمن منح ما يملك في بيت شعر يخلّد كرمه؟ وهل شعرُنا، منذ الجاهلية حتى اليوم، إلا المديح والتفاخر بالحسب والنسب والشعر والكرم والرئاسة والشرف؟

ومحمد باشا لم يَشذّ على هذه القاعدة، وقد تكلف في تأليف الكتاب جهدا ومالا وسهرا وكدّا كثيرا حتى إذا تمّ وحاول أن يدفعه إلى المطبعة ويخرجه إلى النور سُرق منه عمدا، نكايةً به وتعجيزا له وحسدا فتفجر عن جهد جديد، وهمة عظيمة، أنجزت هذا الكتاب الذي بين يديك، في برهة أقلّ وزمن أسرع. ولو وقع في أيدينا الكتاب الأول لرأينا فيه خيرا كثيرا، وإن ادعى المؤلف بأن هذا الأخير لا يختلف عنه إلا بالشيء القليل ونحن نقول إن هذا (الشيء القليل) الذي لم يبال به المؤلف يهمنا كثيرا جدا -الاطلاع عليه، من أجل الحقيقة التاريخية، والنتف الصغيرة قد يختبئ في طياتها الأمر الكبير، وفن التأليف، وأسلوب النسج والديباجة والروح التي أنشئ بها الكتاب الأول... وعلى أي حال فالعاطفة المسيطرة عليه في كليهما -على التأكيد- واحدة لم تتبدل شدتها، و لم يهادن عنفها أو تخف وطأتها في شيء.

ولما هممت بتحقيق الكتاب قرأته بدقة وإمعان شديدين وبدا لي أن لو تناولته بالتعليق المفصل لتضاعف حجمه وتضخم وتعذرت مطالعته على الكثيرين ونحن إنما نستعجل نشره وعرضه بمناسبة استقلال الجزائر الذي كان الأمير قد ابتداه منذ نحو قرن وثلث ولم يتم إلا على أيدي أحفاد الشعب الجزائري الذي عاصره ليطلع أهل هذا الجيل على مقدار جهاد آبائهم وأجدادهم في سبيل الحرية وكفاحهم لدفع وجه الاستعمار البغيض وليعلموا أن الحرية التي ينعمون الآن برياها، ويتفيئون ظلالها ليست إلا ثمرة من ثمرات أولئك الآباء.

إن كثيرا من أبناء الجيل لا يعرفون عن الأمير عبد القادر شيئا ذا قيمة فهذا الكتاب يعرفهم به أحسن تعريف، وهو على طوله لا يملّ لما فيه من تنوع واستطراد. يرى فيه المؤرخ الأحداث واضحة والأديب أسلوب الكتابة بينا، والشاعر طريقة النظم السائدة في القرن الماضي والاجتماعي صور المجتمع العربي والإسلامي بخاصة، ويطلع على سيرة الأمير مفصلة تفصيلا دقيقا ويلاحظ المستوى الفكري والثقافي العربيّ كأنه يعيشه.

ولقد كان فيه بعض الصعوبة فسهلناها بتفصيل الجمل بالنقط، وتقسيمها بالفواصل والقواطع، وتجسيمها بالأهلة والخطوط المعترضة، وبنقل أوائل البحوث إلى مبدأ السطور ... وعانينا في ذلك مشقة كبيرة جدا، إذ ليس في العربية ضوابط معروفة، مصطلح عليها. بل حتى في اللغات الأجنبية، تتفاوت أقدار الكُتّاب على التبسيط والتسهيل بقدراتهم على التنقيط (Ponctuation) مع وجود ضوابط معروفة في ذلك.

والطريقة التي اتبعتها أن أقف على نهاية الجملة التامة بالنقطة. وعلى نهاية الجملة الناقصة، إذا كانت متبوعة بجملة تامة، متعلقة بها كالجملة التي تقع خبرا لمبتدأ أو لفعل ناقص، أو حرف مشبه بالفعل، أو جوابا لشرط وعلى نهاية شبه الجملة بفاصلة. وحصرت الأسماء الغريبة بحاصرتين، والجمل المعترضة المتممة للمعنى بهلالين، والمعترضة الناقصة بخطين. وبهذا يسرت على القارئ عناء متابعة المعاني المتعاظلة، ومشقة ملاحقة الفكر المتراكبة والمتداخلة. أما عنوانات الكتاب فقد تركتها كما وضعها المؤلف، لم أغيّر فيه شيئا و لم أبدل حرفا. وكذلك وقفت أمام النظم المخلّع، لم أصلحه ليبقى الكتاب صورة صحيحة صادقة لمؤلّف يعد في الحلقات الأخيرة من أنماط الأسلوب في العصور المتأخرة.

وزينت الكتاب بصور كثيرة، زيادة على ما كان فيه، حصلت على أكثرها بصعوبة. أما نماذج خطّ الأمير فقدمها لي الأمير سعيد، حفيد الأمير عبد القادر، من متحفه الخاص بجده. وحصلت على كثير من الوثائق التاريخية المتعلقة بمذبحة عام 1860 التي حمى فيها الأمير قرابة اثني عشر ألفا، في بيته وفي قلعة دمشق من الرعاع والمتهوسين. ورأيت فيها ما يبرئ ساحة المسلمين ويشير بكف صريحة إلى المجرم الحقيقي فيها، من قناصل الدول. وعزمت على نشرها؛ تعليقا على ما جاء في الكتاب (صفحة 630–صفحة 640) ثم أرجأتها؛ لتنشر في كتاب خاص بها، قريب إن شاء الله تعالى.

ولم يكن الأمير وحده، فقد وقف شيخ عرب الهنادي في صفد وطبرية وعكا والناصرة. وكذلك وقف البكوات من آل علي الصغير في بلاد بشارة، يمنعون من قيام المجازر في بلادهم وفعل ذلك كثير من أشراف دمشق ووجهائها كآل حمزة وآل الخاني، تطبيقا لأوامر الدين، بينما كان القناصل يحضّون على إثارة الفتنة ...! وإذا كانت فتنة عام الستين قد استمرت بضعة أيام ثم خمدت. فذعّار شيكاغو وجماعة كوكولوكس كلان ما زالت تعمل حتى الآن. وما زالت جرائم آل كابوني ماثلة في الأذهان حتى اليوم ...

ففتنة عام الستين ليست لطخ في تاريخ سوريا كما حاول بعض الغربيين أن يصورها، ويشوه حقائقها، بل هي لطخة عار وسمة شنار في وجه الغربيين وبريطانيا منهم وفرنسا علي التخصيص. ووسام شرف على صدر الأمير عبد القادر وشيخ عرب الهنادي، وزعماء آل علي، وآل حمزة، والخاني، ومن ماثلهم ...

وبعد فهذا الكتاب كنز من كنوز المصادر التاريخية لمن يريد أن يعرف الشيء الكثير عن البطل الخالد، الأمير عبد القادر الجزائري أو لمن يريد أن يؤلف فيه.

فليرحم الله المؤلف على مجهوده المشكور، وليغفر لنا خطأنا ونسياننا. وليحملنا بعفوه. ويجعلنا من خدمة الحقيقة المخلصين.

ممدوح حقي

مقــدمة المــؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علما وأنفذ في كل مخلوق قضاء أزليا وحكما. له الملك الذي ليس له ابتداء ولا لمدده وأمده انقطاع وانتهاء وله الخلق والأمر وبيده النفع والضرُّ. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الناهض بأعباء الرسالة ومالك أزمة المجد والجلالة قائد جيوش النبوة وعاقد لواء البسالة والفتوة، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه فيما شرعه وسنه وناضلوا من حاد عن سنته بالسيوف والأسنة وبذلوا نفيس الأنفس في محبته ومن اقتفى آثارهم في نصرة دينه من أمته إلى يوم الدين آمين.

أما بعد فيقول الفقير إلى مولاه الغنيّ، محمد بن الأمير عبد القادر الحسني، سدد الله عمله وبلغه ما رامه وأمله، بينما شمس سماء سيادتنا في أفق المغرب الأوسط طالعة وأشعة أنوارها على رياض أقطاره ساطعة وربوعنا بأهل الفضل معمورة وقصادنا بأنواع المواهب مغمورة إذ فاجأتنا طوارق الدهر وجاءتنا جنود فرانسا من البحر كالذر، فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ونبذل النفوس في حماية سكانه من كل بلية. واتصلت بيننا حروب للظهور قاصمة، ولعرى الحزم والعزم فاصمة، ثم كاثرونا

بالخيل والرجل وساورونا في الحزن والسهل. فقابلنا أعمالهم بالمثل حتى استولى على قلوب الرعية الاضطراب واستحكم الوهن فيها بتمكن الأسباب ولقي ريحنا أعصارا وأُشرب صفونا أكدارا.

وثم أمور تشيب الوليد　　　وترجع بالأشيب القهقرى

ومع ذلك؛ لم نترك المدافعة إلى انقضاء المدة واستكمال الإمارة من أيامها العدة فأحاطت بنا جيوش تعدو أو تناوش من دولتي فرانسا ومراكش ولله في خلقه علم الغيب. وليس في الغلب بعد بذل الوسع عيب، ومن شأن الدوائر أن تدور ولا بد من اعتراء الخسف للبدور.

وفي السماء نجوم لا عداد لها　　　وليس يُكْسَف إلا الشمس والقمر

ولما أراد الله تعالى أن لا نثبت في وجوههم، ولا نقوم بدفع صدماتهم وهجومهم، رأينا التسليم الأقدار أولى وأن النصر ليس إلا بيد المولى فألقينا السلاح للفرنساويين بشروط مقررة وعهود بيننا محررة، وبالقدر فارقنا البلاد وارتحلنا عن محل الطارف والتلاد، فعبثت بها أيدي النوائب ورشقتها المحن بالسهام الصوائب، وغودرت منازلها صماء عمياء، وصودرت معاقلها بداهية دهماء، وأمست من كرام أهلها خالية، وأصبحت عاطلة بعد أن كانت حالية، وامّحت رسوم ذلك القطر العزيز واندثرت، وانفصمت عقود أيامه وانتثرت ولا غرو فإن الدهر ذو غير، وكل شيء بقضاء وقدر.

هذا الذي سبق القضاء به　　　والدهر بين الناس ذو دول

فلبثنا في فرانسا خمسة أعوام، صابرين على القدر صبر الكرام، نستنجز من الحكومة سالف عهدها ونترقب منها وفاء وعدها إلى أن سلك الله بنا للنجاة منهجا وجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا ومنّ علينا بالانطلاق من ذلك الاعتقال والانتقال على مطايا الراحة، مع الصحب والآل.

لا تيأسنَّ من انفراج شديدة قد تنجلي الغمرات وهي شدائدُ

ثم خرجنا من فرانسا ممتطين غارب البحر إلى أن وصلنا إسلامبول المحمية[1] دار السعادة ومقر الخلافة الإسلامية. فمكثنا بها يبعة أيام، لا زالت[2] منهلا للخاص والعام. وتشرّف سيدي الوالد بمقابلة حضرة ساكن الجنان مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان، فخلع عليه خِلَعَ اللطف والإحسان ثم توجهنا إلى "بروسة" بقصد الإقامة. فأقمنا بها عامين وستة أشهر في عز وكرامة. وكان سبب خروجنا منها زلزلة عظيمة مست أهلها بمصائب جسيمة. فيمّمنا البلاد الشامية، ونزلنا بالديار الدمشقية. وألقينا فيها عصا الترحال وحللنا عقدة الرحال[3] فائزين بكمال التبجيل والاحترام، حائزين أعلى منزلة وأرقى مقام، ملحوظين بأنظار الدولة العلية[4]، مشمولين بصنوف مواهبها السنية، لا يتقدم

---

1. هي القسنطينطينة، وتسمى : إسلامبول، وإستامبول، وإصطمبول، واستمبول.
2. الضمير يعود لإستمامبول.
3. يقال : ألقى عصا الترحال، وحل عقدة الرحال أي بلغ مداه من السفر وأقام ليستريح نهائيا.
4. الدولة العلية : هي الدولة العثمانية واللقب حملته بعد انتصاراتها الحاسمة في أوروبا.

علينا أحد في المحافل ولا يرد وارد قبلنا للمناهل. مترلنا ملجأ للعموم ومنجأ[1] لكل مظلوم، فيه الريُّ لكل صاد[2] سواء العاكف فيه والبادي. ومع ما أنا فيه من السرور وكمال العزّ والحبور كان يغلب عليّ في أغلب الأحيان تذكُّر الأهل والأوطان، فتتحرك مني السواكن وتنبعث منها الأشواق الكوامن، لاسيما[3] إذا مررت بمنظر يروق وأومضت من ناحية المغرب بروق.

ذاك الزمان هو الزمان وغيره   لا فرق بين فنائه ووجـوده

وما عسى أن أذكر في إقليم وقع عل فضله الاتفاق وحاز قصب السبق على غيره بالاستحقاق، فهيهات أن تنقطع له منّي المدائح، ولو قطعت تغريدها الحمائم الصوادح فإن شوقي إليه شوق البلبل إلى الورد وامرئ القيس إلى الأبلق الفرد.

لا الجزع يسليني، ولا وادي الغضا   عنهـا، ولا نجـدٌ ولا الـدّهناء

لا رامــةٍ رومي، ولا حزوى، ولا   وادي النـقا، والخيفُ، والخلصاءُ

كيف لا وهي كما قيل :

بلاد بها ميطت عليّ تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها

1. منجأ : مهموزة من منجى

2. صاد : في الأصل (صادي تبعا للسجع مع (البادي).

3. في الأصل (سيما) وهو خطأ.

وعن سيد ولد عدنان : "حبُّ الوطن من الإيمان". وقالوا : يحن اللبيب إلى وطنه، كما يحنُّ النجيب[1] إلى عطنه[2]. وقيل لبعض الحكماء: بم يعرّف وفاءُ الرجل وزمام عهده؟ بحنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه.

وكانت ترد علينا بعض الوفود. فيذكّروننا بسالف العهود، ثم نتجاذب أعنّة الحديث ونأخذ في القديم منها والحديث، فتؤدينا المناسبة إلى ذكر أحوال سيدي الوالد، الصافية موارد بره، للصادر والوارد، ناصر الدين[3]، أمير الغزاة والمجاهدين.

إذا قيل سميـه أقول مكّنيا : هو الغاية القصوى، هو الآية الكبرى

فكنت أخبرهم عما وقع له من الوقائع الجسيمة والحروب الهائلة العظيمة التي عرف بين الناس قدرها واشتهر على الألسنة ذكرها.

وسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر

وكثيرا ما كنت أحدثهم عنها بما يُستغرب ويُستبدع ويحفظ في خزانة النفوس ويستودع مما يرقص الجماد منه طربا ويقضي السامع من غرائبه عجبا فيشنّفون بذلك مسامعهم ويعطّرون به محافلهم ومجامعهم، يرتاحون إليه ارتياح الكريم إلى الوفود ويتعطشون إليه تعطش الصادي إلى الورود ويودون تدوينه في كتاب ليبقى ثابتا مدى الأزمان والأحقاب، يبلغه الشاهد للغائب ويسير ذكره في المشارق والمغارب. فيتلقاه بحسن

1. النجيب من الإبل : كريمها.
2. العطن : مبرك الناقة
3. ناصر الدين : لقب حملة الأمير عبد القادر، كفاء جهاده.

القبول من كل الأدب مطمح نظره ويرويه رواية الحديث الصحيح من رام أن يقبض قبضة من أثره فيجعله لصحائف الشمائل عنوانا ويترتب له في عجائب المآثر ديوانا لأنه من أهم ما تتعلق الهمم العلية بجمعه وتأليفه وأنفس ما تتعشق النفوس الزكية حسن تدوينه وتصنيفه. فحرّضوني على القيام بهذا المندوب والتصدي لإمعان النظر فيه حسب المطلوب وقالوا : لا يخفى أن تحرير أحوال الأكابر وتسطير مزاياهم في صفحات الدفاتر لِمَنْ سنة الكرام التي مضى عليها عملهم، وطريقة أهل العرفان التي نيط بها أملهم لاسيما هذا الأمير الشهير والسيد الجليل الخطير من تحلت بثنائه العاطر ألسنة أعاظم الأكابر وتشنفت أسماع الورى في سائر الأطراف بحسن سيرته، وما حازه من بديع الأوصاف، وتمادت أخباره كافة الدول تمادي لذيذ الكرى للمُقَلِ حيث أشبه من السلف: "عمر بن عبد العزيز" في زهده ورشاده. ومن الخلف : "يوسف صلاح الدين" في حركاته وغزواته وجهاده. وحكى الشيخ الأكبر فيما يؤثر عنه ويذكر، بل الأحرى أن يقال : كان لجده الكرّار مثالا في الجمع بين الأضداد، وأحرز مناقب : العلماء والأمراء والأبطال والعبّاد. وهو الجدير بأن تُنشر أحاديثه وتحرر وتتلى آياته مدى الدهر وتكرّر، بل حري بأن ترقم بالتبر جميع أحواله وأموره وتضبط وقائع أيامه وأعوامه وشهوره فقلت : لعمري قد أصبتم فيما ذكرتم، وحق أن تجابوا إلى ما به أشرتم. ولكن أين الطرق والأسباب الموصلة لفتح الباب؟ فلم يقبلوا مني عذرا بل كرروا ذلك عليّ، المرة بعد الأخرى. وقالوا : لا يَعْزُبُ عنك شيء من ظاهر حاله وخافيه فإنك ابنه، ومحل سره، ورب البيت أدرى بما فيه فقلت : لقد حملتوني

شيئا إدّا[1]. وكلفتموني إحصاء نجوم السماء عدّا. فإن حال هذا الأمير لا تفي به عبارتي ولا تحيط بعض معانيه إشارتي.

وماذا عسى بالوصف يبلغ مقولي[2] ولو مدت الأقلام من مدد البحر

ويكفيه أن الخصم الألدَّ تكلم فيه بلسان الخل الأودّ بل صار كالمثل السائر وخلد في بطون الصحف والدفاتر حكى "مسيو اسكندر بالمار" في تاريخه عن "المارشال سوليت" الفرنساوي أنه قال لبعض أصحابه سنة ألف وثمانمائة وأربعين : لا يوجد الآن أحد في العالم يستحقٌّ أن يلقب بالكبر إلا ثلاثة أشخاص، كلهم مسلمون وهم : الأمير عبد القادر. ومحمد علي باشا. والشيخ شامل[3].

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل؛ ما شهدت به الأعداء

وحيث لم أجد بدّا عن إجابتهم ولا مندوحة عن إطاعتهم، استخرت الله تعالى، وشمرت عن ساعد الجدّ والاجتهاد لجمع ما أستعين به من المواد. فجلبت تواريخ وقائعه المدونة باللغة الإفرنجية. وتكلفت ترجمتها إلى العربية. وبعد مطالعتها وإمعان النظر فيها وجدت بعض مؤلفيها قد أصاب، والبعض أخطأ جادة الصواب، وحافظ فريق

---

1. الإد : الثقل.

2. المقول : اللسان.

3. عبد القادر : صاحب هذه السيرة. ومحمد علي : صاحب مصر. والشيخ شامل : حارب روسيا في قفقاسها نحو ثلث قرن دفاعا عن وطنه وجهادا في سبيل دينه. ستمر نبذة من ترجمته في هذا الكتاب.

على انتصارات قومه ونسي الآخر أحوال أمسه وذكر وقائع يومه. قال "لويس فاليوت" كاتب أسرار المارشال "بيجو" في تاريخه المسمى "الفرنساويون في الجزائر" كانت قواد الجيش تحرر لوزاراتها خلاف ما كانت تحرره كتاب الجرائد لإدارتها. فلذا وضعت الأخبار في ميزان واحد وجعلت الحكم العدل فيها: شهادة سيدي الوالد. فإنه رب تلك المشاهد. ولا يستوي الغائب والشاهد. وقد استخرجت من آثار مولاي خبرا يدل عليه اللفظ على المعنى ويتعطر بعبير نشره العاطر كل مغنى.

ولما رأيت أفاضل الوقت متشوقين إلى أخبار بلاد الجزائر وما فيها، متشوفين إلى من يدلهم على جليّ أحوالها وخافيها، ظهر لي أن أذكر في المقدمة جملة كافية من جغرافية المغرب، لاسيما المغرب الوسط الذي هو موطن أسلافي ومألف ألاّفي، وأبين ما اشتهر فيه من المدن والأمصار والجبال والأنهار.

ثم أذكر طرفا من أخبار المبدأ أساسا لما أثبتّه. وتمهيدا لتفصيل ما أجملته. وأذكر ما سلف في أقسامه الثلاثة من الدول ومن عمرها من الأمم الأُوَل وما جرى فيها من عظائم الحروب وتعاورها من غرائب النوائب والخطوب واختصر ذلك على وجه يستحسنه السامع. ويبتهج به المطالع.

ولما فرغت من ترتيبه وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه، حصرته في قسمين: الأول في سيرته السيفية، والثاني في سيرته العلمية، وسميته "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر" فبسطت عليه يد

من لا بارك الله بأصله ونسله وسرقته عمدا من حِرَزٍ مثله. جزاه الله على ما أبداه من حسده في نفسه وماله وولده ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد لجمع ما تفرق من المواد بعد أن فقد منها الأكثر وبقي من المسودة ما لا يذكر فجاء مطابقا للأصل وخاب من الحاسد -والمنة لله- الأملُ.

محمد بن عبد القادر

ذكر جغرافية أقسام المغرب

قد تقرر عند علماء هذا الفن أنّ حدود قارة إفريقية غربا البحر المحيط الغربي وشرقا بحر الهند وبرزخ[1] باب المندب والبحر الأحمر وبرزخ السويس وشمالا البحر الأبيض.

وأما حدود إفريقية الشمالية مع المغرب المحيط الغربي[2] وشرقا : أرض النوبة، وبلاد مصر، ومن الجنوب : صحراء "نيسر" وهي متصلة من المغرب إلى المشرق، ذات مفاوز يسلكها تجار المغرب إلى السودان الغربي. وفيها مجالات لقبائل الملثمين وعلى سمت هذه المفاوز شرقا : أرض "فازان"[3]. ويلي صحراء "نيسر" إلى جهة الشمال منها العرق الممتد من أولها إلى آخرها. وفي جهة المشرق منه بلاد السودان الشرقي ويحدها شمالا : البحر الأبيض. وفي الجزء من حدّها الغربي إلى جهة الجنوب جبل "دَرَنَ" معترضا في المغرب كله من غربيه عند البحر المحيط،

---

1. البرزخ : لغة هو الحاجز بين شيئين، واصطلاحا : البر الفاصل ما بين بحرين. وقد اصطلح الجغرافيون على تسمية الماء الفاصل بين برين : مضيقا، إن كان طبيعيا، كمضيق باب المندب وترعة : إذا كان اصطناعيا كترعة السويس.

2. البحر المحيط الأطلسي.

3. تسمى الآن: فزان. وهي ثالثة أقاليم المملكة الليبية (وهي اليوم الجماهيرية الليبية العظمى): وهي طرابلس وبرقة وفزان.

إلى انتهائه شرقا. وفي القطعة الغربية، التي بالقرب منه، وعلى البحر المحيط : "رباط ماسا". ويتصل به بلاد "سوس" وعلى سمتها شرقا، لجهة الجنوب : بلاد "درعة" ثم بلاد "سجلماسا" ثم قطعة من صحراء "نيسر"، وفي آخرها : مواطن زناتة. ثم إن جبل "درن" من جهة الغرب مطلّ على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفه. ففي الناحية الجنوبية منها : بلاد "مراكش" و"إغمات" و"تادلا". وعلى البحر المحيط منها : مدينة "الرباط" و"سلا" و"العرايش". وفي الجوف من بلاد مراكش : بلاد "فاس" و"مكناس" و"تازا" وقصر "كتامة". وقد كانت في عرف أهلها تسمى بالمغرب الأقصى. وفي سمت هذه البلاد شرقا : بلاد المغرب الأوسط. وتسمى "الواسطة" وتعرف الآن "ببلاد الجزائر" وقاعدتها قديما مدينة "تلمسان" وأما الآن فمدينة الجزائر. وفي سواحل هذه البلاد، على البحر الرومي مدينة "وهران" و"مستغانم" و"تنس" و"شرشال" و"الشويك" و"الجزائر" وفي شرقي بلاد الجزائر مدينة "بجاية" ثم "قسنطينة" في الشرق منها. وفي الجنوب منها بلد "مسيلة" ثم بلاد "الزاب" وقاعدتها قديما "بسكرة" وهي تحت جبل "أوراس" المتصل بجبل "درن" الذاهب في إفريقية الشمالية غربا وشرقا. وينقسم إلى قطعتين : جنوبية وجوفية فالقطعة الجنوبية، غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلاد "فازان". وأما القطعة الجوفية ففي غربيها : "تبسة". وعلى ساحل البحر "بونة" وهي "عنابة". وفي سمت هذه البلاد شرقا : بلاد إفريقية، في عرف مؤرخي الإسلام، فعلى الساحل مدينة "تونس". ثم "سوسة" ثم "المهدية". وفي جنوب هذه البلاد، تحت جبل "درن"، من جهة الشرق بلاد "الجريد" و"توزر" و"قفصة" و"نفراوة". وفيما بينهما وبين

السواحل مدينة "القيروان" وعلى سمت هذه البلاد كلها بلاد "طرابلس" على البحر. وبإزائها في الجنوب جبل "دمر"، ومنازل قبائل "هواره"؛ متصلة بجبل "درن". وفي مقابلة "غدامس"، في القطعة الجنوبية بلدة صغيرة تعرف "بسويقة ابن مشكور". وفي جنوبها أرض "فازان". ثم رمال وقفار وبين الجبل والبحر، في الجهة الغربية؛ بلد "أجدابية"، ثم "برقة"[1]، ثم منعطف الجبل، ثم "طلمسا"[2] وهي بلدة صغيرة على البحر.

واعلم أن المغرب في عرف قدماء الجغرافيين قطر واحد، يحده غربا البحر المحيط. ويسميه المتأخرون "الأقيانوس الأتلانتيكي". وشمالا، "البحر الرومي"، يخرج من خليج متضايق بين "طنجة" و"طريف" من بلاد الأندلس، وجنوبا جبال هائلة حاجزة بين بلاد السودان وبلاد البربر، وتعرف عند أهل البادية "بالعرق" وهو سياج على المغرب من جهة الجنوب، مبتدئا من البحر المحيط، ذاهبا إلى جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى أرض مصر، وبه ينقطع. وللمغرب أيضا سياج آخر من الجبال، مما يلي التلول، تعرف "بالأطلس" وهي تخوم تلك التلول، ممتدة من لدن البحر

---

1. برقة : تسمى الآن "المرج" ويسميها الأوروبيون "بارشة". وبرقة اسم لمنطقة متسعة جدا تبدأ من حدود مصر وتنتهي وراء أجدابية. وتقسم إلى برقة البيضاء وبرقة الحمراء ... (انظر كتابنا "ليبيا العربية").

2. طلمسا : تسمى الآن "طلميثة" وهي الآن قرية لبقايا مدينة رومانية يونانية قديمة ذات آثار وأحفار كانت تسمى "طولوميدو".

المحيط في المغرب، إلى بلاد "برقة" شرقا. وهنالك ينقطع ويسمى مبدؤها من المغرب جبال "درن". وفي غيره من المواطن؛ تسمى بأسماء متعددة عند ساكنيها. وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول، وبين "العرق" المذكور بسائط وقفار. وأما من جهة الشرق فالبحر الأحمر إلى بلد "السويس". فيدخل إقليم مصير وإقليم "برقة" في الحدّ. وعليه؛ فالمغرب جزيرة أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث.

وأما على اصطلاح المتأخرين الذين قسموا الأرض إلى قارات، إحداها قارة إفريقية، فجميعها جزيرة. وقد تم ذلك باتصال البحرين، بفتح خليج السويس "الترعة أو القناة أو القنال" وهذا آخر المغرب عندهم شرقا.

والمعول عليه في هذا الزمان، والعرف الجاري بين سكان أقسام المغرب الثلاثة لا يدخل فيه إقليم مصر، ولا برقة. وإنما يختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب. أما "المغرب الأقصى" فهو ما بين وادي "ملوية" من جهة الشرق إلى مدينة "آسفي" حاضرة البحر المحيط من "سوس" الأقصى غربا. ويحيط به البحر المحيط من غربيّه، والرومي من شماليّه. والجبال المتصاعدة المتكاثفة، مثل درن، من جهة الجنوب وجبال "تازا" من جهة الشرق. وقاعدته لهذا العهد مدينة "فاس". وأما "المغرب الأوسط" فهو ما بين وادي "ملوية" غربا إلى مدينة "بجاية" شرقا، وقاعدته "تلمسان". وأما "المغرب الأدنى" ويعرف بإفريقية فهو من "بجاية" إلى "طرابلس" شرقا. وكانت قاعدته إلى أواسط المائة الخامسة من الهجرة مدينة "القيروان". ولما تغلبت العرب على إفريقية

أحاط بها الخراب[1]، فصارت قاعدتها ودار ملكها، إلى هذا العهد: بلدة "تونس". وأما برقة، فقد انقضى أمرها، ودرست أمصارها، وغدت منازلَ للعرب، بعد أن كانت دار ملك "لوَّاتة" و"هوَّارة" وغيرهم من البربر. وكانت بها الأمصار الواسعة مثل "لبدة" و"زويلة" و"برقة" و"قصر حسّان" و"سرت" و"أجدابية". وغيرها. فعادت خالية بعد أن كانت آهلة وإلى الله ترجع الأمور[2].

واعلم أن عدد سكان المغرب بأقسامه الثلاثة؛ مجهول! لعدم اعتناء ملوكه بضبط النفوس. وقد ذكر بعض المؤرخين من أهل العصر أن المغرب يشتمل على عشرين مليونا من النفوس، وجلّ سكانه بأقسامه، لهذا العهد؛ إسلام، وقليل من الموسويين. ولم يكن للمسيحيين والموسويين فيه قديما عدد يعتبر. أما الآن فقد كثر عدد الإفرنج منهم في المغرب

---

1. المؤلف مآثر هنا –حتما– برأي المؤرخ ابن خلدون. لكن المؤرخ القديم لا يقصد بالعرب "الجنس العربي" على إطلاقه؛ بل يقصد "الأعاريب البداة" والفرق كبير جدا بين "العرب" و"الأعاريب". وإلا فكيف نوفق بين هذا الرأي وما شاده العرب من حضارات قديمة خالدة كالكلدان والفينيقيين والأوغاريتيين وما بناه المسلمون الأمويون والعباسيون والأندلسيون ... ولعل غزوات الأعاريب من بني هلال التي بدأت عام 444 هـــ وما تركت من تخريب هو الذي حفز ابن خلدون وسواه على حمل هذه الفكرة الخاطئة وإطلاقها على العرب أجمعين.
2. عادت جميع هذه المدن إلى الوجود وانتعشت بعد احتلال الطليان لليبيا، فقد صرفوا عليها المليارات من الدنانير، والجهود الخارقة فعمروها، ووصلوا بينها بطرق موصوفة بالأسفلت فانتعشت. لكنهم أسكنوها الطليان وحدهم، وطردوا العرب إلى الصحراء واستغلوها لأنفسهم من 1912-1940. وبعد استقلال ليبيا وحكم نفسها بنفسها وظهور البترول فيها عاشت. ويعمرها الآن سكان البلاد الأصليين من العرب. "انظر كتابنا : ليبيا العربية".

الأوسط بعد استيلاء الفرنسيس عليه، في مراسي المغرب الأقصى، وإفريقية. ودخله الموسويين؛ لما أخرجتهم إسبانيا والبرتغال من مملكتيهما فقصد منهم نحو مائة ألف نفس إلى المغرب الأقصى. وخمسين ألفا لبقية بلاد المغرب ولذا يوجد عددهم في المغرب الأقصى أكثر منه في الأوسط والأدنى.

ذكر حدود بلاد الجزائر ومساحتها وما اشتهر فيها من المدن والجبال والأنهار وصنوف نباتاتها وأثمارها وصنائع أهلها وما يوجد فيها من الحيوانات والمعادن

اِعلمْ أن حدود داخلية المغرب، وبسيطه لم تنضبط في القديم، ولم تثبت زمانا يعتد به لتوالي الفتن فيها، بين ملوكه. فتارة تدخل كلها تحت سلطة دولة واحدة، وتارة تنقسم إلى دوائر، وإيالات متعددة، فتتداخل مرة، وتتميز أخرى. ولم يزل الأمر على ذلك قبل الإسلام وبعده إلى أن استولى العلويون على المغرب الأقصى، واستقرت دولتهم فيه إلى هذا العهد واستولت الدولة العلية على الأوسط والأدنى. فأحدثوا حينئذ حدودا اصطلحوا عليها، واستمرت معتبرة ثابتة إلى الآن.

فأما حدود المغرب الأوسط والأدنى من جهة الغرب فمن "وادي عطية" آخر بلاد "مسيردة" الحاجز بين أرضهم وأرض بني خالد، بطن من بني "يزناسن" ثم يميل إلى جهة الشرق، على مناصب "كيس" في أطراف أرض "أنكاد" إلى آخر جبل "مديونة" قبلة "وُجْدَة" ويحدهما شرقا أرض "برقة" كما تقدم. ثم لما انفصلت مملكة الجزائر من مملكة تونس، في هذين المغربين، صار جبل "القالة" ونهر "صرّاط" (بفتح الصاد وتشديد الرّاء)

تخوما للملكتين. وبهذا الاعتبار نقص من المغرب الأوسط من جهة الغرب من تخوم "وجدة إلى وادي "ملوية" ومن "بجاية" إلى جبل "القالة" وأضيف ما نقص من الأدنى إلى ما بقي من المغرب الأوسط فصار مملكة مستقلة متميزة بحدود ثابتة معتبرة إلى هذا العهد وسميت "بالجزائر" التي هي قاعدتها ومركز حاكمها العام الذي بيده زمام أمورها. ويحدُّ هذه البلاد كلها من جهة الشمال بحر الروم، المحيط بشطوطها، من مصبّ وادي "عجرود" فيه، من وراء بلاد "مسيردة" غربا إلى "القالة" شرقا، عند انتهائه في البحر. ومن جهة الجنوب "العرق" المحيط بالتلول المتقدم ذكره، وفيما بينه وبين التلول، قصور كثيرة، ومجالات لظواعن العرب والبربر الخاضعين لأحكام الدولة، الدائنين بطاعتها، من قرب قصور "توات" غربا إلى بلاد "الجريد" شرقا. ولم تزل هذه مقررة على هذا الوجه إلى الآن.

وأما مساحتها، فقد ذكر بعض المؤرخين، ممن ينتحل علم الجغرافية أن وضع بلاد الجزائر محصور بين ثمان درجات وثلاثين دقيقة طولا شرقيا، ودرجة واحدة وثلاثين دقيقة طولا غربيا من معدل النهار على اصطلاحهم. وقال بعض مؤرخي الفرنساويين إن وضعها محصور بين ثلاثة ونصف وسبعة وثلاثين للطول، وستة للعرض الشرقي، وأربعة للعرض الغربي، قياسا على دائرة نصف النهار في باريس. ثم قال فمن ثمّ تكون بلاد الجزائر مشتملة على خمس درجات من الشمال إلى الجنوب، وعلى عشر درجات من الشرق إلى الغرب. وقال غيره من الإفرنج طولها من الغرب إلى الشرق ألفان وستمائة ميل وعرضها في بعض الأماكن خمسمائة وخمسون ميلا،

وفي بعضها مائة وأربعون ميلا. وذكر بعضهم أن سطح أرضها مقدار تسعة وثلاثين مليونا وتسعين ألف هكتار، كل هكتار مائة متر مربع. وقال آخر : ثلاثمائة ألف وتسعون ألف كيلومتر، كل كيلومتر ألف ذراع ... وكل ما ذكر، على سبيل التقريب. وإلاّ فبلاد الجزائر واسعة وأقطارها شاسعة!

ومن مدنها الشهيرة[1] الجزائر، وهي مدينة على ساحل البحر اختطها "بولوغين" (بضم الباء الموحدة واللام وتشديد الكاف المكسورة وسكون الياء المثناة التحتية بعدها نون) ابن "زيري الصنهاجي" (بكسر الياء المثناة التحتية وكسر الراء بعدها ياء تحتية) وكان يتردد إليها من منازله "بالمسيلة" ونزلها بنوه من بعده. ثم اختصت ببني "مزغنّة" بطن من "صنهاجة" وبهم اشتهرت. وفي القاموس : جزائر بني "مزغنّة" بلدة بالغرب. ثم أطلق اسم الجزائر على سائر بلاد المغرب الأوسط. ولما عقد اسماعيل المنصور العبيدي "لزيزي بن مناد" الصنهاجي، سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، على بلاد "تيهرت" وبلاد "شلف"، عين ولده "بولوغين" لولاية الجزائر وغيرها؛ فاستوطنها، واهتم بشأنها، واجتهد في عمرانها، فأخذت في الحضارة والتمدن حتى اشتهرت، وطار ذكرها في الآفاق، وتناغى الملوك بالاستيلاء عليها، جيلا بعد جيل، إلى أن صارت قاعدة ملك البلاد، وتنوسي أمر "تلمسان" وبنو "زيان" واستولى عليها الموحدون سنة ثمانين وأبعمائة. وفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، دخلت في حوزة بني حفص، ملوك إفريقية، ثم صارت لبني "زيان" ولم تزل وطنا لبني "مزغنّة" خلفا عن سلف، إلى أن استولى عليها الإسبان سنة

1. الصواب : المشهورة.

ست عشرة وتسعمائة. واشتدت وطأتهم على المسلمين. وكان "عروج" المعروف "ببارب روس"[1] الأول قد استفحل أمره، وأخذ "جيجل" إحدى مراسي تونس من يد أهل "جينوا" من "إيطاليا". فبعث إليه سالم بن تومي الصنهاجي، أمير بني مزغنّة، صريخة في كشف بلواه، فلباه ودخل الجزائر من جهة البحر، وانحجر الإسبان في حصنهم المعروف "ببرج الفنار" وضيق عليهم، ثم اقتحم الحصن بجيوشه، واستلحمهم عن آخرهم. وتم استيلاؤه على الجزائر. وقام فيها يختبر أحوالها ويتقرّى مسالكها. وظهر منه "لسالم بن تومي" وقومه ما لم يكن في حسابهم. فلحقهم الندم، وأظلم الجو بينهم وبين "عروج" فقبض على سالم وقتله. وتمّ له الأمر. وكان هذا أول قدم للدولة العلية في المغرب الأوسط، وتونس. وسيأتي بيان ذلك -إن شاء الله تعالى- ولسيدي الجدّ لوالدتي، سيدي علي أبي طالب -رحمه الله- في وصفها لما مر عليها، قاصدا الحجاز قوله :

عليك الجزائر عج نحوها	وداو بطيب شذاها العلل
وشاهد قصورا شيدت بها	وأمكنةً نزهة للمقل
فكم من علوم منوعة	يضع نشرها بالدروس فسل
وكم مشكلات أزال الغِطا	فحول بهم سار ضرب المثل

1. بارب روس : أي صاحب اللحية الشقراء. ويسميه المعاصرون "بارباروس" وهو أفاق تركي استطاع بشجاعته وبطولته وجرأته في القرصنة أن يستولي على الجزائر ويؤسس فيها دولة ألحقت بالدولة العثمانية وأصبح بارباروس هذا وأخوه من بعده أميرال البحر للأسطول التركي في عز الدولة العثمانية وعنفوان مجدها.

وكم فاضل قد حوته وكم ... همام يصول وفرد وصل

وكم بددوا شمل جمع كفو ... ربيض المواضي وسمر الأسل

وجيش كميٍّ وصخب الجيا ... دوحزم وعزم يقد القلل

أضاقوا البلاد بجلب العدا ... أُسارى وغصٌ الفضا والجبل

وكم من حصون أعدت بها ... لدفع عدوٍّ طغى فانجدل

فسر قاصدا بدة قد ثوى ... بها الفضل حقا ونيل الأمل

تفاخر مصر وفاسها بها ... وتونس ذات البها والحلل

فيا رب صنها من المزعجات ... ومن كل شر وضر نزل

وأبقِ علوما، وتقوى بها ... لجيل فجيل إلى المنتقل

بجاه النبي الرسول إلى ... الخلائق حتّى الهداة الأول

عليه صلاة من الله ما ... تألق برق و ودق هطل

ومنها "تلمسان" وهي مدينة قديمة، اختطها ملوك بني "يفزن" من "زناتة" واتخذوها دار ملكهم، عندما عمروا المغرب الأوسط، واستولوا عليه. ثم جاء الإسلام، وهي دار ملكهم. وهم الذين سموها "تلمسان" وهي بلغتهم مركبة من كلمتين "تلم" و"سان" ومعناهما "تجمع اثنين" أي البر والبحر. ولم تزل على ما كانت عليه، إلى أن نازلها، عبد المؤمن بن علي، أمير الموحدين سنة أربعين وستمائة، فخرّ بها بعد أن قتل جيشه عامة أهلها. ثم ندب الناس إلى عمرانها، وإصلاح ما انثلم من أسوارها. ثم جعل ولايتها لأولاده، فصرفوا همتهم في إعمارها، واتخذوا الصروح والقصور بها، واحتفلوا في مقاصد الملك

ولوازمه، وكان من أشدهم اهتماما بذلك، وأوسعهم فيه نظرا أبو عمران بن يوسف بن عبد المؤمن. وامتدت أيام ولايته فيها. فشيد بناءها ووسع خطتها، ثم وليها من بعده ابن عمه أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن ولم يزل عمرانها يتزايد، وخطتها تتسع، إلى أن نزلها آل "زيان" واتخذوها دارا لملكهم، فاختطوا بها الربوع البديعة، والقصور المشيدة الرفيعة، وغرسوا فيها الرياض المونقة، وأجروا خلالها الأنهار المتدفقة. فأصبحت من أعظم أمصار المغرب الأوسط، ورحلت إليها الناس من القاصية، ونفقت فيها أسواق العلوم والبضائع، ونشأ بها العلماء العظام، واشتهر فيها الأفاضل الأعلام.. وضاهت أمصار الدول الإسلامية، والقواعد الملكية، ومدحها الشعراء وأفاضل العلماء. ويغني عن الإسهاب في وصفها، ما ذكره المقري في "نفح الطيب" ولله درّ عالمها الجليل، الإمام "ابن مرزوق" حيث يقول فيها :

بلد الجداول ما أمر نواها   كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلي! كن عاذري في حبّها   يكفيك منها ماؤها وهواها

ومرّ "ابن مرزوق" على مصر، في سفره إلى الحج، فسأله بعض من اجتمع عليه من علمائها عن بلدته، قال له : "تلمسان". فقال : "عجبت"! قال "ابن مرزوق" : والله ما أكلته قط. فتعجب العالم من علمه، وذكائه، وسرعة جوابه لأن "تلمسان" مشهورة بكثرة الزيتون وجودته، وهو يورث البلادة!

ومن مدنها القديمة "وهران" (بفتح الواو وسكون الهاء وراء مهملة بعدها ألف ونون) وهي على ساحل البحر اختطها ملوك "مغراوة" قبل الإسلام، وامتد بها العمران، ولم تزل على ذلك إلى أن ظهرت الشيعة،

وملك عبد الله الملقب بالمهدي مدينة "تاهرت" وولى عليها "دوّاس بن صولان" الكتامي، فأوعز إلى البربر بحصارها، فداخلوا أهلها من "بني مسكين" في ذلك، فأجابوهم، ونازلوها، وفر صاحبها من قبل بني أمية، ملوك الأندلس "محمد بن عون" إلى "دواس" صاحب "تاهرت" فدخل البربر وهران، واستباحوها. ثم أضرموها نارا. وفي السنة السابعة والتسعين، أعاد بناءها دواس، أحسن ما كان. وأعاد إليها "محمد بن عون" وكان أُمراء "تلمسان" لذلك العهد : بنو أحمد بن محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل الإدريسي -رضي الله عنه- وانتدب الناس إلى سكنى وهران، فاتسعت خطتها، وامتدّ عمرانها، وصارت دار علم وتجارة، ونشأ فيها العلماء والأدباء والتجار، وقصدها الناس من الجهات الشاسعة وفي القرن الرابع بنى جامعها الكبير "أبو بولوغين بن زيري" من ملوك "صنهاجة ولم تزل على ذلك إلى أن استولى عليها الإسبان، سنة خمس عشرة وتسعمائة. وانتزعوها من يد "قلموس" آخر "بني زيان". وسيأتي بيان ذلك في محله -إن شاء الله-.

ومنها مدينة "مستغانم" وهي بلدة عظيمة على البحر، بينها وبين "وهران" يوم للمجدِّ.

ومنها "لمدية" (بفتح اللام وسكن الميم) وتعرف الآن "بالمدية" بزيادة همزة الوصل وسكون اللام، أصلها لقبيلة من "صنهاجة" "بلمدية". اختطها "أبو بولوغين بن زيري" في القرن الرابع من الهجرة وهي مدينة عظيمة مشهورة.

ومنها "بجاية" وهي لبني حماد، أصحاب القلعة المعروفة بهم، في جبل "كتامة" وهم من "صنهاجة". اختطها : "الناصر بن علناس بن حماد"

سنة إحدى وستين وأربعمائة" وسماها الناصرية. و لم تشتهر بين الناس إلا باسم "بجاية". وبعد أن أتم عمارها، واحتفل في لوازم الملك فيها؛ انتقل إليها من القلعة، دار ملك أسلافه، وسكنها ونقل الناس إليها وبني بها "قصر اللؤلؤة". ذكر المؤرخون أنه كان من أعجب قصور الدنيا. وفي أيامه استفحل ملك "بني حماد" وتفوقوا على ملك "بني باديس" إخوالهم، بالمهدية. فبنى المباني الوسيمة، وشيد المدائن العظيمة. ثم توفي سنة ثلاث وستين وأربع مائة. وكانت ولايته في سنة أربع وخمسين وأربع مائة. وتعرف قلعتهم لهذا العهد بقلعة بني عباس.

ومنها "قُسَنْطِينة" (بضم القاف وفتح السين وسكون النون وكسر الطاء بعدها ياء ساكنة ونون مفتوحة وآخرها تاء التأنيث). أصلها لقبائل "كتامة" وقد دخلها الفينيقيون ملوك من الشام من "كولونية" لما خرجوا إلى إفريقية من "صور" سنة ثمانمائة وست وثمانين قبل المسيح -عليه السلام- واسمها في القديم "سيرتا"[1] وكانت عاصمة "أدربال" النوميدي، سنة أربعمائة وثمان وعشرين بعد المسيح -عليه السلام- واستولى عليها وعلى تلك النواحي "الوندال" من إسبانيا. و لم يزل ملكهم فيها إلى أن استولى عليها المسلمون.

ومنها "شرشال" وهي على ساحل البحر، بناها "جوبا" الروماني[2]

1. وقد يسميها بعضهم "قرطة" وبخاصة المؤرخون الجزائريون المحدثون.

2. ليس يوبا رومانيا -كما ذكر في المتن- بل هو روماني النزعة فقط. إنه بربري من سلالة ملوك معروفين. هو يوبا الثاني بن يوبا الأول الذي انتحر لخذلانه. وقد حمل الرومان الابن إلى روما سنة 30 ق. م وزوجه أوكتافيوس كليوباطرة سليني ابنة انطونيوس وولاه مصر ثم نقله واليا على نوميدية عام 25 ق م ثم واليا على موريتانية. وكانت له شخصية السياسي اللبق الحازم.

وسماها "سيزارة" قيصرية). وكانت عاصمته. وبنى بها القصور الجميلة. وآثارها تدل على أنها كانت مدينة عظيمة الشأن.

ومنها "مليانة" اختطها أبو بولوغين بن زيري، في القرن الرابع من الهجرة. وكانت ملوك "مغراوة" من بطون "زناتة" وبنو منديل منهم، من الطبقة الثانية، هم الذين اختطوا قرية "مازونة". وكانت مراسي تلك الناحية، أعني "شرشال وبرشك وتنس" تابعة لهم بعد أن كانت للملوك "صنهاجة". وكانت دار ملكهم مدينة "أشير" في سفح جبل "تيطري" المشهور، وهي قاعدة بلاد "شلف" اختطها "زيري بن مناد" من الطبقة الأولى من البربر، في حدود الأربعين وثلاثمائة، بأمر المنصور إسماعيل العبيدي. واتسعت بعد ذلك خطتها، وتتابع عمرانها، ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية. ثم خربت ودرست، ولم يبق لهذا العهد إلاّ طلول ديارها، ورسوم آثارها. والبقاء لله تعالى.

ومنها "تاهرت" وهي في سفح جبل "كزول" على وادي "مينا" اختطها "عبد الرحمن بن رستم" الفارسي الإباضي سنة أربع وأربعين ومائة، وأصله من ولد "رستم" أمير الفرس بالقادسية. وكان من مسلمة الفتح، قدم من طلائع المسلمين ودان بدين الخارجية والإباضية[1] منهم. ثم لما بلغ المنصور العباسي خبر فتنة البربر، واضطراب الخوارج منهم بإفريقية والمغرب، سرح محمد بن الأشعث الخزاعي في العساكر إلى إفريقية.

---

1. ليست الخارجية ولا الإباضية دينا، بل هي مذهب من مذاهب الإسلام، انشقوا عن علي ومعاوية يوم وقعة صفين، وكثرت فرقهم بعد ذلك وقاتلوا في سبيل فكرة (الحكم لله) قتالا عنيفا أفناهم. لقد كان أكثرهم بداة، فهموا الإسلام فهما سطحيا بدون عمق، وعنيفا بلا هوادة. ما زالت بقاياهم في عمان وليبيا وتونس. ويسمون أنفسهم الآن أصحاب المذهب الخامس. وهم مشهورون بالتقى والصلاح والكرم والشجاعة.

فقدمها سنة أربع وأربعين ومائة. وأثخن في الخوارج وقتل رئيسهم أبا الخطاب وطار الخبرُ إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان إمارته في القيروان، فاحتمل أهله، ولحق بإباضية المغرب الأوسط. ونزل على "لماية" من بطون البربر البتر، لحلف قديم بينه وبينهم. فبايعوه على الخلافة، وشرعوا في بناء "تاهرت" فأسسها عبد الرحمن المذكور، وتمدّنت، واتسعت خطتها، إلى أن هلك، وولي ابنه عبد الوهاب من بعده. ولم يزل الملك في بني رستم بتاهرت إلى أن استولى عبد الله الشيعي على إفريقية والمغرب، سنة ست وسبعين ومائتين، فغلبهم عليها. وتتابعت عليها ولاة الشيعة من بعدهم. ولم تزل آهلة معمورة بقبيلة "لماية" إلى أن غلبهم عليها "ابن غانية، اللمتوني المرابطي" وخربها في آخر سنة عشرين وستمائة. وعفا رسمها وانقرض أهلها وبقيت فرق منها متشتتين في القبائل ومنهم "جربة" وسميت بهم الجزيرة المشهورة تجاه ساحل "قابس" من أعمال تونس. ولم يزالوا على الخارجية لهذا العهد. ولم تزل "تاهرت" على خرابها إلى أن بنى الفرنسيس محلها أو قريبا منها بلدة سموها "تيارت".

ومنها "معسكر" أصلها لبني زيان ملوك تلمسان. اتخذوها لإقامة عسكرهم في تخوم بلادهم لوقايتها من أجلاب بني "توجين" و"مغراوة" أعدائهم خلفا عن سلف. وكان بناؤها من أخصاص إلى أن استولت الدولة العليةُ على مدينة الجزائر وتقدم حكامها في داخلية البلاد، غربا وشرقا، حتى وصلوا إلى هذه البلدة الإخصاصية. وأعجبهم محلها فشرعوا في بنائها بالحجارة ووسعوا خطتها، وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر. وأطلقوا عليها اسمها القديم الذي كانت تعرف به من قبلهم، وجعلوها مركزا لحاكم تلك النواحي. وكانوا

يواصلون الغارات منها على سائر الجهات ويفتحون البلاد. إلى أن وصلوا إلى بسيط "أنكاد" قرب مدينة "وجدة" ووضعوا الحدود هناك، بينهم وبين ملوك المغرب الأقصى، كما تقدم. وأعظمهم اهتماما بعمران مدينة معسكر "الباي، محمد بن عثمان، الكردي، الأيوبي" وكانت ولايته على إيالتها عام ثلاث وتسعين ومائة وألف. فبنى فيها من المساجد، والحمامات، والآثار العظيمة، وأجرى إليها المياه، وأدار عليها السور المشهور بالإتقان والإحكام. وقد خرب هذا السور الفرانسيس. وفي أيام الباي المذكور، اشتهرت هذه المدينة، وارتحل إليها التجار والعلماء. ونشأ بها طائفة من الأفاضل. ومن أشهر علمائها من أسلافنا: الجد الرابع سيدي السيد أحمد المختار، وابن ابنه الجدّ الثاني : سيدي السيد مصطفى. ومن علمائها: السيد محمد بن عبد الله الجلالي. والسيد طاهر بن حوّا الكبير، وولده السيد محمد، والعلامة الشيخ المشرفي وغيرهم. وقد اتخذ سيدي الوالد هذه المدينة أولا دار إمارته.

ثم انتقل إلى "مليانة" ثم اختط "تاكدمت" وأصلها قرية لبني "توجين" قريبة من "تاهرت" قد خربت فبنى فيها دورا، ومعامل للمسكوكات والسلاح، وحشد الناس إلى عمرانها. ولم يلتفت إلى تشييد القصور، وتوسيع المنازل والدور، لصرفه الهمة إلى المدافعة عن وطنه وملته، وتقويم الزائغين من رعيته، واصطناع الأبطال، واصطفاء الرجال، واتخاذ معامل السلاح، ولوازم القراع والكفاح، لا لذة له إلا في التحام الكتائب، واقتحام الملاحم بالقواضب.

ومنها : "بونة" على ساحل البحر. وتعرف لهذا العهد "بعنابة" لكثرة شجر العناب فيها. وهي مدينة صغيرة مما اختطه البربر من المدن. وكانت قديما من أعمال إفريقية. وفي أيام "خير الدين، بارب روس" ضُمَّت إلى أعمال الجزائر. ولم تزل تابعة لقسنطينة، من ابتداء دخول الدولة العلية إلى هذا العهد.

ومنها : "بسكرة" وتعرف "ببسكرة النخيل" فيها. و"تبسة" و"المسيلة" بناها "المهدي بن تومرت" وسماها "بالمحمدية" ولم تزل معمورة إلى الآن غير أنها عارية عن أحوال الحضارة والتمدن، وكلها داخلة في حكم قسنطينة. وقد أحدث الفرانسيس في داخلية البلاد وأطرافها وسواحلها مدنا وقرى كثيرة.

وأما جبالها، ففي الخط الجنوبي منها، مما يلي الصحراء، سلسلة تعرف لهذا العهد "بالأطلس" وهي آخذة في طول البلاد، من المغرب إلى المشرق، وابتداؤها من آخر بلاد سوس الأقصى عند البحر المحيط. فانقسمت بها البلاد إلى منطقتين : شمالية، وتسمى "التّل" وجنوبية، وتسمى "الصحراء" وزاد بعض الجغرافيين ثالثة سماها : "المنطقة البحرية" يعني السواحل. وعلى خطّها جبال كثيرة متكاثفة، لما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها. وفي وسط التل جبال كثيرة يطول ذكرها أشهرها : جبل بني "سنوس" غربي تلمسان لجهة الجنوب منها، وجبلا "زيدون" و"تاساله" في وطن بني عامر. وجبل "تنيرد" مما يلي الصحراء وجبل "أكهر" شرقي وهران، وجبل "كرسوط" غربي "غريس" وجبل "أوسيلاس" فوق مدينة "أفكان" شمالي

"غريس" وهي خراب الآن، وجبل "المناور" في شرقيه. و"نسمط" ولأسلافنا فيه مزارع كثيرة وفي الجهة القبلية من البلاد جبل "كزول" وجبل "وانشريس". وجبال الجهة الشرقية منها : جبل "العطاف" وجبل "مليانة" وجبل "تيطري" وجبال "زواوة"، وأعلاه جبل "جرجره" وهذه الجبال تتصل عند انتهائها شرقا، وتصير سلسلة، فتمر مشرّقة على سيف البحر وفي سواحلها، مراسي : "دلس" و"جيجل" و"القل". وجبل "يشاوه" شرقي "سكيكدة" وتعرف عند الإفرنج "بفليبفيل". ثم جبل "أودغ" وهو شامخ يطل من جهة الغرب على "عنابة"، وجبل "بني صالح". و في الجنوب من هذه الجبال جبل "أوراس". وكل هذه الجبال منبتة، تحتوي على أحراش من الأشجار، مختلفة الأنواع والأجناس.

وأما أنهارها وجداولها فكثيرة لا يأتي عليها الحصر. ومن أشهرها وأكبرها في الجهة الغربية : نهر "تافنا" يمر في شمال بلاد "الغسل". وفيما بين "ترارة" و"ولهاصة"، ويصب في البحر الرومي في ساحله، ونهر "المقطع" ونهر "سيك" في بلاد الغرابة، ويصب قرب قرية "بطيوة". ونهر "مكرة" وعليه مدينة "بلعباس" التي أحدثها الفرنسيس، ونهر "وادي الحمام" وعليه بلدتنا التي اختطها أسلافنا و لم تزل معمورة إلى أن أضرمها الفرنسيس نارا، وخربوا رسومها. وفي الجهة الشرقية من البلاد "السيبوس" ينتهي إلى البحر الرومي، قرب "عنابة". ونهر "بني ملكي" ومصبهما في البحر أيضا، قرب "سكيكدة". ونهر "بوبرك". ونهر "الهرش" ونهر "تطرغان" ونهر "شلف" وهو نهر كبير يمر في معظم أرض المغرب الأوسط، منبعه من بلاد بني راشد، في جنوبي وادي

"مزاب" من الصحراء ويدخل إلى "الممتل" ثم يمر مغرّبا، ويجتمع فيه أودية كثيرة : كوادي "مينة" ووادي "أرهيو" ووادي "يلّل" (بتشديد اللام) إلى أن ينصب في البحر بين "كلمة" و "مستغانم".

وأما بحيراتها فأشهرها بحيرة "الحوت" في ولاية قسنطينة وبحيرة "الوَطا" في ولاية الجزائر وبحيرة "السبخة" في ولاية "وهران" ينعقد ماؤها ملحا وأغلبه يستهلك بتلك الولاية منها. وأشهر بحيرات الصحراء بحيرة "زاعق" في أرض أولاد نايل وبحيرة "شوط". وبحيرة "شكا".

وأمّا أشجارها وأنواع فواكهها وحبوبها ونباتاتها فكثيرة جدا، وبالجملة؛ فبلاد الجزائر كريمة البقعة، طيّبة التربة، مخصبة الجبال والبسائط، منبجسة العيون والأنهار، متّصلة مادّة الخيرات، وفيها من أنواع الفواكه: البرتقال، والتفاح، واللوز، والجوز، والموز، والعنب، والمشمش، والأنجاص[1]، والليمون بأنواعه، والزنبوع (وهو الفرسكين) والأترجّ والفستق، والزيتون، والعنّاب، والخرنوب، والبلوط الحلو المعروف بأبي فروة[2] والصنوبر البريّ إلا أنه صغير أسود، يعرف في بلاد المغرب "بالزّنين" (بتفخيم الزاي وتشديدها) والمزاح، وهو المشملة، والتوت المعروف بالشامي، وقصب السكر، واللنج، وحبُّ الملوك وهو الكرز، ويخرج في جبل هوّارة المعروف بجبل "بني شقران"، والنين الشقراني، وقلّ أن يوجد له نظير، يجلب منه كثير إلى أقطار المغرب، ونوع منه يسمى "الباكور" ينضج في آخر الربيع. وفيها شجر البطم،

1. هو الإجاص، أو الكمثري.

2. يعرف الآن بالكستنا.

وهو شجر ضخم كبير، وصمغه كحصى اللبان، رائحة وطعما. وفيها الشجر الذي يستعمل منه الفلين، وشجر "الزور" وصمغه يشبه المصطكى لونا وطعما وريحا. ويترل المنُّ من السماء على شجر البلوط، فيجمعه الناس بعد انجماده، ويصبغون به، فيخرج منه اللون الأحمر الثابتُ الذي لا تفوقه حمرة، ولا يؤثر فيه ما يؤثر في غيره من أدوات الصبغ ويسمونه "القرمز" ويعرف في بلاد المشرق "بالدودة" يجلبه إليها التجار من بلاد المغرب والأندلس. وفي صحرائها أنواع أثمار النخل، فمنها "الحر" الذي لا يوجد لثمره نظيره إلاّ في بلاد الجريد من بلاد تونس، وذلك لقوّة حلاوته، وحسن لونه وضخامته. ومنها ما يقال له "تينهود" ولعزته لا يُجلب إلاّ لبلاد فاس وبلاد المغرب الأوسط. أخبرني والدي أنه لم ير مثله في الحجاز ولا في العراق، و لم يذق لذّة فاكهة تشبهه طُعما ونكهة، منذ فارق الوطن.

ومن زروعها: الحنطة والشعير والحمص والعدس والفول والأرز والذرة والدّخن وأنواع البقول، والنباتات ذات الخواص لكثير من الأمراض. وعلى الإجمال فمحاسنها لا تستوفى بعبارة. فما راء كمن سمعا.

وأما معادنا؛ فالذهب والفضة والماس[1] والحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والخيلدون (وهو نوع من العقيق الجيد) وحجر البلور، هذا ما اكتشفه أصحاب الصنائع والاستخراجات من الإفرنج.

وأما صنعائها، فأجود ما يتنافس فيه أهلها ويفتخرون به : صناعة السلاح بأنواعه، على الشكل القديم. ولهم اعتناء كبير باستخراج جوهر الحديد والفولاذ. ومن نفيس مصنوعاهم نسيج أقمشة الحرير،

---

1. في الأصل : الألماس وهو خطأ.

ومنسوجات الصوف: كالبرانس والأكسية، وغيرها من أنواع الملبوسات والبسط والسجاد وغيرها من المفروشات. ويساعدهم على ذلك نعومة الصوف ولطافته. ولهم براعة في طرز المناطق والسروج المذهبة والمفضضة على وجه لا يهتدي إليه غيرهم، وكذلك في صناعة الخزف الملون بأنواع الدهان، وفي صناعة السفن الصغيرة التي يستعملونها للتجارة والصيد والغزو، وأخشابها من أحراش بلادهم. ودباغة الجلد، وقد برع أهل "المسيلة" من أعمال "الزاب" في إتقان صنعة الدباغة على وجه أتعب غيرهم تقليده في حسن نعومة الجلد، وجودة إتقانه. وبالجملة فمصنوعات بلاد الجزائر ومنسوجاتها بلغت في الحسن والإحكام ما يبهر الرائي، ويستحسنه السامع. وناهيك بها أن تجارتها منحصرة في نتائج أراضيها وصنائعها. فلا يُحتاج إلى جلب البضائع من الخارج إلاّ ما قل منها، وربما يستغني عنه. وفيها من جياد الخيل ما يروق منظرا، ويبهر خصالا، ولكثير من أهل البادية معرفة تامة بشياتها وعيوبها وأمراضها وعلاجاتها. ويوجد عندهم من هذا العلم ما لا يوجد عند أحذق البياطرة في الحاضرة. وفيها البغال الفارهة. وأغلب مشايخ البلاد وعلمائها وأهل وظائفها الدينية يركبونها دون الخيل لسرعة مشيها، ولين ظهورها، وفيها أنواع الأنعام والهُجُن المشهورة بسرعة السير والقوة وفيها من صنوف الصيد الغزال والأرنب والقنينة (وهو نوع أصغر من الأرنب). وفي صحرائها: النعام والحمار[1] والبقر[2]. وفيها من صنوف

1. هو حمار الوحش، ويسمى كذلك حمار الزرد.
2. هو البقر الوحشي أو المها.

الحيوان المفترس : الأسد والنمر والفهد والخنزير والذئب والضبع. وفيها من الطيور الجوارح وغيرها ما يطول شرحه. وأهل الصحراء ومن قاربهم يعتنون كثيرا باقتناص الجوارح، وتعليمها، واستعمالها. وأما اعتدال هوائها، وحسن مزاجها فقد ذكر علماء الجغرافية قديما وحديثا، أن هذه البلاد معتدلة الهواء، لا يزيد حرّها ولا بردها زيادة مضرة، وفصولها في جميع السنين تأتي على قدر من الاعتدال، ووسطه من الحال. وعلى حسب اعتدالها اعتدلت أمزجة أهلها. وقلت أمراضهم وداءاتهم. ولذا لم يعتنوا بتحصيل علم الطب، ولا بأهله. وقصارى أمرهم فيما يعرض لهم من الأمراض أنهم يتطيبون بأدوية يستعملها -غالبا- عجائزهم، من الحشائش وغيرها.

ويسكن هذه البلاد قبائل كثيرة. وشعوب وافرة من العرب والبربر. ولاختلاطهم في الصهر والسكن عسر تمييزهم. ويوجد بينهم في المدن وبعض القرى : أتراك وأولاد المماليك من بنات الوطن ويسمونهم "كور أوغلان" والسبب في ذلك أن السلطان يقول لأهل كلّ "أوجاق"[1] من العسكر "قوللرم" يعني "مماليكي". فحرفها أهل الجزائر وقالوا : "كور أوغلان"[2].

1. كلمة "أوجاق" تركية : معناها الموقد. ويقصد بها في الاصطلاح المتعارف عليه لدى الجيوش التركية العثمانية "الكتيبة" أو "الرهط" لتجمع أفراده حول نار موقدهم للاستدفاء والطبخ. وهو من باب المجاز المرسل في تسمية المكين بالمكان.

2. ويسمونهم في جميع الشمال الإفريقي اليوم : "الكراغلة" والنسبة إليها : "كرغلي" وهم أولاد الضباط والجنود الترك بزواجهم مع بنات البلاد. ولقد أصبح لهم في ليبيا اتحاد قبلي. يطلق عليهم اسم قبيلة (الكراغلة) فهم -بهذا المعنى- من نسب غير صافي العروبة.

ذكر ابتداء عمران المغرب
وحوادث دول الأشراف والعرب والبربر فيه

اعلم أن هذا الإقليم، منذ دخل في حيّز العمران مأوى الفتن وعشّ الأهوال والمحن، ومنتزى الملوك والثوار، ومطمح نظر الكبار منهم والصغار. فما هدأت لأهله روعة، ولا طابت لهم فيه هجعة، ولا خيّم بساحته أمن، ولا فارقه الروّع والوهن، ولا خلا منه زمان من قراع الكتائب، ومفاجأة المصائب والنوائب. ومع هذا، ترى مساجده ومدارسه بالعباد والعلماء عامرة، ومجالسه بالأذكار وأنواع العلوم زاهرة. ذلك تقدير العزيز العليم وتدبير العليّ العظيم. وقد اختلفت أقوال المؤرخين، من الإسلام وغيرهم، في أول من سكن المغرب، وعمره من هذا النوع البشري، لكني اقتصرت على ما نقله العلامة "ابن خلدون" الحضرمي في تاريخه وذو الوزارتين "ابن الخطيب" في شرح منظومته المسماة "رقم الحلل في نظم الدول" لتقدمها في مضمار هذا الفن، وإحرازهما قصب السبق فيه، وسلوكهما مسلك التحقيق في النقل ... وملخصه : أن الله سبحانه وتعالى، لما أهبط آدم إلى الأرض عمرها به وبنسله. فهو الأول للخليقة على الإطلاق. وانبثّ بنوه في نواحي الأرض وتناسلوا فيها جيلا بعد جيل. إلى زمن نوح (عليه السلام). وكانت ولادته سنة اثنين وأربعين وستمائة وألف من هبوط آدم. وكان في تلك الأجيال ملوك ودول كثيرة،وملل ونحل متعددة، وكان فيهم أنبياء ورسل، آخرهم نوح (عليه السلام) أرسله الله تعالى إلى قومه، وكانوا

عبدة أوثان فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى عبادة الله، كما أخبرنا الله تعالى. ولما أعياه تعنّتهم وتماديهم على الكفر، أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. فقال : ربٌ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا. فاستجاب الله دعاءه لما سبق في علمه أنه ليس فيهم ولا في أولادهم من يؤمن. فأرسل عليهم الطوفان فأخذهم. وذهب بعمران الأرض أجمع بحيث لم ينجُ من بني آدم، ومن كافة أنواع المخلوقات إلاّ من كان في السفينة مع نوح عليه السلام. وكان ذلك بعد مضي ألفين ومائتين واثنين وأربعين سنة للهبوط باتفاق المفسرين والمؤرخين. ثم مات المؤمنون الذين كانوا مع نوح (عليه السلام) في السفينة. ولم يعقّبوا. فصار جميع أهل الأرض من نسل نوح. قال الله تعالى : ﴿**وجعلنا ذريته هم الباقين**﴾[1]. فكان عليه السلام أبا ثانيا للخليقة. واتفق المفسرون والنسّابون على أولاد نوح، الذين تفرعت منهم الأمم ثلاثة : "سام، وحام، ويافث) وقد وقع ذكرهم في التوراة. وروى الطبريّ -في ذلك- أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ، وعن ابن المسيب، ووهب بن منبّه مثل ذلك واتفقوا على أن "ساماً" أبو العرب، والفرس، والروم. و"حاماً" أبو القبط والبربر والسودان، و"يافثا" أبو الترك والصقالبة وياجوج وماجوج. ولما افترق بنو نوح عليه السلام صار لولد "حام" الجنوب مما يلي مصر على النيل، وصار لولد "سام" الحجاز والعراق إلى حدود

1. سورة الصافات : الآية 77.

الهند، وصار لولد "يافث" نواحي بحر الخرز إلى الصين. وكانت شعوب هؤلاء الثلاثة، عند تبلبل الألسنة : اثنين وسبعين شعبا. واتفقوا على أن أول عمران المغرب كان بالجيل المعروف بالبربر، إخوان السودان والقبط. فهم الذين عمروه من البشر واستوطنوه. قال الطبري : وزعم هشام بن الكلبي : أن "الغل" من الكنعانيين من أولاد "عيصو" بن إسحاق عليه السلام. وبعد "يوشع" عليه السلام احتملهم "إفريقش بن قيس بن صيفي" من سواحل الشام في غزاته إلى المغرب. وتركهم بإفريقية. فمنهم البربر وترك معهم "صنهاجة" و"كتامة" من قبائل حمير. وقيل : إنه وجدهم فيها وإنه لما سمع رطانتهم سماهم البربر. وفي التوراة من ذرية حام أحد عشر ولدا، منهم "ضيدون" ولهم ناحية صيدا وكانوا بالشام، وانتقلوا، لما غلبهم يوشع، إلى إفريقية والمغرب وأقاموا بهما. وقد مرّ آنفا : أن أولاد "حام" صار لهم الجنوب. ولم تزل السودان منهم في أقطار الجنوب، من مبدأ بحر الهند شرقا إلى أقصى المغرب إلى هذا العهد، وإخوانهم القبط في مصر وجهاتها إلى الآن. وهؤلاء البربر يجاورنهم ويقابلون السودان في أرياف المغرب وتلوله، من حدود مصر، مما يلي برقة إلى أقصى المغرب حيث البحر المحيط. فلا يبعد أنهم كانوا مع السودان والقبط في مواطنهم الأولى ثم افترقوا، فتوغل السودان في الجنوب، وانحدر البربر إلى برقة ونواحيها. ثم توغلوا في بلاد المغرب إلى أقصاه وبقي القبط في منازلهم القديمة من مصر. وبهذا تشهد القرائن والمواطن. وذكر ابن سعيد في أخبار القبط أن شدّاد بن بدّاد بن هدّاد بن شدّاد بن عاد حارب القبط، وغلب على أسافل مصر

حيث الإسكندرية. وبنى بها مدينة مذكورة في التوراة يقال "لها أَرَنٌّ". ثم هلك في حروبهم. وجمع القبط إخوانهم من البربر والسودان وأخرجوا العرب من ملك مصر. ولما استولى إفريقش على المغرب، بنى فيه مدينة، فسميت إفريقية. ثم غلب هذا الاسم على ذلك القطر بحدوده المعروفة قديما وحديثا[1].

ذكر البربر وشعائرهم

اعلم أن النسابين قد اختلفوا في نسب البربر، وأطالوا البحث فيه. والذي ذهب إليه المحققون، كابن حزم وابن خلدون وغيرهما أنهم من بني كنعان بن حام بن نوح عليه السلام واتفقوا على أن شعوبهم وبطونهم يجمعهم أصلان عظيمان وهما : "برنس" و "مادغيس" ويلقّب بالأبتر. فيقال لشعوبه "البتر" كما يقال لشعوب "برنس" "البرانس" وهما -على الأصح- أخان لأب وهو "بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام" ... وشعوب البرانس يجمعهم سبعة أصول وهي : "ازداجه ومصموده وأوربه وغجيسة وكتامة وصنهاجة وريغة". ويجمع شعوب البتر أربعة أصول، وهم : "أداسه

1. جميع النظريات التاريخية المذكورة في هذا الباب محل نقاش علمي، يعرضها للبطلان من أساسها. وقصة شداد بن بداد بن هداد ظاهر فيها انتحال الأسماء بهذه السجعة. وربما كانت تشير إلى غزوة الهيكسوس مصر وتحكمهم فيها.

ونفوسه وضريسه[1] ولواء الأكبر". والكلام على هذه الشعوب وما تناسل منها من الأمم طويل الذيل، قد أفرده علماء هذا الفن بالتأليف. وجميع ما ذكروه غاية ما وصل إليه علمهم واطلاعهم. وإحصاء أمم البربر وأجيالهم غير ممكن لتطاول الأحقاب، وتداول الأزمنة. و لم تزل بلاد المغرب من أقصى سوس، إلى الإسكندرية، وما بين بحر الروم والسودان عامرة بهم، منذ قرون لا يعلمها إلا الله تعالى.

واعلم أن دين البربر في القديم المجوسية وفي بعض الأحيان يدينون بدين من تغلب عليهم، كالرومان واليونان وغيرهما. وقد صبّحهم الإسلام وهم على دين النصرانية، وبعضهم في إفريقية على دين اليهودية، عند استفحال ملك بني إسرائيل[2] وقربهم منهم.

---

1. من بقايا هذه القبيلة في ليبيا قبيلة شديدة الشكيمة قوية المراس تسكن ما بين طلمثية وسوسه على ساحل البحر عند منحدر الجبل الأخضر في برقة ويسمون أنفسهم الآن "دريسة" وينتسبون إلى العرب.

2. هذا خطأ تاريخي فاحش. متى استفحل ملك بني إسرائيل بهذا القدر الذي تخيله المؤرخون؟! إن هي إلا دعاية يهودية، إن أقصى ما وصل إليه ملكهم قطعة من فلسطين زمن سليمان لا تزيد، والذي جعل لدولته قيمة في زمنه مركز فلسطين الجغرافي، ودهاء سليمان السياسي، ونشاط دولته التجاري، والدعاية الكبرى التي اختطها بين جيرانه، والمعاهدات التجارية التي عقدها مع سائر الدول المعروفة. اليهود منذ قديم الزمان بارعون بالدعاية الكاذبة التي لا تقوم على أساس. ألا نراهم اليوم في دولتهم الدنيئة إسرائيل وهم قبضة من القرصان المعتدين استطاعوا بالدجل السياسي أن يلعبوا ببريطانيا فيحصلوا على وعد بلفور ويلعبوا بأمريكا فيحصلوا على السلاح والتأييد السياسي في المحافل العالمية. ويقنعوا العالم بحقهم بفلسطين وهم لصوص مجرمون سفاكون أئمة معتدون. فلينتبه مؤرخونا إلى ذلك فلا ينخدعوا كما انخدع مؤرخونا القدماء ومفسرونا وقصاصونا.

وأما شعائرهم، فالأكثر منهم آخذون بشعائر العرب، يسكنون الخيام ويتنازلون حللا ودوائر متفرقة. ويظعنون لانتجاع المرعى. ويتخذون الخيل للركوب والنتاج ويعتنون بالأنعام للكسب، يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون ألبستهم وأثاثهم وخيامهم من أصوافها وأوبارها وشعورها. ومنهم من يبتغي الرزق من الاقتناص والنهب والاختطاف من السابلة. ومنهم أهل مدائن وقرى وأمصار، شأنهم الفلاحة واغتراس الجنات المتنوعة والتجارة والحرف النافعة إلى غير ذلك من الأمور التي يتوقف عليها العمران ولا يتم إلا بها. وأكثر لباسهم من الصوف بأنواعه، وفي الغالب يكشفون رؤوسهم ويحلّقونها، ولغتهم أعجمية متميزة بنوعها عن سائر رطانة العجم ... ثم اختصت شعوب "زناتة" وبطونها برطانة تخالف رطانة إخوانهم. كما اختصوا بالعمائم. ومن شاهد آثارهم وما شيّدوه من الحصون والمعاقل والأمصار، وطالع أخبارهم وحروبهم وسيرهم. علم أنهم قوم لا يرامون بذلّ ولا ينالهم من استطال عليهم بسوء. وقد اعتنى الفحول من العلماء والمؤرخين بذكر سيرهم، وتدوين أخبارهم، فملؤوا كتبهم بنقل ما كانوا عليه من الأخلاق الحميدة كعزّ الجوار، وحماية النزيل، ورعاية الذمة، والوفاء بالعهد، وصدق القول، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وجودة الملكة. والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام، ورحموا المساكين، وتوقير أهل العلم، وحمل الكلّ، وكسب المعدوم، وقرى الضيف والإعانة على النوائب، وعلوّ الهمم، وإباءة الضيم والشقاق

مع الدول ومقارعة الخطوب والتغلّب على الملك ... وغيرهما من الخلال التي أكسبتهم الثناء من الخلق وبُعد الصيت.

ومن مشاهيرهم[1]، بعد تمسكم بالإسلام، من الطبقة الأولى : بولوغين (بالباء الموحدة التحتية) ابن زيري" الصنهاجي، عامل إفريقية للعبيديين. و"محمد بن خزر" و"عروبة بن يوسف الكتامي" القائم بدعوة عبد الله الشيعي. و"يوسف بن تاشفين اللمتوني" و"عبد المؤمن بن علي" أمير الموحدين.

ومن الطبقة الثانية : يعقوب بن عبد الحق المريني" و"يغمراسن" سلطان بني "زيان" و"محمد بن عبد القوي" صاحب "تاهرت" و"وزمار" أمير بني "توجين" و"ثابت بن منديل" أمير مغراوة و"زمار" بن إبراهيم زعيم بني راشد. فهؤلاء كانوا من أرسخهم في الخلال الحميدة قدما وأطولهم فيها يدا، وأكثرهم لها جمعا. وسنذكر طرفا من أخبارهم على وجه الإيجاز، إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح المغرب
وما جرى في ذلك من الوقائع بين المسلمين والبربر.

اعلم أن قبائل البربر بإفريقية والمغرب كانت -قبل الإسلام- تحت سلطة الروم، وعلى دين النصرانية. و لم تزل على ذلك إلى أن فتحت مصر، في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسار

1. الصواب : مشهوريهم.

عمرو بن العاص رضي الله عنه منها إلى برقة سنة اثنين وعشرين، فصالحه أهلها على الجزية. ثم سار منها إلى طرابلس، فحاصرها، وفتحها عنوة، وولى عليها وعلى برقة حكاما من قبله، ورجع إلى مصر. وفي خلافة عثمان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص، وتولّى عبد الله بن سعيد بن أبي سرح العامري عليها، فأمره عثمان رضي الله عنه بالتوجه إلى إفريقية فزحف إليها سنة تسع وعشرين فجمع لهم "جرجير" ملك إفريقية وبلاد المغرب من بأمصارها من الروم، وبضواحيها وقراها من البربر وملوكهم. وكان ملكه ما بين طرابلس وطنجة، ودار ملكه "سبيطلة" ولقي بهم المسلمين. فوقعت الهزيمة في جيشه وشدّ عليه عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه فقتله. واتبعهم المسلمون، يقتلون ويسبون إلى أن وصلوا إلى "سبيطلة" ففتحوها. ثم خربوها. ولم تزل خرابا. وهي في تخوم تونس، ممايلي أرض الجزائر، معروفة لهذا العهد. ونفل الله المسلمين أموال "جرجير"، وجموعه، وبناهم. واختصت ابنة جرجير بقاتله عبد الله بن الزبير. وكان هو الرسول بخبر الفتح إلى الخليفة. ثم انساح المسلمون في البسائط والضواحي بالغارات. ووقع بينهم وبين البربر حروب، انتصر المسلمون في جميعها. وأسروا من ملوكهم "وُزمار بن صقلاب" جدّ بني "خزر". وهو يومئذ أمير "مغراوة" وسائر "زناتة"، ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فأسلم على يده ومنّ عليه وأطلقه وعقد له على قومه. وقيل إنما وصله وافدا. ثم لاذ الروم بالسلم وشرطوا لابن أبي سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم، ففعل. ورجع المسلمون إلى المشرق. وشُغلوا بما كان من الفتن الإسلامية. ولما آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان؛ بعث ابن "خديج الشكوني" من مصر، لافتتاح إفريقية، سنة خمس وأربعين؛ فسار إليها. وكان في جيشه عبد الله

بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعبد الملك بن مروان. فلما وصل إلى إفريقية؛ أرسل عبد الملك بن مروان إلى "جلولا" ففتحها. وأرسل "رويفع بن ثابت" الأنصاري رضي الله عنه إلى جربة ففتحها وأرسل جيشا في البحر في مائتي مركب إلى جزيرة صقيلية ففتحوها وغنموا، وأرسل ملك الروم، أثناء ذلك، من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم. فتلقفهم المسلمون. وردّوهم على أعقابهم. ثم قفل ابن خديج راجعا إلى مصر. وتولى بعده عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة سبع وأربعين. فاختطّ القيروان. وافترق أمرُ الرّوم فصاروا إلى الحصون. وبقي البربر بضواحيهم. وفي سنة إحدى وخمسين، استعمل معاوية على مصر وإفريقية "مسلمة بن مخلد" فعزل عقبة عن إفريقية، وولّى مولاه "أبا المهاجر ديناراً". وفي أيامه فتحت جزيرة "شريك" على يد حنش بن عبد الله الصاغاني. وكانت رئاسة البربر يومئذ في "أروبة" لكسيلة بن لمزم، رئيس "البرانس" ومرادفه "سكرديد" ابن رومي من أوروبة. وكانا على دين النصرانية. فأسلما لأول دخول الإسلام إلى المغرب. ثم ارتدّا، قبل ولاية أبي المهاجر. واجتمع إليهما "البرانس" وزحف إليهم أبو المهاجر، حتى نزل عيون "تلمسان" فهزمهم. وظفر بكسيلة، فأسلم، واستبقاه عنده. وأحسن إليه. ثم جاء عقبة بن نافع، في الولاية الثانية، أيام يزيد بن معاوية، سنة اثنين وستين. فنكب "كسيلة" واعتقله. وتقدم إليه أبو المهاجر في اصطناعه[1]؛ فلم يقبل وزحف إلى المغرب، وعلى مقدمته : "زهير بن قيس البلوي" فدوخه واستفتح حصون الروم، وبقية ملوك البربر بالزّاب،

---

1. يقال اصطنعه أي أصبح صنيعة له. وللاصطناع بحث طريف في كتابنا (ليبيا العربية) وفي الاصطناع؛ معاني الحماية والعطف والولاء وحسن الجوار.

وتاهرت بجموعهم؛ ففضَّهم جمعا بعد جمع، ودخل المغرب الأقصى. وأطاعته "غمارة"، ثم نازل "المصادمة" في جبل "درَن" فقوي أمرهم فنهضت إليهم جموع "زناتة" وكانوا خالصة للمسلمين، منذ إسلام مغراوة فاعتزّ بهم عقبة، وقوي أمره عليهم، فأثخن فيهم وحملهم على الطاعة والإسلام. ثم أجاز إلى "السوس" الأقصى لقتال من بها من "صنهاجة -وكانوا على دين المجوسية- فأثخن فيهم، وقفل ظافرا. وكسيلة أثناء ذلك في اعتقاله. ثم سرّح عقبةُ العساكر إلى القيروان. وبقي في شرذمة منهم. وتراسل كسيلة وقومه، فاجتمعوا إليه وانتهزوا الفرصة، في عقبة رضي الله عنه فقتلوه ومن معه. وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة رضي الله عنهم. واستشهد في مصرع واحد جمع غفير من التابعين، فيهم أبو المهاجر. وقد أبلى عقبة رضي الله عنه في ذلك اليوم، بلاءً حسنا واشتهر قبره، وعليه مسجدٌ معروف باسمه. وأُسر من الصحابة يومئذ، محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهم. ففداهم صاحب "قفصة". وكان زهير بن قيس قد رجع من المغرب إلى القيروان. فلما بلغه الخبر، خرج هاربا وارتحل المسلمون معه ونزلوا برقة، وأقام بها ينتظر أمر الخليفة. فقارن ذلك اضطراب الخلاف بحروب ابن الزبير، والضّحاك بن قيس، مع المروانيين. واضطرم المغرب نارا وفشت الردّة في البربر، واجتمعت كلمة البربر والروم على "كسيلة" فترل القيروان، وأعطى الأمان لمن بقي بها من العرب. وعظم سلطانه على البربر، ومن معهم من الروم. فملكهم خمس سنسن. ولما استقل عبد الملك بن مروان بأمر الخلافة بعث إلى زهير بن قيس بالمدد

وولّاه حرب البرابرة، والأخذ بثأر عقبة رضي الله عنه فزحف في آلاف من العرب، سنة سبع وستين، وجمع كسيلة سائر البربر، ولقيه في نواحي القيروان. فاشتد القتال بينهم، وانهزم البربر وقتل كسيلة. واتبع جيشه المسلمون إلى نهر "ملوية" وتلاشى أمر البربر وفنيت فرسانهم واضمحل حال الروم وضعفوا عن إغاثتهم. واضطرمت إفريقية والمغرب نارا. وامتلأت قلوب البربر، من زهير رعبا، فلجئوا إلى الحصون ثم قفل زهير إلى المشرق، فاعترضه أسطول صاحب القسطنطينية في سواحل برقة. فقاتل الروم حتى استشهد هناك. وبعث عبد الملك بن مروان إلى حسان بن النعمان، عامله على مصر، أن يخرج إلى إفريقية. وبعث إليه بالمدد، فزحف إليها سنة تسع وسبعين ودخل إفريقية. واسترجع قرطاجنة من يد الروم والبربر ثم خرّبها فذهب من بقي بها، من الروم والإفرنج، إلى صقيلية والأندلس.

والذي أنشا قرطاجنة "ديدون" بن "البشار" من نسل "عيصو" بن اسحق (عليه السلام)[1]. ثم صار مُلك إفريقية إلى "أملغار أنيبال"[2] من ملوكهم. فهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين، وأهل الأندلس. ثم ولّى

1. ليست هذه النسبة صحيحة، بل الذي أنشأها هم الفينيقيون لتكون لهم مركزا تجاريا وعسكريا في نطقة متوسطة من البحر الأبيض.

2. أملقار : غير أنيبال. ويسمى هذا مانيبال. أو حنى بعل. وبعل هذا إله الفنيقيين. وحني: فيها معنى الانحناء والعبادة فالإضافة إليه إذا تشبه ما يقال في هذا الزمان "عبد الله". و لم يكن أملقار وهانيبال ملكين، بل قائدي جيش فقط. وهانيبال هو الذي احتاز بجيوشه جبال البرنة وتسلق الألب وهبط على إيطاليا كالصقر ودق أسوار روما فهو أول قائد عربي يكتسح أوروبا مظفرا.

بقرطاجنة، فأجاز البحر إلى بلاد الفرنجة، وهم "الجلالقة" وزحف إليه قواد "رومة" فوالى عليهم الهزائم وبعث أخاه "أسد ربال"[1] إلى الأندلس فملكها. وخالفه قواد الرومانيين إلى إفريقية فملكوها. وقتلوا "غشول" خليفة "أنيبال" فيها. وخرج قوّاد آخرون من رومة إلى الأندلس فملكوها. وقتلوا "أسد روبال" وفرّ أخوه أنيبال، وتبعه قوّاد رومة، الذين أجازوا إلى إفريقية، فحاصروه بقرطاجنة، حتى صار الصلح بينهم، ثم ظاهر بعد ذلك أنيبال، صاحب إفريقية ملوك "السريانيين" على حرب رومة. وبعد أن تخلص أهل رومة من ذلك؛ رجعوا إلى الأندلس. ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة ففتحوها. وقتلوا ملكها أنيبال[2] وذلك لتسعمائة سنة من بنائها، وسبعمائة من بناء رومة. ثم بعد ذلك اجتمع قواد رومة على بناء قرطاجنة وتجديدها، لاثنتين وعشرين سنة من خرابها، فعمرت. واتصل بها لأهل رومة مُلك.

واللذان اختطا مدينة رومة : رومالش ورامالش؛ وذلك لعهد أربعة آلاف وخمسمائة سنة من مبدأ الخليقة.

ثم توجه حسان بجيوشه إلى الكاهنة "دهيا بنت مارية" ملكة البربر، بمعقلها من جبل "أوراس". وقد انضم إليها : "بنو يفرن" ومن كان بإفريقية من "زناتة" وسائر "البتر" فلقيتهم بالسهل، أمام جبلها فانهزم

1. الفينيقيون عرب وألفاظ لغتهم عربية قديمة فيها ما يشبه لغتنا العربية القرشية، واللغة القحطانية القديمة قبل تطورها "أسدروبال" هو الأسد الرئبال في لغتنا. ومعناها الأسد الفتي.

2. هاجر هانيبال من قرطاجنة إلى آسيا الصغرى ومات هناك. يقال بأنه انتحر بالسم. فقضية مقتله في قرطاجة خطأ.

المسلمون، وأُسر خالد بن يزيد القيسي. واتّبعت آثار حسّان وجيوشه بجموعها، حتى أخرجتهم من إفريقية. وانتهى حسّان إلى أعمال طرابلس، فأقام بها، وبنى قصوره. ولم تزل أطلالها موجودة لهذا العهد، مشهورة به. ثمّ رجعت الكاهنة إلى مكانها من أوراس. واستفحل مُلكها في إفريقية. واستمرت ملكة على البربر خمس سنين. ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد، وأمره بالرجوع إلى إفريقية؛ فزحف إليها سنة أربع وثمانين وكانت الكاهنة عتت واشتد ظلمها، وأمرت بتخريب جميع المدن والضياع، وقطع الأشجار؛ بعد أن كان الراكب يسيرُ من طرابلس إلى طنجة في عمارة متصلة، وظلٍّ ممدود فشقّ ذلك على البربر، وحصلت الوحشة بينهم وبين ملكتهم. فلما وصل حسان إلى إفريقية، زحفت إليه جموعهم فخذلوها، واختل نظامهم. وشدّ معها قومها "جراوة" من "البتر"؛ ففض جيوشهم، وقتل الكاهنة. ثم إن البربر استأمنوا إليه، فأمنهم على الإسلام والطاعة، فأجابوا وأسلموا. وعقد للأكبر من أولاد الكاهنة على قومه "جراوة" وانصرف حسّان إلى القيروان. ثم في سنة ثمان وثمانين، في خلافة الوليد بن عبد الملك، قدم "موسى بن نصير" واليا على إفريقية، فدوّخ المغرب، وأثخن في البربر، حتى أدّت إليه الطاعة. وولى على "طنجة" مولاه "طارق بن زياد". وأنزل معه سبعة وعشرين ألفا من مسلمي العرب الأولين واثني عشر ألفا من البربر، وأمرهم أن يعلّموا البربر القرآن وأمور الدين.

وسرت كلمة الإسلام، في جميع أحياء البربر وبطونهم، ومن بقي منهم أسلم على يد إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، سنة إحدى ومائة.

ونقل ابن خلدون، عن أبي محمد بن زيد، الإمام المشهور أن البربر ارتدّوا اثنتي عشرة مرة، من طرابلس إلى طنجة! ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز موسى بن نصير إلى الأندلس، وأجاز معه كثيرين من رجالات البربر، برسم الجهاد، ووقع فتح الأندلس. فحينئذ استقر الإسلام في المغرب. وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردّة.

واستوثقت الأمور لموسى بن نصير في المغرب والأندلس. وبلغ فيها ما لم يبلغه غيره. وحصل في يده من المغنم والسبي ما لم يحصل في يد سواه من الملوك. قال الصفدي في تاريخه : لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير وغنائمه! فإنه استصحب عند قدومه إلى "الوليد بن عبد الملك" : ثمانية وسبعين تاجا، مكللا بالدرّ والياقوت، وكلها تيجان ملوك الأندلس من اليونان، ومائة وثلاثين عجلة مشحونة بالذهب والفضة واللؤلؤ. ومن أبناء الملوك وغيرهم من الأسرى ما يقرب من ثمانين ألف أسير! ومن الرقيق ثلاثون ألف شخص! واستخلف ولديه "عبد الله" على إفريقية والمغرب و"عبد العزيز" على الأندلس.

وفي خلافة "سليمان بن عبد الملك" عُزل عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية والمغرب وتولى "محمد بن يزيد" مولى قريش، وذلك سنة ست وتسعين. وفي خلافة "عمر بن عبد العزيز" عزل عبد الله وتولى مكانه "إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر" سنة سبع وتسعين. ثم نبضت

عروق الخارجية في رؤوس كثير من البربر، وسارت إليهم من سواد العراق، فدانوا لها، وتعددت طوائفهم، وتشعبت طرقها فيهم، من الإباضية والصفرية، وفشت هذه البدعة في المغرب؛فوقع الاختلال في كل جهة منه.

وفي خلافة "يزيد بن عبد الملك" تولّى "يزيد بن أبي مسلم" فقتله الخوارج لشهر من ولايته! فتولّى بعده "بشر بن صفوان" الكلبي. فقدمها سنة ثلاث ومائة وغزا جزيرة صقيلية سنة تسع ومائة ومات في مرجعه عنها. وتولى "عبيدة بن عبد الرحمن القيسي" سنة عشر ومائة وعزل في خلافة "هشام". وتولّى "عبيد الله بن الحجاب" مولى "ابن سلول" سنة أربع عشرة ومائة وبنى جامعا بتونس، ويعرف بهذا العهد بجامع الزيتونة. واتخذ فيها دار الصناعة لإنشاء المراكب البحرية. ووطئ بعسكره بلاد "سوس". وأثخن في البربر؛ فجمعوا أمرهم وانتفضوا عليه. وثار "ميسرة المظفري" بطنجة على "عمرو بن عبد الله المرادي" وكان واليا عليها لابن الحجاب؛ فقتله وبايع "لعبد الأعلى بن جريج" الإفريقي الرومي الأصل. ثم خلعه وبايع لنفسه. ثم ساءت سيرته؛ فنقم عليه البربر ما جاء به وقتلوه، وقدّموا على أنفسهم "خالد بن حميد الزناتي" فقام بأمرهم، وجمع كلمتهم، وزحف بجموعه إلى العرب، وسرّح إليهم "عبد الله بن الحجاب العساكر" في مقدمته، ومعهم "خالد بن حبيب الفهري" فالتقوا بوادي "شلف" فانهزم العرب. وقتل خالد بن حبيب ومن معه. وتسمى هذه الواقعة "بواقعة الأشراف" لكثرة من حضرها من وجوه قريش والأنصار. وانتقضت البلاد ومرج أمر الناس وانتهى الخبر إلى هشام بن عبد الملك؛ فعزل ابن الحجاب وولى "كلثوم بن عياض القشيري"

سنة ثلاث وعشرين ومائة. فخرج إلى إفريقية حتى بلغ وادي "طنجة"؛ فزحف إليه خالد بن حميد الزناتي بمن معه من البربر، ولقوا كلثوم بن عياض بعد أن هزموا مقدمته، وعليها "بلخ بن بشير القشيري" فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم، وانهزم جيشه، وتحيز أهل الشام إلى سبتة، مع "بلخ بن بشير" ومضى أهلُ مصر وإفريقية إلى القيروان وطار الخبر إلى هشام بن عبد الملك؛ فبعث "حنظلة بن سفيان الكلبي" فقدم القيروان سنة أربع وعشرين ومائة، و"هوّارة" يومئذ خارجون عن طاعة الدولة، ومنهم "عكاشة بن أيوب" و"عبد الواحد بن يزيد" فثارت هوارة ومن تبعهم من البربر، فهزمهم حنظلة، في ظاهر القيروان، بعد قتال شديد. وقتل عبد الواحد، وأخذ عكاشة أسيرا، وكتب حنظلة بذلك إلى هشام. ولما سمعها "الليث بن سعيد" رضي الله عنه قال : "ما غزوة كنت أحبُّ أن أشدها، بعد غزوة بدر، أحبُّ إلَيَّ من هذه الغزوة".

وأجاز عبد الرحمن بن عقبة بن نافع -لما مات أبوه- إلى الأندلس يحاول ملكها. ولما يئس منها، رجع إلى تونس، ودعا لنفسه سنة سبع وعشرين ومائة واستقل بملك إفريقية وأقرّه "مروان بن محمد" عليها لما تولى الخلافة. ولما آلت الخلافة إلى بني العباس بعث عبد الرحمن بطاعته إلى "السفاح" ثم إلى "أبي جعفر المنصور" من بعده. ولم يزل عبد الرحمن واليا على إفريقية إلى أن قتله إخوته سنة سبع وثلاثين ومائة، لعشر سنين من إمارته. وانتهى خبر إفريقية إلى أبي جعفر المنصور؛ فأرسل "محمد بن الأشعث الخزاعي" واليا عليها، سنة أربع وأربعين ومائة. فلقيه "أبو الخطاب" الخارجي بمجموعة، بسرت؛ فهزمه بن الأشعث،

وقتل عامة أصحابه. وافتتح طرابلس، وقام بأمر إفريقية وضبطها ثم قفل إلى المشرق، فوليها بعده "الأغلب بن سالم التميمي" فخرج عليه "أبو قرّة اليغرني" في جموع البربر؛ فهرب. ونقم عليه الجند، وخلعوه، ولحقوا "بالحسن بن حرب" الكندي بكابس. وأقبل إلى القيروان فملكها. ولحق الأغلب بكابس[1]، واستعدّ لقتال الحسن سنة خمسين، فهزمه إلى القيروان، فكرّ عليه الحسن دونها. واقتتلوا فقتل الأغلب. ثم رجعت أصحاب الأغلب على الحسن فقتلوه في الموقف الذي قتل فيه الأغلب؛ ولما بلغ المنصور قتل الأغلب بعث إلى إفريقية "عمر بن حفص" أخا "المهلب بن أبي صفرة" فقدمها سنة إحدى وخمسين ومائة، فاستقام أمره ثلاث سنين، ثم ثار البربر عليه، وحاصروه بطنجة؛ فدافعهم، وفرق كلمتهم بالمال. ثم انتقضوا عليه وحاصروه بالقيروان، ولما أجهده الحصار خرج مستميتا إلى قتالهم. فقتل آخر سنة أربع وخمسين ومائة. ثم تولى مكانه ابن عمه "يزيد بن أبي حاتم" بعثه المنصور في ستين ألف مقاتل. فهزم جموع البربر وقتل أبو حاتم أحد رؤسائهم في ثلاثين ألفا من أصحابه. وتتبع يزيد جموع البربر بالقتل، بثأر ابن عمه "عمر بن حفص". ثم دخل القيروان سنة خمس وخمسين ومائة. ولم يزل واليا على إفريقية والمغرب إلى أن توفي سنة سبعين ومائة وكان "روح بن أبي حاتم" أخو يزيد على فلسطين. فاستقدمه الخليفة هارون الرشيد، وولاه على إفريقية فقدمها. ثم توفي في سنة أربع وسبعين ومائة. وولي مكانه ابنه "الفضل" فخرج عليه

1. تكتب الآن قابس.

"عبد الله بن الجارود" واقتحم عليه القيروان، واعتقله ووكّل به وبأهله من يوصلهم إلى كابس. ثم ردّه من الطريق وقتله. فتولى بعده "هرثمة بن أعين" سنة سبع وسبعين ومائة. فأمّن الناس وسكنهم وبنى القصر الكبير "بالمنستير" وبنى السور على طرابلس. ولما رأى كثرة الثوار بإفريقية، استعفى الرشيد من ولايتها؛ فأعفاه. وولى "محمد بن مقاتل الكعبي" من صنائعه. فقدمها سنة إحدى وثمانين ومائة. وكان سيء السيرة، فخلعه الجند، وقدموا "مخلد بن مرّة" الأسدي وبعد أن قتل مخلّد، ثار "تمام بن تميم التميمي" على محمد بن مقاتل، وأخرجه من القيروان ؛ فلحق بطرابلس وتابع الخبر إلى "إبراهيم بن الأغلب" بمكانه من الزاب؛ فانتصر لمحمد وسار بجموعه إلى القيروان، وهرب تميم بين يديه إلى تونس وملك إفريقية. واستقدم محمدا بن مقاتل من طرابلس؛ وأعاده إلى إمارته. ولما استقر الأمر لمحمد بن مقاتل كره أهل البلاد ولايته، وداخلوا إبراهيم بن الأغلب في أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم. فكتب إبراهيم إلى الرشيد بذلك؛ فكتب له بالعهد سنة أربع وثمانين ومائة. فقام بأمر الولاية وابتنى مدينة العباسية، قرب القيروان، وانتقل إليها وتوارثها بنوه خلفا عن سلف، إلى سنة ست وتسعين ومائتين. ثم خرج أهل إفريقية عن طاعتهم وقاموا بدعوة الشيعة وفرّ آخرهم واسمه "زيادة الله" قاتل أبيه، إلى المشرق. وفي هذه المدة كلها، لم يتجاوز ملكهم إفريقية، لمكان الدولة الإدريسية في المغرب.

وبانقراض دولة بني الأغلب من إفريقية؛ انقطعت دعوة بني العباس، منها ومن المغرب. ولنذكر دول المغرب على الترتيب، ووقائعها، وما آل إليه

أمرها، مبتدئين بدولة الأدارسة، لأنها أول دولة ظهرت فيه، حتى نتوصل إلى ذكر ما كان في أيام سيدي الوالد، من الوقائع الهائلة، والأيام المشهورة، مع دولة فرانسا، وما جرى بينه وبين دولة مراكش، بوجه الاختصار على حسب الإمكان. وبالله المستعان.

ذكر دولة الأدارسة في المغرب الأقصى

لما آلت الخلافة العباسية للهادي، خرج "الحسين بن علي بن حسن المثلث ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط (عليهم السلام) إلى المدينة المنورة، وبويع في ذي القعدة، سنة تسع وستين ومائة ثم سار منها إلى مكة المكرمة. وكتب الهادي إلى "محمد بن سليمان بن علي العباسي" حين قدم حاجا من البصرة؛ فولاه حربه. فاستعد محمد بن سليمان لقتاله. وانضم إليه من حضر من شيعتهم ومواليهم. وخرج لقتال الحسين فالتقى الفريقان "بوجّ" موضع على ثلاثة أميال من مكة، إلى جهة الطائف، واقتتلوا. فوقعت الهزيمة في جيش الحسين، وقُتل هو في جماعة من أهل البيت، وافترق الباقون، وكان فيهم عمُّه "إدريس بن عبد الله الكامل" فأفلت مع من أفلت منهم. ولحق بمصر، نازعا إلى المغرب. وعلى بريد مصر يومئذ "واضح" مولى "صالح بن المنصور" -وكان يتشيّع- فعلم بشأن إدريس، وحمله على البريد إلى المغرب، ومعه "راشد" مولاه. فنزل "بوليلي" بجانب جبل "زرهون" سنة اثنين وسبعين، وبها وقتئذ "إسحاق بن محمد عبد الحميد" أمير "أوروبة" من قبائل البربر،

فأجاره. وجمع البربر على إدريس وبايعوه، وقاموا بأمره، وخطب الناس يوم بويع فقال : "أيها الناس لا تمدّنّ الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا" ولما استوثق له الأمر، زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب، وأكثرهم على دين اليهودية والنصرانية، فأسلموا على يده. وخرّب حصونهم وفتح "تامسنا" ومدينة "شالة" و "تادلا". ثم زحف إلى تلمسان سنة ثلاث وسبعين. وأمّن أميرها "محمد بن خزر المغراوي" وأقره على إمارته. كما أمّن سائر زناتة، وبنى مسجد تلمسان، وكتب اسمه على منبرها. ثم رجع إلى مدينة "بوليلي" وقد طبق الآفاق ذكره، واهتز له الرشيد ببغداد. وأهمه شأنه، واطلع على ما كان من "واضح" مولاهم من دسيسة التشيع، وإعمال الحيلة في نجاة إدريس إلى المغرب، فقتله. ومن ذلك العهد وقع الفشل لبني العباس بالمغرب، وقصرت قوتهم عن أن تسمو إليه. وقد استعمل الرشيد الحيلة على قتل إدريس، فدس إليه "الشماخ" من مواليهم للتحيل على قتله. فلحق به، وأظهر النفور من بني العباس مواليه، فصدّقه إدريس وقرّبه منه، ثم انتهز الفرصة فيه، في بعض خلواته، فناوله سما فقتله به سنة خمس وسبعين ومائة. ودفن بـــ "بوليلي" وفرّ الشماخ، ولحقه "راشد" مولى إدريس بوادي "ملوية" فاختلفا بضربتين، فقطع راشد يد الشماخ، وأجاز الوادي فأعجزه. ونما خبر إدريس إلى بني العباس ببغداد؛ فوقع ذلك أحسن موقع، لما رجوه من قطع أسباب الدعوة الإدريسية من المغرب. وكانت أيام خلافة إدريس، خمس سنين وستة أشهر؟ وخلف جاريته "كنزة"

حبلى. فقام بأمر الملك، مولاه "راشد" بالاتفاق. وبعد ستة أشهر من موته، وضعت جاريته"كنزة" ولدا. فاجتمع البربر، وعرضه "راشد" عليهم، فرأوه شبيها بأبيه، ففرحوا به، وسمّوه "إدريس الأصغر" وكفله "راشد"، إلى أن قتله بعض البربر، بإغراء بني الأغلب، أمراء إفريقية، سنة ست وثمانين ومائة. ثم قام بكفالة إدريس من بعده، "أبو خالد بن يزيد بن الياس العبدي" إلى أن بايعوه، بجامع "وليلى" سنة ثمان وثمانين ومائة، وهو ابن إحدى عشرة سنة. وقاموا بأمره. وجدّدوا لأنفسهم رسوم الملك، بتجديد طاعته.

وكان إدريس الأصغر، أجمل الناس خلقا وخُلقا. قال "دواوود بن القاسم البربري": "خرجت مع إدريس الأصغر، إلى قتال الخوارج من البربر، فلقيهم -وكانوا أكثر منا عددا- فأخذني العجب يومئذ من ثبات جأشه، وشدّة إقدامه على العدو، مع صغر سنه. فجعلت أطيل النظر فيه، فكلّمني في ذلك، فقلت : إنما أطلت النظر إليك، لخصال رأيتها فيك. منها : أنك تبصق بصاقا مجتمعا، وأنا أطلب قليلا منه أبلّ به حلقي، فلا أجده. ومنها حركتك في سرجك. فقال. أما اجتماع بصاقي، فلاجتماع قلبي. وأما ذهاب بصاقك، فلذهاب قلبك. وأما حركتي، فلاستشرافي إلى القتال. ثم قال :

أليس أبونا هاشم شدّ إزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فقلت : بلى! أنتم أهل لذلك.

ولما استوثق له الملك، استوزر "مصعب بن عيسى الأزدري" ونزع إليه كثير من قبائل العرب والأندلس. واجتمع إليه منهم عدد كثير فاختصهم وكانوا له حاشية وبطانة وعظم سلطانه بهم وقوي ملكه؛ واختط مدينة فاس سنة اثنين وتسعين ومائة وألف؛ وبنى فيها مساكنه وانتقل إليها من "وليلى" وأسس جامع "الشرفا" واستقام له الأمر. وتوطّد له الملك ثم خرج غازيا"المعامد" سنة سبع وتسعين ومائة وألف؛ فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته، ثم غزا تلمسان، وجدّد بناء مسجدها وأقام فيها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحوا دعوة الخوارج منهم. واستولى على المغربين ،من سوس الأقصى إلى وادي "شلف" وضايق إبراهيم بن الأغلب بإفريقية، ثم استراب إدريس بالبرابرة فصالح ابن الأغلب وسكّن من غربه ثم عجزت الأغالبة عن مدافعة الأدارسة، ودافعوا حلفاء بني العباس، فتارة باحتقار المغرب وأهله وتارة بالإرهاب بشأن إدريس؛ ثم رجع إدريس من تلمسان إلى عاصمة ملكه "فاس" وعزم عل الجواز إلى الأندلس؛ فأدركه الأجل وتوفي سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف عن ثمان وثلاثين سنة، وخلّف اثني عشر ولدا ذكرا، أكبرهم جدنا "محمد" وهو وليُّ عهده، فأشرك إخوته في ملكه، بإشارة جدّته "كنزة". فقسم المغرب بين الكبار منهم، وأبقى الباقين في كفالته وكفالة جدهم "كنزة" لصغرهم. ولم يزل أمره جاريا على أحسن الوجوه وأعدلها إلى أن توفي في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين ومائتين، بعد أن عهد لابنه "علي" وهو ابن تسع سنين. فقام بأمره الحاشية من العرب وأوروبة وسائر البربر، وبايعوه غلاما

مترعرعا. وقاموا بأمره وطاعته فكانت أيامه خير أيام. وتوفي في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين، لثلاث عشرة سنة من ولايته. وعهد لأخيه "يحي بن محمد" فقام بالأمر؛ واشتدّ سلطانه، وحسنت سيرته، واستجدت فاس في العمران وبنيت الحمامات والفنادق للتجار، ورحل إليها الناس من الآفاق والقاصية. وبُني في أيامه جامع القرويين؛ اختطته امرأة من القيروان، من مالها، سنة خمس وأربعين ومائتين. وانتقلت إليه الخطبة من جامع "الشرفا" المعروف بجامع مولاي إدريس ثم أوسع في خطه "المنصور بن أبي عامر" و "بنو مرين"؛ ثم توفي يحي وبويع ولده "يحي بن يحي". فساءت سيرته وكثر عبثه وثارت به العامة. فأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين. فتوارى ليلتين، ومات أسفا. وبلغ الخبر إلى ابن عمه "علي بن عمر" صاحب الريف، فاستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر. فجاء إلى فاس، وبايعوه، واستولى على أعمال المغرب؛ فثار عليه "عبد الرزاق الخارجي" وزحف على فاس، وغلب على عدوة الأندلس منها، وامتنعت عليه عدوة القرويين، وفرّ "علي" إلى أعماله من الريف، فاستحضر أهل فاس "يحي بن قاسم بن إدريس"، فحضر إليها بجنوده، وقتل عبد الرزاق وتمّ له الأمر، واستقل به إلى أن اغتاله "الربيع بن سليمان" سنة اثنين وتسعين ومائتين. وقام بالأمر بعده أحسن قيام "يحي بن إدريس بن عمر بن إدريس" صاحب الريف. فملك جميع أعمال الأدارسة، وخُطب له على سائر منابر المغرب. وكان أعلى بني إدريس مكانا، وأعظمهم سلطانا، وأكثرهم عدلا وكرما، ذا علم وصلاح. ولم يزل على ذلك إلى أن عقد الشيعة،

أصحاب إفريقية "لمصالة بن حبّوس" صاحب "تاهرت" على محاربة ملوك المغرب؛ فزحف إلى فاس في عساكر "مكناسة" و"كتامة" وبرز إليه يحي بن إدريس بجموعه؛ والتقوا على مكناس، فكانت الدائرة على يحي. ورجع إلى فاس، فحاصره بها، ثم صالحه على مال يدفعه إليه، وأن يباع لعبد الله المهدي. فقبل، وخلع نفسه وأنقذ بيعته إلى عبد الله المهدي، وعقد له "مصالة" على فاس وعملها خاصة، وعقد "لموسى بن أبي العافية" المكناسي على جميع المغرب ورجع إلى إفريقية. وفي سنة تسع وثلاثمائة، عاد مصالة إلى المغرب. فدس إليه ابن أبي العافية في يحي؛ فقبض عليه، واستصفى أمواله، وغرّبه إلى الريف، وولّى على فاس : "ريحان الكتامي". فثار عليه "الحسن بن القاسم بن إدريس" الملقب "بالحجام" سنة عشرة وثلاثمائة. وأخرج ريحان منها، وملكها عامين؛ ثم زحف للقاء موسى بن أبي العافية، وكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها ابنه موسى، وانجلت المعركة على أكثر من ألف قتيل. وخلص الحسن إلى فاس منهزما. فغدر به "حامد بن حمدان" البربري الأوروبي، واعتقله، وبعث به إلى موسى. فوصل موسى إلى فاس، فملكها. وطالب حمدان بإحضار الحسن؛ فدافعه، وأطلق الحسن. فخرج من معتقله متنكرا، وتدلّى من السور، فسقط ومات. وفرّ حامد بن حمدان إلى المهدية بإفريقية. وتولّى ابن أبي العافية على جميع المغرب، وأجلى من بقي من الأدارسة في فاس إلى الريف. واجتمعوا إلى أكبرهم "إبراهيم بن محمد بن القاسم" أخي الحسن المذكور وولوه عليهم. واختطّ لهم الحصن المعروف "بحجرة النسر"؛ ثم أظلم الجوّ بين الشيعة وأميرهم موسى بن أبي العافية؛ فمال ابن أبي العافية

إلى المروانيين، أصحاب الأندلس،وخطب موسى لهم على منابر سائر أعماله، وقطع خطبة العبديين، فطار الخبر إليهم، فجهزوا له جيشا تحت قيادة مولاهم "ميسور الفتى" وكتبوا إلى الأدارسة بالريف أن يكونوا في نصرته حتى إذا فرغوا من موسى بن أبي العافية، يرجع "ميسور" ويترك لهم ولاية المغرب. فكان من الأدارسة في محاربة ابن أبي العافية عجائب؛ ثم انحاز على "ملوية" فلحقوا به وقتلوه بعد أن ملك المغرب ثمانية وعشرين سنة. ورجع بنو إدريس إلى بلادهم، ما عدا فاس وتمسكوا بدعوة الشيعة وتولى القاسم بن محمد بن القاسم ابن إدريس الملقب "بكنّون"، ثم توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة. وتولّى مكانه ولده أحمد بن القاسم. وكان عالما فقيها، يميل إلى بني مروان؛ فقطع دعوة الشيعة، ودخل الأندلس بقصد الجهاد. فمات هنالك سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وخلفه أخوه "الحسن بن كنون" إلى دخول "جوهر الشيعي" المغرب؛ فبايع الحسن الشيعة. ولما رجع "جوهر"، نكث ورجع للمروانين إلى أيام "بولوغين" قائد الشيعة. وقوي أمرهم، وضاق النطاق على الحسن حتى مات شريدا. ثم تغلب المروانيون على بلاد الريف، وأجازوا أكثر الأدارسة المترشحين للملك إلى الأندلس؛ ثم أجازوهم إلى الإسكندرية. وبعث "العزيز العبيدي" صاحب مصر وإفريقية، من اختاره من بني كنون، لطلب ملكهم بالمغرب؛ فغلبهم عليه المنصور بن أبي عامر وقتلهم. وكان انقراض دولة الأدارسة من المغرب بعد أن ملكوه نحو مائتي سنة ثم تمكن بنو "يفرن" و"زناتة" وخطبوا فيها للمروانين، وبقيت في أيدهم يتوارثونها إلى أن غلبهم المرابطون. والبقاء لله تعالى.

ذكر بني الأغلب، أمراء تونس

وهم من "أولاد الأغلب بن سالم"، قدم مع "محمد الأشعث الخزاعي" حين تولّى على مصر وتونس سنة أربع وأربعين ومائة؛ فولاّه على "الزاب". ولما رجع ابن الأشعث إلى بغداد، بعث الخليفة أبو جعفر المنصور "الأغلب بن سالم" واليا على تونس، فقدمها وسكن القيروان. ثم خرج عليه أبو مرّة اليفرني" في جموع من البربر، وقتل الأغلب في حروبه. وفي أيام هرون الرشيد، عهد بالولاية "لإبراهيم بن الأغلب". وكان الرشيد يغصُّ بمكانة إدريس في المغرب؛ فاحتال عليه "إبراهيم" حتى قتله، وأشار لذلك ابن الخطيب بقوله :

واستوثق الملك لآل الأغلب	بعد رجال من بني المهلّب
فأوّل الأقوام إبراهيم	وهو الهمام الملك العظيم
قلّده هارون أمر المغرب	وهو لطيف الحدّ ماضي المضرب
فلم يدع في أرضه رئيسا	وأعمل الحيلة في إدريسا

ودام إبراهيم في الولاية إلى أن توفي. فوليها بعده ابنه "العباس" واستعمل الجوار في رعيته؛ فانتدب جماعة من الصالحين إلى وعظه، فلم يقبل، واستمرّ على حاله؛ فتوجهوا إلى الله بأن يريحهم منه. فمات خمسة أيام مطعونا، بعد أن اسودّ لونه وتغيّر جماله وحسنه. فوليها أخوه "زيادة الله" المشهور "بابن شكله" وكان أميرا جليلا،وفّى في إمارته للمأمون وإبراهيم، من المهديّ، ومات سنة ثلاث وعشرين ومائتين. فتولى مكانه أخوه "عقال" وسار سيرته في الخير إلى أن مات. فولى بعده

"أبو العباس بن محمد بن الأغلب". وكان جاهلا. وولي بعد وفاته ابن أخيه "احمد بن العباس" وكان حسن الأخلاق، متجنّبا الظلم والاعتساف، بنى المساجد في تونس، والمآجل ببابها. وتوفي سنة تسع وأربعين ومائتين. فوليها أخوه "أبو محمد زيادة الله بن محمد بن الأغلب" وكان عاقلا، حسن السيرة وكانت ولايته ستة أشهر. ثم وليها ابن أخيه، "محمد بن أحمد ابن محمد" الملقب "بأبي الغرانيق" لشغفه بصيدها. وكان غاية في الجود، وأيامه في اليمن يضرب بها المثل. توفي سنة إحدى وستين ومائتين. وولي بعده أخوه أبو إسحاق إبراهيم ابن أحمد، وهو الذي نقل القصور إلى "ركادة". وكان في ابتداء أمره حسن السيرة، ثم غلب عليه خلط سوداوي؛ فتغير حاله، وأسرف في القتل، وقتل أصحابه وحجابه وثمانية من إخوته، صبرا بين يديه. وقتل بناته ثم أظهر النسك. مات سنة تسع وثمانين ومائتين. وولي بعده أبو العباس عبد الله، عل عهد "المعتصم بالله". فرد المظالم وتنسّك، ولبس الصوف، وقُتل بتدبير ابنه "زيادة الله". وكان في سجنه، وبادر بقتل من شارك في دمه، وأظهرَ التبَرّي من ذلك وفي أيام زيادة الله، ظهر أمر بني عبيد. ولقيت جيوشه جيوش الشيعة، فلم تقم لهم قائمة. ففرّ إلى المشرق، وترك البلاد.

ذكر دولة الأدارسة في الأندلس

كان لبني محمد، وبني عمر من ولد إدريس، رئاسة على البربر في بلاد "غمارة" من الريف. فلما قام سليمان بن الحكم، الملقب بالمستعين، على المهدي محمد بن هشام، في جنود البربر وزناتة، كان عليٌّ بن حمود بن ميمون بن أحمد بن عليّ بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، وأخوه القاسم، في جملتهم. واشتدّ أمر البربر وزناتة، أنصار المستعين، على أهل الأندلس، وحاصروا المهدي في قرطبة. فخشي أهلها على أنفسهم، من اقتحام البربر عليهم، فقتلوا المهديّ بن هشام، واجتمعوا على تجديد البيعة لهشام المؤيد. واستمر البرابرة على حصار قرطبة، والمستعين بينهم، إلى أن دخلوها عنوة سنة ثلاث وأربعمائة، وفتكوا بهشام المؤيد. ثم لما افترق شمل جماعة قرطبة وتغلب البربر على الأمر، قام عليٌّ بن حمود، وأخوه القاسم، ودعوا لأنفسهم، وتعصب لهم الكثير من البربر، وملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة، وقتلوا المستعين، وتمّ الأمر لعليّ. وتمكن سلطانه واتصلت دولته عامين. وتلقب بالمأمون، ثم قتله صقبالته في الحمام، سنة ثمان وأربعمائة. فولي مكانه أخوه القاسم، وإلى ذلك يشير الخطيب في منظومته بقوله :

ثمّ سليمان إلى الملك رجع   نبّهه الدّهرُ وما كان هَجَع
وكان شاعرا ومن أهل اللسن   وقيّض الله له أبا الحسن
وهو ابن حمود أتى من سبتة   وسبب العز له قد ثبّته
صال عليه طالبا دم هشام   وقلّ من ونى عن الثأر ونام

فخذل الإبنَ وثنّى بالأب بيده مبيّنا للسبب
واستوثق الأمر قليلا وانتظم وانتصر الدهر به ممن ظلم
وأغلظ الأحكام في بَرْبَرِهِ وغالبُ الناس على مسيرِهِ
واغتاله الصقلب في حمّامه فجرعوه الصرف في حمامه
وقام بالأمر أخوه القاسم فوضحت في ملكه المراسمُ

ثم بعد أربع سنين من سلطنة القاسم، نازعه ابن أخيه يحي بن علي "بسبتة" وكان أميرا على تلك النواحي، وولي عهد أبيه. فزحف إلى قرطبة، فملكها سنة اثني عشرة وأربعمائة، وتلقب "بالمعتلي" وفرّ عمه المأمون إلى إشبيلية، وبايع له قاضيها ابن عباد، واستجاش بعض البربر، ورجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة. ولحق المعتلي "بمالقة" وتغلب على الجزيرة الخضراء. وتغلب أخوه إدريس على طنجة. ولم يزل أمر المعتلي ينمو، وسلطانه يعلو، إلى أن قتله محمد بن عبد الله "البرزالي" البربري بمداخلة ابن عبّاد. ثم استدعى أهلُ مالقه أخاه إدريس بن علي، من طنجة وبايعوه. فتم أمره، واتسعت دولته، ومات سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. وبويع بعده لابن أخيه حسن بن يحي المعتلي، ولقب المستنصر. ثم مات مسموما سنة ثمان وثلاثين. وبويع لأخيه إدريس بن يحي ولقب "العالي". ثم ثار السودان عليه، بدعوة ابن عمه محمد بن إدريس بن علي، وتلقب "المهدي" وأقام في ملكه "بمقالة". وأطاعته "غرناطة" و"جيان" وأعمالها، إلى من مات سنة أربع وأربعين. ورجع العالي، فبويع بمكانه "بغمارة". وكان فرّ إليها لما ثار عليه السودان، ثم مات سنة سبع

وأربعين. وبويع محمد الأصغر بن إدريس بن علي وتلقب "المستعلي"؛ ثم قام عليه "باديس"؛ فتغلب على "مالقه" وسار محمد المستعلي منها إلى "ألمرية" مخلوعا، ثم استدعاه أهل "مليلة" و"كلعية" من وراء البحر، وبايعوه سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وهو آخر من ملك في الأندلس، من الأدارسة؛ ثم اقتسمت ملوك الطوائف جزيرة الأندلس إلى أن تغلب عليهم "المرابطون" بعد تغلبهم على المغرب كله. والبقاء لله وحده.

واعلم أن هذا القطر الأندلسي تسميه الإفرنج "أندلش" (بالشين المعجمة) وكان يسكنه أمم من إفرنجة المغرب، وأكثرهم "الجلالقة" وكان "الغوط" قد تملكوه، المئتين من السنين قبل الإسلام، بعد حروب موصوفة مع السريانيين، وذلك لعهد إبراهيم الخليل[1] عليه السلام وحاربوا اللاتنيين، وحاصروا رومة، ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف "الغوط" إلى الأندلس. فساروا إليها وملكوها. وهؤلاء "الغوط" من الأمم العظيمة، وكانوا يعرفون في الزمن القديم "باسبين" نسبة إلى الأرض التي كانوا يعمرونها بالمشرق، فيما بين الفرس واليونان. ولما أخذ الروم واليونان بالملة النصرانية، حملوا عليها من وراءهم من المغرب، من أمم الفرنجة والغوط، فدانوا بها.

1. هذا الخلط التاريخي يدل على عدم التمكن من التاريخ، عل حقيقته. والمؤسف أن أثر مؤرخينا ينقل بعضهم عن بعض، بدون مناقشة. وإلا فما علاقة السريان بالغوط. وما علاقة إبراهيم الخليل بذلك؟ أما آن لهذه الإسرائليات الكاذبة أن تزول من تاريخنا؟

وكانت دار ملوك الغوط "طليطلة" وملكهم لذلك العهد يسمى "لذريق"[1] وهو سمة لملوكهم، وكان ملك البرابرة بجبال "غمارة" يسمى "بليان" يدين بطاعتهم وملتهم، وموسى بن نصير، أمير المغرب إذ ذاك، عامل على إفريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، واستنزل "يليان" بطاعة الإسلام. وكان "يليان" ينقم على لذريق ملك الغوط؛ فلحق "بطارق بن زياد الليثي" وهو يومئذ والي طنجة. فانتهز طارق الفرصة وأجاز البحر بإذن أميره موسى بن نصير، بثلاثمائة من العرب واحتشد معهم البربر وصيرهم عسكرين ، أحدهما على نفسه، ونزل بهم جبل "الفتح" فسمي جبل طارق، والآخر على طريف بن مالك النخعي، ونزل بمكان مدينة "طريف" فسميت به. وحصل لهما الفتوحات العظيمة.

ذكر دولة العبيديين وهم الفاطميون

وأصلهم من الشيعة المعروفة بالإمامية . وكان "محمد بن حبيب" والد "عبيد الله المهدي" منهم. وهو من ولد إسماعيل الإمام ومنازله "بالسليمية" من أرض "حمص" في الشام. وكانت شيعتهم يتعهدونه بالزيارة. فجاء "محمد ابن الفضل" الشيعي العدني من اليمن لزيارته. فبعث معه "رستم بن الحسن بن الحوشب" لإقامة دعوته باليمن. فساروا وأظهروا الدعوة واستولى محمد بن الفضل، الداعيةُ على أكثر اليمن وفرق الدعوة في اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر

---

1. "لذريق تحريف لكلمة "رودريك" وهو اسم لا لقب كما جاء في المتن.

والمغرب. وكان أبو عبد الله، المعروف "بالمحتسب" الشيعي من أهل صنعاء وقيل من الكوفة، سمع بقدوم ابن حوشب، وأنه يدعو الناس إلى المهدي؛ فسار إليه، واتصل به. وكان ابن حوشب أرسل دعاة إلى المغرب، وأجابتهم "كتامة" من البربر. فلما رأى علم أبي عبيد الله ودهاءه، أرسله إليهم. ثم جاء أبو عبد الله مكة، واجتمع بجماعة منهم قدموا حجّاجا، فرآهم مجيبين إلى مطلوبه. فسار معهم إلى بلادهم من إفريقية سنة ثمانين ومائتين، وانثال البربر عليه من كل جهة وعظم شأنه. وبلغ الأمر إلى بني الأغلب، أمراء إفريقية، فاستصغروه ثم مضى إلى "تاهرت" وأتته قبائل المغرب الأوسط. واستمر يطاول بني الأغلب على مملكتهم إلى أن تولى "زيادة الله قاتل أبيه" وكان منهمكا في لذاته؛ فضعف أمره، وانتفضت عليه كافة إفريقية، فهرب إلى المشرق. ونهب البربر قصوره. واحتل أبو عبد الله «ركادة» ومنها ذهب إلى القيروان فدخلها. ولما رأى أبو عبد الله أمره في الزيادة، وأمر بني الأغلب في النقصان، بعث جماعة من كتابه إلى عبيد الله المهدي، بعد موت والده محمد الحبيب؛ فوصلوا إليه وهو في السليمية، وأخبروه بما فتح الله عليهم، وأن الناس في انتظاره. وشاع خبر عبيد الله المهدي في الشام والعراق ومصر. واتصل الخبر بالخليفة "المكتفي بالله العباسي"، فطلبه. ففر إلى العراق، ثم لحق بمصر، ومعه ابنه وخاصته، فبلغه ما أحدث بها محمد بن الفضل، من بعد ابن حوشب، وأنه أساء السيرة. فخرج من مصر، بمن معه، في زي التجار وسار حتى وصل قسنطينة، ثم عدل إلى طريق الصحراء، إلى "سجلماسا" وبها "اليسع بن مدرار" فأكرمه ثم حبسه. وبقي في محبسه إلى أن فرغ أبو عبد الله من أمر إفريقية. واستمر على سيره

حتى أتى سلجماسا فخرج اليسع لقتاله، فانتقض معسكره، وفرّ هو وخاصته. ومن الغد، خرج أهل البلد إلى الشيعي، وذهبوا معه إلى مجلس المهدي وابنه، فأخرجهما، وبايع للمهدي. ومشى مع رؤساء القبائل بين يديه، حتى أنزلهم بالمخيم. وبعث في طلب "اليسع"، فأدركوه وقتلوه ثم ارتحلوا إلى إفريقية، ونزلوا "بركادة" سنة سبع وتسعين. فحضر أهل القيروان، وبويع المهدي البيعة العامة، واستقام أمره وقسم الأموال في رجال "كتامة" وأقطعهم الأعمال. ودون الدواوين وجبى الأموال. واستبد بأمره وإلى ذلك أشار ابن الخطيب بقوله :

وظهر الشيعيُّ في كتامة　　فاختار فيهم كونه واعتامه
وغـرّهم في رأيه ومذهبه　　ووعدهم ملك الورى بسببه
وصيّر الدعوة بعض قصصي　　إلى عبيد الله من آل الوصي
وهو الذي لقب بالمهديّ　　أيُّ هُمام حازم أبيٍّ

وأخر المهدي أبا عبد الله، وأخاه أبا العباس عن مباشرة الأحكام. فأظلم الجو بينهما. وأظهر أبو عبد الله وأخوه الطعن فيه. وقالوا لهم : "ليس هذا هو المهدي الذي دعونا إليه" فاسترابت كتامة، واتفقوا على قتله. ونمى الخبر إلى المهدي، فتلطف في أمرهم، وولّى رؤساء كتامة على البلاد وفرق كلمتهم. ثم أمر "عروبة بن يوسف" بقتل أبي عبد الله وأخيه. فحمل على أبي عبد الله عند باب القصر، فقال له : لا تفعل. فقال : الذي أمرتنا بطاعته، أمرنا بقتلك. ثم أجهز عليه وعلى أخيه أبي العباس. وخلا الجو للمهدي؛ فبنى المهدية وانتقل إليها من "ركادة" وزال بملكه ملك بني الأغلب، وملك بني "مِدرار"، أصحاب

"سجلماسا". وأيامهم فيها، مائة وثلاثون سنة. وزال ملك "بني رستم" أصحاب "تاهرت" وأيامهم فيها، مائة وستون سنة. ثم توفي المهدي سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة بالمهدية لأربع وعشرين سنة من ولايته. وولي بعده ابنه "أبو القاسم محمد" ويقال له "نزار" ولقب "بالقائم بأمر الله". فخرج عليه "أبو يزيد الأعور" و لم يزل مشتغلا بحروبه مدة إمارته. وتوفي القائم محصورا في "سوسة" بعد أن عهد لولده "إسماعيل"، ولقبه "المنصور"، سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. فكتم المنصور موت أبيه القائم، حذرا أن يطلع عليه أبو يزيد، وهو بمكانه من حصار سوسة فلم يتسمّ بالخلافة، ولا غيّر السكة ولا الخطبة ولا البنود إلى أن مات أبو يزيد مأسورا عنده، سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. فحينئذ أظهر موت أبيه، وبويع بالخلافة. وضبط الملك والبلاد. ثم توفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، لسبع سنين من خلافته. وعهد إلى ابنه "معدّ" ولقب "بالمعز لدين الله". فاستقام أمره، وعظم ملكه؛ ولما بلغه اختلال أحوال مصر، بعد موت "كافور الأخشيدي"، جهز إليها "جوهرا" في جيوش البربر والعرب. فهربت العساكر الإخشيدية قبل وصوله ودخل مصر في سابع عشر رمضان، سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وأقيمت دعوة الفاطميين فيها، وخطب باسم المعز "أبو محمد عبد الله الشمشاطي" في الجامع العتيق في شوال. وفي جمادى الأولى، دخل "جوهر" جامع ابن طولون، وأمر بزيادة "حيّ على خير العمل" في الأذان، وجهر في الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. وبعث الهدايا والأموال إلى إفريقية، صحبة الوفد من مشيخة مصر وقضاتها وعلمائها. وانقرضت دولة الإخشيدية من "بني طغج".

ولما استقر جوهر بمصر، شرع في بناء القاهرة. وسير جيشا إلى الشام مع "جعفر بن فلاج"، فجاز إلى دمشق وافتتحها، بعد قتال شديد، ونهب بعضها، وكف عن بعض. وأقام الخطبة فيها يوم الجمعة، للمعز الفاطمي، في المحرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

ولما توالت البشائر على المعزّ، بفتح مصر والشام، عزم على المسير إلى مصر، وبدأ في تمهيد المغرب، وقطع شواغله. ثم استدعى "بولوغين بن زيري" واستخلفه على إفريقية والمغرب، وأنزله القيروان، وسماه "يوسف" وكناه "أبا الفتوح". ثم سار بأهله وعساكره إلى مصر، فتلقته أعيانها بالإسكندرية، فأكرمهم وساروا معه إلى مصر، فدخلها خامس شهر رمضان سنة اثنين وستين وثلاثمائة. وكانت منزلة ومنزل الخلفاء من بنيه بعده، إلى انقراض دولتهم، بموت "العاضد" أبي محمد عبد الله، وكانت وفاته يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة. وعلى وزارته يوسف صلاح الدين، تقلدها بعد موت عمه "شيركوه". فتمكن صلاح الدين في مصر، وحكم على القصر. وكان قبل موت العاضد بأيام ،وهو في شدة المرض، قطع خطبته وخطب لبني العباس، بأمر "نور الدين الشهيد، محمود بن زنكي" صاحب الشام، وهو الذي بعث "شيركوه" وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر، باستدعاء من العاضد. وكانت أيام ملك الفاطميين، مائتين وثمان وستين بمصر، واثنتين وخمسين بالمغرب وإفريقية. وعدة خلفائهم أربعة عشر، أولهم عبيد الله المهدي، وآخرهم العاضد محمد بن عبد الله. وبانقراض دولتهم، انقرضت دولة العرب من مصر ومن المغرب وإفريقية وانتقل ملك مصر

إلى يوسف صلاح الدين وأهل بيته، ثم إلى الجراكسة، ثم إلى الدولة العلية. وانتقل ملك إفريقية والمغرب إلى البربر، يتداولونه طائفة بعد طائفة، وجيلا بعد جيل. تارة يدعون لبني أمية بالأندلس، وتارة لبني العباس، وأخرى لبني إدريس، ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم، فقامت "صنهاجة" بإفريقية وأولهم أبو الفتوح بولوغين بن زيري بن مناد الصنهاجي. استخلفه المعز على إفريقية والمغرب، عند مسيره إلى مصر. واستمرت إمارة إفريقية في ولده يتوارثونها خلفا عن سلف، إلى أن انقرضت باستيلاء الإفرنج على المهدية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وفر الحسن بن يحي بن تميم، آخر أمراء إفريقية إلى "بجاية"، فأجاره صاحبها "يحي بن العزيز" من بني حماد ثم لحق بالجزائر، ونزل عل "سبع بن العزيز" أخي يحي، فأكرم نزله وجاوره، إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة سبع وأربعين وخمسمائة، بعد استيلائهم على المغرب والأندلس. فخرج الحسن إلى "عبد المؤمن" أمير الموحدين، فأكرمه ولحق به وصحبه إلى إفريقية في غزوتيه الأولى والثانية. فنازل المهدية، فافتتحها سنة خمس وخمسين، وأسكنها الحسن، وعين له إقطاعا في خارجها ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن في ولايته بعد أبيه عبد المؤمن، فارتحل بأهله قاصدا مراكش، فمات "بتاماسا" والبقاء لله وحده.

ذكـــر دولة المرابـــطين

وهم من الطبقة الثانية من "صنهاجة"، ويقال لهم "الملثمون" وقد استوطنوا القفر، وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، منذ دهور لا يعرف أولها، إيثارا للانفراد والبعد عن غلبة الملوك. وتناسلوا في تلك البلاد، فكثروا، وتعددت قبائلهم. ذكر غير واحد من المؤرخين " أنهم كانوا لأول الإسلام، سبعين قبيلة، منها : "لمتونة" و "دكالة" و "مسوقة" و "لمطة" و "مزيلة"، ومواطنهم مابين البحر المحيط بالمغرب، إلى "غدامس" من جنوب طرابلس وبرقة، إلى ريف الحبشة. واتخذوا اللثام شعارا، ليلا ونهارا، والسبب في ذلك أن طائفة من "لمتونة" خرجوا غائرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء. فلما تحقق المشايخ أنه العدو، أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثمن، ويضيقنه حتى لا يُعرفن ويلبسن السلاح. وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت. فلما أشرف العدو، رأى جمعا عظيما، فقال : هؤلاء عند حرمهم، يقاتلون عنهن قتال الموت. والرأي أن نسوق النعم ونمضي. فإن لحقونا، قاتلناهم خارجا عن حريمهم. فبينما هم في جمع النعم من المراعي، إذ أقبل رجال الحيّ، فبقي العدو بينهم وبين النساء. فأكثروا القتل من العدو.

وكان ممن قتله النساء أكثر. فمن ذلك الوقت، جعلوا اللثام سنة يلازمونه ومما[1] قيل فيهم :

قوم لهم درك المعالي في الحمى وإن انتموا، صنهاجة. فَهُمُ هم
لمّا حـــووا إدراك كل فضيـلة غلب الحياء عليهم فتـــلثموا

وكانوا على دين المجوسية. ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان إسلامهم في المائة الثالثة. وكانت الرئاسة فيه "للمتونة" ولهم ملك ضخم في تلك الصحاري. وجاهدوا جيرانهم من أمم السودان، وحملوهم على الإسلام، فدان به أكثرهم. ومن بقي منهم على المجوسية، أعطى الجزية. ولم تزل كلمتهم مجموعة إلى أن قتل "صنهاجة" أميرهم "تميم بن بلنان". فتفرق أمرهم وصارت رئاسة كل بطن منهم في بيت مخصوص. فكانت رئاسة "لمتونة" في بني "ورتاطق". ولما أفضت رئاستهم إلى يحي بن إبراهيم، خرج في جماعة إلى الحج سنة أربعين وأربعمائة؛ فلقوا في منصرفهم الإمام أبا عمر الفاسي المالكي، فطلبوا منه أن يرسل معهم من يعلمهم أمر دينهم. فبعث معهم الفقيه "عبد الله بن يس الجزولي" ولما مات الأمير يحي، افترق أمرهم، وتركوا الأخذ عن عبد الله بن يس. فأعرض عنهم وتنسك معه "يحي بن عمر" وأخوه

1. ربما وقعت هذه الحادثة فعلا. لكن التعليل الأقرب إلى المنطق أنهم إنما يلازمون اللثام، دفعا لغبار الصحراء. وهو أمر ألجأهم إليه طبيعة السكن في قفار إفريقيا السافية برمالها، اللاهبة بحرها، كالوشاح الذي يستخدمه عرب الجزيرة ويسمى : الكوفية، أو القضاضة أو القضاضة أو الحطة أو الحطاطة تختلف التسمية باختلاف البلاد. ومن عاش في الصحراء مدّة آمن بأن هذا الوشاح خير ما يلبس ويستخدم فيها لدفع الحرّ والبرد والغبار والرمال.

"أبو بكر بن عمر" رؤساء لمتونة. وانتبذوا عن الناس في جزيرة يحيط بها بحر النيل[1] ولحق بهم من كان في قلبه ميل إلى الإسلام. ولما كمل معه ألف رجل، قال لهم عبد الله : "قد تعين علينا القيام بالحق، والدعاء إليه. ولن يغلب ألف من قلة" فخرجوا من الجزيرة، وقاتلوا من استعصى عليهم، حتى أنابوا ورجعوا إلى الحق. وسماهم "المرابطين" وأمّر عليهم يحي بن عمر. فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد "درعة" و"سجلماسا". فأدّوا لهم الزكاة الشرعية، ورجعوا. ثم بلغهم ما نال المسلمين من ظلم بني "وانودين" أمراء "سجلماسا" من "مغراوة"، فخرجوا إليهم سنة خمس وأربعين وأربعمائة، في عدد كبير من الفرسان، وعمدوا إلى "درعة". فنهض إليهم أمير مغراوة وصاحب سجلماسا ودرعة. فانهزمت جيوش مغراوة، وقتل أميرهم، واستلحم عسكره، ودخلوا سجلماسا وقتلوا من كان بها من مغراوة. وبعد إصلاح أحوالها، استعملوا عليها بعض رؤسائهم، ورجعوا إلى مواطنهم. ثم مات يحي بن عمر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وولي أخوه أبو بكر بن عمر، فغزا بلاد "سوس" ومات الفقيه عبد الله بن يس في بعض حروبهم مع "برغوطة" واستمر أبو بكر في جهادهم حتى استأصل شأفتهم. ثم بلغه ما وقع بين قومه من الخلاف، فخشي افتراق الكلمة، وارتحل راجعا إلى قومه، بعد أن استعمل على المغرب ابن عمه "يوسف بن تاشفين" ورفع ما كان بينهم من الخلاف، وشغلهم في جهاد السودان، فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

---

1. لعله يقصد نهر النيجر.

وأقبل يوسف على شأنه، فدوّخ أقطار المغرب. واختط مدينة مراكش سنة أربع وخمسين وأربعمائة. ثم انتقضت عليه فاس وقبائل زناتة، فنهض إليهم سنة اثنين وستين ونزل فاس فافتتحها عنوة، وأصلح شأنها، وارتحل منها إلى "ملوية" فافتتح حصونها وحصون "غمارة" و"تازة" وبلاد "غياثة". وفي سنة ثلاث وسبعين، نهض إلى الريف، فافتتح سائر بلاده. وافتتح مدينة تلمسان. واستحلم من كان بها من مغراوة، وقتل أميرها "العباس بن بُختي" واختط بها "تاكروات" وهو اسم للمحلة بالبربرية. ثم افتتح "وهران" و"تنس" و"مليانة" و"لمدية" وغيرها، وانتهى إلى الجزائر ثم رجع إلى مراكش سنة خمس وسبعين وأربعمائة. وعظم أمره واستفحل ملكه وتلقب "أمير المسلمين". وكاتبه أهل الأندلس كافة، من العلماء والخاصة وملوك الطوائف مستنجزين وعده في صريخ الإسلام. فاهتز للجهاد ثم أجاز البحر بعساكر المرابطين وقبائل المغرب، ونزل الجزيرة الخضراء سنة تسع وسبعين وأربعمائة؛ وجمع ملك الجلالقة أمما لقتاله، ولقيه "بالزلاقة" من نواحي "بطليوس". وكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى وثمانين ثم رجع إلى مراكش وأجاز ثانية سنة ست وثمانين، فلقيه "ابن عباد" بجيوشه، فبطش بهم، ورجع إلى مراكش، وأجاز ثالثة سنة تسعين. فزحف إليه ملك الجلالقة، فانهزمت جيوشه ثم رجع إلى مراكش وأجاز ابنه الأمير يحي بن أبي بكر بن يوسف سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة. وانضمت إليه جيوش المرابطين بالأندلس، فتقوّى بهم، وأخذ عامة الأندلس من يد ملوك الطوائف، واستولى على العدوتين، ولم يبق منها

إلا "سرقسطة" في يد صاحبها ابن هود، معتصما بالإفرنج، وخاطب المستنصر العباسي، الخليفة ببغداد، وجاءه التقليد منه عل ما لديه من الأقاليم. وخاطبه الإمام الغزالي يحضه على العدل والتمسك بالشريعة. ثم أجاز رابعة سنة سبع وتسعين وأربعمائة. وتوالت غزواته في بلاد الإفرنج إلى أن مات، عل رأس المائة الخامسة. فقام بالأمر بعده ابنه "علي" وأجاز إلى الأندلس، فأثخن فيها قتلا وسبيا. ثم أجاز ثانية سنة ثلاث وخمسمائة، ونازل طليطلة، فعظم شأنه، وقسم شرقي الأندلس على أعيان المرابطين، وعقد لابنه "تاشفين" على غربية سنة ست وعشرين وخمسمائة ورجع إلى مراكش. ولأربع عشرة سنة من دولته، كان ظهور الموحدين. ثم مات سنة سبع وثلاثين وخمسمائة. وقام بالأمر ابنه "تاشفين" حين عظم أمر الموحدين. ثم أخذ أمر المرابطين بالضعف، وغزا عبد الرحمن المؤمن بن علي، في جموع الموحدين غزواته الكبرى، إلى جبال المغرب. فخرج تاشفين بعساكر المرابطين لمقابلته، وبعث البعوث إلى الجهات، فرجعوا منهزمين. وتوالت الوقائع عليه، فأجمع الرحلة إلى "وهران" وبعث ابنه وولي عهده إبراهيم إلى مراكش. وزحف عبد المؤمن إلى وهران في جيوش الموحدين، وضايقوا تاشفين في داخلها، فخرج إلى الجبل المطل عليها، فتردى به فرسه في بعض شعابه، فمات سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. ثم بويع لابنه إبراهيم بن تاشفين، وخلع. فبويع عمه إسحاق بن علي بن يوسف، ثم زحف الموحدون إليها، وقد ملكوا

جميع بلاد المغرب الأقصى والأوسط. فخرج إليهم عسكر إسحاق، فقتلهم الموحدون، وفرّ إسحاق وخاصته إلى القصبة[1]. ثم نزلوا على حكم الموحدين، فأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن، فقتله الموحدون وقتلوا خاصته ودخلوا مراكش.

وانقرضت دولة المرابطين،بعد أن ملكوا المغرب الأقصى والأوسط وعدوة الأندلس، ثمانين سنة. وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر، وكانوا أهل ديانة وصيانة، لم يجروا في أعمالهم مكسا ولا خراجا ولا ما يخالف الشريعة المطهرة. قال ابن الخطيب :

قد طلعت بمغرب لمتونه دولتها عزيزة ميمونة
تجمع دينا وعفافا وكرم لم يُدْرَ قدر فضلها حتى انصرم
فأذعنت لحربها الطوائف وظهرت من قومها خلائف

والملك لله وحده، لا شريك له، يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

ذكر دولة الموحدين

كان القائم بأمر هذه الدولة محمد بن عبد الله "تومرت" الشهير بالمهدي. واختلف النّسابون فيه، فقيل إنه ينتمي إلى الحسن السبط رضي الله عنه وأنكر ابن مطروح ذلك في تاريخه، وقال إنما هو من "هرغة" من بطون "المصامدة" من البربر. ارتحل في أول الخمسمائة

1. القصبة : تعبير شائع في الشمال الإفريقي، للمدينة المسورة في الغالب. وهي اليوم تعني "المدينة القديمة" بعد أن شاع البناء خارج الأسوار.

إلى المشرق لطلب العلم، ولقي جماعة من مشاهير العلماء، فاستفاد علما واسعا ثم انطلق راجعا إلى المغرب سنة عشرة وخمسمائة وأخذ بالإنكار على الناس. وألزمهم إقامة الصلوات، واجتناب المنكرات. وكان على مذهب الأشعري، في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث. وأنكر على أهل المغرب أخذهم بمذهب السلف، في إقرار المتشابه، كما جاء، وكفّرهم بذلك. وكان يقول بعصمة الإمام، وينتحل القضايا الاستقبالية، ويشير إلى الحوادث الآتية. وفي أيام إقامته بنواحي "بجاية"، اتصل به "عبد المؤمن الكومي التراري" فاستصحبه إلى المغرب الأقصى. واستمر على ما هو عليه في زعمه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ودخل مراكش؛ فكثرت أتباعه. ولما اشتهر أمره، استحضره أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى مجلسه، وناظره الفقهاء بين يديه، فغلبهم. فأخرجه من مراكش، فلحق بجبال "المصامدة" ونزل على "هرغة" وبنى رباطا للعبادة، واجتمع عليه خلق كثير. فجعل يعلمهم التوحيد بلسانهم، عل مذهب الأشعري. ثم دعاهم إلى بيعته على التوحيد، وقتال المرابطين، وأنه المهدي المنتظر. فبايعوه على ذلك. ثم كثرت جيوشه، فأرسل أمير المسلمين علي بن يوسف جيشا لقتاله، فهزمهم. وقويت نفوس أتباعه، ووفدت إليه قبائل المصامدة، وغيرهم من البربر يبايعونه. وعظم أمره، وترددت إليه عساكر المرابطين مرات ففضهم. ثم ارتحل إلى جبل "تينملل" واستوطنه، وبنى فيه دارا ومسجدا. وسمى عامة أصحابه "الموحدين" ولم يزل أمره يعلو فلم تهزم له راية إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة. فجهز جيشا لنظر صاحبيه :

"الوانشريسي" و "عبد المؤمن" وسيرهم إلى مراكش، فحصروا أمير المسلمين فيها عشرين يوما ثم خرج إليهم واقتتلوا. فقتل الوانشريسي وانهزم عبد المؤمن بجيشه إلى الجبل. ولما بلغ المهدي خبر هزيمة عساكره، وكان مريضا، أوصى أصحابه باتباع عبد المؤمن وعرّفهم أنه هو الذي يفتح البلاد، وسماه أمير المؤمنين. ولما توفي، دفنه أصحابه في داخل مسجده، وكتموا موته، وعهده بالخلافة إلى عبد المؤمن، خوفا من تفريق الكلمة. وأقاموا يدبرون الأمور ثلاث سنين. ثم تقدم الشيخ أبو حفص "الهنتاني" رئيس قبيلته، إلى عبد المؤمن وقال له : "نقدمك، كما كان الإمام يقدمك". وأعلنوا بيعته. وأمضوا عهد الإمام بخلافته. وحملوا القبائل على طاعته، فأقام عبد المؤمن في "تينملل" يؤلف القلوب، ويأخذ في الاستعداد إلى أن استكمل أمره، فخرج إلى "تادلة" و"درعة" فاستولى عليهما. وانتقض البربر وسائر المغرب علي المرابطين. وفي سنة أربع وثلاثين؛ غزا ولم يرجع إلى "تينملل" حتى استولى على المغربين الأوسط والأقصى. واحتل مراكش سنة إحدى وأربعين. وفي سنة ثلاث وأربعين، استولى على "قرطبة" و"قرموتة" و "جيان" من الأندلس. وفي سنة ست وأربعين، فتح إفريقية بأسرها وفتح مدينة "المرية" و"وابرة" و"بياسة" من الأندلس. وفي سنة خمسين، فتح "غرناطة" وفي سنة أربع وخمسين، رجع إلى إفريقية، وأجلى جميع الثوار منها، ونازل المهدية، وكانت في يد الإفرنج، فأخرجهم منها، سنة خمس وخمسين. ووصلت جيوشه إلى "سرت" و"برقة" فيما وراء طرابلس. ثم رجع إلى المغرب. وفي سنة سبع وخمسين؛ خرج من مراكش إلى "سلا"

قاصدا الجواز إلى الأندلس، فمرض بها ومات. وكانت مدته ثلاثا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما وهو الذي جمع أهل المغرب كافة على مذهب الأشعري في الأصول، وعلى مذهب الإمام مالك في الفروع. قال ابن الخطيب :

ونجـح المهـدي وهـو الداهيـة　فأصبحت تلـك المبـاني واهيـة
لم يـألُ فيهـا أن دعـا لنفـسه　وكـان في الحـزم فريـد جنـسه
وعنـــده سياســـة وعلـــم　وجـــرأة وكـــرم وحلـــم
ووافــقت دولتـــه في النــاس　لدولة المستـــرشد العبـــاســـي

وأوصى بالخلافة لولده يوسف، فبويع ولقب بأمير المؤمنين. واستقامت له الأمور، لحسن تدبيره ومتانة دينه. وأجاز إلى الأندلس مرات. وكانت له فيها عدة غزوات، استظهر في جميعها على الإفرنج، وافتتح أمصارا وحصونا. وفي سنة ثمانين وخمسمائة، أجاز إلى الأندلس إجازته الأخيرة، فاحتل بجبل الفتح، وسار إلى إشبيلية، فوافته فيها حشود الأندلس. ووصل إلى "شترين" فحاصرها، وخرج النصارى من الحصن، فوجدوه في غير أهبة، فحملوا عليه، فأبلى هو ومن حضر معه. ثم أصابه سهم، فحمله ابنه يعقوب، وانصرف إلى إشبيلية. فمات في الطريق وكانت مدته اثنين وعشرين سنة. وبويع ولده يعقوب، وتلقب بالمنصور ثم أجاز إلى مراكش، وباشر الأحكام، وأقام راية الجهاد، وحصن الثغور والبلاد، وأحسن بالمرتبات على العلماء، وبنى المساجد والمدارس في جميع إيالات المغرب وإفريقية والأندلس. وأنشأ بها عدة مارستانات. وأوقع بالإفرنج عدة وقعات، منها "وقعة الأرك" في نواحي

"بطليوس". وبالجملة فقد كان أجَلّ ملوك الموحدين، وأبعدهم صيتا، وأعلاهم همة. وكانت أيامه أيام خير وأمن. توفي سنة خمس وتسعين، ودفن بداره في مراكش. وقد كذب من قال : إنه ولع وساح ومات بالبقاع العزيز من أعمال دمشق الشام، ودفن بقرية في رأس الجبل، وقد سميت القرية باسمه. وأكثر أهالي تلك البلاد يعتقدون بذلك. ولذا أكثر حجاجهم يقصدون زيارته عند مرورهم على الشام . وكانت مدته أربع عشرة سنة وأحد عشر شهرا. وولي بعده ابنه محمد ولي عهده، وتلقب بالناصر لدين الله. وفي أيامه، قوي أمر "ابن غانيه اللمتوني" في إفريقية، وتغلّب على جميع أعمالها وخطب للخليفة العباسي، فاتصل خبره بالناصر، فنهض من مراكش سنة إحدى وستمائة؛ فشتت شمل ابن غانية، وأقام بإفريقية إلى سنة ثلاث وستمائة. فاستناب أبا محمد ابن الشيخ أبي حفص "الهنتاني" عليها ورجع إلى مراكش. ثم أجاز إلى الأندلس، فكانت وقعة "العقاب" المشهورة التي كانت الدبرة فيها على المسلمين. ثم رجع إلى مراكش ومات سنة عشر وستمائة. وبويع لولده يوسف، وتلقب بالمستنصر. فتعلب عليه "ابن جامع" وزير أبيه لصغر سنه. وفي أيامه، دخل الوهن على دولة الموحدين، وانثالت الأمور، وظهر أمر "بني مرين". وكان المستنصر مولعا بالخيل والبقر، فخرج في سنة عشرين وستمائة إلى بستانه، وجعل يمشي بين البقر؛ فطعنته بقرة بقرنها فمات. وبويع عمُّ أبيه "عبد الواحد" عن كره منه، في سن الشيخوخة. ثم خُلع وقُتل، لتسعة أشهر. وبويع ابن أخيه عبد الله، وتلقب بالعادل. ثم خُلع وقُتل. ونهب البربر قصره واستباحوا حريمه ثم بويع لأخيه إدريس بن يعقوب،

وتلقب بالمأمون، وهو يومئذ وال على "إشبيلية" فزاحمه يحي بن الناصر، وكان الموحدون بايعوه في مراكش، يوم قُتل العادل ثم اختلفت الكلمة على يحي، فلحق بالجبل. وأجاز المأمون إلى مراكش فدخلها. ثم أشاع النكير على إمامهم المهدي في العصمة، ووضع العقائد والنداء في الصلاة بلسان البربر، وتغيير رسوم الدعوة وأصول الدولة، وإسقاط اسم المهدي من الخطبة والسكة، وإعلان لعنه، وقَتل من خالفه في ذلك من الموحدين. فنكثوا بيعته، وقطعوا خطبته، واستبد الأمير أبو زكريا فيها، وتلقب بالأمير. وفي أيام المأمون؛ استولى ابن هود على الأندلس، وأخرج سائر الموحدين، وأمر بقتلهم. ثم انتقض على المأمون؛ أخوه موسى، ودعا لنفسه "بسبتة" فخرج إليه. وكان يحي بن الناصر بالمرصاد؛ فخالفه إلى مراكش؛ فافتتحها بجيوش العرب. وعاث فيها. وأقلع المأمون عن "سبتة" يريد مراكش؛ فمات في طريقه، سنة ثلاثين. وبويع ولده عبد الواحد، ولقبّ بالرشيد، وفي سنة إحدى وثلاثين، خرج من مراكش إلى الجبل، وأوقع بيحي بن الناصر وجموعه. ولحق يحي "بسجلماسا" وانكفأ الرشيد راجعا إلى حضرته. واستأمن له كثير من الموحدين، فأمّنهم ثم أساء الظن فيهم فقتلهم. وبذلك فسدت قلوب الرعايا عليه، وأخذ أكثرهم بطاعة يحي، وأحضروه من الصحراء، وزحفوا به لمراكش. فخرج الرشيد إلى جبال "المصامدة" وسار منها إلى سجلماسا فملكها. ودخل يحي وجموعه إلى مراكش. وفي سنة ثلاث وثلاثين، خرج الرشيد من سجلماسا إلى مراكش؛ فبرز إليه يحي بجموعه، فانهزمت جموع يحي، ودخل الرشيد إلى مراكش وانتقض الخلط على يحي فنكثوا بيعته. ولحق يحي بعرب "المعقل" بنواحي "تازا" فأجاروه ثم غدروا به.

وفي سنة خمس وثلاثين؛ بايع أهل إشبيلية الرشيد، ونكثوا بيعة ابن هود. وفي سنة ست وثلاثين ، وصلت إليه بيعة ابن الأحمر ، الثائر بالأندلس على ابن هود وفي سنة سبع وثلاثين، اشتدت الفتنة بالمغرب، وانتشر "بنو مرين" في بسائطه. وزحف إليهم الرشيد؛ فهزموه ثلاث مرات. ثم رجع إلى مراكش، واشتد عدوانهم في نواحي "مكناسة". وفي سنة أربعين، توفي الرشيد بمراكش، غريقا في بعض صهاريج القصر، وقام بالأمر بعده أخوه أبو الحسن السعيد. واستخلص لنفسه رؤساء العرب، وانتقض عليه أهل "سبتة" و"إشبيلية" و"سجلماسا". وعقد المهادنة مع "بني مرين". وفي سنة خمس وأربعين، خرج من مراكش، قاصدا تلمسان فتعرض بنو مرين لجموعه في طريقهم؛ فامتلأت أيديهم من أموالهم. وقتل عبد الله بن السعيد فيمن قتل منهم. ولحق الفَلُّ بمراكش، فبايعوا أبا حفص، عمر بن إسحاق، أخا المنصور، وتلقب بالمرتضى. وفي سنة سبع وأربعين استولى أبو يحي بن عبد الحق وقومه بنو مرين على "تازة" و"فاس" وسيأتي تفصيل أخبارهم إن شاء الله تعالى؛ وثار في "سبتة" أبو القاسم "العزفي"، وفي سوس علي بن بدر. وتفاقم أمر بني مرين، وتلاشى أمر الموحدين وضعف المرتضى عن الدفاع. وفي سنة اثنين وستين، أقبل يعقوب بن عبد الحق، في جموع بني مرين؛ فنازلوا مراكش. واتصلت الحرب بينهم وبين الموحدين أياما. وقتل فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق؛ فبعث المرتضى إلى أبيه يعزّيه ويلاطفه. وارتحل عنهم. ثم فرّ "إدريس أبو دبوس" ابن عمّ المرتضى، ولحق بيعقوب بن عبد الحقن صريخا به. واشترط له المقاسمة في العمل والذخيرة؛ فأمدّه بالمال، وأوعز إلى الخلط بمظاهرته، وزحف أبو دبوس إلى مراكش. ووفد عليه جماعة من بني عمه، في جيش من الموحدين

والنصارى. فدخلها على حين غفلة، وفرّ المرتضى إلى جبال "هنتاتة". فبلغه أنهم بعثوا بيعتهم إلى أبي دبوس؛ فعدل عنهم إلى "أزموز" وكان صهره ابن "عطوش" واليا عليها، من قبله. فقبض عليه، وطيَّر الخبر إلى أبي دبوس، فاستلمه منه وقتله. وفي سنة خمس وستين، بلغ أبا دبوس خبر انتقاض بني مرين؛ فأرسل إلى عدوهم "يغمراسن" صاحب "تلمسان" يستعين به عليهم. فلما اتصل الخبر بيعقوب بن عبد الحق، جمع جيوشه، ونهض إلى تلمسان فأوقع ببني "زيان" وقعة "تلاع" التي قتل فيها "يغمراسن" وشُتِّت شمله. ثم رجع إلى فاس، ونهض إلى مراكش، وخرج إليه أبو دبوس، فكرَّ عليه يعقوب بجموعه، ففرّ، فأدركوه وقتلوه. فدخل يعقوب مراكش سنة ثمان وستين وستمائة. وفرّ الموحدون منها إلى جبالهم، بعد أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس ولقبوه بالمعتصم، مدة خمسة أيام. وخرج في جملتهم، وانقرض أمر بني عبد المؤمن والموحدين. والبقاء لله تعالى وحده.

ذكـــر دولة بني مرّيـــن

وهم حيٌّ من زناتة، في أطراف المغربين، ينتجعون الصحارى، ويعطون الدول حق الطاعة. فلمّا رأوا اختلال المغرب الأقصى، أيام المستنصر بن الناصر، خامس خلفاء الموحدين، وعلموا أن الدولة قد تلاشت، وخلت الثغور من الحامية، انتهزوا الفرصة فيه فدخلوه، وتفرقوا في جهاته. وأوجفوا عليه بخيلهم ورجلهم. واكتسحوا سائر بسائطه بالغارة والنهب. فلجأ الناس إلى الجبال والمعاقل. وآذنوا الدولة

بالحرب وكان رئيسهم "عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة" ولم يزل على إمارته ومطاولة الموحدين على الملك إلى أن قتله عرب "رياح" من أولياء الموحدين، في حرب جرت بينه وبينهم، بمداخلة بني عمه أولاد عسكر، سنة أربع عشرة وستمائة. وقام بالأمر بعده، ولده عثمان؛ فأثخن في عرب "رياح" لثأر أبيه. وتغلب على الضواحي. ومدّ يده لأطراف البلاد، يتعرى مسالكها، ويضع المغارم على أهلها حتى دخل أكثر القبائل في أمره، وبايعوه. وفرق فيهم العمال ثم فرض على أمصار المغرب الأقصى ومدنه ضريبة يؤدونها على رأس كل سنة ليكفّ الغارة عنهم، ويصلح سابلتهم. ولم يزل على ذلك إلى أن اغتاله "علجة" سنة سبع وثلاثين وستمائة. فولي أخوه محمد بن عبد الحق، وأخذ الضريبة وجباية المغارم من سائر الرعايا. وبقي عبد المؤمن في ضعف وقصور إلى أن توفيّ الرشيد بن المأمون، أمير الموحدين، وولي أخوه علي الملقب "بالسعيد".فجمع الجيوش ونهض، سنة اثنتين وأربعين وستمائة، من مراكش؛ وزحف إليه بنو مرين، والتقوا بوادي "ماش" فقُتل الأمير محمد بن عبد الحق، رئيس بني مرّين. وانكشف قومه، ولحقوا بجبال "غياثة"، فاعتصموا بها. ثم خرجوا إلى الفقر وولوا عليهم أبا يحي بن عبد الحق. فقام بأمرهم ورجع إلى المغرب، وقسم البلاد بينهم، وأنزل كلّ بطن منهم في ناحية. وبعثوا بيعتهم إلى ابن زكريا الحفصي، صاحب إفريقية. ثم جنح الأمير أبو يحي بن عبد الحق إلى الاستبداد؛ فاتخذ آلة الحرب. واستعمل شعائر الملك. وبلغ خبره إلى الخليفة السعيد؛ فوجم لها، وخطب على أعيان دولته فقال : "هذا

ابن أبي حفص اقتطع إفريقية و"يغمراسن" أمير بني زيان اقتطع تلمسان والمغرب الأوسط، وابن هود اقتطع الجانب الغربي من الأندلس، وابن الأحمر اقتطع الجانب الشرقي منه. وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب الأقصى، ثم سموا إلى تملك أمصاره".

فاغتاظ قومه لذلك؛ فجهز السعيد عسكره، واحتشد عرب المغرب، ونهض من مراكش. ولما علم أبو يحي أنه لا طاقة له على محاربته، أفرج عن البلاد. ولحقه بنو مرّين، واجتمعوا إليه "بتاظوظا" من بلاد الريف. ثم انتقلوا إلى جبل بني "يزناسن" ونزلوا "بعين الصفا". ولم يزل أبو يحي على شأنه في فتح البلاد إلى أن توفي بفاس، سنة ست وخمسين وستمائة. وتصدى للقيام بالأمر بعده، ابنه عمر، وأهل الحل والعقد مائلة إلى عمه يعقوب بن عبد الحق. وكان يومئذ في "تازة". فبقي الأمر في اضطراب إلى أن اجتمعت الكلمة على يعقوب؛ فدخل "فاس" وملكها، سنة سبع وخمسين، واستجمع للاستيلاء على مراكش، ولم يزل ينازلها إلى أن تمكن من دخولها، سنة ثمان وستين وستمائة. واستقام له أمر المغرب الأقصى كله، وهو أول من تلقب "بأمير المسلمين" من ملوك بني مرّين. ثم اشتغل بالجهاد، فأجاز إلى عدوة الأندلس مرات وكان له فيها الظفر العظيم. ولما رأى ملكه قد استوثق، اختط المدينة الجديدة لصيق فاس بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه، وشرع في تأسيسها سنة أربع وسبعين وستمائة. ولما كمل تشييدها، نزلها. ثم أوزع ببناء قصبة مدينة "مكناسة". ولم يزل قائما بأمر الجهاد و إصلاح أمر رعاياه إلى أن مات سنة خمس

وثمانين وستمائة. وبويع ولي عهده أبو يعقوب يوسف. ففرق الأموال وقبض أيدي العمال عن المظالم، ورفع المكوس، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة، واتبع سنن والده في الجهاد، وقهر بني زيان. وراسلته ملوك الشرق، وأوفدت عليه أعيانها. وامتدت مملكته من "سوس" الأقصى إلى "بجاية" في حدود إفريقية من الجهة الغربية. ولم يزل في عظمة سلطانه إلى أن قتله خصيٌّ من خصيانه، سنة ست وسبعمائة وهو محاصر لتلمسان. وبالجملة؛ فهذه الدولة من أعظم دول المغرب. وأقواها وأحسنها سيرة، ذكرها ابن الخطيب بقوله :

وأورث الله بلاد المغرب	للسادة العزّ الكرام والنُجُب
أولي الخيول والرماح والهمم	أقوى بني الدنيا وأوفى بالذِّمم
وأدرب الخلق بركض الخيل	وخوضِ أحشاء الفلا والليل
قاموا وقد بان اختلال الطاعة	لمذهب السنّة والجماعة
واستخلصوا المغرب بالسيوف	في خبر مستطرف معروف
فشمل الأقصى به والأدنى	أمرهم وقام منه المبنى

ولم يزل أمرهم، منذ دخلوا المغرب، مستقيما، وحماهم منيعا، وكلمتهم متحدة إلى أن مات سلطانهم أبو سالم إبراهيم بن علي بن عثمان بن عبد الحق سنة اثنتين وستين وسبعمائة. وتولى "تاشفين"، وتغلب الوزير عمر بن عبد الله على الأمر؛ فتفرقت الكلمة، وانتزى الثوار من أعيانهم بقاصية الملك، وانقسمت الدعوة بينهم في مراكش وسجلماسا وسبتة. وانحصرت السلطة في فاس وأعمالها. وفي أيام "أبي فاس بن العباس" سنة سبع وتسعين وسبعمائة، أخذ الفشل يدبُّ

في أعضاء الدولة، واستمروا على أخذ الناس باللين إلى أن قام الأمير السيد "محمد بن علي بن عمران الإدريسي" على عبد الحق بن أبي سعيد بفاس؛ فبايعه أهلها وتمّ له الأمر. وبانتهاء أيامه، انقرضت دولة بني عبد الحق الأول بن محيو بن أبي بكر، مؤسس دولة بني مرين. ولله الأمر من قبل ومن بعده.

ذكر دولة بني وطاس وهم فرقة من بني مرّين

ولما اقتسم بنو مرين الأعمال كانت بلاد الريف لبني وطاس. وكان بنو الوزير أبي زكريا "يحي بن زيان الوطاسي" يتشوفون إلى الرئاسة، والخروج على بني عبد الحق، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين لأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين. فلحقوا ببني وطاس، وفر أبو عبيد الله محمد الشيخ ابن الوزير إلى الصحراء، خوفا من السلطان عبد الحق بن أبي سعيد، حين قتل جماعة من عشيرته. وبقي يتردد في الصحراء إلى أن ملك "أصيلا" واستفحل أمره بها، فكاتبته أعيان فاس ورؤسائها، يدعونه للقدوم عليهم، ويعدونه بالنصرة. فنهض من "أصيلا" إلى فاس وحاصرها، وفرّ صاحبها، الأمير محمد بن علي الإدريسي، ودخلها محمد الشيخ. فبايعه أهلها سنة ست وسبعين وثمانمائة. وفي أيامه، تمّ استيلاء "الإسبانيول" على عدوة الأندلس وغرناطة. ولحق سلطانها "أبو عبد الله بن الأحمر" بفاس واستوطنها، تحت كنف السلطان محمد الشيخ. فبالغ في احترامه وبقي بها إلى أن توفي سنة

أربعين وتسعمائة في حرب "الوطاسيين" مع "السعديين". ثم استولى "البرتغال" على أكثر سواحل المغرب. وفي سنة عشر وتسعمائة، توفي محمد الشيخ، وبويع لابنه "محمد" المشهور "بالبرتقالي". ولما تم له الأمر، نهض إلى مراكش، وحاصر بها أبا العباس السعدي. ولما بلغه أنّ بني عمّه قد نبذوا طاعته، ارتدّ إلى فاس، وعهد إلى أخيه "أبي حسون" المعروف "بالبادسي". فقام عليه ابن أخيه أبو العباس أحمد بن أحمد البرتقالي؛ فخلع سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة. وبويع أبو العباس أحمد. وجرت بينه وبين السعدي، قرب مراكش، حروب عظيمة دامت أياما. ثم تصالحا على أن للسعديين من "تادلا" إلى "سوس"، وللوطاسيين من "تادلا" إلى المغرب الأوسط. وبعده انعقد الصلح بينه وبين البرتقال، وتحسنّت الأحوال. ثم إن السلطان محمد الشيخ السعدي نقض ما جرى من الصلح بين الوطاسيين والسعديين، وقام على أخيه أبي العباس الأعرج، واستولى على مراكش، ونهض إلى فاس، وحاصرها سنة. ثم استولى عليها سنة ست وخمسين وتسعمائة. وقبض على أبي العباس، وأرسله مع الوطاسيين مصفّدين إلى مراكش. وفرّ أبو حسّون الوطاسي إلى الجزائر، مستصرخا بالأتراك على من تغلب على ملكه وملك آبائه، ووعدهم بالأموال الجزيلة إن نصروه عليه. فأجابوه لذلك، وشيّعوا معه جيشا كثيفا، تحت راية "صالح باشا التركماني". فانقلب بهم إلى فاس، ودخلها بعد حروب عظيمة، وفرّ محمد الشيخ السعدي إلى مراكش. ولما استقر أبو حسّون، دفع للأتراك ما وقع عليه الاتفاق، ورجعوا إلى الجزائر، وتخلف عنده منهم نفر يسير. ولما وصل محمد الشيخ

إلى مراكش، صرف عزمه للانتقام من أبي حسون، فاستنفر القبائل، ونهض بها إلى فاس. فخرج إليه أبو حسون، وكانت الهزيمة عليه. فانقلب إلى فاس وتحصن بها، وحاصره محمد الشيخ إلى أن ظفر به وقتله، واستولى عل فاس سنة إحدى وستين وتسعمائة، وصفا له الأمر. وبهلاك أبي حسون، انقرضت الدولة المرّينية، من أرض المغرب. والملك لله الواحد القهّار.

ذكر دولة السعديين

وأصلهم من أشراف ينبع النخل. استوطن أسلافهم "درعة"، ولما نشأ فيهم أبو عبد الله محمد، القائم بأمر الله، على عفاف وصلاح، بايعته أهل "سوس" حين احتاطت بهم جيوش البرتقال من كل جهة. فنهض إلى "تاورنت" واستولى عليها ثم زحف إلى "أكادير" وقاتل البرتقال، مدّة لم ينجح بها. فندب الناس لبيعة ولده الأكبر، أبي العباس المعروف "بالأعرج" فبايعوه، سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة. ولما تمّ له الأمر، ندب الناس إلى جهاد البرتقال، وإخراجهم من ثغور المغرب. فحصل له النصر والظفر وأخرجهم من أحواز "تيلمست" و "إسفى" وغيرها. فبعد صيته، وانتشر ذكره، وكاتبه أمراء "هنتاتة" ملوك مراكش، للدخول في طاعته. فأجابهم، وانتقل إلى مراكش واستقر بها ثم حدثت بينه وبين أخيه ووزيره أبي عبد الله محمد الشيخ، نفرة أدت إلى حروب استفحل بها أمر محمد الشيخ. فقبض على أخيه وأولاده،

وأودعهم السجن، وأصبح ملكا بعد أن كان وزيرا. ثم استولى على فاس وغرّب الوطّاسيين إلى مراكش، وقتل أبا حسون الوطاسي. ولما تمّ له أمر المغرب الأقصى، تاقت نفسه إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط. فنهض من فاس إلى تلمسان، ودخلها بعد أن حاصرها تسعة أشهر. ونفى الأتراك منها، واتسعت خطة مملكته، ودانت له البلاد. ثم كرّت الأتراك عليه، وأخرجوه من تلمسان، فعاد إلى فاس. ثم ارتد إلى تلمسان وحاصرها أياما، وأقلع عنها. وفي سنة خمس وستين وتسعمائة، اغتيل وقتل. وكان : أديبا، متفننا، عالما بالتفسير والحديث، يخالف القضاة ويردُّ عليهم فتاويهم، فيجدون الصواب معه. وكان يحضُّ على المشاورة، لاسيما في حق الملوك، ويقول : ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل، ولا يحسن ذلك إلا منه لأن رعيّته تصلح بطول أمله. ومن مآثره، اختطاط مرسى "أكادير"، وإجلاء البرتقال من "نونيّ". ولما قتل، كان ولده عبد الله، الغالب بالله، بفاس. فبايعه أهلها، ووافقهم عليها أهل مراكش. وبادر خليفته بمراكش، القائد أبو الحسن عليّ بقتل أبي العباس الأعرج، المخلوع وأولاده. ولما استوثق الأمر للغالب بالله، وتمهّد له ملك أبيه، نهض حسن بن خير الدين باشا، صاحب تلمسان، في جيش كثيف، إلى فاس. فخرج إليه الغالب بجيوشه، والتقيا "بوادي اللبن" من أحواز[1] فاس. فانهزم حسن باشا. ولما قفل الغالب بالله، أمر بقتل أخيه عثمان لأمرٍ نقمَهُ عليه. وأرسل ابن أخيه الوزير أبا عبد الله محمد بن عبد القادر،

1. أحواز : تعبير منتشر في الشمال الإفريقي كله، يعنون به : البساتين.

لحصار مدينة "شفشاون". فاستولى عليها وخرج صاحبها الأمير أبو عبد الله فيمن خرج إليه، من أهله وأولاده، إلى "ترعة" وركب البحر إلى المدينة المنورة واستقام بها إلى أن توفيّ. وبه انقرض أمر بني راشد، أمراء "شفشاون". ثم جهّز جيشا كثيفا، عقد عليه لابنه محمد، المعروف "بالمسلوخ" وأرسله لحصار "البريجة" المسماة "بالمدينة الجديدة" التي بناها البرتقال. فحاصرها ستين يوما، ولم يتيسر له فتحها. وفي سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، توفي الغالب بالله بمراكش. ومن مآثره : بناء جامع الأشراف بمراكش، والمارستان، وأوقف عليهما أوقافا عظيمة. ولما توفي، كان ولي عهده، ولده محمد المتوكل على الله، بفاس. فأرسلت البيعة له من مراكش. واستمر أمره منتظما إلى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة. وكان عمه عبد الملك وأخوه أحمد المنصور، في "سجلماسا" سائر أيام أبيهما. ولما تولى الغالب بالله، فرّا إلى تلمسان، واستنصرا بصاحبها حسن باشا ابن خير الدين. وذهبا إلى القسطنطينية، وتواقعا على حضرة السلطان الغازي "سليم خان" بان ينجدهما بجيش، يسترجعان به ما كان بيد أبيهما. ثم توجه عبد الملك،مع عمارة الدولة العلية، إلى تونس. ورجع بعد فتحها، إلى القسطنطينية،وطلب من حضرة السلطان "سليم خان" ما طلبه سابقا، فأجاب طلبه. وكتب إلى والي الجزائر أن يعينه بما يحتاج إليه. فأصحبه الوالي بجيش من الأتراك. ولما وصل لأحواز فاس، خرج المتوكل على الله للقائه، فبلغه وهو في القتال، أن بعض جنده، قد أصرّ على الغدر به، فأوقد النار في خزائن البارود، وفرّ من المعركة إلى مراكش،

واستولى عبد الملك على فاس. وطمحت نفسه إلى أتباع ابن أخيه إلى مراكش، ولما عزم على المسير، طلب الأتراك رجوعهم إلى بلادهم، فأعطاهم ما اتفق معهم عليه من المال، وزادهم من التحف والطرف الغوال، وودّعهم بنفسه إلى نهر "سيبوا". ثم نهض إلى مراكش لمنازلة ابن أخيه. ولما سمع المتوكل على الله بخروج عمه إليه، تهيأ لملاقاته، والتقى الفريقان "بخندق الريحان" من أحواز "سلا" فانهزم المتوكل، وفرّ إلى "سوس". ودخل عبد الملك إلى مراكش، ولم يزل المتوكل على الله، يجول في جبال سوس، إلى أن اجتمعت عليه طائفة، فجاء بها إلى مراكش، فخرج عبد الملك للقائه. وخالفه المتوكل في طريقه، ودخل مراكش، باتفاق أهلها. فرجع عبد الملك وحاصره بها، وكتب إلى أخيه أحمد، الخليفة بفاس، أن يأتيه؛ فأتاه بجيشه. وفّر المتوكل إلى "سوس" فتبعه أحمد المنصور، ووقعت بينهما مواقع، توالت الهزائم فيها على المتوكل. وفرّ إلى "باديس" ومنها إلى "سبتة"، ثم دخل طنجة، مستصرخا بحاكمها، فأجابه بشرط : أن تكون سائر السواحل للبرتقال، وله ما وراء ذلك ! ثم خرج قائد البرتقال، بمائة وعشرين ألف مقاتل، وكان مع المتوكل ثلاثمائة من أصحابه، ولم يزالوا سائرين إلى أن عبروا "وادي المخازن" فزحف عليهم السلطان عبد الملك، بجيوش المسلمين وأمر بهدم القنطرة ليقطع عليهم خطّ الرجعة. ولما التقى الجيشان، واشتد الحرب؛ توفي السلطان عبد الملك عند الصدمة الأولى -وكان مريضا، يقاد في محفّ- يطلع عل وفاته إلاّ حاجبه، وقائد المحفة. فصاروا يقدمون المحفة أمام الجيش ويقولون للجند : "إن السلطان يأمركم بالتقدم إليهم" إلى أن

منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدوّ يقتلون ويأسرون. وقُتل قائد البرتقال، غريقا في الوادي. وبُحث عن المتوكل؛ فوجد غريقا أيضا. فأخرجوه، وسلخ، وحُشي جلده تبنا. وطيف به في مراكش وغيرها، وهذه الواقعة من أعظم الوقائع، دامت خمسة وأربعين ساعة. وكانت سنة ست وثمانين وتسعمائة. ثم بويع لأخيه أبي العباس أحمد المنصور بالله، المعروف "بالذهبي". ولما تمّ له الأمر، كتب البشائر إلى حضرة السلطان "مراد خان" بما حباهم الله من النصر، فوردت عليه الوفود والهدايا من حضرة السلطان "مراد خان" ومن حاكم الجزائر، وملك البرتقال والإسبانيول. وعقد العهد لابنه محمد الشيخ الملقب "بالمأمون". ثم ثار عليه ابن أخيه "داود بن عبد المؤمن" في جبل "سكسيوة" ودعا لنفسه، فبعث إليه المنصور جيشا فقاتله، إلى أن فرّ واستقر عند عرب "الودايا" إلى أن مات. واستولى المنصور على صحراء "توات" و"السودان" وبايعه صاحب "بُرنو" وفتح مدينة "كاغو" وقتل سلطانها إسحاق. ثم سار الناصر بن الغالب بالله ببلاد الريف؛ فأقلق المنصور جنده، وبعث إليه جيشا وافرا. فهزمه الناصر، واستفحل أمره. فأمر المنصور وليذَ عهده المأمون بمنازلته؛ فخرج إليه من فاس، وكانت الدبرةُ على الناصر، فقبض عليه، واحتزّ رأسه، وبعث به إلى مراكش، ثم ثار المأمون على أبيه بفاس . فنصحه والده، ولما أصر ولم يقبل النصيحة؛ خرج إليه والده من مراكش في إثني عشر ألف مقاتل، قاصدا فاس. ولما بلغ المأمون ذلك؛ فرّ إلى "قشتالة" فقُبض عليه، وأرسل إلى النصور، فبعثه إلى "مكناسة" وسجن بها.

وفي سنة اثنتي عشر وألف، توفي المنصور بالوباء في فاس. ومن مآثره: بناءُ القصر البديع بمراكش، وحصنُ ثغر العرايش، ومعامل السكّر، واعتناؤه بالمولد النبويّ والأعياد. وكان حسن السياسة، حازما، مشاورا في المهمات. وكان يكاتب أولاده وعماله بكناية مخصوصة، وتعرف الآن بالشفرة[1]. وكان موادعا لسلاطين بني عثمان، يهاديهم ويهادونه. وكتب إليه حضرة السلطان "مراد خان" : لك عليّ العهد، أن لا أمدّ يدي إليك إلا للمصافحة، وأن خاطري لا ينوي لك إلاّ الخير والمسامحة. وبعد دفنه، بايع أهل فاس، ولده "أبا المعالي زيدان". وبايع أهل مراكش، أخاه "أبا فارس". ولما بلغ زيدان ذلك، خرج من فاس لقتال أخيه، فانتحل له أخوه مكيدة، عادت عليه، وهي إطلاق أخيه المأمون من السجن، وإرساله في جيش كثيف لملاقاته. ولما التقى الجيشان "بجواتة"، فرّ عن زيدان أكثر جيشه، فارتد إلى فاس وتحصّن بها. ولما وصلها المأمون، فرح به أهلها وبايعوه. وفرَّ زيدان إلى تلمسان، مستصرخا بحاكم الجزائر. ولما استقل المأمون بفاس؛ جهز جيشا لقتال أخيه أبي فارس، تحت راية ولده عبد الله. ووقعت الهزيمة على أبي فارس، فنجا بنفسه. ودخل عبد الله مراكش وأباحها، واستقرّ بها، وساءت سيرته. ولما قطع زيدان الأمل من إمداد حاكم الجزائر، رجع إلى سوس فكاتبه أهل مراكش، ولما حضر إليها، فرَّ عبد الله إلى

---

1. الشفرة : لفظ منحوت من اللاتينية، "شيفر"وهو –في الأصل" مأخوذ من العربية "الجفر"... ويسمونه "علم الحروف" يدعي أصحابه أنهم يعرفون به الحوادث إلى انقراض العالم ... وهو الآن علم المكاتبة بالرموز والأرقام للسرية والتعمية على غير المتكاتبين...

أبيه في أسوأ حال. فجهز له أبوه جيشا، وأرجعه إلى مراكش. والتقى الجمعان "برأس العين" وكانت الهزيمة على زيدان. ففرَّ ودخل عبد الله مراكش. ثم سار أبو حسّون محمد عبد المؤمن من أولاد أبي العباس الأعرج، وخرج من جبل "جليز" قاصدا مراكش. فخرج إليه عبد الله، وكانت الهزيمة عليه. ودخلها أبو حسون واستولى عليها. ثم كتب أهل مراكش إلى السلطان زيدان، فنزل بجيشه خارج المدينة. وخرج أبو حسون إلى لقائه، فكانت الدبرة عليه. واستولى زيدان على مراكش وأرسل قائد جيشه "مصطفى باشا" إلى فاس، فدخلت في طاعته. وفرّ عبد الله إلى القسطنطينية مستصرخا. ولما دخل زيدان إلى فاس، واستقام بها، بلغه قيام بعض الثوار في ناحية مراكش، فنهض إليها. ثم بلغه قتل مصطفى باشا، فرجع إلى فاس. واستولى الإسبانيول على "العرايش" بدسيسة عبد الله. ثم فتك "أبو الليف بعبد الله، وقتله مع بعض أولاده. ثم ثار الفقيه أحمد بن عبد الله السجلماسي، المعروف "بأبي محليّ" واستولى على سجلماسا ودرعة ومراكش، وكثرت جموعه. ولما علم زيدان ضعفه عن مقاومته؛ استغاث بالفقيه "زكريا الحاجي" صاحب "جبل درن" فلباه، وخرج بجيوشه سنة اثنين وعشرين وألف، قاصدا مراكش. فبرز إليه "أبو محليّ". ولما التحم القتال، قتل أبو محليّ، وعلق رأسه على سور مراكش. ثم ارتحل زكريا إلى بلاده، مظهرا العفّة عن الملك، بعد أن استقر بمراكش أياما واتصلت بينه وبين زيدان المراسلات إلى أن مات زيدان بمراكش سنة سبع وثلاثين وألف. وبويع لابنه "عبد الملك". فثار عليه اخواه

"الوليد" و"أحمد" ووقعت بينه وبينهما حروب، أنتجت هزيمتها. ودخل "فاس" بسمة السلطان، وضرب السكة باسمه. ثم عدا عليه ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف "بزغودة" وقتله غدرا. وبويع لأخيه الوليد، ولم يتجاوز سلطانه مراكش وأعمالها، على ما كان لأخيه وأبيه. وفي زمنه، ظهر أبو عبد الله العياشي "بسلا" واستولى على فاس وسائر ثغور المغرب. وظهر "أبو حسون السمارالي" المعروف "بأبي دميعة" بسوس، واستولى على درعة وسجلماسا. وكان الوليد يتظاهر بالديانة، ولين الجانب غير أنه كان يقتل الأشراف، من إخوته وبني عمه. وفي سنة خمس وأربعين وألف عدا عليه بعض جنده، وقتله غدرا، وبويع لأخيه محمد الشيخ ،وكان في سجن الوليد. فسار سيرة حميدة. وثار عليه رجل من "هشتوكة" ولم يزل يناوشه القتال حتى فرّق جمعه. ثم ظهر أهل "زاوية الدلاء" بجبال "تادلا" وقويت شوكتهم. ولما أحس محمد الشيخ بالضعف من مقاومته، أرسل إلى قاضيه الفقيه، محمد الزوار المراكشي، أن يطلب منهم اجتماع الكلمة، فلم يلتفتوا إليه. فصرف عنانه عن مقاومتهم، ومال إلى مسالمتهم، وبقي بمراكش إلى أن قتل. ثم بويع ابنه أبو العباس أحمد، فقام مقام أبيه في جميع ما كان بيده. وقويت في أيامه شوكة أخواله، وهو حيٌّ من "الشبانات". فوثبوا عليه، وحاصروه بمراكش. ولما رأت والدته أن الأمر لا يزداد إلا شدّة، أشارت عليه بالذهاب إلى أخواله، وإزالة ما في نفوسهم. ولما وصل إليهم، قتلوه غيلة، ودخلوا مراكش، وبايعوا فيها لأميرهم عبد الكريم

بن أبي بكر، سنة تسع وستين وألف. وبأبي العباس، ختمت دولة السعيديين والبقاء لله وحده.

ذكر إمارة الشبانات من عرب المعقل

أولهم الرئيس "عبد الكريم" المعروف عند العامة "بكروم الحاج" ابن القائد أبي بكر الشباني. بويع له بعد قتل أبي العباس السعدي. وسار في الناس سيرة حميدة. فانتظمت مملكة مراكش ونواحيها. ثم انتقضت عليه "إسفى" وأعمالها، فغزاهم ورجع مغلولا إلى مراكش.فسطا عليه بعض جنده وقتله. وبويع لولده أبي بكر، واستمر بها إلى أن بويع المولى رشيد السجلماسي؛ فأخذ منه مراكش، وقبض عليه، وتنبّع عشيرته بالقتل حتى أفناها. وأخرج عبد الكريم سنة تسع وسبعين وألف، وأحرقه . وانقرضت إمارة الشبانات. والملك لله وحده.

ذكـــر دولة السجلماسيين

أصلهم من "ينبع النخل". دخل المغرب جدّهم الأعلى "حسن بن قاسم" في القرن السابع، واستوطن سجلماسا، وتوفي محمد عن حسن، وتوفي حسن عن عبد الرحمن، وعليّ. وتوفي علي عن خمسة أولاد منهم عليّ، وتوفي عليّ عن ثلاثة أولاد، منهم محمد. وتوفي محمد عن علي الشريف. وفي سنة خمسين وألف هجرية، بايع أهل سجلماسا محمد بن علي، الشريف المذكور، في حياة والده ،وهو أول من بويع منهم، ولم يزل ملك

المغرب الأقصى بأيدي أعقابه يتوارثونه إلى زمننا هذا، والسلطان فيه سنة ألف وثلاثمائة وخمسة عشر، عبد العزيز.

ذكر دولة بني زيان وهم بنو عبد الواد

ويجمعهم مع بني مرين أصل واحد. ولم تزل الحرب بينهم قائمة على ساق منذ كانوا في القفر. واستمروا على ذلك، بعد دخولهم على تلول المغرب. وكان أميرهم لأول خروجهم عن طاعة الموحدين "أبا عزّه زكراز بن زيان بن ثابت". ولما مات، تولى بعده أبو يحي "يغمراسن". فاستمر عل ما كان عليه أخوه وقومه، من الخروج عن الدولة. ثم تغلب على تلمسان والمغرب الأوسط، وانتزعها من يد بني عبد المؤمن. وحسّن السيرة واستمال عشيرته وأخلافهم عن عرب "زغبة"، بحسن السياسة والاصطناع. واتخذ آلة الملك؛ وجند الأجناد. مما آثار الدولة المؤمنية. ولم يترك من رسومها إلا الدعاء عل المنبر للسلطان بمراكش، وتقليد العهد من يده. وكانت له مع ملوك الموحدين، ومن يليهم من آل حفص ملوك إفريقية، مواطن في التحرش به، ومنازلة بلده، وحروب هائلة. وبالجملة؛ فقد كان "يغمراسن" هذا، صاحب سياسة عجيبة، وقوة دهاء. وهو أوّل ملوك بني زيّان. قال ابن الخطيب :

أول مـــلاك لهـــم يغمـــور	ليثُ الشرى والبطـل المـشهور
تُــثني عليــه حومــة الميــدان	مــا لا مــريء ببأســه يــدان
لاقى الجيوش من بني مرين	كالليث يحمي جانب العرين

ولما تمّ له ملك المغرب الأوسط، أثار ما كان بين قومه بني زيان، وبين بني مرّين، من العداوة القديمة؛ فأضرم نار الحرب، وركب أخطارها. وأشدّ ما كان بينهم في أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني، وأشهر وقائعه، وقعة "وادي تلاغ" سنة ست وستين وستمائة، ثم وقعة "يسلي" قرب "وجدة"، ثم وقعة "خرزوزة"، ثم وقعة وادي "تافنا" و"تاسولت". وكانت الدبرة في جميعها على "يغمراسن" ونازله يعقوب في دار ملكه، تلمسان مرّات. فامتنع عليه بالأسوار. ثم قُتل "يغمراسن" سنة إحدى وثمانين وستمائة، وبويع ولده عثمان، وليّ عهده. ثم توفي السلطان يعقوب بن عبد الحق، سنة خمس وثمانين، وقام بالأمر ابنه يوسف بن يعقوب، وطالب عثمان ابن "يغمراسن" في "ابن عطو" فأبى عثمان أن يسلمه، فتحركت حفيظة يوسف، وعزم عل غزوهم. فارتحل من مراكش إلى فاس. ثم نهض منها حتى نزل تلمسان. فانحصر عثمان وقومه داخلها، ولاذوا بالسوار؛ فأقلع عنها، وسار في نواحيها، يخرّب العمران. ثم عاودها سنة سبع وتسعين، وأحاط بها. ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر. ومرّ في طريقه بوجدة ،وقد أخر بها بنو زيان، فأمر بتجديد بنائها واستعمل أخاه أبا يحي بن يعقوب عليها، ولحق بالمغرب الأقصى، وجمع شأنه. ثم عاود منازلة تلمسان سنة ثمان وتسعين، وأحاط من جميع جهاتها. واختط لنفسه، إلى جانب الأسوار بلدة سماها "المنصورة" وأقام سنين، يغاديها ويراوحها بالقتال. وسرّح عسكره لافتتاح المغرب الأوسط. فملك بلاد "مغراوة" ونواحي "شلف" و"تاهرت" ثم خيّم بمكانه، محاصرا لتلمسان. ومات عثمان،

سلطان بني زيان، سنة ثلاث وسبعمائة. وقام بالأمر بعده ابنه "أبو زيان محمد" وبلغ الخبر إلى يوسف بن يعقوب، فتفجّع له، وعجب من صرامة بني زيان من بعده.. ومات أبو زيان أثناء الحصار. وقام بالأمر بعده أخوه "أبو حمو موسى بن عثمان" واستمر حصاره إياهم ثمان سنين وثلاثة أشهر، ولحقهم فيها جهد شديد حتى أكلوا أشلاء الموتى، وهلكت أموالهم، وضاقت أحوالهم، واستفحل ملك يوسف بن يعقوب حتى أدركه أجله على يد خصيٍ من خصيانه. وكان قتله فرجا عظيما على "أبي حمو". ووقع الفشل في عسكر بني مرين لما قتل سلطانهم. واختلفت كلمتهم، وارتحلوا عن تلمسان، راجعين إلى المغرب الأقصى. وأقبل "أبو حمو" على لمِّ شعته. وكان يقوم بحقّ ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل لها بما فوق سائر المواسم : يقيم مدعاة بمشورة من تلمسان، يحشر لها الأشراف والسوقة. فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وبسط موشاة، ووسائد بالذهب مغشاة، وشمع كالأسطوانات، ومباخر منصوبة كالقباب، يخالها الناظر تبرا مذابا. وأعيان الحضرة على مراتبهم، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال، تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات، ينال كلٌ منها بحظه، وخزّانات بها الساعات، ذات تماثيل لجبن، محكمات الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائرا الساعات، ذات تماثيل لجين، محكمات الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه، ويختله فيها أرقم خارج من كوّة بجذر الأيكة، صاعدا، وبصدرها أبواب، بعدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان

كبيران، وفوق جميعها قرب رأس الخزانة، قمر تام يسير عل خط الاستواء، سير نظيره في الفلك، ويسامت أول باب كل ساعة بابها المرتج، فينتقض من البابين الكبيرين عقابان، في يد كل واحد منهما، صنجة صفر، يلقيها إلى طست من الصفر مجوف، بوسطه ثقب، يفضي إلى داخل الخزانة، فيرنٌ. وينهش الأرقمُ أحد الفرخين، فَيَصْفِرُ له أبوه. وهناك يُفتح باب الساعة الذاهبة، وتبرز منه جارية محترمة، كأظرف ما أنت راء، بيمناها ورقة فيها اسم ساعتها، منظوما، ويسراها موضوعة علًى فيها، والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المسلين، وخاتم النبيين (ﷺ). ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا، والرياض نورا، اشتملت من أنواع المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس، وتستحسنها الأعين، وتستلذ بسماع أسمائها الآذان، ويُسَرُّ مُبصرِها للقرب منها، والتناول ،وإن لم يكن جوعان، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه، يرى ذلك ويسمعه، إلى أن يصلي صلاة الصبح هناك. وعلى هذا، تمضي ليلة المولد الشريف، في جميع أيام دولته إلى أن عدا عليه ابنه "تاشفين" فقتله، واستقام له الأمر، وشيد القصور والمصانع والمتنزهات. وساعده الوقت بمسالمة بني مرين. ثم طمحت نفسه إلى تملك إفريقية؛ فخرج إليها من تلمسان بجيوشه ودخل تونس، فاستغاث أهلها بسلطان المغرب، "أبي حسن المرّيني" فراسله في الإقلاع عنها؛ فلم يرجع، وتمادى على شأنه. فاستشاط السلطان غيظا، وأمر بجمع الجيوش، وخرج من فاس، قاصدا تلمسان. فطار الخبر إلى تاشفين وهو بتونس، فأسرع السير إلى دار ملكه. وسار السلطان بعساكره إلى أن وصل إليها وأحاط بها. فركّب عليها المنجنيق من كل جهة،

وأقام محاصرا لها ثلاث سنين. وأثّر المنجنيق فيما حواه السور من القباب والقصور، ثم دخلها عنوة، وقتل تاشفين وولده بإزاء القصر. واستولى أبو الحسن على تلمسان، بما اشتملت عليه. وانتقض أمر بني زيّان. وعقد لابنه "أبي عنان" على تلمسان. وأقبل على فتح البلاد، فدخل إفريقية، وأمعن في نواحيها، وحاصره العرب في القيروان. فلما بلغ ذلك ولده، ارتحل من تلمسان إلى فاس، ودعا لنفسه. فاستقام له الأمر ورجع بنو زيان إلى دار ملكهم تلمسان وأقرّهم السلطان أبو عنان على ذلك واتخذهم سدًّا بينه وبين أبيه. ولما تخلص السلطان أبو الحسن، ولحق بالجزائر ناهزوه القتال، وأوقعوا به في نواحي "مليانة"، ففر إلى جبال "المصامدة". فتشاغل أبو عنان عنهم، بما دهمه من جواز أبيه. وبعد أن مات أبوه وخلص له الأمر، خرج إليهم بجيوشه، فأوقعوا به ثم كانت الكرّة عليهم، فقُتل أميرهم وتفرق عسكرهم واستولى أبو عنان على تلمسان. وولي بعده ولده السعيد؛ فاضطرب أمر بني مرّين. وتراجع الزيانيون إلى وطنهم وقام بأمرهم أبو حمو الثاني، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن. فتحرك إليهم أبو سالم إبراهيم بن عليّ الذي آل إليه أمر بني مرّين، من فاس بجيوشه؛ فخرجوا من تلمسان وأصحروا ولم يركنوا إلى ما ركن إليه أسلافهم من الانحصار داخل السور. فسار أبو سالم إلى أن خيّم بساحة تلمسان، وعاث في نواحيها، ثم انكفأ راجعا إلى المغرب. ورجع أبو حمو بقومه إلى كرسي مملكتهم وكفاهم الله أمر بني مرّين، باختلاف الكلمة وانتزاء الثوار على الأعمال. وفي سنة خمس عشرة وتسعمائة، استولى الإسبانيول على "وهران" وعلى "بجاية" وذلك في أيام أبي محمد عبد الله. وفي سنة ست عشرة وتسعمائة، استولوا

على الجزائر وبنوا فيها حصنهم المشهور "ببرج الفنار" وقوي أمرهم على المسلمين. واشتهر أمر "باربروس" الأول واسمه "عرّوج" بأسطوله في سواحل إفريقية والجزائر. وأخذ أمر بني زيان يتلاشى إلى أن انقرضت دولتهم من المغرب الأوسط. واستولت الدولة العثمانية على الضواحي والإسبانيول على الأساكل[1] وسنفصل ذلك، في أخبار الدولة العثمانية إن شاء الله تعالى. وإلى الله عاقبة الأمور.

1. الأساكل : مفردها أسكلة لفظ تركي معناه "الثغر البحري".

ذكر دولة الحفصيين أمراء تونس

أول من وليها منهم، أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص بن عمر بن يحي "الهنتاني" أحد أصحاب المهدي بن "تومرت" رئيس الموحدين وهنتاته. وقد أوصل نسبه ابن نخيل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكر ابن سليمان نسابة البربر أنه من ولد صنهاج بن عسّال البربري. وكانت ولايته على تونس، من قبل محمد الناصر بن يعقوب المنصور سنة ثلاث وستمائة. قال ابن الخطيب:

أول هذا البيت عبد الواحد	وفضله ليس له من جاحد
قدمه الناصر فيها آمرا	ثمّ علا وصار ملكا قاهرا
وكان حازما شديد اليقظة	لا يهمل التافه إلا لحظه
ونال أبكار المنى وعونه	لكنه لم يستبد دونه

ومات سنة ثمان عشرة وستمائة؟ فتولى مكانه العلاء من بني عبد المؤمن. وعادت بعد وفاته إلى بني حفص، وهو الذي أسقط اسم عبد المؤمن من الخطبة، وأبقى اسم المهدي، واستبدّ بملك إفريقية، وخطب لنفسه، وتلقب بالأمير المرتضى. واتسع نطاق ملكه، فتغلب على تلمسان وكافة المغرب الأوسط، وبلاد الجريد، والزاب. وأنشأ في تونس الأبنية العظيمة، ثم توفي في ساحة "بونة" سنة سبع وأربعين وستمائة. وتولى ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا، فقام عليه عمه أبو إبراهيم إسحاق. وسعى في خلعه. وبايع لأخيه محمد اللحياني، على كره منه.

فجمع أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا أصحابه يوم خلعه، وشد على عميه أبي إبراهيم ومحمد اللحياني وقتلهما. واستقر في ملكه وتلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين. وخطب لنفسه. وفي سنة ثمان وستين وستمائة رحل الملك أفرنسيس ملك فرنسا إلى إفريقية بجموعه، فعاجله الموت.

وتفرقت جيوشه. واستمرت دولة الحفصيين : مع بني زيان، وبني مرّين. والدولة العلية، والإفرنج، تارة لها، وتارة عليها. ثم انقرضت دولة الحفصيين على عهد أبي محمد الحسن، المتولي سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة وهو آخر ملوكهم. وسيأتي الكلام على بعض وقائعهم مع الإسبانيول، والدولة العلية وما آل إليه أمرهم. وإلى الله ترجع الأمور.

ذكر الدولة العلية في المغرب الأوسط وإفريقية

أوّل من أسس أمر الدولة في الجزائر؛ رجل من قرية "آجي آباد" انتقل إلى جزيرة "متلين" المعروفة لهذا العهد "بالمدلي" واسمه "عروج بن يعقوب" ولقبه "باربروس" الأول، أي صاحب اللحية الشقراء. وبه اشتهر. وكان أبوه فاخوريا. وفي أيام ساكن الجنان، حضرة السلطان الغازي، محمد خان الثاني، صار جنديا. فنشأ عرّوج نوتيا في مراكب الجزيرة. ثم اتخذ لنفسه قرصانا، واستكمل تعبيته وأخذ يغزو ثغور الإفرنج ويتوغل في واحلهم ويرصد مراكبهم، ويرجع بالغنائم. فشاع ذكره، واشتهر أمره، وفي بعض غزواته أُخذ أسيرا، وقُتل أخوه إلياس. ثم تفلّت من أسره، ولحق ببلاده. ثم اتصل بخدمة قائد مراكب

الدولة، الأمير "نورقندا" بن السلطان الغازي "بايزيد خان" فاستعمله مستشارا له. وكان ميمون النقيبة، لا يؤم بلدة من بلاد العدوّ إلا فتحها. ولا صادف مركبا إلاّ غنمه أو أتلفه. ولما مات السلطان الغازي، بايزيد خان، وتولى ولده السلطان الغازي "سليم ياووزخان" سنة ثمان عشرة وتسعمائة؛ سافر باربروس في قرصانة، ولحق "بجربة"، من أساكل إفريقية. فحط أثقاله فيها، وأقلع غازيا سواحل الإفرنج؛ فغنم ورجع قاصدا تونس –وسلطانها يومئذ أبو عبد الله محمد بن الحسن الحفصي– فأهداه باربروس جميع ما غنمه في غزوته، واستأذنه في الإقامة ببلاده، فأذن له، على أن يدفع له خمس ما يقع في يده من المغانم، فقبل. ثم توجه إلى "جربة" فوجد أخاه خير الدين فيها، لاحقا به. فحمل أثقاله، وقفل إلى تونس واستمر عل غزواته، فبعد صيته واشتدت على الإفرنج سطوته. وكان الإسبان مستولين على "بجاية"؛ فغزاهم من تونس، وغنم مركبين، فأرسلهما مع خير الدين، إلى تونس. ونزل باربروس بجيشه إلى البر. وزحف بهم على المدينة، فبرز أهلها لمدافعته واشتد القتال بينهم، فتقهقر جيش باربروس، وقفل إلى تونس؛ فأقام بها. وبعث خير الدين في الأسطول إلى الأندلس، وكان ملك الإسبانيول قد أذن للمسلمين بالمهاجرة، فأقام خير الدين فيها ثلاثة أشهر يحمل المهاجرين إلى أساكل المغرب. ثم انكفأ راجعا على تونس، وكان عرّوج قد برئ من جراحة، وأنشا فيها مراكب حربية، واستكمل عدتها. ثم أقلع من تونس وأرسى على "جيجل". وكان أهل "جينوا" من إيطاليا قد استولوا عليها، فأذاقهم نكال الحرب، برّا وبحرا، واستولى عليها. ثم إن "سالم بن تومي رئيس

بني "مزغنة" أهل مدينة بني الجزائر كتب إليه، يستنجده على الإسبانيول، الواضعين يدهم على قلعة "بتيون" خارج المدينة، فأجابه إلى ذلك، وجهز جيشا من الأتراك والبربر، وأكمل عُدهًا. وقبل أن يبارح "جيجل"؛ أرسل إلى أخيه خير الدين بتونس، يخبره بعزمه، ويأمره بجمع كافة الأتراك المقيمين في تونس، ويلحقه بهم إلى الجزائر. ثم أقلع من "جيجل" في المراكب، وسار قاصدا الجزائر، فمال في طريقه إلى إسكالة "شرشال" واستولى عليها. ثم جاء إلى الجزائر؛ فتلقاه سالم بن تومي وأعيان البلدة وأقام نحو العشرين يوما، محاصرا قلعة "بتيون" وبعد وصول خير الدين بجنده، استولى على القلعة وتمّ له فتح الجزائر. وبذلك أظلم الجو بينه وبين سالم بن تومي. فقبض عليه، وقتله، وطير خبر الفتح إلى حضرة السلطان الغازي "سليم ياووزخان" -وكان وقتئذ في مصر- فسرّ بذلك، وبعث إليه بالخلعة، ومنشور التولية على الجزائر وبلادها. والتجأ "أبو حمو" صاحب تلمسان إلى إسبانيا، فجهزوا الجنود، وزحفوا إلى عروج والتقى الفريقان "بحسن داي"، اسم موضع قريب من الجزائر. واشتعلت بينهما نار الحرب. وكانت الدبرة على جيوش إسبانية فانهزموا، وتركوا في ميدان القتال ثلاثة آلاف قتيل. فقوي عزم عروج، ودانت له قبائل "متيجة" وجبال البربر القريبة من الجزائر بالطاعة ثم سار بجيشه من الجزائر، قاصدا تلمسان وفي طريقه، استولى على إسكلة "تنس" وخيم في ساحة تلمسان فخرج إليه أبو حمو، ودارت بينهما رحى الحرب، فانكسر عسكر تلمسان، وفر أبو حمو إلى ملك إسبانيا، يستغيث به وأما عرّوج فإنه ولّى على تلمسان، أبا زيان مسعودا، أخا أبي حمو. وأقام ينتقل

في نواحي المغرب الأوسط. ثم إن ملك إسبانيا، أنجد أبا حمو، بالعساكر والذخائر، وأمر حاكم "وهران" المركيز "غومارس" بالمسير إلى تلمسان، وإخراج عروج منها. وطار الخبر إلى عروج فقتل أبا زيان وبني عمه، ودخل قلعة "المشور" وتحصن فيها؛ فحاصره حاكم "وهران" ستة وعشرين يوما. ثم تمكن عروج من الخروج من القلعة بأمواله وأتباعه. فاتبعته الجيوش إلى الوادي المالح، قرب نهر "شكف" ووقع المصافُّ بينه وبينهم. فقتلوه واستولوا على أمواله واستأصلوا جميع ما كان من جنده. ولما بلغ خبر عروج، إلى أخيه خير الدين في الجزائر انحلت عُرى عزمه، وأزمع على ترك الجزائر، والرجوع إلى الغزو في القرصان. وبينما هو يستعد لذلك إذ ورد على الجزائر جند من الإنكشارية، بعثهم السلطان الغازي "سليم ياووزخان" نجدة لعروج. فلما رآها خير الدين رجع عمّا عزم عليه، واستعد للأخذ بثأر أخيه من أعدائه. ولما بلغ ملك إسبانيا انتصار جيشه، وقتل عرّوج ومن معه، طمع في الاستيلاء على الجزائر، فجهز أساطيله، وشحنها بالجيوش والذخائر، وسيّرها للجزائر، تحت نظر الجنرال "ميسوادي مونغا" وعند وصوله، كتب إلى خير الدين، الملقب "ببارباروس" الثاني، يتهدّده، ويذكره بما وقع بأخويه، ويدعوه إلى تسليم البلد أو الحرب. فأجابه إلى الحرب. وبعد أيام نزل بجيوشه إلى البر، وخيم بالقرب من وادي "الحرّاش" على مسافة ساعة ونصف من البلد، فخرج خير الدين بجنوده. وأوقع به، واستولى المسلمون على المعسكر واستلحموه. وحدث في البحر زوبعة شديدة، فشُتِّتَ شملَ المراكب وغرق أكثرها.

فأخذ خير الدين بثأر أخويه وشفى نفسه من عدوّه. وطارت البشائر إلى الدولة العلية بهذا الانتصار وجاءت التهاني إلى خير الدين من لدن السلطان وأعيان الدولة مع فَرَمَان[1] إمارة الجزائر. واستفحل أمره في المغرب الأوسط. وإهتزت له أركان دولة بني زيان بتلمسان ودولة بني حفص في تونس. فأوعز أبو عبد الله الحفصي إلى صاحب تلمسان بالتظاهر على خير الدين. وكان خير الدين، لما تمّ له الاستيلاء على جبال "زواوة" و"صنهاجة" وسهول "متيجة"، فوّض أمرها إلى أحمد ابن القاضي الصنهاجي، لشهرته، وقوة عصبته، وسماه "خليفة الشرق". فرأى صاحب تونس أنه لا يتم له ما أراده إلا بمداخلة ابن القاضي. فاتخذ الوسائل في استمالته إليه والخروج من طاعة خير الدين، واشترط له المقاسمة في الجيش والذخيرة على حربه. فارتاح ابن القاضي لذلك، وأسرّها في نفسه وأقام يترصد الفرصة وأقبل صاحب تلمسان بحشوده إلى الجزائر. فتلقاه خير الدين بجنوده واتصلت الحرب بينهما أياما ثم كانت الدبرة فيها على صاحب تلمسان. فانهزمت جموعه وتأخر صاحب "وهران" عن إغاثة حليفه ثم توغلت جيوش خير الدين في الجهة الغربية، وزحف إليها أبو محمد الزياني مرتين؛ فانهزم واشتدت شوكة خير الدين وتلاشى أمر بني زيان. وكان أبو محمد أشخص أخاه مسعودا إلى المغرب الأقصى، ثم بدا له في رجوعه واستدعاه، فعدل مسعود عن تلمسان، ولحق بالجزائر، صريخا بخير الدين. واشترط له الطاعة ومالاً يحمله إليه كل سنة والخطبة

1. الفرمان : لفظة تركية يرادف معناها بالتعبير المعاصر "المرسوم الملكي" تقريبا.

للسلطان الغازي سليم ياووزخان. فأجابه إلى ذلك وأمده بالجيش والذخيرة وأوعز إلى رؤساء البربر في تلك الجهة بمظاهرته. فزحف مسعود بعساكره إلى تلمسان فدخلها. وفرّ أخوه إلى "وهران" واستقر الأمر لمسعود في تلمسان ورجع جيش خير الدين إلى الجزائر. ثم إن مسعودا خرج عن طاعة خير الدين فبعث إليه خير الدين يدعوه إلى الوفاء فاستنكف وأساء الخطاب فتجهز إليه خير الدين برا وبحرا وسار في مراكبه إلى مستغانم؛ فدخلها من غير مقاومة وجاءه أبو محمد من وهران، نازغا إليه، معتذرا عما سلف منه في حادثة عروج وجنده، فعفا عنه وأذن له في الإقامة عنده. ورحلت العساكر البرية إلى قلعة "بني راشد" وفيها حامية لمسعود. ففرت منها، ودخلتها العساكر الجزائرية. ثم إن أبا محمد طلب الرجوع، واشترط لخير الدين ما اشترطه مسعود فأجابه خير الدين وسيّره في العساكر إلى تلمسان. فلقيهم مسعود بجموعه، فوقعت الهزيمة في جيشه. وسار أبو محمد في أثرهم حتى شارف تلمسان. ودسّ لأشياعه فيها؛ ففتحوا له الأبواب ودخلها، وفرّ مسعود منها، واستقر أبو محمد في دار ملكه وكان ابن القاضي الصنهاجي انتهز الفرصة في غيبة خير الدين ودعا الناس لبيعته، فقام بنصرته قومه من صنهاجة وغيرهم من البربر، وزناتة. فأطلق فيهم الأموال وخاطب صاحب تونس الحفصي في إنجاز وعده، فأمده بالرجال والأموال وقفل خير الدين إلى الجزائر -وقد قوي أمر ابن القاضي- فسيّر الجيوش لحربه، فانتصر ابن القاضي عليها، وردّها على أعقابها ثم آل الأمر إلى المصالحة، ورجع ابن القاضي إلى ما كان عليه من الطاعة والولاية أربعة أشهر. ثم نقض العهد وأشهر الحرب. فعقد خير الدين لقائد جيشه "قَرَه حَسَن" على حربه؛ فنهض إليه

من الحضرة ووقع الرعب في قلوب البربر، ولاذوا بالطاعة وانفرد ابن القاضي في قومه ثم خاطب "قره حسن" في الخروج عن طاعة خير الدين، واشترط له المقاسمة في العمل والرعية؛ فمال إليه "قره حسن" والتحم معه، وعززهما الحفصي، صاحب تونس بجيشه، ودسوا إلى أهل الجزائر، في القبض على خير الدين، وضمنوا لهم جميل النظر، فأجابوهم إلى ذلك. واتصل الخبر بخير الدين؛ فوجم لها، وقبض على الأعيان، وقتل من ثبتت مداخلته. وثار مسعود على أخيه صاحب تلمسان. فاستغاث بخير الدين، فأمدّه بالجيش والذخيرة، وانجلت الفتنة بالقبض على مسعود، ولما رأى خير الدين اختلال الأحوال وكثرة الثوار، داخل الجزائر وخارجها أجمع على الرحيل منها، والعود إلى الغزو على ثغور الإفرنج. فاستخلف مستشاره "حسن آغا" على الجزائر وما يليها وفوّض إليه أمورها ثم سار بأهله وأتباعه ومن اختاره من الجنود البحرية إلى "جيجل" فأنزل بها أهله، وأقبل على الغزو، فتزلزلت أقطار الإفرنج منهن وتناذروا به من عواصمهم. وزحف ابن القاضي إلى الجزائر بجنوده، فدخلها. وتمكن من الاستيلاء عليها. ولحق "حسن آغا" بخير الدين ثم انتقض صاحب تلمسان، ونبذ الطاعة وخطب لنفسه واستمر خير الدين على غزواته ثلاث سنين. واتفق انه أغزى بعض قواده في القرصان، إلى الثغوز الإفرنجية؛ فألجأته أرياح إلى الجزائر، فمنعه ابن القاضي من دخول المرفأ فرجع إلى خير الدين وأطلعه على ما كان من ابن القاضي فعظم عليه ذلك، وحرّكه إلى العود إلى دار إمارته، واستدعى أنصاره من كل ناحية، وسيّرهم في البر، وسار في مراكبه بحرا. واستعد ابن القاضي لحربه واقتتلوا برا

وبحرا وفي أثناء الحصار، عدا على ابن القاضي بعض أتباعه، فقتله وتقدم خير الدين إلى الجزائر، فدخلها، وأعظم النكاية في أتباع ابن القاضي. وكان "قره حسن" -عندما استولى ابن القاضي على الجزائر- عدل عنه إلى شرشال، ودعا لنفسه فنهض إليه خير الدين بعد فراغه من ابن القاضي، ففرق جموعه ثمّ قبض عليه وقتله. وسكنت عواصف ابن القاضي، وبقي أولاده في الجزائر على أسوإ حال. وله عَقِبٌ فيها لهذا العهد[1]. ولما تمهدت البلاد لخير الدين، أقبلت عليه الوفود من آفاق المغرب الأوسط ونواحيه يطلبون العفو، فعفا عنهم. وأذعن له صاحب تلمسان فعفا عنه، وأقره على ما كان عليه من المشارطة ثم سار في المغرب الأوسط يتقرى مسالكه وشعوبه، ويضع المغارم على أهله، وفرّق فيهم العمال من قومه. وشن الغارات على ظواعن زناتة والعرب وأثخن فيهم حتى أذعنوا له. وكان للإسبانيول حصن على جزيرة صغيرة تجاه الجزائر. فلما فرغ من شواغل الداخلية، اعتزم على تخريبه. واتفق أن بعث ملك إسبانيا ثمانية مراكب، مشحونة بالجنود والذخيرة، مددا للحامية. فلما دنت من الحصن، وتراءت لأهل الجزائر، سار إليها قائد البحر وحال بينها وبين الحصن ثم ظفر بها وساقها بما فيها إلى المرفأ. وكان ذلك اليوم يوما مشهودا. وبعد أيام، نهض خير الدين إلى ذلك الحصن، واقتحمه بجيشه، وأثخن في حاميته قتلا وأسرا، واستولى على مهماته، وخرّبه، وبنى أحجاره جسر باب الجزيرة أحد أبواب الجزائر. واتصل

1. أي عهد مؤلف الكتاب. وهو أوائل القرن العشرين.

خير الحصن والمراكب "بكارلوس" ملك إسبانيا، فجهزّ أساطيله وجنوده لنظر القائد "أندريه" المشهور. وأمدّه ملك فرانسا بعشرين مركبا وطار الخبر إلى خير الدين فتجهز لوقته، وسار في البحر مترصدا "لأندريه" في طريقه. فلم يصادفه واستمر غازيا على الثغور، فأثخن فيها، وخرّب حصونا كثيرة، وامتلأت مراكبه وأيدي جنوده من المغانم. وانقلب راجعا فبلغه أن "أندريه" محاصر لأسكلة شرشال، فسار إليه على هيئته فوجده أقلع عنها. وبعد أن أراح بشرشال خرج منها غازيا على ثغور إسبانيا، فظفر بعدّة مراكب، لهم ولدولة فرنسا. وقفل إلى الجزائر. واستمر يغزو بلاد الإفرنج، ويُعظم النكاية فيها إلى أن استحضره السلطان الغازي "سليم خان" إلى دار الخلافة؛ فاستخلف مستشاره "حسن آغا" على الجزائر للمرة الثانية. وتوجّه في أربعين مركبا، ومرّ على سواحل "إيطاليا وسردينيا وجينوا" فعاث فيها. واستمرّ في مروره يخرب الحصون، ويستلب الأموال والأنفس إلى أن دخل العاصمة، فأكرم السلطان نزله وأكبر شأنه وقلده وزارة البحر. وكان وقتئذ "أندريا دوريا" الجينوي رئيسا على عمارة إسبانيا وكثيرا ما يجول في بحر الأرخبيل. فأخذ خير الدين يترصّده، ويذيقه نكال الحرب إلى أن أعجزه. ولحق بثغور إسبانيا، وخلا البحر لخير الدين، فقصد جزائر الموره ففتحها، ورتّب أمورها ثم سار إلى إفريقية فأرسى على "بترزت" واستولى عليها. ثم مدّ عينه لأخذ تونس فسار منها إلى "حلق الواد"، فامتلأت قلوب أهل الحضرة رعبا منه، وفرّ صاحبها أبو محمد الحسن ولحق بالقيروان وندب الناس إلى نصرته فخذلوه. وبعث صريخه إلى ملك إسبانيا؛ فبادر الملك على نصرته،

وجمع قوته. وصدرت أوامر البابا من رومية إلى كافة دول الإفرنج؛ يحثهم على إعانة ملك إسبانيا على شأنه؛ فأمدوه بالمراكب والجنود والمهمات. ثم سار الجمع في عمارة إسبانيا إلى تونس، وحاصروها أياما ثم خرجوا إلى البر، وزحفوا إليها، فلقيهم خير الدين بجنوده في خربة "الكلخ" خارج البلد. واقتتلوا. وكان في قلعة تونس ما يزيد على خمسة وعشرين ألف أسير من الإفرنج فانتهزوا الفرصة حين القتال وخرجوا من القلعة. وحملوا على خير الدين من خلفه. فاختل مصافّه. وانهزمت جيوشه. ولحق خير الدين ببونة، ثم الجزائر. واستولت جيوش الإفرنج على تونس بما فيها. واستباحوها ثلاثا. وقتلوا نحو ستين ألف نفس صبرا. وشفوا نفوسهم من المسلمين. وجاء الحفصي من القيزوان، راجعا إلى دار ملكه تحت حماية دولة إسبانيا. وفرضت عليه ضرائب متنوعة يؤديها إليها على رأس كل سنة. واشترطت عليه إباحة السكنى للإفرنج في تونس، والتملك بها واتخاذ الكنائس والأديرة. ثم رجعت الجيوش إلى أوطانها. وتمكن أبو محمد الحسن الحفصي من أمره. وأقام على ذلك إلى أن ثارت العامة، ونقموا عليه وطيّروا الخبر إلى ولده أبي العباس أحمد؛ وكان واليا لأبيه على "بونة". فأسرع السير إلى تونس وفرَّ والده إلى القيروان؛ فقبض عليه "أبو الهول" شيخ العرب. فسملَ عينيه، وأشخصه إلى القيروان، فاعتقل فيها إلى أن مات؛ واستقل ابنه أحمد في الملك. ولما رجع خير الدين إلى الجزائر، عقب انهزامه من تونس أخذ يتأهب لغزو إسبانيا. فأعد المراكب. واستكمل تعبيتها. وانتقى العساكر وسار غازيا ثغور إسبانيا وصادف في طريقه عدة مراكب للإفرنج، فاستولى عليها، واستاقها

إلى الجزائر. ثم غزا بلد "ماهوب" من بلاد إسبانيا، فدمر أهلها، وأضرمها نارا، وانكفأ راجعا. ولم يزل يتابع غزو الثغور الإفرنجية إلى أن استدعاه السلطان الغازي، "سليمان خان" الأول، فاستخلف على الجزائر مستشاره "حسن آغا" للمرة الثالثة وسار بأهله إلى الأستانة، فأكرم السلطان وفادته، وقلده وزارة البحر، فجرى خير الدين على عادته في غزو ثغو العدوّ من الأستانة والرجوع إليها بالغنائم الكثيرة إلى أن مات في قصره بظاهرها، سنة خمس وخمسين وتسعمائة. وقبره قرب مرسى "بشكطاش" مشهور وأقر السلطان الغازي سليمان خان "حسن آغا" مستشار خير الدين على إمارة الجزائر. وأرسل إليه "الفرمان" والخلعة. وعلى قيادة البحر في الجزائر "حسن بن خير الدين" فاقتفى أثر والده في الشدة والحزم والإجلاب على الثغور الإفرنجية، وضايقهم حتى استخفوا أمر والده. وغزا جبل طارق واستباحه. واستاق أمواله ومراكبه. ورجع إلى الجزائر، فتزلزلت بلاد أوروبا وامتلأت القلوب منه رعبا وأيقنوا بخراب ثغورهم وجزائرهم، فأرسلوا صريخهم إلى ملك إسبانيا "كارلوس الخامس" وكانت دول أوروبا ترجع إليه في أزماتها فجهز "كارلوس" نحو خمسمائة مركب، وشحنها بالعساكر والمهمات، وسار بها إلى الجزائر. وعدل عن مرفئها إلى فرضة "وادي الحراش" وأنزل جيوشه إلى البر. وأبقى في المراكب معه من يقوم بها، وعسكرت جنوده في القرب من محل "سيدي يعقوب" وكتب إلى "حسن باشا" :

"أنا ملك إسبانيا الذي استولى على تونس، وأخرج منها خير الدين باربروس الثاني، وتونس أعظم من الجزائر، وخير الدين أعظم منك".
فأجابه "حسن باشا" :

إن إسبانيا غزت الجزائر في مدة عروج "باربروس الأول" مرة وفي مدة خير الدين مرة، ولم تتحصل على طائل، بل انتهبت أموالها، وفنيت عساكرُها، وهذه المرة الثالثة كذلك، إن شاء الله".

وفي اليوم الثاني من هذه المراسلة، حدث نوء شديد برا وبحرا. فعليت الرياح بالمراكب وألقت منها ما يزيد على مائة مركب إلى البر، فانقضت عليها حشود العرب والبربر، وانتهبوا ما فيها، واستأصلوا من لم يدركه الغرق. وانتهز الفرصة والي الجزائر، فخرج بجيشه، وحمل على المعسكر، فانهزم الإفرنج، وتبعهم المسلمون، يقتلون ويأسرون، حتى أتوا على آخرهم. ولحق "كارلوس" في عدد قليل من مراكبه ببلاده، ورمى بتاجه إلى الأرض، وأقسم أن لا يضعه على رأسه إلا بعد استيلائه على الجزائر. فلم يساعده القدر الإلهي على ذلك. وفي أثناء هذه الفتن، انتقض أكثر قبائل البربر، ونبذوا الطاعة. ولما فرغ "حسن باشا" مما دهمه من من أمر إسبانيا، انتصر على جيوشها ووجّه وجهته إلى تدويخ البلاد، وقطع شأفة الثوار منها. فتأهب لذلك، ولم يزل يجول في الأنحاء، ويبثّ السرايا في الجهات إلى أن دان الناس لطاعته واستردّ "مستغانم" من يد صاحب تلمسان. ووصلت جيوشه في الجهة الشرقية إلى ما وراء "بسكرة" و"الزيبان" ثم رجع إلى الجزائر، وتوفي بها. وتولى "حسن بك" بن خير الدين.

وكان بنو "وطاس"، بطن من بني مرّين، استولوا على المغرب الأقصى بعد بني عمهم عبد الحق. واستفحل أمرهم فيه. فدعتهم نفوسهم إلى الاستيلاء على "تلمسان" دار ملك "بني زيان". فنهضوا إليها من فاس في جموعهم، سنة ثمان وستين وتسعمائة. واستولوا عليها. في فترة موت "حسن باشا". فلما أفضى الأمر إلى "حسن باشا ابن خير الدين"، استفرغ لقتالهم. ونهض من الجزائر، واتصل الخبر "ببني وطاس" فخرجوا من تلمسان، وانقلبوا راجعين إلى فاس. واستمر حسن باشا سائرا، إلى أن دخل تلمسان، فأصلح شأنها، وولى عليها رجلا من "بني زيان" اسمه "حسن" وقفل إلى الجزائر. ثم عزل، وتولى أخوه "صالح باشا" ابن خير الدين؛ فارتاح الناس إلى توليته. وكانت إسبانيا استولت على "بجاية"؛ فابتدر صالح باشا إليها. ونازلها برا وبحرا ثم إقتحمها بجيوشه، واستأصلها. ثم سار إلى "قسنطينة"؛ فاستولى عليها، واقتطعها. ثم انقلب إلى تلمسان، وطرد منها "حسن الزياني" مع بقايا بني عمه. فتفرقوا أوزاعا في الجهات. والبقاء على تعالى.

وانتظم المغرب الأوسط كله لصالح باشا، من حدود "وجدة"، من بلاد المغرب الأقصى إلى "الكاف" من بلاد إفريقية.

وبعد أن رجع إلى الجزائر؛ توفي وتولى أخوه حسن باشا ابن خير الدين مرة ثانية. وفي أيامه خرج حاكم وهران بجنوده إلى مستغانم وكان حسن باشا في تلك النواحي، فتعرض له، وانتشب الحرب بين الفريقين، فانهزم جيش إسبانيا، وقُتل حاكمهم.

ثم إن الدولة العلية حملت أهل الجزائر على العمل بقوانينها، وأنها تعين عليها حاكما من قبلها. وتمدّه بما يلزمه من الجنود والذخائر. وعزلت حسن باشا بن خير الدين. وبعثت محمد باشا "كرد أوغلي". ثم عزل محمد باشا وتولى علي باشا وكان أهل تونس سئموا من ملكهم أبي العباس أحمد الحفصي ولحقهم الضجر من ظلمه، فدس وزيره، "أبو الطيب الخضّار" إلى "علي باشا" في النهوض إلى تونس، ووعده بتمهيد الطرق الموصلة إلى الاستيلاء عليها. فجهز علي باشا جيوشه، واحتشد قبائل العرب والبربر من القاصية، ونهض من الجزائر سنة سبع وسبعين وتسعمائة. فالتقى الجمعان "بباجة" ووفى الخضّار بوعده؛ فخذل صاحبه وألقى الرعب في قلوب عساكره فتفرقوا أشتاتا. وفرّ أبو العباس إلى تونس ثم خرج بأهله وأمواله، ولحق بالقيروان. وتقدم علي باشا بجموعه إلى الحضرة، فدخلها، وقتل ابن الخضّار! وولّى "حيدر باشا" على تونس وانقلب راجعا إلى الجزائر. واستجاش أبو العباس بملك إسبانيا؛ فأجابه واشترط مقاسمة الملك؛ فامتنع أبو العباس من قبول هذا الشرط. فركب البحر إلى صقلية. و لم يزل بها إلى أن مات.

ثم قام أخوه "محمد بن الحسن" وأثار الفتنة على حيدر باشا، وبعث إلى ملك إسبانيا بقبول ما اشترطه على أخيه، فأنجده الملك بعساكره. وعند وصولها في المراكب إلى حلق الواد، فرّ حيدر باشا وحاميته من الأتراك، ولحقوا بالقيروان. وتقدم محمد بن الحسن إلى عساكر إسبانيا؛ فدخل بها إلى تونس وعاثوا فيها وأهانوا المساجد والمدارس واتخذوا جامع الزيتونة اصطبلا لدوابهم! وقاسمهم محمد بن الحسن البلاد والجباية.

وفي سنة إحدى وثمانين وتسعمائة؛ تولى "رمضان باشا" على الجزائر.

وفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة جهزت الدولة الوزير المشهور "سنان باشا" فسار في جيش كثيف لإنقاذ تونس من يد إسبانيا. وأوعزت إلى والي الجزائر ووالي طرابلس الغرب بمظاهرته. فاستعد كل واحد منهما، وسار من ولايته، وخرج حيدر باشا من القيروان بحمايته، ومن انقاد إليه من العرب والبربر، وتكاملت الجيوش في خارج تونس وأحاطوا بها من كل جانب، فدخلها المسلمون عنوة واستأصلوا عساكر إسبانيا وأسروا محمد بن الحسن ثم أشخصه سنان باشا إلى الأستانة، فاعتقل فيها على أن مات.

وتم استيلاء الدولة العلية على إفريقية. وانقرضت دولة بني حفص منها بعد أن ملكوها ثلاثمائة ونيفا وأربعين سنة. والبقاء لله تعالى وحده.

وثبتت قدم سنان باشا في تونس. واستفحل أمره وقطع دعوة بني حفص فيها، واستلحم الثوار، ومن عهده صارت الولاة تختلف على تونس من قبل السلطنة السنية كاختلافهم على الجزائر.

ثم وقع النزاع بين حكومة الجزائر وحكومة تونس بعد استيلاء سنان باشا عليها، في الحدود. واستمر إلى أن تولى حسن باشا على الجزائر سنة اثنتين وعشرين وألف. فاتفق مع "يوسف داي" والي تونس على تعيين نهر "سراط" حدا بين الحكومتين.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وألف، تولى "خسرو باشا" على الجزائر. ونازعه يوسف داي في الحدود ثم رجعا لما وقع عليه الاتفاق أولا بين الإمارتين في الأحكام والجباية. وفي سنة أربع وخمسين وألف،

انتقضت جزيرة "كريت" على الدولة واستبدوا بأمرهم. فأوعزت إلى محمد باشا "أبي ريشة" والي الجزائر بغزوها؛ فسار إليها في أسطوله وفتحها وقفل إلى الجزائر.

وكان الملك فرنسيس الأول عقد الصلح مع السلطان الغازي "سليمان خان" سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة هجرية، وخمس وعشرين وخمسمائة وألف ميلادية. وأباح له السلطان حرية مراكب فرانسا في البحر الأبيض، تسافر فيه حيث شاءت. وأذن له في تعاطي التجارة في الجزائر وغيرها.

ثم إن حكومة الجزائر أخذت مراكبها تغزو ثغور فرانسا، وتخرب حصونها، إلى أن آل أمر فرانسا إلى الملك لويس الرابع عشر. فجهز نحو ستة آلاف جندي، وفي ستة عشر مركبا، لنظر القائد "الدوك دي بوفور" فأقلع من طولون في مراكبه سنة أربع وسبعين وألف من الهجرة، مترصدا مراكب الجزائر، فلم يصادف نجاحا. وفي سنة ست وسبعين، وقع الصلح. ولما تولى "بابا حسن" على الجزائر سنة اثنتين وتسعين وألف، أغزى مراكبه إلى الثغور الفرنساوية. وفي سنة أربع وتسعين، خرج الأميرال "تورفيل" من طولون، في عمارة فرنسا، وسار إلى الجزائر، وأناخ عليها ثلاثة أشهر، يغاديها القتال، ويراوحها. ثم سئم الإقامة من غير طائل، وأقلع عنها.

وفي سنة خمس وتسعين عاد إليها، في قوة أكثر من الأولى. ولما علم "بابا حسن"، أنه عاجز عن مدافعته، مال إلى السلم. وبعث إلى رئيس العمارة في ذلك. فأجابه إليه. واشترط عليه أمروا، أنف أهل الجزائر

من قبولها. وعارضوا حاكمهم في إجازتها ثم عدوا عليه فقتلوه. وولوا عليهم الحاج "حسن آغا" من مشاهير القواد. فأشهر الحرب على المراكب الفرنساوية، ورماها بالقنابل. فاستشاط "تورفيل" غضبا. وأرسل على البلد صواعق المدافع، فعمد أهل الجزائر إلى أسارى الأفرنج، يثوقونهم ويضعونهم في أفواه المدافع ثم يرسلونها، فتتطاير أشلاؤهم مع القنابل في الهواء. وارتكبوا في ذلك، ما لا يسوغ شرعا، ولا مروءة. ثم لما طال الأمر على الأميرال "تروفيل"، أقلع عن الجزائر إلى بلاده.

وفي سنة ست وتسعين، عاد إليها، فدعاه أهلها إلى الصلح، فبادر إلى ذلك. وانعقد الصلح إلى أن تولى "خوجة إبراهيم باشا" فأغزى ثغور فرانسا ورجع بالغنائم. وفي سنة مائة وألف، جمعت دولة فرنسا قوتها، وأكثرت من الحشود الإفرنجية، وبعثها لنظر الماريشال "دي سنري" فنازل الجزائر وألح عليها برمي القنابل وأقام على ذلك خمسة عشر يوما، حتى دُكت أطراف البلد. ثم جنح خوجة إبراهيم باشا إلى السلم فانعقد الصلح.

وفي سنة أربع ومائة وألف تولى على الجزائر "خوجة شعبان باشا" فنهض إلى تونس بجيوشه، فدخلها بمداخلة "ابن شكر" وزير "محمد باي" واليها. وفرّ محمد باي إلى داخلية إفريقية وتمّ الأمر لشعبان باشا. ثم فوض أمر تونس إلى "ابن شكر باي" وقفل إلى الجزائر.

وكان شعبان المذكور يبغض العرب. ولما رجع من تونس، أمر جنده بقتل كافة العرب، القاطنين في مدينة الجزائر، فقتلوا خلقا كثيرا،

وكثر تعسُّفه. واشتدت وطأته. فقبض عليه الجند وقتلوه خنقا. وتولى "إلجه أحمد باشا" ثم عزل وتولى "عمر باشا".

وكان "محمد باي" انتصر على "ابن شكر باي" وعاد إلى تونس. ولحق "ابن شكر" بالمغرب الأقصى ثم توفي "محمد باي" والي تونس. وتولى أخوه "رمضان باي" فثار عليه "مراد باي بن علي باي" والي تونس من يده. واستفحل أمره فيها. وأجمع على غزو قسنطينة، ثم الجزائر. ونهض من تونس على طريق "الكاف" فلقيه "علي خوجة باي" حاكم قسنطينة بالقرب منها، وناجزه الحرب، فكانت الدبرة على "علي خوجة باي" واتصل الخبر "بعمر باشا" فخرج من الجزائر، وزحف على "مراد باي"، وهو محاصر لقسنطينة، وانتشب الحرب بينهما، فانهزم "مراد باي"، ولحقه "عمر باشا" إلى الحدود. ثم انكفأ راجعا إلى الجزائر. وبقي "مراد باي" في مرض عددا من الأيام إلى أن ثار "الشريف ابراهيم" وقتله، واستولى على تونس. ثم لما تولى "مصطفى باشا" على الجزائر، جهز جيشا، وبعثه لقتال "الشريف إبراهيم" المتغلب على تونس. ونهض الشريف من الحضرة؛ فالتقوا بالقرب من "الكاف". واقتتلوا أياما. ثم وقع الخلل في عسكر الشريف فانهزم وقُبِض على الشريف وسارت عساكر الجزائر إلى تونس، فدخلوها.

ثم رُفع إلى "مصطفى باشا" في رئيس ديوان التحريرات الجزائرية، "الخوجة محمد بكداشي" أمرٌ نقمه عليه؛ فعزله ونفاه إلى قاصية البلاد. فأقام بكداشي مكانه يترصّد الفرص، إلى أن تمكن منها. فتلطف في رجوعه إلى الجزائر، ثم دخل على مصطفى باشا، في منزله ليلا،

وقتله، وتولى مكانه سنة ثمان عشرة ومائة وألف، ثم قبض على الأخوين العالمين : "السيد أحمد والسيد علاّل" ولدي العلامة، المؤلف الشهير، الشيخ "سعيد قدورة". وكان الأول مفتيا للمالكية، والثاني قاضيا لهم، فقتلهما في محبسهما خنقا. وقد انتقم الله منه، بمثل فعله، فسلط عليه "ابراهيم آغة العرب" فدخل عليه، وخنقه، وتولى مكانه. ثم تولى بعده "علي باشا، ثم "محمد باشا" ثم "عبدي باشا".

وكانت إسبانيا استولت على "وهران" سنة خمس عشرة وتسعمائة، أخذها من يد "أبي كلمون" آخر ملوك بني زيان. ولم تزل حكومة الجزائر تبعث بالجيوش إليها، وتنازلها برا وبحرا، فلم تأت بطائل إلى أن تولى "محمد بكداشي" على الجزائر، وكان شديد الرغبة في استرجاعها، فجهز جيشا عظيما وبعثه إليها وأوعز إلى حاكم "معسكر" "مصطفى باي أبي الشلاغم"[1] بمظاهرة الجيش، والنظر في أمره فنازلوها أول يوم من ربيع الأول سنة تسع عشرة ومائة، وضيقوا على حاميتها، وأحجروهم في داخلها. وفي سادس شوال من تلك السنة، فتحوا البلدة عنوة. وفرّ أهلها إلى برج المرسى، وتحصنوا فيه؛ فلحقهم المسلمون. وفي ثالث عشر المحرم سنة عشرين، اقتحموا الحصن، واستأصلوا أهله. واستقر أبو الشلاغم واليا عليها. ولم يزل يدافع جيوش إسبانيا عنها، مرة بعد أخرى، إلى أن تغلبوا عليها، وأخذوها

1. الشلاغم : تعبير مغربي شائع في الشمال الإفريقي كله. ومعناه : الشاربان.

من يده، سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف. وخرج منها أبو الشلاغم بأهله، ومن كان فيها من المسلمين، إلى "معسكر" ونواحيها.

وكان والي الجزائر "عبدي باشا"، فجهز ولده محمدا في عدة مراكب، وبعثه إلى وهران، فنازلها. ثم توفي "عبدي باشا" وأقلع ولده محمد راجعا إلى الجزائر.

وكان حسن بن علي والي تونس ظَاهَرَ جيوش إسبانيا على أخذ وهران، وأمدّهم بالذخيرة. فحفظها له "إبراهيم الخزناجي" مستشار "عبدي باشا". ولما أفضى أمر الجزائر إليه، أخرج "يونس" ابن أخي حسين بن علي، وكان معتقلا في الجزائر، وأمده بالجيش والمهمات، وأوعز إلى حاكم قسنطينة بمظاهرته فنهض يونس من الجزائر، واجتمع بحاكم قسنطينة. وانضم إليهما "أبو عزيز" شيخ "الحناشة" و "أبو رنان" شيخ عرب "البنيان" ومحمد بن "أبي الضياف" شيخ جبل "أوراس" بجموعهم. واتصل الخبر إلى حسين بن علي، فزحف إليهم. والتقى الفريقان على نهر "سراط" وانتشبت الحرب، فكانت الدبرة على حسين بن علي، فانهزمت جيوشه. ولحق هو وأولاده بالقيروان، واستولى يونس على الحضرة وانقلبت الجيوش راجعة إلى مراكزها ثم نهض "يونس باي" إلى قتال عمه، وهو بالقيروان؛ فخام عمّه عن اللقاء. وأقام يونس محاصرا للقيروان أحد عشر شهرا، ثم خرج منها حسين بن علي وأولاده، ولحقوا بقسنطينة، متنصلين مما وقع منهم. وتوجه محمد بن حسين بن علي إلى الجزائر، وقدّم الطاعة

للخزناجي باشا، نيابة عن والده. فتقبل طاعتهم، ووعدهم بالعود إلى دار ملكهم. ثم بعد وصول محمد إلى الجزائر، توفي والده بقسنطينة، ولحق محمود وعلي بأخيهما محمد، وأقاموا ينتظرون إنجاز الوعد إلى أن مات الخزناجي باشا، وتولى "خوجه إبراهيم باشا". وكان الخزناجي عهد إليه عند موته بمساعدتهم. فلما تمكن من أمره سيّرهم في الجيوش الجزائرية وأمر حاكم قسنطينة بمظاهرتهم وقبل وصولهم إلى حدود تونس حصل الخلل في العسكر، وتفرقت الكلمة بين حاكم قسنطينة و"أحمد آغا" رئيس العسكر الجزائري. فانقلبوا راجعين إلى قسنطينة. ثم توفي علي بن حسين بن علي. وأقام أخواه محمود ومحمد بقسنطينة. وفي سنة ستين ومائة وألف، توفي "الخوجة إبراهيم باشا" وتولى "محمد باشا" المعروف بالأعور. وفي سنة ثمان وستين مائة وألف، عدا عليه جندي فقتله. وتولى "علي باشا أبو أصبع" وكان حسن باي، المعروف بأزرق العينين، ابن أخت علي باشا المذكور، واليا على قسنطينة. فاتفق رأيه مع خاله على أخذ تونس من يد "يونس باي" وردّها إلى أولاد عمه حسين بن علي. ثم إن أزرق العينين عمل الحيلة على يونس باي، وأظهر له المودة، فركن إليه وألقى إليه بمقاليد أموره. ولم يزل ينصب له المكائد إلى أن تمكن منه، وقبض عليه، واستصفى أمواله، وبنى عليه حائطا من خشب فبقي في عذابه إلى أن مات! ورجع أمر تونس إلى أولاد حسين بن علي، يتوارثونه، خلفا عن سلف، لهذا العهد. وفي سنة تسع وسبعين ومائة وألف، توفي علي باشا، وتولى محمد باشا المعروف "بالمجاهد" وكان : صالحا زاهدا، حسن السيرة،

محبا للجهاد، منصور الراية. شيد عدّة أبراج وحصون في الجزائر، منها برج "سردينيا"، والبرج الجديد، وبرج رأس العين. وأصلح قناة الحامة، وأجرى ماءها إلى سقايات اتخذها على أبواب المساجد، والأبراج، والحصون، وخوابي من رخام في شوارع البلد. وأوقف أوقافا جارية. وأنشأ جملة مراكب بحرية للغزو، وهو أول من اتخذ "النجون" في الجزائر، وهو مركب صغير.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة ألف، انتقض الصلح بين الدولة العلية، ودولة روسيا؛ فجهز مراكبه، وأكمل استعدادها لنظر القبطان "ابن يونس" وبعثه إجابة لأمر الدولة. وتكرر منه هذا عندما تدعوه الدولة لإعانتها.

وكان قوم من اليونان يقال لهم "الزنبطوط" اتخذوا قرصانا، وانقطعوا فيه في البحر، يترصدون المراكب؛ فلا يصادفهم مركب إلا أخذوه بما فيه، وقتلوا أهله. وكانت الدولة العلية تأمر حكامها في الجزائر، بقطع عاديهم. فجهز محمد باشا المجاهد القبطان الحاج سليمان، وأرسله إليهم، فاستولى عليهم، وساقهم في مراكبهم إلى الجزائر.

وقد قسموا بلاد المغرب الأوسط إلى أربع ولايات : ولاية الجزائر. ولاية تيطري (بكسر التاء وسكون الطاء المهملة) وولاية قسنطينة بضم القاف وفتح السين وسكون النون) وولاية وهران (بفتح السكون) ولكل ولاية حاكم يسمى "باي" أي "بك" إلا حاكم الجزائر، فيسمى "باشا" وهؤلاء "البايات"، متساوون في الرتبة والعمل. ويرجعون في أمورهم إلى والي الجزائر. ولما تولى "باشا علي باشا"، بانتخاب أهل

الشورى، رفع على حضرة السلطان أحمد عريضة تنبئ بأن وجود واليين في الجزائر، موجب للفساد، مستلزم للتزاع. فقبل ذلك وأمر بأن يكون انتخاب الولاة وعزلهم إلى مجلس الشورى، وأن يكون التصديق على ذلك من السلطنة.

وقد تقدم ما كان للحكومة الجزائرية في سالف أمرها من سمو المترلة، وباهر السطوة، وكانت الدول الإفرنجية -على كثرتها- تدفع لها أموالا، مضروبة عليها، كل سنة لدفع عاديتها عن ثغورهم، ما عدا دولة إسبانيا، فإنها كانت تتلون، فتارة تدفع ضريبتها، وتمتنع أخرى. والحكومة الجزائرية تعاملها على حسب تلونها. ولما تولى محمد باشا المجاهد، أكثر من غزو ثغورها حتى ألجأ أهلها إلى الجلاء عنها، والفرار إلى الداخلية. وقد اجتمع في الجزائر منهم عشرة آلاف أسير. فجمع ملك إسبانيا قوته، واستجاش بقية الدول، وجهز خمسمائة مركب مشحونة بالعساكر والذخائر، وبعثها إلى الجزائر سنة تسع وثمانين ومائة وألف، فترلت الجيوش إلى البر، وخيمت "بوادي الحراش" وكان محمد باشا المجاهد، مستعدا لمدافعتهم. واستنهض حاكم قسنطينة وحاكم معسكر بجموعهم إلى حضرته فاجتمعت الجيوش الإسلامية، وكانت مراكب إسبانيا سبقتهم إلى الجزائر. فخيم صاحب قسنطينة، في جهة الجنوب من معسكر العدو. وخيم صاحب "معسكر"[1] في الجهة الغربية. وخرج محمد باشا بجنوده. ودارت الجيوش بالمعسكر،

1. هي مدينة الأمير عبد القادر وعاصمته فيما بعد.

ثم هجمت عليه دفعة واحدة، فاشتعلت نار الحرب من كل جهة وجاس المسلمون خلال الخيام، واستلحموا المعسكر بتمامه، واستولوا على ذخائره ومهماته. ولما رأى من بقي في المراكب من الجيش ما وقع بإخوانهم، رفعوا الرايات السود، على صواري المراكب، إعلانا بالحزن. وأقلعوا على تلك الحال، راجعين إلى بلادهم. وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف، توفي إبراهيم باي حاكم "معسكر"، وتولى مكانه الشهم الهمام "محمد باي بن عثمان الكردي" وفي سنة ثمان وتسعين، عادت عمارة إسبانيا لمنازلة الجزائر، وأناخوا عليها أربعة أيام، يرسلون عليها القنابل، فرجعوا من غير طائل. ثم نازلوها في السنة التي بعدها وانقلبوا خائبين وقد أحسوا من أنفسهم بالعجز ورأوا أن جنودهم قد فنيت، وثغورهم خربت، فجنحوا للسلم، وضرعوا إلى محمد باشا المجاهد في كفّ عاديته عنهم. ثم أوفدوا عليه رئيس العمارة بطلب الصلح فرده خائبا. ثم أعادوه إليه، على أن يشترط عليهم ما شاء، فأجابهم إلى مرغوبهم، وانعقد الصلح بينهم على شروط منها أن تدفع دولة إسبانيا لحكومة الجزائر، مليونا ونصف مليون فرنك، في كل سنة وأن تصير المبادلة في الأسارى رأسا برأس، والذي يبقى ألف ريال شينكو عن كل رأس، وأن وهران خارجة عما انعقد عليه الصلح، وتم الأمر على هذا سنة مائتين وألف.

ذكر فتح مدينة وهران

قد امتدت العمارة الإسلامية بمدينة وهران إلى سنة خمس عشرة وتسعمائة. ثم استولت عليها دولة إسبانيا من يد "أبي كلمون الزياني". ثم لما تولى محمد باشا المجاهد على الجزائر، كان يميل إلى محمد باي الكردي، حاكم معسكر، لمتانة دينه واستقامة أحواله، كتب إليه في الجهاد وحرضه على منازلة وهران؛ فكان محمد باي ينازلها، ويأخذ بمخنقها. واستمر على ذلك من سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف إلى سنة خمس ومائتين. فجاءه الأمر في ملازمتها والإقامة عليها. فشمر الباي عن ساعد الجدّ وجمع الآلة والمهمات الحربية وجمع أوزاعا من القبائل، وأنزلهم على السبل المؤدية إليها، ليقطعوا مواصلة بني عامر وغيرهم من المنتصرين للإسبانيول. ثم انتقى طلبة العلم من المدارس، وأنزلهم في "جبل المائدة" المطل على البلد، ليمنعوا أهلها من الاعتصام به. وأخذ في حفر الخنادق، واللغوم، وبناء الاستحكامات. ولما بلغ ملكهم الخبر، أرسل المدد إل حاميتها. وقد استشهد سيدي الجدّ، السيد "محمد المجاهد" في معركة حرب بساحتها، فحمل منها إلى غريس مع بعد المسافة ودفن في مقبرة أسلافه. ثم وقعت زلزلة عامة في جميع المغرب الأوسط. واشتدت في وهران، فسقط أكثر دورها على أهلها، وهلك الحاكم وعائلته. وتوالت المصائب عليها، فرفعوا أمرهم إلى ملكهم، فبعث إلى والي الجزائر في الهدنة، مدة شهر لينظر في أمره. فأجابه الوالي إلى ذلك. وجاء الأمر لمحمد باي بتوقيف

الحرب. فتأخر في معسكر، وضرب الأجل لحاكم وهران ثلاثين يوما. وقبل تمامها، غدروا بالمسلمين. ورفعوا رايات الحرب. وطار الخبر إلى محمد باي، فسار وأناخ على وهران. وجاءه المدد من الجزائر، فأعظم النكاية في الإسبانيول وأحجرهم في منازلهم. وزحف على السور، ووضع المدافع والهواوين في الاستحكامات. وعكف الرماة يرسلون عليها القنابل حتى اندكت أكثر أبراجها ودورها. واشتد الأمر على أهلها. وعجزوا عن الذبِّ عنها. ثم توفي محمد باشا المجاهد، وتولى مكانه مستشاره "بابا حسن". فطير الخبر إلى محمد باي، في مكانه من حصار وهران. وبعث إليه بالأمر المؤذن بتحديد أمر الولاية له. ثم إن ملك إسبانيا، لما علم أن محمود باي قويُّ العزيمة، عظيم الرغبة في فتح وهران، كتب إلى "بابا حسن باشا" والي الجزائر في تسليمها. واشترط أن يسلمها على ما كانت عليه حين دخلتها جيوشهم وأن يخربوا جميع ما أحدثوه فيها من الأبراج والقلاع. فأجابه الوالي إلى ذلك على أن يدفع مصاريف الحرب. فقبل الملك وبعث الوالي إلى محمد باي يأمره بالإفراج عن البلد. فارتحل الباي وجيوشه وأخذ الاسبانيول ينتقلون منها إلى أن فرغت. وخربوا ما وقع الاتفاق على تخريبه. فتقدم الباي إلى ساحتها وأرسل في المدائن والضواحي للحضور في دخولها. فهرع الناس إليه ودخلها وأخذ في ترميم ما تثلم من سورها، وأماكنها. وفي اقرب مدة عمّرت دورها وأسواقها ومساجدها. وانتقل الباي إليها من "معسكر" بأهله وأعيان حكومته، وأرّخ فتحها العالمة السيد الحاج عبد القادر بن السنوسي بن "دحّ" بقوله :

بشرى لنا قد بلغنا غاية الأرب | بفتح وهران ذات العُجب والعَجب
أرخت للقوم ذاك العام مبتدرا | قالوا : فما الشهر منه، يا أخا العرب؟
فقلت : في نظم ما راموا أؤرخه | وهران طار لها الإسلام في رجب

ثم توجه الباي إلى الجزائر، لتأدية التهنئة للباشا بفتح هذه المدينة التي طالما اهتمت الحكومة بشأنها. واجتهدت في فتحها. فأبى الله إلا أن يكون على يديه وفي أيامه. فأكرم الباشا نزله وأكبر وفادته ثم قفل من الحضرة شاكيا وبوادي "مينة" اشتد وجعه ومات. فحمل ودفن بوهران. فارتج المغرب الأوسط لفقده وعم الحزن أقطاره وكان يحب العلماء والصالحين، ويعظمهم. وأخذ الطريقة القادرية عن العلامة الجدّ سيدي السيد مصطفى. ولم يزل قائما بخدمته ساعيا في مرضاته إلى أن توفي وتولى على وهران ابنه "عثمان باي".

أمريكا تدفع الجزية

وفي سنة سبع ومائتين وألف؛ تأخر أداء الضريبة المفروضة على دولة أمريكا، للحكومة الجزائرية؛ فغضب الباشا، وأخرج قناصلها من الجزائر، وسائر الولايات. وجهز القبطان الشهير الحاج محمد، في أسطوله، ليترصّد مراكبهم. فغنم نحو العشرين مركبا. وأغزاه مرة أخرى، فظفر بغيرها. ثم إن دولة أمريكا جنحت للسلم، فأجابها الباشا، على أن تؤدي له مليونين ونصف مليون من الريال الشينكو،

فأدت له ذلك ورجعت قناصلها إلى الجزائر. وفي سنة اثنتي عشرة توفي الباشا "بابا حسن" وتولى مكانه ابن أخته "مصطفى الخزناجي" وفي سنة ثلاث عشرة كانت حادثة نابليون الأول في مصر. وأوعزت الدولة العلية إلى مصطفى باشا بإشهار الحرب عليها ليشغلها عن مصر؛ فأحضر الباشا قنصل فرنسا، الجنرال. وأظهر له شدة حنقه على فرنسا لسوء معاملتها مع الدولة العلية. ثم أوثقه في الحديد، وأسلمه إلى دائرة الأشغال الشاقّة، وفعل ذلك ببقية قناصل فرنسا، في الولايات! وجهز قائد البحر في الأسطول، وأعزاه إلى ثغور فرنسا؛ فأثخن فيها قتلا وأسرا وغنم عدة مراكب لهم. وفي سنة سبع عشرة، عُزل عثمان باي، ابن محمد باي، فاتح وهران عن ولايتها وتولى مصطفى باي، من أخصّاء الباشا.

ذكر أخبار محمد بن الشريف، الثائر على ولاية وهران

أصله من "الكسانة" قبيلة من البربر، بوادي العبد، قِبلة "غريس". أخذ العلم في صغره عن سيدي الجدّ، السيد محي الدين، في مدرسته "بالقيطنة". ثم رحل إلى المغرب الأقصى، فأخذ من علماء فاس. ولقي الشيخ "العربي الدرقاوي" وسلك طريقته. وقفل على وطنه. وجاء إلى حضرة سيدي الجدّ زائرا. وفي بعض الأيام، تكلم بحضرته، بما يوجب تأديبه شرعا، فأدّبه سيدي الجدّ بالسياط واستتابه!

ثم رجع إلى وطنه، ولحق بقبائل "حميان" و"شافع" ودعا لنفسه سنة سبع عشرة ومائتين وألف. وادّعى أنه المهدي المنتظر، فصدّقه الناس، وقاموا بنصرته. فأخذ يستلب الأنفس والأموال. ويخرب العمران. واتصل الخبر بباي وهران، فنهض إليه بجيوشه. والتقى الفريقان "بغريس" فانهزم الباي، وتفرقت جيوشه، ولحقت بوهران. واستولى ابن الشريف على أثقاله. ثم سار في جموعه حتى وقف بساحة وهران، فأناخ عليها.

وطار الخبر إلى الجزائر، فجهز الباشا مستشاره "علي آغا" وبعثه على طريق البرّ لقتال[1] ابن الشريف، فتعرض له البربر في نواحي وادي "شلف"، وصدوه عن المرور في بلادهم. ومنعوه ورود الماء، حتى كاد يهلك مع جيوشه عطشا! فلاذ بشيخ "العطاف"، واستجار به، فمشى له في القبائل على أن يدفعوا عاديتهم عنه، فأبوا عليه إلا بمال يؤديه إليهم. فأدى لهم ما طلبوه. وانقلب راجعا إلى الجزائر!

واستمر ابن الشريف في مكانه من حصار وهران. وضيق على أهلها، حتى نفدت أقواتهم. وتمشّت له الطاعة من تلمسان إلى المدية. ثم أفرج عن وهران، وسار يتنقل في النواحي، إلى سنة ست وعشرين ومائتين وألف. فبعث الباشا من الجزائر، معتمدة محمد باي المعروف "بالمقلّس" في عسكر. وقلّده ولاية وهران، فركب في الأسطول من شرشال. وبوصوله إلى وهران قبض على حاكمها مصطفى باي، وأشخصه إلى الجزائر.

---

1. في الأصل : "بعثه على طريق البرتغال" والصواب كما صححناه : "وبعثه عن طريق البر لقتال ابن الشريف".

وكتب إلى الآفاق بقدومه. وتلطف في جمع الكلمة، فأجابه أكثر القبائل. وركنوا إلى طاعته. وأمرهم بالمعسكر معه، فهرعوا إليه من كل جانب. وفرّق فيهم الأموال. ونهض من وهران بجموعه، يريد ابن الشريف. وتزاحفا في "غريس" ولما تولّى النهار، انكشف ابن الشريف بجموعه. وانتصر الباي عليهم. وفرّ ابن الشريف بأهله وأولاده إلى نواحي تلمسان. ثم لحق بجبل بني "يزناسن" من أعمال المغرب الأقصى. ولا زال مقيما فيه إلى أن مات. فرجع أهله وأولاده، ونزلوا في حمى سيدي الجدّ "بالقيطنة" لائذين به، فعفا عنهم الباي، حفظا لذمته، ورعاية لمقامه.

وأذعن الناس للحكومة، وتسابقوا في طاعتها. وذهب ابن الشريف وطوي بساطه. ثم خرج الباي من "معسكر"، لتمهيد البلاد، فأخذ ضرائبها. وجبى أموالها. وقفل إلى وهران. وثبتت قدمه في ولايته.

سمعت سيدي الوالد يقول : إنما لم ينجح ابن الشريف في أمره لكونه كان ممقوتا عند سيدي الجدّ فمقته الناس لذلك!

وبعد رجوع الباي إلى وهران، توجه إليه سيدي الجد ليهنئة، بانتصاره؛ فأكرم نزله، وأعظم وفادته. ولما انطلق من عنده، قال الباي إلى جلسائه : نحن لا نخشى من ابن الشريف وأمثاله، وإنما نخشى من صولة هذا، يشير إلى سيدي الجد، رحمه الله تعالى.

ذكر أخبار ابن الأحرش

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين وألف، ثار "ابن الأحرش" في نواحي قسنطينة، وهو من عرب المغرب الأقصى، رجل من بلاده للحج. ولما أجلب نابليون الأول على مصر، جمع ابن الأحرش جيشا من أعراب المغربين وإفريقية. وانضم إلى الجنود المصرية لقتال نابليون، وأبلى في تلك الحروب بلاءً حسنا؛ فاكتسب الشهرة. ولما انقلب نابليون إلى فرنسا، قفل ابن الأحرش راجعا إلى المغرب، واحتل بتونس، ولقيه صاحبها "حموده باي" وأكرم نزله. وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر ووعده بالمظاهرة بالمال. فاستكان له ابن الأحرش.

وخرج من تونس إلى نواحي قسنطينة ودعا لنفسه، واشتدت شوكته في تلك الجهات. وزحف إلى قسنطينة بجموعه؛ فخرج إليه حاكمها بجيشه ووقعت بينهما حروب، انهزم في آخرها حاكم قسنطينة، وترك ذخائره، فتقوى بها ابن الأحرش وعظم الخوف عند الباي ففر إل تونس بأهله وأولاده.

واتصل الخبر بمصطفى باشا، والي الجزائر؛ فأحضر عثمان باي، ابن محمد باي، وبعثه حاكما عل قسنطينة وفوّض إليه ابن الأحراش. وبوصلوه إليها، كتب إلى رؤساء القبائل الدائنين بطاعة ابن الأحرش، يهدّدهم ويخوفهم عاقبة أمرهم. وأخذ يتهيأ للحرب. وخيم خارج البلد في سطح المنصورة. واستجاش بمن بقي من القبائل، متمسكا بطاعتهم وارتحل نحو ابن الأحرش وعسكر في سهل "وادي الزهور"

فأمر ابن الأحرش بالنهر. فسُد. ثم أطلق على المعسكر أول الليل. فما طلع الفجر إلا والماء قد عمّ السهل كله. وهجم عليهم ابن الأحرش بجموعه، فاستلحمهم. وقُتل الباي. وكان الباي لما خرج من قسنطينة، استصحب معه جميع ما في الخزائن من الأموال، والذخائر، فاستولى عليها ابن الأحرش. وامتلأت أيدي جيوشه من المغانم.

ثم إن باشا الجزائر فوّض الأمر إلى قائد "الخشنة" وولاّه على قسنطينة. وكان هذا القائد له مصاهرة مع العرب؛ فاستجاش بأصهاره، وعبّى كتائبه، وبرز من قسنطينة لمدافعة ابن الأحرش؛ فانهزمت جيوش ابن الأحرش، وتفرقت، وفرّ بنفسه، ولحق بابن الشريف في الجهة الغربية، وبقي في "معيشة" إلى أن دس له من قتله من أصحابه.

ذكر غير ذلك

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين، دخل يحي آغا على رئيس اليهود في الجزائر وقتله في منزله. ولما رأى الناس إهمال الحكومة للأمور وتغافلها، تداعوا في ثاني يوم إلى استئصال اليهود ونهب أموالهم، فاجتمعوا ودخلوا إلى محلّة اليهود، فأثخنوهم قتلا، واكتسحوا أموالهم وجمعوا أشلاءهم خارج البلد، وأضرموها نارا. ثم أمر الباشا بالقبض على كلّ من ثبت حضوره في هذه الفعلة؛ فامتلأت السجون بهم. وأمر أن يصلب منهم كل يوم عشرة أنفس! فصلبوا عن آخرهم!

وفي سنة عشرين ومائتين، ثار العسكر على الباشا ونقموا عليه سوء معاملته لهم، وقتلوه في الزقاق. وتولى "احمد خوجة"، فأطلق أيدي العسكر في الرعايا، فكثر الفساد!

وكان في قلبه شيء على "عبد الله باي" حاكم قسنطينة؛ فقتله واستصفى أمواله. ومدّ يده إلى الخزينة فباع جميع ما فيها من النفائس، وحمله إلى دار سكناه، وبعث إلى "حمودة باي"، حاكم تونس، في دفع الضريبة المفروضة على حكومة تونس لحكومة الجزائر، فاستنكف. ونقض العهد. فجهز إليه القبطان "حميدو" في الأسطول، فغنم ثلاثة مراكب تونسية بما فيها. ثم أغزى جيوشه إلى تونس، على طريق البرّ، فلقيهم "حمودة باي" بجموعه. فأوقعوا به. واستولوا على معسكره.

وفي سنة ثلاث وعشرين، تزاحف الفريقان واقتتلا بنهر "سراط". فكانت الهزيمة على حمّودة باي أيضا. وبعد رجوع العسكر إلى الجزائر، أظلم الجوّ بينهم وبين أحمد باشا. فثاروا عليه وقتلوه وسحبوه في أزقة الجزائر، إهانة له. ثم تولى "أبو الجوالق" فأمر بنفي القبطان "حميدو" إلى الشام.

وفي سنة أربع وعشرين ومائتين وألف، تغلب "علي باشا" على أبي الجوالق، وقتله خنقا، وتولى مكانه، وأعاد القبطان "حميدو" من الشام، فأكرمه، ورفع رتبته، وفوض إليه أمر البحر. ثم أغزاه إلى جبل طارق، فلقي مراكب البورتغال، فغنم منها مركبا. وأغزاه إلى صقلية، فامتلأت مراكبه بالغنائم.

وفي سنة خمس وعشرين، أغزاه إلى "جربة"، من أعمال تونس فاستولى عليها. وطار الخبر إلى "حمودة باي"، فجهز ثلاثة عشر مركبا، وبعثها إلى "جربة" لقتال "حميدو" فلقيهم بالقرب من جزيرة "قرقنة"، وانتشبت الحرب بينهم، فكانت الدبرة على مراكب تونس.

وفي سنة ست وعشرين، أغزاه إلى تونس. واحتل "بحلق الواد" وتأخر "حمودة باي" عن اللقاء، وانحجر داخل الحضرة، فأقام "حميدو" أياما ثم اقلع راجعا إلى الجزائر.

وفي سنة سبع وعشرين، أخذ الباشا يتأهب لمنازلة تونس وبعث إلى حكام الولايات في جمع الجيوش والنهوض بها إلى حضرته، فتغافل حاكم وهران. وأظهر الاستبداد. فوجم لها الباشا. وسيّر "عمر آغا" في جيش، على طريق البحر، إلى وهران. وكان أعيانها قد انحرفوا عن حاكمهم. ونقموا عليه ما أظهره من الاستبداد. وكان أعيان "الدوائر" و "الزمالة" اوقعوه في هذا الأمر. وزينوه له. ووعدوه بمظاهرة الرعية -وهو يومئذ مخيم "بهبرة"- فلما انقلب إلى وهران، قام عليه الجند وأعيان البلد وقبضوا عليه. وبوصول عمر آغا إلى وهران، سلموه إليه، فذبح أولاده على صدره وهو ينظر إليهم. ثم سلخه، وحشا جلده قطنا، وأرسله إلى الجزائر، فعلّق على باب الجديد منها. واستصفى أمواله. ثم أخذ يتأهب لحرب حاكم تونس، فجمع الجيوش وسار بهم. وكانت جموع "تيطري" و "قسنطينة"، تنتظره بالقرب من التخوم لأن الباشا فوّض إليه أمر الحرب. فنهض بالجموع إلى تونس. ولما تجاوز

حدودها، اتصل به أن الأسطول الجزائري، بعد أن أرسى في "حلق الواد" أياما، انقلب راجعا من غير طائل.

وفي سنة ثمان وعشرين، خرج القبطان "حميدو"، غازيا على الثغور الإفرنجية، فصادف في طريقه مراكب كثيرة للدنمارك، فاستولى عليها.

وفي هذه السنة، انعقدت الهدنة، بين حكومة الجزائر ودولة البورتغال، على أن تؤدي دولة البورتغال للحكومة مليونين ونصف مليون فرنك وأن تنقد لها فدية أسراها.

وفيها، سار القبطان "حميدو" غازيا إلى ثغور اليونان : فأثخن فيها بالقتل والأسر، وغنم عدّة مراكب لهم. وانقلب راجعا، فرفع ملك اليونان أمره إلى السلطنة السنية، فبعثت إلى باشا الجزائر توبّخه على ذلك وأمرته بردّ جميع ما أخذه لليونان.

وفي سنة تسع وعشرين، اتصل به أن اليهود لبّسوا نساءهم الثياب الخضر، فقبض على أعيانهم، وقتلهم، وأحرقهم. وكان هؤلاء الأعيان أكلوا أموال الناس بأنواع الحيل، والدعاوي الباطلة، فألزم الباشا أقاربهم بدفع جميع ما ثبت عليهم.

وفي سنة ثلاثين ومائتين، اتفق "عمر آغا" -وكان عزل عن وهران- مع "عبد الله" وكيل الخرج على قتل الباشا، فدخلوا عليه- وهو في الحمام- فذبحوه. وتولى "محمد الخزناجي" وهو في سنّ التسعين- وكان محبوبا عند أهل الجزائر. وفي اليوم السابع عشر من ولايته، دخل عليه "عمر آغا" في محله، فقتله، وتولى مكانه! فأغزى القبطان "حميدو"

إلى جبل طارق، فصادف مراكب لدولة أمريكا، فصادقوه القتال. وكانت الدبرة عليه فقتل، هو وجماعته. وغنم المريكانيون مراكبه. ثم آل الأمر بعد ذلك إلى انعقاد الصلح بين الفريقين.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين، جهّز الإنكليز وهولاندة عمارة مختلطة بينهم لنظر اللورد "اكسمون" وبعثوه إلى الجزائر. ولما وصل إليها، كتب إلى "عمر باشا" : أنا "اللورد اكسمون" قائد العمارة الإنكليزية الهولاندية أعلن لك أنني لا أرغب في سفك الدماء ولا أرضى بخراب البلاد ولكن أطلب معاهدة مربوطة بشروط.

أولها : إطلاق الأسارى عموما من غير استثناء.

ثانيها : إرجاع ما دفعته لكم سردينيا، ونابولي في السابق، عن أسراهم.

ثالثها : إبطال عادة الأسر بالكلية.

رابعها : أن تكون هذه الشروط بعينها جارية بين حكومة الجزائر وباقي الدول". فأجابه عمر باشا بقوله :

- "لا جواب عندي إلا الضرب بالمدافع".

وفي الحال، أمر بإطلاق القنابل على العمارة. وانتشب الحرب بين الفريقين إلى المساء. وفي صبيحة اليوم الذي يليه شبت النار في المراكب الهولاندية. ولاتصال بعضها ببعض، مع شدة الهواء احترقت عن آخرها. واتصلت النار ببعض مراكب الإنكليز وهاج البحر وتلاطمت أمواجه، فأقلع "إكسمون" بما سلم من عمارته، وتوغل في البحر. ولما سكن، رجع إلى الجزائر، وخاطب الباشا بخطابه الأول.

فقبل شروطهم، وانعقد الصلح بين الباشا وأكسمون. ولما شاع هذا الخبر في الجزائر؛ ثار الجند على عمر باشا، ونقموا عليه قبول الشروط الإنكليزية؛ فقبضوا عليه، وقتلوه خنقا. وولوا مكانه : "علي خوجة" سنة اثنين وثلاثين ومائتين وألف. فأشاع النكير على أعيان الحكومة. وأكثر من قتل الأتراك، وجعل بطانته من العرب. وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة. وأظهر الميل إلى العمل بالشريعة المطهرة والقيام بوظائفها. وأعلن بالمحافظة على الصلوات في أوقاها. ومن وُجد في دكّانه بعد الأذان يجلد! واشتدت وطأته، على المنحرفين عن الشريعة حتى توفيّ بالطاعون. ثم ولي "حسين" كاتب الخيل، واستقر له الأمر.

وفي سنة أربع وثلاثين؛ وقع الصلح بينه وبين صاحب تونس بأمر الدولة العلية. وفيها عُزل حاكم وهران "محمد باي، ابن عثمان الكردي" فاتح "وهران" وتولى مكانه "حسين باي".

ذكر قيام السيد محمد التجيني

أصله من بني "توجين" أمراء "تاهرت". وكان والده السيد أحمد زاهدا، عابدا، صاحب طريق، وله مريدون وأتباع. ولما شاع أمره في وطنه، وخاف من غوائل الحكومة؛ انتقل بأهله وأولاده إلى فاس، في أيام سلطانها "مولاي سليمان العلوي" وأقام بها إلى أن توفيّ؛ فقام بأمر الطريق بعده ابنه السيد محمد. ورجع إلى بلدهم "عين ماضي" وهي في الجنوب الشرقي من أعمال وهران. وكانت حكومة الجزائر ترهب سطوته وتتوقع خروجه عن طاعتها.

وفي سنة أربعين ومائتين رحل من بلاده للحجاز برا. واتصل الخبر "بحسين باشا"؛ فبعث إلى حاكم قسنطينة في القبض عليه؛ فأفلت منه. وبعد رجوعه إلى وطنه، دعا الناس إلى طاعته، والخروج عن دعوة الحكومة؛ فوافقته أهل تلك النواحي. ونهض من بلده إلى نواحي "معسكر" فلاذ "الحشم" ومن إليهم بطاعته، وخرج "حسين باي"، حاكم وهران، في جيوشه. وتزاحف الفريقان، خارج "معسكر" من جهة "غريس". وعند المصاف، تقهقر الحشم ومن وافقهم، وانفرد التجيني في ثلاثمائة مقاتل، من قبيلة "الأرباع" فعقلوا أنفسهم كما تعقل الإبل، وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم! وبعث الباي برأس التجيني إلى الجزائر، فعلقت على بابها. وأرسل سيفه إلى السلطان الغازي "محمود خان".

وفي هذه السنة، عُزل حاكم قسنطينة. وولى أحمد بن احمد الشريف. وهو أول من تولى من العرب على ولاية في الجزائر. وأطلق عليه لقب "باي".

ذكر ما كانت تؤديه الإفرنج لحكومة الجزائر من الهدايا والأموال

اعلم أن حكومة الجزائر -وإن كانت قليلة العَدد والعُدد-، فقد كانت لها اليد الطولى في البحر الرومي. وكانت بعوثها وغوازيها، كثيرا ما تسم الثغور الإفرنجية بالخسف والدمار. ولذا، لاذ أكثر ملوكهم بمسالمتها. وأذعنوا لما تفرضه عليهم، دفعا لعاديتها. فكانت

دولة إنكلترا، تؤدي لها : ستمائة ليرة إنكليزية، في كل سنة، ودولة فرنسا : هدايا ثمينة تؤديها عند تغير قناصلها. ودولة الدانيمارك : آلات ومهمات حربية، قيمتها أربعة آلاف ريال شينكو، وهدايا نفيسة. ودولة هولاندا : ستمائة ليرة فرنساوية. ومملكة سيسيليا : أربعة وعشرين ألف ريال شينكو، وهدايا قيمتها أربعة آلاف ريال شينكو. ومملكة سردينيا : ستة آلاف ليرة فرنساوية والولايات المتحدة بأمريكا: آلات ومهمات حربية، قيمتها أربعة آلاف ريال شينكو، وعشرة آلاف ريال نقدية، وهدايا تحضرها قناصلها معها. والبورتغال : هدايا بهية. وإسوج ونروج : آلات حربية، وذخائر بحرية، تساوي قيمة وافرة. وهنوفر : وبرام من ألمانيا : ستمائة ليرة إنكليزية وإسبانيا: هدايا نفيسة. وربما حاول بعضهم في بعض الأحيان مقاومتها وتحرك للانتقام منها؛ فلا يصادف نجاحا، فيضطر إلى مسالمتها!

ذكر تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر

إن الفتن في أوروبا، منذ زمان، لم تخمد لها نار. وأشدها إضطراما، ما كان منها في أيام نابليون الأول. ولما سكنت بانعقاد الصلح بين الملوك، وكان الفرنسيس يغصون بهذه الحكومة، ويتربصون بها الدوائر حتى اتفق لقنصلهم مع "حسين باشا" الخصام الذي أدّى لإهانة القنصل حين عقدوا معاهدة تجارية في أصناف الحبوب مع الحكومة. فتقرر لها في ذمتهم أموال طائلة. وقارن ذلك حدوث الاضطراب

في فرنسا وقيام الأمة على ملكهم، فتأخر أداء تلك الأموال نحو عشرين سنة. ولما خمدت الفتنة، جدّدوا المعاهدة مع الحكومة، سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف هجرية (1235)، تسع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية (1819). ومن فصولها :

إن دولة فرنسا تؤدّي للحكومة الجزائرية سبعة ملايين فرنك على يد وكيلها "يعقوب كوهين بكري" و "ميخائيل أبي زناك" اليهوديين! والآداء يكون منجّما أول سنة ستّ وثلاثين ومائتين وألف هجرية (1236) عشرين وثمانمائة وألف ميلادية (1820).

وكان لتجار فرنسا، من أهل مرسيليا، على تجار الجزائر، مليونان وخمسمائة ألف فرنك. فرفعوا أمرهم إلى دولتهم وطلبوا منها أن تنقد لهم أموالهم، من أصل سبعة الملايين، المحكوم بها لحكومة الجزائر؛ فأدّت دولة فرنسا للحكومة أربعة ملايين ونصف مليون، وأبقت ما ادّعى به تجارها في "صندوق الأمانة". وأمرت أن تجري دعوى تجارها مع غرمائهم من أهل الجزائر في مجلس التجارة في باريز. فغضب الباشا لذلك وطلب أداء الأموال المحكوم له بها كلها وأن تكون مرافعة التجار والغرماء في مجلس الجزائر. وادّعى أن الحق له في ذلك بموجب العهود التجارية بين الحكومة وسائر الدول. وطال النزاع، واستمرت فرنسا مصرّة على أمرها والباشا يطلب الجواب من قنصل فرنسا، الجنرال "دوفال"، فيحاوله بالمواعيد.

وفي أول يوم من شوال، سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف (1243). دخل القنصل "دوفال" على الباشا لأداء التهنئة بعيد الفطر؛ فشكا له الباشا عدم ردّ الجواب من ملك فرنسا على كتاب قدّمه له. فقال له : ليس من العادة، أن يجاوب الملك من هو دونه بدون واسطة! ففهم الباشا من ذلك أن مراد القنصل أن الملك لا يعتني بمجاوبة مثله. فاشتد غضبه ولطم القنصل على وجهه بمروحة كانت في يده؛ فعظم ذلك عند القنصل وطيّر الخبر إلى ملكه؛ فجاءه الأمر بمبارحة الجزائر، فبارحها بمن معه من الفرنساويين المقيمين في الجزائر.

ثم إن الباشا عدا على من تأخر في البلد من ضعفائهم فاستأصلهم وخرب قلعة "دي لاكار" وكل بناءٍ للفرنسيس في "الجزائر" و"بونة".

وبوصول القنصل إلى باريز، جهزت دولة فرنسا أساطيلها وبعثتها إلى الجزائر لنظر الأميرال "كوليت" فنازلها يغاديها القتال ويراوحها. واستمر محاصرا لها نحو ثلاث سنين، حتى لانت قوته ونفذت ذخائره، وانقرض معظم جيشه، وتكسرت أكثر مراكبه. وكانت خاتمة أمره بقتله. ذكر بعض المؤرخين أن النفقة على هذه الحملة كانت أكثر من عشرين مليون فرنك وأما حكومة الجزائر، فلم يلحقها كبير ضرر. ولما علم "حسين باشا"ن أن دولة فرنسا لا ترفع يدها عن الجزائر وأنها تراجع منازلتها لا محالة، أخذ في تثقيف البلد. وتحصين حوزتها. ثم انتقل بأهله وحاشيته إلى القصبة.

وفي سنة خمس وأربعين ومائتين وألف هجرية (1245)، وتسع وعشرين وثمانمائة وألف ميلادية (1829)، بعثت دولة فرنسا معتمدها "دي لابر" إلى الجزائر يطلب الترضية من الباشا؛ فلم يلتفت إليه وردّه. وبعد إقلاعه، أطلقت عليه القنابل، من "برج المرسى"!

واتصل الخبر بملك فرنسا، ففاوض أهل دولته، فوسّطوا "محمد علي باشا" خديوي مصر، أن ينصحه؛ فأرسل له كتابا ينصحه ويحذّره ويعلمه به بأن العاقبة وخيمة. فلما قرأه حسين باشا، قال للرسول : "بلغه سلامي. وقل له : يأكل الفول!" ولما وصل هذا الجواب على الخديوي، عرّف الحكومة الفرنسوية بعدم تأثير نصيحته له، فأجمعوا على حرب الحكومة الجزائرية ومناجزتها. فجمعوا جنودهم، وكانوا أربعة وثلاثين ألفا ومع مائة واثنى عشر مدفعا واستأجروا أربعمائة مركب. وسيرتها من "طولون" إلى الجزائر لنظر الأميرال "دوبري" في إحدى وعشرين ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف هجرية (1245)، التاسع عشر من "حزيران" يونية سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية (1830). فعدل بها عن مرسى الجزائر إلى مرسى "سيدي فرج" القريبة من الجزائر. وكانت خالية من العمران إلا شرذمة قليلة من العسكر، كانت في برج هناك. فلما أطلت عليهم مراكب فرنسا، تفرقوا. وبوصول العمارة إلى المرسى، أخذت الجنود تنزل إلى البرّ بمهماتها ورفعوا رايتهم على البرج. واتصل الخبر بباشا الجزائر، فأارسل في المدائن والضواحي، ينادي بالجهاد. وعقد لصهره "يحي آغا" على قتال العدو. فنهض من الجزائر، في الحشود والعساكر، والتحم القتال

بين الفريقين. فكانت الدبرة على الآغا وجموعه. ثم تلاحقت الجيوش من "وهران، وقسنطينة، وتيطري" وزحف بهم الآغا في السابع والعشرين من ذي الحجة على معسكر الفرنساويين وحملوا عليه حملة رجل واحد، واستمروا حتى أدخلوه الخيام ووضعوا راياتهم على الاستحكامات. فبهت الفرنسيس من تلك الحملة، وتراجعوا. وعزّزتهم فرقة الطوبجية. وردّوا الكرّة عل الجيوش الجزائرية، فأخرجوهم من المعسكر وهزموهم. وتبعهم، العدو إلى أن أدخلهم معسكرهم في "استاوالي". ثم أخرجهم منه واستولى عليه، بما فيه من الذخائر والمهمات. وعرف ذلك اليوم بيوم "استاوالي". واجتمع في الجزائر حشود العرب والبربر للنهب والسلب بدعوى الجهاد. وفي الثالث من محرم سنة ست وأربعين ومائتين وألف هـ (1246) الموافق للخامس والعشرين من يونية، سنة ثمانمائة وثلاثين (1830) نهض يحي آغا من الجزائر بتلك الحشود وانتشب الحرب بينه وبين الفرنساويين. فانهزم يحي آغا وحشوده. فتعقبهم العدو إلى أن تجاوز استحكامات "أبي جارية" واستولى عليها، بما فيها من المدافع والمهمات، وخيموا عندها، وقوي طمعهم في الاستيلاء على الجزائر. وفي صبيحة ثامن المحرم، ارتحلوا من "أبي جارية" وضربوا معسكرهم في أطراف البساتين. وفي عاشر المحرم، أطلوا على البلد وسلطوا عليها المدافع وأخذوا يعقرون الأشجار ويعفّون الآثار. وأخذت النار في برج مولاي حسن، وكانت فيه خزينة البارود، فاحترقت. وتطايرت حجارة البرج على البلد فدمرت المنازل ومات خلق كثير تحت الردم. وعظم الكرب

في مدينة الجزائر، واستولى القلق على أهلها، وتنبه حاكمها من غفلته. ولما علم أنه قد فاته التدارك، استأمن لنفسه وأهله، وجميع الأهالي فأمّنه قائد الجنود الفرنساوية، المارشال، على شروط وقع الاتفاق عليها!

ذكر المعاهدة الواقعة بين قائد العسكر الفرنساوي "بورمون" وبين "حسين باشا"

في الثالث عشر من المحرم، سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرية، الخامس من يولية، سنة ثلاثين وثمانمائة وآلاف ميلادية

أولا : كافة القلاع المختصة بمدينة الجزائر وأبواب المدينة تسلم للعساكر الفرنساوية في صباح السادس من يوليه (تموز)، الساعة العاشرة.

ثانيا : يتعهد القائد العمومي الفرنساوي أن يترك للباشا أمواله المختصة به.

ثالثا : أن يكون لحضرة الباشا الحرية بأن يتوجه مع عائلته وأمواله إلى المحلّ الذي يرغبه. وفي مدة إقامته في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته، تحت حماية القائد العمومي الفرنساوي وأن الباشا وعائلته يكونون تحت حرس مخصوص.

رابعا : أن القائد العمومي يمنح هذه الحماية المعطاة لحضرة الباشا لكافة قواد العساكر الجزائرية.

خامسا : تعطي الحرية للديانة المحمدية وللمكاتب الأهلية وليديانتهم، ولأملاكهم ولتجارتهم ولصنعائهم وأن لا يعارضوا في ذلك وأنّ نساءهم محفوظات معتبرات.

سادسا : إن مبادلة هذه المعاهدة تكون غدا الساعة العاشرة صباحا وتدخل العساكر قلعة القصبة ويقيمون في قلاع المدينة والشطوط البحرية.

وفي الغد، صباح اليوم السادس من يوليه (تموز)، والثالث عشر من المحرم سنة ست وأربعين ومائتين وألف (1242)، في الساعة التي وقع عليها الاتفاق دخلت جنود فرنسا من الباب الجديد في أعلى المدينة، وأُنزلت رايات الدولة العثمانية من القصبة والأبراج وارتفعت رايات فرنسا عليها وتفرقت الجنود الفرنساوية في البلد وتم استيلاء فرنسا على مدينة الجزائر، وبلغوا أمنيتهم التي كانوا يتمنون الحصول عليها منذ سنين عديدة، غير مبالين بوفاء المعاهدة ولا ملتفتين للقيام بأعباء المعاقدة وانقرضت الحكومة الجزائرية وانتثر سلكها.

وكانت مدتها فيها ثلاثمائة وخمسا وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوما تقريبا. ولله عاقبة الأمور.

بعد استقرار العساكر الفرنساوية في المدينة، انتقل الباشا وأرباب الحكومة إلى خارج البلد وخلفهم فيها رؤساء الجنود الفرنساوية. وشاع أمر الجزائر؛ فاهتزت له المشارق والمغارب وعُدَّ عند المسلمين من أعظم النوائب. ولو كانت حكومة الجزائر مستعدة لحماية حوزة بلادها، آخذة بالحذر من مباغتة العدو لها، وكانت جنودها كاملة الاستعداد، متمرنة على الحروب، عالمة بطرقها ما وصل عدوها إلى مرغوبة منها في أقرب مدة وعلى أيسر وجه. ولكن استيلاء الكبر والعجب والتعاظم ... على رجالها، مع ما بلغوه من البذخ والترف،

أدّاهم إلى إهمال الأمور وعدم الاكتراث بها، كما وقع بالأندلس. ليقضي الله أمرا كان مفعولا!

ذكر أخبار الفرنسيس بعد استيلائهم على الجزائر

أول ما ابتدأ به قائد الجنود الفرنساوية في الجزائر أن رتّب مجلسا من رؤساء الجنود لضبط خزائنها من الأموال والجواهر والمهمات الحربية والذخائر. فتحصل من ضبطها -على ما قيل- من الذهب والفضة وقيمة الجواهر : ثمانية وأربعون مليونا وستمائة ألف وثمانون ألفا وخمسمائة وسبعة وعشرون فرنكا... ومن الصوف والحنطة والشعير وغيرها ما يبلغ قيمته ثلاثة ملايين من الفرنك. ومن المدافع والبنادق والبارود والرصاص والقنابل وغيرها من آلات الحرب مع ثمن الأملاك الأميرية داخل البلدان وخارجها، ما قيمته خمسون مليونا من الفرنك.

ثم حُمِل الباشا مع أهله وأتباعه إلى "نابولي" بطلب منه، فأقام فيها مدّة. ثم انتقل منها إلى "الكورنة" ثم على الإسكندرية. ولما وصلها احتفل به محمد علي باشا وأطلعه على المهمات الحربية وغيرها وصنع له مأدبة حضرها الأعيان وأكابر البلدة. وفي أثناء الطعام، أثنى حسين باشا على الخديوي ومدح أعماله وهمته في إعمار مصر وترقّيها، فأجابه الخديوي بقوله :

يا حضرة الباشا! إن جميع ما رأيته واستحسنته، كان منشؤُه من أكل الفول. وكان ذلك منه تذكارا له فيما سلف من الجواب عند

قراءة الكتاب! فتمغص حسين باشا وتوجه لمحله متألما. وبعد أيام قليلة، توفي سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية (1245).

ولما كثر الهرج بين الانكشارية والجيش الجزائري، جمعهم القائد العمومي وحمل أكثرهم إلى نواحي إزمير ورخّص للأغنياء منهم في الإقامة بالجزائر، ريثما يبيعون عقاراتهم وأمتعتهم. وبعد فراغهم من أشغالهم، حملهم إلى جهات مختلفة، ودوّن الدواوين وجنّد من أهل المدينة جندا بلديا وبنى قواعد حكومتهم في الجزائر على إظهار الهيبة ومراعاة أمور الشريعة الإسلامية واحترام المساجد وتعظيم العلماء وحرية العوائد وتلطف ما شاء في إمالة القلوب إليهم. وبذل الأموال ترغيبا حتى يلين إليهم القوي ويدخل في طاعتهم الأبيُّ، وظنّ أن سياسته هذه كافية في الاستيلاء على سائر المغرب الأوسط. ولم يعلم أن دون ما أراد خرط القتاد. وقد ظهر لهم بعد حين أن في عين اليقين حروبا يشيب لها الوليد ويضعف لها القوي الشديد إلى أن نالوا غاية مطلوبهم وحصلوا على غاية مرغوبهم. وذلك تقدير العزيز العليم.

ذكر خروج الماريشال بورمون إلى البليدة ورجوعه مهزوما وما جرى بعد ذلك من الحوادث

بعد أن أتم القائد العمومي أشغاله الابتدائية في الجزائر، خرج منها ثالث صفر سنة ست وأربعين ومائتين وألف (1246). الموافق للخامس والعشرين من يوليه (تموز) في طائفة من الجند إلى البليدة. فتلقاها أهلها وأدوا له طاعتهم ودخل البلد، وكان "أبو مزراك" التركي حاكم

"تيطري" قد دعاه إليها ووعده بطاعة أهل تلك النواحي. ولما شاع الخبر، تداعى الناس إلى الجهاد و نادوا به جبال "متيجة" القريبة من "البليدة"، فهرعوا إليها وصمدوا للمهاجمة. وفي غلس اليوم الثالث من دخول القائد العمومي، اقتحموا البلد واستأصلوا أكثر الجند الفرنساوي وفر القائد، فيمن أفلت من الجند، إلى الجزائر، فدخلها على أسوأ حال. وشاع خبر هذه الواقعة، فأكبرها الناس واستخفوا أمر الفرنسيس وفسدت قلوب أهل الجزائر عليهم. وضعف ما كان عندهم من الهيبة لهم وانحط قدر القائد بينهم. وقارن ذلك الاضطراب الواقع في الجزائر بين الجنود البرية والبحرية بدعوى التغلب على الجزائر فكل فريق ادعى ذلك. واتصل بهم، أن الأمة في فرنسا ثاروا على الملك وخلعوه. وأبدلت بالدولة الملكية، الدولة الجمهورية. وكان القائد من حزب الملكية، فأيقن بالعزل. وبعد أيام، حضر الأمر بعزله وتعيين الجنرال "كلوزيل" حاكما على الجزائر. وبحضوره، باشر الأحكام وسافر الماريشال "بورمون" إلى "مالقة" من بلاد الأندلس، مستصحبا قلب ولده المقتول في معرة "سيدي خلف" بالجزائر. ثم إن الجنرال "كلوزيل" طمحت عينه إلى الاستيلاء على أمصار القطر. فبعث إلى حاكم "وهران" وحاكم "قسنطينة"، يدعوهما لطاعة دولته فأجابه صاحب وهران إلى ذلك وأخذ أهلها في الخروج منها إلى تلمسان ومعسكر وغيرهما. و لم يتخلف فيها إلاّ الحاكم "حسين باي" وجنده، وطير بالإجابة على أن يؤمنه الجنرال "كلوزيل" على نفسه وأهله ومن معه؛ فأسعفه الجنرال بذلك وسير ولده الأكبر في عدة مراكب حربية

إليه. فدخل وهران واستلم زمامها من يد حسن باي في تاسع رجب سنة ست وأربعين ومائتين، الموافق خمسة وعشرين ديسمبر (كانون الأول) سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية وذلك بعد ستة أشهر من دخول الجزائر. ثم لحق "حسين باي" ومن معه بالجزائر. وعومل بما عومل به "حسين باشا". ولما بلغ "أحمد باي" حاكم بسكرة أمر الجزائر جمع الجيوش وزحف إلى قسنطينة، حاضرة الولاية، فخرج إليه حاكمها "محمود باي" ابن "جاقر باي" فدافعه عنها إلى أن وقع الخلل في جيشه وتفرق عنه ودخل أحمد باي إلى الحاضرة، وفرّ محمود إلى جبال البربر، فاغتاله بعضهم وساق رأسه على أحمد باي. ثم وصله رسول الجنرال بكتابه يدعوه إلى طاعة فرنسا، فقتله ومزّق الكتاب فاستشاط الجنرال غيظا. وأرسل الكونت "دي مريمون" في الأسطول إلى "بونة" -وكان عاملها من قبل أحمد باي قد نفرت من ظلمه قلوب أهلها- فلما أطل عليهم أسطول فرنسا أظهروا له إشارة السلم وفرّ العامل ومن كان معه من الحامية ولحق الجميع بقسنطينة. وتقدم "دي مريمون" إلى البلد، فاستولى عليها. وقبل الاستيلاء على "وهران وبونة"، انتقض "أبو مزراك" والي "تيطري" ونكث طاعة فرنسا. وجاهر بالحرب. فخرج إليه "كلوزيل" من الجزائر، في ثامن عشر نوفمبر سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (1830). وأقام أياما في البليدة ثم سار قاصدا "المدية" حاضرة ولاية "تيطري". وزحف إليه "أبو مزراك" وجموعه. واستمر "كلوزيل" سائرا إلى الحاضرة فدخلها، في الثالث والعشرين منه. وتلقاه أهلها مطيعين؛ فولى عليهم "مصطفى بن عمر"

وفي أثناء إقامته في "المدية"، استأمنه "أبو مزراك" على نفسه، فأمنه. ولما حضر عنده اعتقله وكرّ راجعا به إلى الجزائر. ومرّ في طريقه "بالبليدة"؛ فوجد القبائل المجاورة لها قد دخلوها واستأصلوا الحامية الفرنساوية. ونهبوا الذخيرة؛ فاستمر سائرا على وجهه إلى الجزائر موقنا بأنه لا طاقة له على إذعان القبائل والشعوب الجزائرية وأن جيوشه غير كافية في حملهم على الطاعة. مع ما عليه فرنسا من الارتباك واختلاف الكلمة بين الأحزاب الملكية والجمهورية. فاستجلب "دي مريمون" وجنده من "بونة". لما علم أنه لا يجلب الناس إلى طاعة فرنسا إلا أمراء منهم أو من الأتراك فولى "مصطفى بن عمر" على مدينة "المدية" وبعث إلى صاحب تونس "حسين باشا" من أولاد حسين بن علي يطلب منه بعض المترشحين للولاية من عائلتهم، فبعث إليه من اختاره من أقاربه، فولاه على مدينة "وهران" في أوائل فبراير سنة إحدى وثلاثين، بعد أن أشهد على نفسه، أنه فرنساوي! وأدّى يمين الأمانة على ذلك. ثم أخذ يدس إلى الأتراك القاطنين في مدن الداخلية، "كتلمسان ومعسكر" أن الفرنسيين أجمعوا على أن يجعلوا في الجزائر حكومة تركية تكون تحت حمايتهم. وبعد تأسيس أمورها، يتخلون عنها، ويسلمون أمورها إليهم. وجعل توليته على وهران دليلا على صدق خبره. فركنوا إلى قوله وبعثوا إليه بطاعتهم سرا. ثم فشا خبرهم وانتشر ذكرهم. فقامت عليهم الأهالي في كل جهة واستأصلوا الكثير منهم. واعتصم أتراك تلمسان بقلعة "المشور". ثم عزل "كلوزيل" عن سخط من دولته ولحق بفرنسا. وتولى الجنرال "تريزيل" وتعين الجنرال "بوي" حاكما

على وهران. وبوصوله إليها، رجع التونسي إلى أهله. فعلم العرب أن إشاعة التونسي محض سياسة من الفرنساويين لتفريق الاتحاد. فكفوا عن الأتراك وسالموهم. ورجع التونسي إلى أهله. فكفوا عن الأتراك وسالموهم. ورجع الأمر إلى ما كان عليه من الاتحاد وجمع الكلمة على الجهاد. وكان ابن "أبي مزراك" بلغه أن "كلوزيل"، أشخص والده إلى الإسكندرية، منفيا. فثار في محله من "تيطري" ودعا الناس إلى الجهاد وجمع الجيوش. ونازل "المدية". وضيق على أهلها، فطار الخبر إلى الجنرال "تريزيل" فسيّر جيشا لإنقاذ عاملهم "مصطفى بن عمر" فتعرض لهم "ابن أبي مزراك"، بالقرب من البلد. وناوشهم القتال ثم تمكنوا من دخولها، وانقلبوا بعاملهم وحاميتهم، راجعين إلى الجزائر. ولما اختلبوا بمضايق جبال "موزاية"؛ أحاطت بهم جموع القبائل، تحت راية "ابن أبي مزراك" والتحم الفريقان واستمر القتال، في حال سيرهم وإقامتهم إلى قرب الجزائر. ووقع الفشل في عساكر فرنسا، فقتل أكثرهم. وانتهبت أثقالهم ولم يصل إلى الجزائر؛ إلا القليل منهم. ثم ارتد "ابن أبي مزراك" بجموعه إلى "المدية". فاستولى عليها واستمر فيها إلى أن استولى عليها سيدي الوالد (رحمة الله). وكانت هذه الواقعة، نزلا للجنرال "تريزيل" في داخلية الجزائر.

وفي تلك الأيام ظهر "الحاج علي بن السعدي" في جبال "زواوة" ودعاهم إلى الجهاد. واجتمعت كلمتهم عليه. وكان الجنرال "تريزيل" بعد واقعة "المدية"، جمع أعيان الجزائر، وأمرهم أن يختاروا منهم من يصلح للولاية على العرب والبربر في داخلية البلاد، ويكون واسطة في ميلهم

إلى طاعة فرنسا. فوقع اختيارهم على السيد "محي الدين بن السيد علي مبارك"، لشهرته في تلك النواحي. فولاه الجنرال ولقبه "آغة العرب" على اصطلاح الحكومة الجزائرية. فخرج إلى قريته "القليعة" على مسافة قريبة من الجزائر وبث رسله في القبائل يدعوهم إلى الطاعة. وبينما هو كذلك إذ عصفت ريح "ابن السعدي" وشاع انحداره من جبال "زواوة"، إلى سهل "متيجة" فاضطرب أمر الآغا ولم يسعه إلا اتباع السعدي. فتوجه إليه بمن معه من القبائل واتخذها يدا عنده فأكرم نزله.

ثم زحف ابن السعدي بجموعه إلى الجزائر وخيم "بوادي الكرمة" على مسافة ساعتين منها وعاث جيشه في أطرافها واضطرب الجنرال "تريزيل". ثم خرج بجنوده إليهم، فأوقع بهم أولا. ثم رجعت الكرة عليه، فانهزمت جيوشه وارتدوا على أدبارهم. واتبعهم المسلمون، يقتلون ويأسرون، إلى أن دخلوا على المدينة وامتلأت أيدي الناس بالأسلاب والمهمات ورجعوا إلى وادي الكرمة ثم زحفوا على المدينة ووصلوا إلى "باب عزون"، أحد أبوابها. فخام الجنرال عن اللقاء، فانقلبوا راجعين إلى أوطانهم تحت راية ابن السعدي. ثم أخذ الجنرال "تريزيل" يتلطف في استمالة القبائل، بما أمكنه. وأظهر الإغضاء عما وقع منهم؛ فجنحوا للمهادنة معه وقدموا الآغا السيد محي الدين بن السيد علي مبارك، في عقدها؛ فدخل الجزائر وعقدها مع الجنرال. ثم رجع إلى "القليعة" وانفتحت أبواب الجزائر للوارد والصادر من القبائل المجاورة لها. ثم عزل الجنرال "تريزيل" سنة سبع وأربعين ومائتين وألف هجرية (1247) واثنين وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية

(1832). وتولى الجنرال "الدوك دي روفيقو" وأحضر معه ستة عشر ألف جندي لردع القبائل وحملهم على الطاعة. ولما علم أن هذه السياسة لا تجديه نفعا، عدل عن التعسف على التلطف وأقام مدة على ذلك. ثم إن "فرحات" شيخ بلد "بسكرة" وما يليها من إيالة قسنطينة، أظلم الجوّ بينه وبين صاحبها الحاج "احمد باي"، فنزع إلى الفرنسيس وأوفد جماعة من أقاربه إلى الجنرال "الدوك روفيقو" فتلقاهم بالإكرام.ذ وتقبل طاعة شيخهم. ثم انقلبوا إلى شيخهم بأنواع الهدايا الثمينة. ولما وصلوا إلى طرف سهل "متيجة"؛ انقض عليهم جيش من قبائل الجبل، فاستفّوا ما معهم، وارتد الوفد راجعا إلى الجزائر. فعظم ذلك عند الجنرال. وبعد أن وقف على من فعل ذلك في أيام الهدنة، حمله الغضب على الانتقام منهم. فأغزاهم قائد جيوشه؛ فصبّحهم وقتل من لحق به منهم، وأخذ شيخهم أسيرا إلى الجزائر. وبوصوله، شهروا قتله في السوق. وشاع خبر هذه الواقعة، فاستنكرها الناس وحسبوها نقضا للهدنة، من حاكم الجزائر؛ فعادوا لما كانوا عليه من شنّ الغازات على ضواحي الجزائر والتعرض للوارد إليها والصادر. وتحرك ابن السعدي بعد سكونه ونادى في تلك الجهات بالجهاد. وقامت الحروب بين جموع المسلمين، وجيوش فرنسا. ووقعت بينهم عدة وقائع كانت الحروب فيها سجالا. ولما استمر القتل في أهل "متيجة"، دخل الكثير منهم في طاعة فرنسا وارتحلوا إلى قرب الجزائر وترفع الباقون إلى الجبال. وأخذ الناس حذرهم وعلموا أن الفرنسيس لا يكترثون بنقض العهود ولا يعبئون بالوفاء بها. وهذه الحوادث كلها

في إيالة الجزائر وإيالة "تيطري". وأما إيالة "وهران" فلم تنقطع الحروب فيها مع حاكمها منذ دخلها جيش فرانسا. ثم إن آغة العرب، لما رأى أن الأمر تفاقم بين حاكم الجزائر والقبائل، أهل داخليتها، وعلم انه لا طاقة له بتلافي ذلك، ارتحل من "القليعة" ولحق بجبال "بني مناد" ولم يزل مقيما بين ظهرانيهم إلى أن ظهر أمر سيدي الوالد في إيالة "وهران"، وتمشت له الطاعة إلى "إيالة" تيطري" فبادر إلى الدخول في طاعته. وأما السيد الحاج علي بن السعدي فإنه لما أحس من نفسه الكبر ولحقه الضعف والضجر، ترك جبال "زواوة" ولحق سيدي الوالد في "معسكر". ولم يزل مشتغلا بعبادة الله تعالى إلى أن قضى نحبه. وفي اثني عشر مايو سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة (1833)، عرض للجنرال الدوك "روفيقو" مرض ألجأه إلى الرجوع إلى فرنسا وخلفه الجنرال "إفيزار" مؤقتا. وفي أيامه تشكل القلم العربي في دوائر أقلام الحكومة. وتعين له الملازم "لامورسير" وكان يكتب الخط العربي. ثم توقى في المناصب إلى أن صار جنرالا. واشتهر في وطن الجزائر "بأبي هراوة" وفي أول ابريل "نيسان" عزل الجنرال "أفيزار" وتولى الجنرال "قرارول". وتمكن من مهادنة القبائل في إيالة الجزائر، واستولى الفرنسيس على بسائط "متيجة" وسهولها وتوسعوا في مسارحها. وقد انتهي الكلام على الحوادث الأولية للفرنسيس في الجزائر.

ذكر حوادث المغرب الأوسط
بعد تسلط الفرنسيس على مدينة الجزائر

اعلم أن الجزائر، لما دخلت في حوزة الدولة العلية، وانتظمت في سلك ممالكها، أيام السلطان الغازي "ياووز سليم خان" على يد "عروج باربروس" الأول وأخيه خير الدين "باربروس" الثاني، أقامت الحكومة فيها لحماية البلاد وحفظ حقوق العباد. وجرى حكمها حكم ممالك الدولة العلية لعهد السلطان "أحمد خان" الثالث. وفيه أحسّت الحكومة بالقوة، فاستبدت في أحكامها. وقد كان نفوذها، مع استبدادها، قاصرا لا يتعدى المدن والقرى. وأما الجبال وظواعن العرب في البادية، فإن لهم إدارة تخصّهم، موكول أمرها إلى زعائمهم. ولما كانت الحكومة غير قادرة على تنظيمهم في سلك الطاعة، ألقت بينهم دسائس العداوة والبغضاء، فتفرقت كلمتهم وضعفت شوكتهم وبهذا كان استحواذها عليهم. وهذه السياسة من أكبر الوسائل التي تتوصل بها الأمة القليلة الأجنبية إلى الاستيلاء على الأمة الكثيرة الوطنية كما قيل (فرق واحكم). ولما استولى الفرنسيس على مدينتي الجزائر ووهران وتمكن منها، تفرق الناس، فرقا وسلكوا من الخلاف طرقا وفسدت السبل -ولا غرو- فإن سكانها عرب وبربر، مختلفو الطبع والمحتد، ومن شأن أهل البادية إثارة الفتن ليتهيأ لهم ما اعتادوا عليه من الغزو لتعيّشهم. فترى كل فريق يترصد فرصة للوثوب على مقابلة، لاسيما،

وقد كانت الحكومة الجزائرية أحكمت عُرى هذه الضغائن بينهم. ولما آل الأمر إلى ما آل إليه، ازداد هيجانهم وسرى داعي الانتقام في نفوس العامة وصار كل من له ثار يحاول الأخذ به. فطوي لذلك بساط الأمن ووقف دولاب التجارة وتعطلت الزراعة. فانتهز العدو الفرصة، وأكثر من شدة الغارات على الضواحي. ولما اشتد الأمر وكثر القتل وعظم الكرب؛ تداعي أهل العقد والحلّ، من الأشراف والعلماء والأعيان، للنظر في من اجتمعت فيه شروط الإمارة ليبايعوه، فيجمع كلمتهم ويقوم بشؤونهم. وحيث أن سيدي الجد، كان ممن اجتمعت فيه الشروط على الوجه الأكمل وكان أعصف القوم ريحا وأبعدهم صيتا وأنفذهم كلمةً اجتمع الناس إليه وراودوه على الإمارة؛ فاعتذر إليهم بكبر سنّه. فأوفدوا جماعة من أعيانهم إلى صاحب المغرب الأقصى، لاتصال بلادهم ببلاده فأكرم وفادتهم وعقد لابن عمه "علي بن سليمان" على إمارة المغرب الوسط وبعثه معهم؛ فلقيه الناس بالطاعة وأذعنوا له وسارت خيله في البلاد إلى "مليانة" شرقا وبثّ العمال وجبي الأموال. فلم يحل هذا الصنيع في نظر دولة فرنسا لمنافاته لمقصودها ولم تتغافل عنه وبعثت على سفيرها "بطنجة" أن يقدم -على الفور- من قبلها التنبيهات المشددة إلى سلطان المغرب وينذره بعداوة دولته ويتهدّده بالحرب إن لم يرفع ابن عمه عن البلاد. فأخذ الرعب منه كل ما أخذ واسترجع ابن عمه بعد أن أقام "بتلمسان" نحو الستة أشهر وترك أحوال المغرب الوسط على ما كانت عليه، من الاضطراب وتسلط الغوغاء. فاجتمع أعيانه ورفعوا شكايتهم إلى سيدي الجدّ مرة ثانية

وألحوا عليه في قبول بيعتهم له على الإمارة والجهاد؛ فأبى قبول الإمارة وقبل القيام بأمر الجهاد. فرضي القوم بذلك، لما فيه من تشاغل الغوغاء والسفلة عن الفساد. وأخذت الحشود من ذلك اليوم ترد على حضرته في "القيطنة" فكان ينهض بهم إلى "وهران" فينازلها ويأخذ بمنخنقها. وجرت بينه وبين حاكمها الجنرال "بويّه" حروب ظهر فيها من إقدام سيدي الوالد وشجاعته وحسن سياسته ما قيّد الأبصار عليه ورشحه للإمارة وجعله حريّا بها. واستمر سيدي الجدّ مواظبا على الجهاد بعزم لا يردّه رادّ ولا يصدّه عنه صادّ. وله فيه وقائع كثيرة، أعظمها واقعتا "خنق النطاح" وواقعة "برج رأس العين".

ذكر واقعة خنق النطاح الأولى

في أواخر ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين وألف 1247، والتاسع والعشرين من مايو (مايس) سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة وألف 1832، جهز سيدي الجدّ سرية، عقد عليها للسيد "عبد القادر بن زيان الزياني" وبعثه لاستكشاف أحوال العدو "بوهران"؛ فلما قرُب منها، تراءى له العدو معسكرا في ساحتها بالموضع المعروف "بخنق النطاح"، فأقام يراقب حركاته وطيّر الخبر إلى سيدي الجدّ؛ فنهض من "القيطنة" وخيم "بوادي سيف" وأرسل في الجهات ينادي بالجهاد. وبعد أن تلاحق الناس به فسار بهم إلى ساحة وهران، وخيم بالقرب من العدو. وبات المسلمون يوقدون

النار على التلال المطلة على البلد. وفي صبيحتها، زحف كلّ من الفريقين إلى الآخر. ودارت بينهما رحى الحرب واشتد البأس وكثرت القتلى من الفريقين. وكان سيدي الوالد بين الصفوف يحرض المسلمين على الثبات ويأمرهم بالتقدم. فتحامل عليه أحد فرسان العدو برمحه، فمرت في خلوّ الأبط الأيسر، فشدّ عليها بعضده وهوى بسيفه على الفارس، فقدّه نصفين. ولما تولى النهار، وقعت الهزيمة في عسكر الفرنسيس، فولوا مدبرين. واتبعهم المسلمون إلى الأبواب وامتلأت الأيدي من أسلابهم وذخائرهم. وفي هذا اليوم، طُعن فرس سيدي الوالد -وكان أشقر اللون- ثمان طعنات بحربات العدو ثم رماه أحدهم بالرصاص في رأسه، فوقع به ولم يبال بذلك بل استقل واقفا وثبت في مركزه إلى أن قدّم إليه أتباعه غيره. فركبه واستمر على القتال إلى أن انتصر المسلمون على عدوهم. وقد أشار لذلك سيدي الوالد في مقصورته بقوله :

وأشقر، تحتي، كلّمته رماحُهم مرارا. ولم يشكُ الجوى بل وما التوى

ونص المقصودة

تَوَسّدْ بمهد الأمن، قد مرّت النوى	وزال لُغُوبُ السير، من مشهد الثوى
وعـزٍّ جيادا، جاد بالنفس كرُّها	وقد أشرفت -مما دعاها- إلى النوى
وكم قد جرت طَلْقا بنا في غياهبٍ	وخاضت بحارَ الآل، من شدة الجوى
وكم من مفازات يضلُّ بها القَطَا	قطعتُ بها. والذئب -من هولها- عوى
لذا قد غدت مثلَ القسيِّ ضوامرا	وتلك سهام للعِدَى، وقعُها شوَى

إلى ان بــدت نــيران أعلامنــا لهــا   ومــا ضــوءُ نــيران الكــرام لــه انــزوا

ولا ســيما أهــلُ الــسيادة مثلُنــا   بنو الشرف المحض المصون عن الهوى

فقالت أيا ابن الراشـديّ لـك الهنـا   كفى فاترك التسّيَار واحمدْ وجى النوى

ألا يـا ابـن خـلاّدٍ تطاولْـت للعلـى   وباينـتَ مـأواك الكـريم ومـا حـوى

فمن أجل ذا قد شـدّ في رَبعنـا لهـا   عِقالا ونادينا : لـك العـز قـد ثـوى

وحــلَّ بكهــفٍ لا يــرام جَنَابُــه   فمن حل فيه مُثْلُ من حل في طُوى

فإنــا أكاليــلُ الهدايــة والعُلــى   ومن نَشْرِ عَلياهم ذوي المجد قد طوى

ونحــن لنــا ديـنٌ ودُنيـا تجمَّعـا   ولا فخــر إلا مَالَنَــا يرفــع اللِّــوا

مناقـــب مُختاريّـــةٌ قادريّـــةٌ   تَسَامَتْ. وعبّاسـيّةٌ مَجْـدها احتـوى

فإن شئتَ عِلمـا تَلْقَـني خـيرَ عـالمٍ   وفي الروع أخباري غَدَتْ تُوهنُ القوى

لنا سفنٌ بَحْرُ الحـديث بـه جـرت   وخاضت فطاب الورْدُ ممن به ارتوى

وإن رُمْتَ فقه الأَصْبَحيٍّ فعُجْ علـى   مجالـسنا تـشهد لِـداء العَنَـا دَوَا

وإن شئتَ نَحْوًا، فانحنا تلـقَ مالَـهُ   غدا يُذعِنُ البـصريُّ زُهـدا بمـا روى

وإنّـا سـقينا البـيضَ في كـلّ مَعْـرَكٍ   دماءَ العِدى والسُّمرُ أسْعرَتِ الجَـوى

ألم تــر في خَنْــقِ النِطــاح نِطاحَنَــا   غداة التقينـا كـم شـجاعٍ لهـا لَـوَى

وكــم هَامَـــةٍ، ذاك النهارَ، قَـدَدْتُها   بحدٍّ حُـسامي والقَنَـا طَعنتُـه شَـوَى

وأشــقرَ تحــتي كلَّمَتْــه رمــاحُهُم   مِرارا ولم يَشْكُ الجوى بل وما التَوَى

بيومٍ قضى نحبًـا أخـي فـارتقى إلى   جنـان لـه فيهـا نَـبيُّ الرِّضَـى أَوىَ

فمـا ارتـدَّ مِـن وَقْـعِ الـسهام عِنانُـه   إلى أن أتـاه الفـوز يُـرْغِمُ مَـنْ عَـوىَ

ومن بينهم حَمَّلْتُهُ حِـينَ قـد قـضى   وكم رَمْيَـةٍ كـالنجم مـن أفقـه هَـوىَ

ويـومَ قـضى تحـتي جَـوَادٌ بِرَمْيَـةٍ   وبي أحدقوا لولا أولوا البَـأْس والقـوى

وأسيافُنا قـد جُـرِّدت مـن جفونهـا   ورُدّت إليهـــا بعـــد وردٍ لقَـدْ رَوىَ

ولمـا بــدا قِرْنِـــي بِيُمْنَـــاهُ حَربـــة   وكَفِّي بها نارٌ بهـا الكَبشُ يُـشْتَوىَ

فأيقنَ أني قابضُ الروح فانكفا | يُولّي، فوافاه حُسامي مُذْ هوى
شددتُ عليهم شدّةً هاشميةً | وقد وردوا وِرْدَ المنايا على الغَوَى
نزلتُ ببرج العين نزلة ضَيْغَمٍ | فزادوا بها حُزنا. وعَمَّهُمُ الجَوَى
وما زلتُ أرميهم بكل مُهنَّدٍ | وكلّ جوادٍ هَمُّه الكرُّ لا الشَّوَى
وذا دَأْبُنا فيه الحياةُ لِدِينِنا | وروح جهاد بعد ما غُصْنُهُ ذَوَى
جزى الله عنا كلَّ سهم غَدَتْ به | "غَرِيسٌ" لها فضلٌ أتانا وما انزوى
فكم أضرموا نار الْوَغَى بالظُبَى مَعِي | وصالوا وجالوا والقلوبُ لها اشْتِوَ
وإنا بنو الحرب العوان بها لنا | سرورٌ إذا قامت وشانِئُنا عَوَى
لذاك عروسُ الملك كانت خطيبتي | كَفَجْأَةِ موسى بالنبوة في طُوَى
وقد عَلِمَتْنِي خَيْرَ كُفْءٍ لِوَصْلِهَا | وكم رُدَّ عنها خاطبٌ بالهوى هَوَى
فواصَلْتُها بكرا لديَّ تَبَرَّجَتْ | ولي أذعنت والمعتدي بالنَّوَى ثَوَى
وقد سِرت فيهم سيرةً عُمَرِيَّةً | وأسقيتُ ظامِيها الهداية فارتوى
وإني لأرجو أن أكون أنا الذي | يُنير الدياجي بالسَّنا بعد ما لوى
بجاه ختام المرسلين محمدٍ | أجَلُّ نبيٍّ، كلُّ مَكْرُمَةٍ حَوىَ
عليه صلاةُ الله ثم سلامُه | وآل وصحبٍ، ما سرى الركبُ لِلُّوىَ
وما قال بعد السير والجدّ مُنْشِدٌ | توسَّد بِمَهْدِ الأمن قد مَرَّتِ النَّوىَ[1]

وفي اليوم الثاني قفل سيدي الجدّ بجيوشه إلى "وادي سيف " وأقام أياما ثم ارتحل إلى "القيطنة" وأذن للناس في الرجوع إلى أوطانهم، ليستعدوا لمثلها.

---

1. يرجع في شرح هذه القصيدة وسائر قصائد الأمير وشعره إلى ديوانه الذي قام بشرحه الدكتور ممدوح حقي، والتزمت نشره دار اليقظة في دمشق وبيروت، وأعيد ثلاث مرات.

ذكر واقعة خنق النطاح الثانية

وبعد أن استراح الناس من الواقعة الأولى، أصدر الأمر بالنفير إلى وهران وعقد سيدي الجدُّ اللواء لسيدي الوالد وتخلف هو، لانحراف صحته. فنهض الوالد إلى "وادي سيق" وتلاحقت الجموع به. ثم ارتحل إلى "عين الكرمة" على مسافة قريبة من وهران وكان الجنرال "بويّه" جاءه المدد من فرنسا، وبلغه خبر الوالد ، فضرب معسكره في "خنق النطاح" وقسم جنده ثلاث فرق، فرقتين للكفاح وفرقة للمحاماة. وأما الوالد،فإنه ارتحل من "عين الكرمة" وعسكر بأزاء العدو وقسم جنوده خمس فرق : فرقتين للقتال وفرقتين للدفاع وفرقة جعلها كمينا وراء العدو ثم زحف إليه.فالتقى الفريقان وأظلم الجوّ بدخان البارود وعثِرَ النقع. فلم تطل المدة حتى كانت الدبرة على العدو. فانكسرت ميمنته ووقعت الهزيمة في القلب، فولوا مدبرين يطلبون أبواب البلد. فلقيهم الكمين واستلحم أكثرهم ودخل الجنرال "بويّه" إلى البلد مغلولاً في شرذمة قليلة من جنده. وفي هذا اليوم، استشهد السيد أحمد، ابن عمنا، السيد محمد سعيد، وهو ابن خمس عشرة سنة بعد أن ظهر من إقدامه وتحامله على صفوف العدو ما أوقف العقول وأدهشها. وعندما وقع غن فرسه ميتا بين الصفوف، هجم الوالد في طائفة من وجوه الأبطال جعلهم رداءا له فخرق صفوف العدو واحتمل ابن أخيه من بينهم. فعجب الأعداء لهذه الحملة واعتقدوا أن القتيل أمير، فجمعوا حولهم وقوتهم على أن يمنعوا عنه الهاجمين، ففشلوا. وكان هذا الولد الشهيد من أعزّ أقارب الوالد إليه لحسن هديه ونجابته. واستشهد في هذه الصدمة من الأعيان نحو المائة.

ومن الغد، قفل الوالد بجيوشه المظفرة على حضرة سيدي الجدّ، فأعطاهم الدستور إلى أوطانهم[1].

ذكر واقعة برج رأس العين

ولما انهزم الجنرال "بويّه"، واستلحم أكثر جنده، بعث صريخه إلى حاكم الجزائر، فأمده بالجند والذخيرة ثم ضرب معسكره فيما بين البلد وبرج "رأس العين" في الجهة الغربية من "وهران" وبلغ الخبر إلى سيدي الجدّ؛ فأخذ يتأهب للحرب وبعث أوامره إلى النواحي، من عرب وبربر، يدعوهم إلى الجهاد ويخبرهم أن العدوّ عسكر خارج وهران، في غاية مما أمكنه من الاستعداد، فجاء الناس إلى حضرته أرسالا وانتهى إليه أن العدو عامل على مباغتته، فبعث العيون يراقبون حركاته ثم خرج من حضرته "القيطنة"، إلى "وادي سيف" حسب عادته وارتحل منه وعقد اللواء لسيدي الوالد، فواصل سيره إلى أن أطل على وهران بجنوده وباتوا ليلتهم على تلك، يوقدون النيران في جميع أنحاء البلد، معلنين بالتهليل والتكبير فسُقط في يد الجنرال "بويه" وفاته ما كان أضمره من أخذ المسلمين بغتة. ومن الغد، عبّى الوالد كتائبه وجعل كل قبيلة على حدةٍ وعين عليها قائدا منها وأمر الجيوش

---

1. هذا التعبير (أعطاهم الدستور) شائع في الشمال الإفريقي. ومعناه : "سمح لهم بالذهاب إلى أوطانهم".

بالزحف إلى العدو؛ فتقدموا حتى انتهوا إلى البرج. فأنزل المشاة إلى الخندق المحيط به، الممتدّ إلى البلد ورتّب طائفة من الفرسان لحماية المشاة من مهاجمة العدو، وباقي الجموع حملت على معسكر الجنرال. وانتشبت الحرب واضطرمت نارها وأخذ العدو يرسل قنابله على جيوش المسلمين كالمطر؛ فلا يزيدهم ذلك إلا شدة وتقدما. واشتد القتال وجعل الوالد يتردد بين المشاة والفرسان وسائر صفوف المسلمين يحرضّهم على الثبات والصبر في مجال الموت ويذكرهم بأيام الله. وبينما هو كذلك إذ عدا عليه أحد فرسان العدوّ بسيفه، فحاد عن سرجه، فوقعت الضربة على الفرس، فوقع ميتا لحينه. فركب غيره واستمر على ما كان عليه من التحريض. وبلغه أن المشاة فرغت أيديهم من الفشك[1]، فأسرع إليهم بما يكفيهم منه يومهم ذلك. ولم يبال، في ذهابه وإيابه، بقنابل العدو المتصلة، وصواعقه المتتابعة، من البرج والبلد. وظهر من شجاعته في ذلك اليوم ما اشتهر في أقطار المغرب. واتصل القتال بين الفريقين إلى الليل، فبات المسلمون في مراكزهم وانسل العدو ليلا، فدخل البلد وانحجز فيها وأقام سيدي الوالد محاصرا له، شهرا كاملا ثم أقلع عنه، لأمور عرضت له.

---

1. ويسمى الآن "الخرطوش".

ذكر البيعة الأولى لسيدي الوالد

لما طال على أهل الوطن الأمد وتوالى عليهم، فيما بينهم، الكرب والنكد وتسلط على بلادهم العدو ومنعهم القرار والهدوّ. فتارة كانوا يدافعونه عن البلاد وآونة كان يقع بينهم الفساد والحرب والجلاد. وسطا القويُّ على الضعيف وتطاول اللئيم على الشريف، اجتمع الأشراف والعلماء وأعيان القبائل من العزب والبربر وقدموا على حضرة سيدي الجد وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة لنفسه أو لولده سيدي الوالد وحاجوه في ذلك بما أعجزه عن الاعتذار. فأمعن النظر في هذا الأمر. فرأى أن الاهتمام به واجب. وتعيّن عليه - شرعا- أن يقوم به لأنه مسموع الكلمة، نافذ الأمر غير أنه لما كان عاجزا عن القيام بأعبائه، ورأى أن ولده المنوه به قد بلغ أشده وأرهف حدّه وترشح للإمارة وتأهل لها واستكملت فيه شروطها من الهدى، وعلو الهمة وقوة الحواس وكمال الخلق وجمال الصورة وشرف النسب وعزة القوم والقوة والفتوة والعلم والحلم والحماسة والسماحة والعزم والحزم، والتحفظ والتيقظ والاتقاء والارتقاء... إلى غير ذلك من أفراد الفواضل ومكارم الأخلاق ومحاسنها.

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وعلم أنه لا مندوحة له عن الإجابة والقبول، إما له، أو لولده؛ فحينئذ استخار الله تعالى وقدم ولده للإمارة ومدافعة أهل الشرك، متوكلا، في نصره وتأييده، على مالك الملك. فذهبت البشائر بذلك

في أقطار الوطن وعمت أنحاءه وأحياءه وقبل سيدي الوالد ما انشرح إليه صدر والده، من إمارته قائلا : "أنا لها، أنا لها". فكان قبوله دليلا على إقبالها وتلقيها بحول الله وقوته أصلُ استقبالها. قد ادخرها الله له في الأزل وهيأه لها ثم أبرزه للقيام بها، عند حلول الأجل. وتباشر الناس لذلك لما رأوا من إقدامه للزحف واقتحامه الصف بعد الصف وشاهدوا فيه من الصفات العلية والنعوت السنية. فاجتمع أشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم وتداعى صغيرهم وكبيرهم وخيّموا "بوادي فروحة" من "غريس" عند شجرة الدردارة وهي "شجرة عظيمة"، كانوا يجتمعون إليها، للشورى بينهم وجاء سيدي الجدّ في بنيه وأقاربه وذويه. ولما تلاحق الناس الذين يُعتدّ بحضورهم للبيعة وجلس سيدي الوالد تحت الشجرة، قام والده، فبايعه على السمع والطاعة ودعا له ثم لقّبه "ناصر الدين" وقام عمه، سيدي الجدّ لأمي، السنيد "علي أبي طالب" وبايعه وكذا الإخوة وسائر القرابة ثم الأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء على حسب مراتبهم وطبقاتهم، بايعوه على ما بايعه عليه والده. ولا يخفى على ما في وقع هذه البيعة، تحت الشجرة، من الاتفاق الغريب وما فيه من الإشارة إلى متابعة سيدنا رسول الله (ﷺ). واقتفاء أثره في بيعة الرضوان التي نوه الله تعالى بذكرها وعظم قدرها في القرآن بقوله : ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عن المؤمنينَ إذْ يبايعونَكَ تحتَ الشجرةِ**﴾[1]. قال المفسرون : هي شجرة أمِّ غيلان. وكان (ﷺ) في غزوة الحديبية، نازلا تحتها، يستظل بها؛ فبايعه المؤمنون على الموت

1. سورة الفتح، الآية 18.

كما قال "سلمة بن الأكوع". وأول من بايعه على ذلك "أبو سنان الأسدي" (رضي الله عنهما). وبايع الناس على بيعة أبي سنان روى ذلك "الطبراني" عن "عبد الله بن عمر" رضي الله عنهما وهذه البيعة كانت سنة ست من الهجرة. وبعد أن انتهت البيعة لسيدي الوالد، ركب سيدي الجد إلى مدينة "معسكر" حاضرة الإمارة. ولما أن دخلها، وجد السرور والبشر قد عمّ عامّة أهلها وقد طلع على أهل الصلاح فجرٌ صادقٌ وعلى أهل البغي والفساد نجمٌ طارقٌ، فتهلل وجه الصالحين، وأيقنوا بصلاح الحال وتكدر عيش المفسدين، وأيقنوا بالوبال في الحال وفي المآل. ثم أقبل الأمير بعده في جموعه، وكانت زهاء عشرة آلاف فارس. فبرز أهل البلد احتفالا به واستقبلوه في الموضع المعروف "بخصيبية" على مسافة نصف ساعة منها، مظهرين للطاعة وشعائرها. فأقبل عليهم ببشره وابتسامه قبل كلامه. وبعد أن تناول من طعامهم الذي كانوا أعدّوه لحضرته، دعا لهم وحثهم على الطاعة والتزام الجماعة، ثم ركب ليدخل البلد؛ فأطلقت المدافع وغرّدت الموسيقات بما يطرب السامع ونشرت الرايات والأعلام وبرزت المخدرات من القصور تثني على الأيام، فدخلها على أحسن حال وأتمّ منوال ونزل في دار الحكومة؛ فجلس على كرسيه ودخل عليه أهل البلد ومن لم يشهد بيعة "غريس"، أفواجا أفواجا، لأداء البيعة. ثم قام فدخل داره وخيّر والدتي فقال : "إن أردت أن تبقي معي من غير التفات إلى طلب حق، فلك ذلك وإن أبيت إلا أن تطلبي حقّك، فأمرك بيدك لأني قد تحمّلت ما يشغلني عنك. ثم خرج إلى المسجد الجامع فصلى الظهر بالناس ثم خطب بهم خطبة مبتكرة

طويلة تحتوي على وعظ ووعد ووعيد وأمر ونهي، وحث على الجهاد. وبعد الانصراف منه، انفرد أفاضل العلماء لتحرير صكّ البيعة، فكتبه في مجلسهم العالم الجليل السيد "محمد بن عبد القادر" الشهير "بابن آمنة"، خال الأمير، ونصه بحروفه :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده.

الحمد لله الذي جعل نصب الأمام من مهمات الدين لتصان به النفوس والأموال وتجتمع كلمة المسلمين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فقد قال (ﷺ) إن الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن، هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل ونضب فيه الجهل، فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل وانتشر، وخفي فيه الحقُّ ولم يظهر له أثر! حتى إن أعداء الله الكافرين ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام. وتشتّتت الكلمةُ واختل النظام ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا ولا من يكون للجهاد دليلا. فلجئوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسِّر لهم من يقوم بأمر دينهم؛ فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد سوى السيد محي الدين بن مصطفى بن المختار لكماله وكثرة ما عنده من الأعوان والأنصار. فطلبوا منه أن يبايعوه على السمع والطاعة؛ فاعتذر إليهم بكبر سنه وبعد زمان طويل، تكرر فيه طلبهم مرّات ووقع إلحاحهم تارات ورأى أن النظر في هذا الأمر قد تعيّن عليه. وأتاه بعض علماء "غريس" وهو من الصالحين، فقال له إن أولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدك "عبد القادر" لنصر دين الله. ورأى أن ولده مستعدّ

لهذا الأمر، فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة، صالحا لتنفيذ الأحكام. فاجتمع أهل الحلّ والعقد وبايعوه من غير طلب منه للإمارة ولا متابعة للنفس الأمّارة بل بايعوه رغما عليه وطلبوا والده بالله تعالى وتوسلوا إليه برسول الله (ﷺ) مدّة تزيد على سنتين؛ فوافقهم على بيعة ولده، تطييبا لخواطرهم ورعاية لرفع الظلم عن الضعيف، ودفعا للفساد والتعنيف، فحضر للبيعة جميع أهل "غريس الحشم"، شرقي وغربي وعبّاسي وخالدي وإبراهيمي وحساني وعوفي وجعفري وبرجي وشقراني وغيرهم ... كبني السيد "دحو" وبني السيد "احمد بن علي" و"الزلامطة" و"مغراوة" و"خاوية" و"المشارف" وكافة أهل "وادي الحمام" وأعلنوا جميعا بطاعته ونصرته والرعاية له بحيث أنهم يحمونه بما يحمون به أنفسهم وأموالهم وأن ينصروه نصرا مؤزّرا. واتفق علماء الإقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم أحد وهم في حال طوعهم واختيارهم وفرحوا به أشدّ الفرح، نظرا لما كانوا عليه من الضيق والترح. وكل من سمع به من أهل الآفاق، يزداد فيه رغبة، وذلك لعلمهم بقوة عقله وشدّة نجدته وصلاح رأيه. فعلى من بايع أن يبذل جهده في نصرته وعضده لقول الصادق الأمين : الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

حضر ما ذُكر من العلماء والأشراف، السيد الأعرج والسيد محمد بن حوًّا بن يخلف وإخوته والسيد محمد بن الثعالبي والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي وإخوته والسيد محمد بن عبد الله بن الشيخ المشرفي

وقرابته وكافة أولاد السيد أحمد بن علي. حاصله جميع علماء "غريس" وأشرافه حضروا لهذه البيعة الميمونة ورضوا بها. وحضرها كاتبه محمد بن عبد القادر، عامله الله بلطفه في الباطن والظاهر وفي الثالث من رجب الفرد، سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف (1248) هجرية، الموافق للسابع والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية (1832).

ثم كتب جماعة من أعيان العلماء المشاهير على هذا الصك ما يؤذن بحضورهم للبيعة وشهادتهم بها على أنفسهم وعلى سائر من حضرها. فكتب العلامة سيدي الجدّ، لأم عمّ الأمير، شقيق والده، السيد علي أبي طالب بن مصطفى بن المختار ما نصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله. بعد انعقاد البيعة للإمام المعظّم والأمير الجليل المفخم ابن أخينا السيد عبد القادر بن محي الدين، أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بأمور أهله ودمر بها الكفرة، أولي العناد وأهلك بسطوتهما أهل البغي والفساد، بايعناه على السمع والطاعة وامتثال الأمر، ولو في ولد الواحد منا أو نفسه. وقدّمنا نفسه على أنفسنا، وحقه على حقوقنا. وإني أوصيه بتقوى الله، وطاعته في السر والعلانية، والوقوف عند الحدود الشرعية، ورد مسائل الشرع إليه. وبتشميره عن ساعد الجدّ في قطع شأفة شياطين الإنس، أهل الأذاية كالمحاربين وقطّاع السبل وأهل الغيلة والسرقة وغيرهم... من هذا القبيل ليتم بذلك أمره ويتضح به تأييده، ونصره. وتشرق

شمس الحق على القلوب وتطمئن بخدمته وطاعته الأفكار ويسارع المؤمنون إلى الانقياد والإذعان لتكاليفه وأوامره. اللهم أيّده، وانصره نصرا تُعز به الدين وألق التقوى في قلبه وقوة اليقين بجاه سيد الأولين والآخرين، وأحي به ما دُثر من أحكام الخلفاء الراشدين. يا مالك الدين والدنيا والآخرة وأدم سرورنا وسرور جميع أهل محبته ومحبتنا وأتمم لنا المقصود بما ينقطع به قلب الجحود آمين.

كتبه علي بن المصطفى

وكتب العلامة السيد ابن عبد الله بن الشيخ المشرفي ما نصه :

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بعد انعقاد البيعة للعالم النبيه، الصدر الوجيه، الناظم الناثر، أبي محمد السيد عبد القادر بن عضد الملة والدين، شيخنا السيد محي الدين بن شمس الكمال، شيخ مشائخنا وأسلافنا، أبي عبد الله، السيد مصطفى بن المختار من أهل الحل والعقد والإمضاء والردّ ممن ذكر أعلاه واطلاعنا على ما اتفق عليه السواد الأعظم، وبه فاه، لم يسعنا إلا الموافقة عليه والجنوح لما استندوا إليه، فالله يلهمه رشده ولا يمنعه رفده وأن ينصر به الدين الحنيفي ويُظهر به من أموره كل خفيّ وأن يصلح به وعلى يديه وأن يجنّبه رأي المفسد والسفيه، وأوصيه بتقوى الله في علانيته وسرّه ونجواه. ﴿**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم. وإياكم أن اتقوا الله**﴾[1].

---

1. سورة النساء، الآية 131.

قال بفمه، ورَقَمَهُ بقلمه كاتبُه عن عجل والقلب في وجل، ابن عبد الله ابن الشيخ المشرفي الحسني، عفا الله عنه.

وكتب العلامة السيد أحمد بن التهامي ما نصه :

الحمد لله لما فتح الله للمسلمين أبوابه ويسر للخير أسبابه بإجابة الولي الصالح، والقطب السالك الناجح، شيخ أهل الفضل والدين، مولانا السيد محي الدين، لما طلبه منه المسلمون من تقديم ابنه، الناسك الأنجد، العلامة الأسعد، على الإيالة الغربية وما انضاف إليها من الإيالات. فاجتمع من له اتّصافٌ بالحلّ والعقد على نصرة السيد المذكور ومبايعته، مذعنين، متلقين تلك البيعة بالفرح والسرور. فعقد له البيعة جميع من له دخول في تدبير الأمور من عالم ومقرئ وشريف ورئيس من أي ناحية، من أهل الراشدية وغيرها. فبذلك ثبتت له البيعة الملكية على الخاص والعام، يأمر وينهي؛ فلا يسقط من أمره ونهيه، أدنى شيء. فعليه بتقوى الله فيما تولاه، وهو ناصره ومعينه على ما أولاه. وكان من جملة مبايعته الفقير كاتبه :

أحمد بن التهامي الحسني

وكتب العلامة الأوحد، السيد محمد بن حوّا :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

ولما فسد الزمان وضاقت بالمساكين الأركان من كثرة النهب وقلة الأمان، ولم يجدوا من يصلح بأمور المسلمين من الأعيان سوى من ذُكر. فاتفقت كلمة المعتبرين من أهل الوطن على البيعة للسيد

المذكور بالأعلا. وأنا عبد الله من جملة من اتفق معهم على ذلك. فنسأل الله الغني الكريم الوهاب أن يسدده في جميع أفعاله. وأن يمهد له البلاد ويُصلح به الفساد ويهدي لطاعته العباد.

كتبه محمد بن حوّا

وكتب العلامة، السيد بالمختار بن عبد الرحمن بن روكش ما نصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. على ما تضمنته رسوم العلماء في بيعة الإمام المذكور، وافق الموافقة التامة.

كاتبه : بالمختار بن عبد الرحمن بن روكش

وبعد أن تمّ أمر البيعة، أمر الأمير مجلس العلماء أن يكاتبوا رؤساء القبائل، في أطراف البلاد، بأمر البيعة وما وقع عليه الاتفاق وأن يلحوا عليهم في الحضور لأداء بيعتهم كما أدّاها غيرهم. فكتبوا ما نصه :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد، فاعلموا معاشر العرب والبربر أنّ الإمارة الإسلامية، والقيام بشعائر الملة المحمدية قد آل أمرهما الآن إلى ناصر الدين، السيد عبد القادر بن محي الدين. وجرت مبايعته على ذلك، من العلماء والأشراف والأعيان، في معسكر. وصار أميرا لنا ومتكفلا بإقامة الحدود الشرعية. وهو لا يقتفي آثار غيره ولا يحذو حذوهم ولا يخصص لذاته مصاريف زائدة على الحاجة، كما كان الغير يفعله ولا يكلّف الرعية شيئا لم تأمر به الشريعة المطهرة ولا يصرف شيئا إلا بوجه الحق. وقد نشر راية الجهاد وشمر عن ساعد الجدّ لنفع العباد

وعمران البلاد. فمن سمع النداء، فعليه بالسعي لتقديم الطاعة وأداء البيعة لأمام منكم. فاعلموا ذلك وبادروا لامتثاله ولا تشقوا العصا ويذهب بكم الخلاف إلى ما لا خير لكم فيه، دنيا وأخرى.

حُرِّر في "معسكر" من مجلس العلماء وفي الثالث من رجب سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف (1248).

وعلى نحو هذا، صدرت أوامر الأمير إلى سائر القبائل العربية والبربرية ونصها :

الحمد لله. إلى قبيلة كذا... خصوصا أشرافها وعلماؤها وأعيانها. وفقكم الله وسدد أموركم وبعد، فإن أهل "معسكر" و"غريس" الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم، قد أجمعوا على مبايعتي. وبايعوني على أن أكون أميرا عليهم. وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله. وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما أنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤمِّلا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام من بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف. فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتنفقوا جميعا. واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملّة المحمدية والقيام بالشعائر الأحمدية وعلى الله اتكالي في ذلك كله. فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم. وفقكم الله وأرشدكم.

حُرِّر عن أمر ناصر الدين، عبد القادر بن محي الدين، من "معسكر" في الثالث من رجب سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف (1248) وفي السابع والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة وألف (1832) ميلادية.

ذكر البيعة الثانية العامة

لما شاع أمر البيعة الأولى وذاع، أقبلت الوفود تَتْرى من القاصية إلى الحضرة العلية رغبة في الطاعة وامتثالا للأوامر السامية المطاعة. فاجتمع الطمّ والرمّ من جميع الآفاق ثم انعقد مجلس عام حضره الجمهور من الأشراف والعلماء والرؤساء من كل قبيلة وفريق. وجرى فيه عقد البيعة الثانية العامة بمحلّ العموم من قصر الإمارة. وهذا نص ما حرره العلامة الحجة الفهامة، السيد "محمود بن حوا المجاهري" في ذلك اليوم وقرأه على رؤوس الأشهاد :

بسم الله الرحمن الرحيموصلى الله على سيدنا ومولانا، محمد النبي الطيب الكريم وعلى آله وأصحابه، ذوي الفضل العظيم.

حمدا لمن فضّل أمّة محمد (عليه السلام) وخصّها بمزايا لم يعطها أحدا من الأنام وجعلها خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرات والأرجاس. هداهم به إلى مهيع الرشاد وطهرهم من عبادة الأوثان والأنداد والأضداد وجعلهم الشهداء على من سواهم من الأنام. فشرف بذلك أمرهم ورفع قدرهم وجعل إجماعهم حجة،

وسبيلهم أقوم محجة وأوجب عليهم نصب إمام عدل وفرض عليهم أتباعه في القول والفعل ليكفّ الظالم وينصر المظلومويجمع شملهم، بالخصوص والعموم ويكافح بهم عدو الدين لتكون العليا كلمة المسلمين.

وصلاة وسلاما على من صَدَع بالحق ودعا الخلق إلى القول بالصدق وجاهد في الله حقّ جهاده حتى استقام المعوج، وآب عن فساده، سيدنا ومولانا محمد، أشرف رسول وأكرم شافع مقبول، صاحب المقام المحمود والحوض المردود.

وعلى آله وأصحابه، أهل وداده وسيوف جلاده، الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في طاعته ونصرته وأوضحوا شريعته وبينوا طريقته، فحازوا بذلك أسنى المراتب ونالوا الدرجات العلى والمناصب. فهم نجوم الاهتداء ومصابيح الاقتداء.

هذا، ولما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط واستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران، أعادهما الله دار إيمان وإسلام بجاه النبي (عليه السلام)، وطمحت نفسه العاتية إلى الاستيلاء على السهول والجبال، والفدافد والتلال، وصار الناس في هرج ومرج وحَيْصَ ويَيْصَ، لا ناهي عن المنكر ولا من يعظ ويزجر، قام من وفقهم الله للهداية وظهرت عليهم العناية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها؛ فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة، يسمعون لأمره ونهيه ويتابعونه في جميع أحواله. وجالوا في ميدان أفكارهم فيمن هو لذلك أهل من ذوي الكمال

والفضل. فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر، رأس الملة والدين،قامع أعداء الله الكافرين، أبا المكارم، السيد عبد القادر،ابن مولانا السيد محي الدين، أيّد الله به الإسلام والمسلمين وأحيا به ما اندرس من معالم الدين. فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾**[1]. ثم قدمت على حضرته الوفود من سائر الجهات والحدود، فبايعه أولهم وآخرهم، شريفهم ومشروفهم، كبيرهم وصغيرهم، بيعة تامة كاملة عامة،بيعة سمع و طاعة ، أفرادا و جماعة ، بيعة عزّ و تعظيم و تبجيل و تكريم، بيعة يُعز الله بها الإسلام ويخذل بها الفجار اللئام، يمنعون عنه السوء بما يمنعون به أنفسهم وأولادهم وأموالهم ويبذلون في مرضاته أرواحهم وأكبادهم. إن أمرهم سمعوا،وإن نهاهم خشعوا وخضعوا، يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء وينصرونه في السراء والضراء. فمن وفى بيعته، نال مسرته واتقى مضرته ولاقى ميرّته. ومن نكث، فإنما ينكث على نفسه وخسر في يومه وأمسه. والله المسئول في هداية الخلق إلى طريق الحق والرأفة والرفق.

ولما ازدهت هذه البيعة بكمالها وطُرِّزت بجلالها وجمالها، كمل سرورها وتمت بدورُها بوزارة أبي المحاسن السيد "محمد بن السيد العربيـــي" أقام الله به أمر هذه الدولة السنية والإمامة البهية.

وممن حضر هذه البيعة وبايع وسمع لها وتابع، من القبائل الشرقية والأحياء الغربية : الوزير المذكور، وبنو عمه، وسائر العلماء والأعيان

---

1. سورة الفتح، الآية 10.

من معسكر وقلعة هوّارة وأحوازهما كبني شقران وبني غَدْوا وسجرارة، وقبائل غريس وأحيائه وغمائره وعشائره، وأعيان القبائل الشرقية كالعطاف وسنجاس وبني القصير ومرابطي مجاجة وصبيح وبني خويدم وبني العباس وعكرمة والمحال وفليته والمكاحلية وأحلافهم، وأعيان مجاهروالبرجية والدوائر والزمالة والغرابة وكافة قبائل اليعقوبية من الجعافرة والحساسنة وبني خالد وبني إبراهيم، ثم القبائل القبلية كأولاد شريف وأولاد الأكرد وصدامة وخلاّفة وغيرهم ممن يطول ذكرهم من قبائل المغرب الأوسط وعمائره ، سهله ووعره، ثم الكل بايعوا عن أنفسهم وعن قبائلهم، بالإذن العامّ، من الخواص والعوام.

وقعت هذه البيعة العامة في ثلاثة عشر رمضان سنة ثمان وأربعين ومائتين وآلاف (1248)وفي الرابع من فبراير (شباط) سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة وألف (1832).

كتبها خادم الشريعة السمحاء : محمد، الشهير بابن حواء.

ثم بعد الفراغ من كتابة صك هذه البيعة وقراءته على العموم،جلس الأمير للوفود وأقبل عليهم ونظر بعين الرضى والقبول إليهم وقبل منهم ما قدموه لأعتابه السامي من عتاق الخيل والسروج المثقلة والأسلحة الفاخرة وغيرها من أنواع الهدايا النفيسة، جريا على عوائدهم مع الملوك قبله. وخطب فيهم بما انشرحت له صدورهم وتضاعف به سرورهم،ثم خلع عليهم وفرق فيهم الأموال وبالغ في إكرام كرمائهم واستمال قلوب لؤمائهم وأظهر لهم من أنواع اللطف ولين الجانب؛

ما أخذ بأسماعهم وأبصارهم. ثم صرفهم إلى أوطانهم، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

ذكر تعظيم هيئة الدولة ورسوم الملك

لما تمت بيعة الأمير واستقام له الأمر، اتخذ الآلة ورتّب الحاشية وعيّن رجال الدولة. فاستوزر محمد بن العريبـــي واستكتب ابن عمه، السيد أحمد بن علي أبي طالب، والسيد الحاج مصطفى بن التهامي، والسيد الحاج محمد الخروبي. وعين لحجابته محمد بن علي الرحاوي وولى الحاج الجيلاني بن فريحة ناظر خزينة المملكة ومحمد بن فاخة ناظر الخزينة الخاصة والحاج الطاهر أبو زيد ناظرا على الأوقاف والسيد الحاج الجيلاني العلوي مأمورا على الأعشار والزكاة بأنواعها. وعيّن لنظارة الأمور الخارجية الحاج الميلود بن عرّاش. ونظّم الحاشية وأقام كل فرد منها في مقام يخصّه ورسم له أثرا يقصّه وبثّ العمال والقضاة في سائر الجهات. ورتّب مجلسا للشورى يشتمل على أحد عشر عضوا من أجلة العلماء. وجعل رئاسته للعلامة قاضي القضاة السيد أحمد بن الهاشمي المراحي. ودوّن الدواوين وطفق يردُّ على الناس ما اختلسه بعضهم من بعض وينصفهم مما وقع بينهم من أنواع المظالم والتعديات، أيام الفتنة ويهدم ما كانت الحكومة الجزائرية أسسته من المغارم والضرائب والعوائد. فطار بذلك ذكره وانتشر في المغرب الأوسط أمره. واختار الأمير مدينة "معسكر" لإقامته تأنيسا لأهل "غريس"

وتطييبا لنفوسهم لأنهم كانوا دعاة هذه الإمارة وكانت منها حركته ونهضته وفيها أولا قرارُه. وبأنجادها كمُل أمره وأينع آسه وعرارُه.

ذكر خروج الأمير لتمهيد البلاد
وما جرى بعد ذلك من الحوادث

بعد أن فرغ الأميرُ من شؤونه، ورسوم ملكه نهض من حضرته "معسكر"، في شوال سنة مائتين وثمانية وأربعين 1248. وفي فبراير (شباط) سنة ألف وثمانمائة واثنين وثلاثين 1832، ليختبر الأحوال ويتفقّد الأعمال ويجمع شمل الأقوال بالأفعال ويقيم من تخلف عن البيعة على الطاعة ويحمله على سلوك سبيل الجماعة، والوطن إذ ذاك قريب العهد باحتلال الحال. فشمر الأمير عن ساعد جدّه وأشهر سيف الحق وانتضاه من غمده ودوخ بلاد البربر وزناتة وجال في مواطنهم وضبط الأمور وجبى الأموال وعفا وعاقب وشافه وكاتب ثم انفتل راجعا على الساحل يتوخى الثغور، فانتهى إلى مرفأ "أرزيو" وكان قاضيها أحمد بن طاهر يراجع حاكم وهران ويدعوه إلى الاستيلاء على المرسى المذكور فقبض عليه الأمير وأشخصه إلى معسكر، فاعتقله بها وأقبل على شأنه من ضبط الثغور وتثقيفها. فرتب الحامية وقرر ذخائرها إلى الحضرة.

ذكر غزوة فليتة، وما اتصل بها من الحوادث

إن قبيلة فليتة تشتمل على بطون وعشائر عديدة، من دأبهم، سلب النفوس والأموال وقطع السابلة من عهد الحكومة الجزائرية. وبعد انقراضها، اشتد عدوانهم واتصل عيشهم. ولما آل الأمر إلى الأمير، رفع الناس أمرهم إلى أعتابه وطلبوا منه أن يقطع شأفة فسادهم؛ فأجابهم إلى ذلك ونهض من الحضرة،غِبَّ رجوعه من "أرزيو" ونزل بالبطحاء المعروفة الآن "بهبرة" ومنها أَغَذَّ السير إليهم بجموعه فصبّحهم، واكتسح أموالهم وشتت شملهم وجعلهم عبرة لغيرهم.

وبعد الفراغ من أمرهم، بلغه انتقاض قبائل "عكرمة" و "بني مديان"، فسار إليهم وراسلهم في الرجوع إلى الطاعة، فلم يمتثلوا وأظهروا الشقاق. فأغار عليهم واستولى على جميع موجوداتهم وأعظم النكاية فيهم ثم استأمنوا له فأمنهم ورد عليهم أموالهم وولى عليهم عمالا وثق بهم وقفل راجعا.

وغِبَّ دخوله إلى الحضرة، بلغه أن حاكم وهران أغار على قرية "الدبة" وهي في جنوب قلعة "هوّارة" وأوقع بأهلها وأخذ عالمها السيد "قدور الدبي" أسيرا، في أهله وولده. فنهض من فوره. وكان العدو إلى وهران مسرعا، فأدركه الأمير في "الدار البيضاء"، قرب البلد وحمل عليه. وكان قد قدم الأسرى والأثقال وضعفاء الجند إلى ناحية البلد. واستمر يدافع عنهم إلى أن دخلوها. وفات الأمير تدارك الأمر. واستشهد يومئذ من أعيان المسلمين علي بن الحبيب الرحاوي

والميلود المغراوي في آخرين. وأما العدوّ، فكان يحمل قتلاه، فلم يُعلم عددهم. وهذه أول غزوة للعدو على داخلية بلاد وهران. فعظم ذلك على المسلمين وأخذوا حذرهم منه وعين الأمير قبيلة "الغرابة" لمراقبته وسدّ الطرق عنه ومنع مواصلة أوغاد الناس له. وبعد أن بثّ العيون ممن يوثق بدينهم، رجع إلى معسكر. ثم جهز جيشا من الحشم والدوائر وأعزاهم إلى وهران؛ فعاثوا في نواحيها وأثخنوا وسبوا وغنموا.

وفي أثناء ذلك، وقع تهاوش بين قبائل البربر، في نواحي نهر "مينة" أفضى بهم إلى القتال. فطار الخبر إلى الأمير؛ فعجل بالسير إليهم وأصلح شأنهم وجمع كلمتهم وبالغ في عقوبة من أثار الفتنة وأسعرها وكتب على عقد الصلح بينهم. ما نصه :

قد أمضينا بحول الله وقوته الصلح المبرم بين بني فلان وبني فلان، بعد ما أمرنا به ومحونا أثر ما كان بينهم من بقايا حميّة الجاهلية وألزمنا كل فريق منهم أن يقف عند حدّه وأن يرفعوا جميع ما يعرض لهم من الدعاوى والقضايا إلى من وليناه أمرهم حسبما حُرر ذلك في الأصل. وأوجبنا العمل بمقتضاه ورتبنا العقوبة الشديدة على من يتعداه. فمن سعى في نقضه أو تعرض لافساد كله أو بعضه، فقد عرّض نفسه لسخط الله تعالى و غضبه، و تلزمه المجازاة العنيفة من جانبنا، العالي بالله. وعلى هذا النص أُجري الصلح بين أولاد الأكرد، وأولاد شريف وبني نسلم وغيرهم. وارتفع النزاع بين سائر القبائل الشرقية.

ثم بلغه انتقاض "ابن نونة" قائد "الحضر" في مدينة تلمسان، فسار إليه من حينه حتى انتهى إلى البلد. وبعث إليه يعظه ويأمره بالرجوع إلى الطاعة ويعده بالعفو. فأبى وتمادى على شأنه ثم جمع قوته وخرج لقتال الأمير. وقام "الكول أوغلان"، وهم طائفة الثانية من أهل تلمسان وقائدهم "ابن عودة"، في داخلها مستمرين على الطاعة. فلما خرج ابن نونة وطائفته "الحضر" من البلد للقتال، انتهزوا الفرصة فيهم، للعداوة القديمة بينهم. فظاهروا الامير عليهم و وقع القتال داخل البلاد و خارجها. ثم كانت الدبرة على ابن نونة وفرقته واستمر القتل فيهم ونهبت أموالهم وعاث "الكول أوغلان" في منازلهم وفر ابن نونة إلى ضريح الغوث سيدي "أبي مدين" (رضي الله عنه). في قرية العباد (بتشديد الباء الموحدة). ثم دخل الأمير إلى تلمسان ومن الغد توجّه إلى زيارة الغوث ووجد ابن نونة متعلقا بأستار الضريح، لائذا به. فأمنه وعفا عنه وتقبل فيئته، وأقره على قيادة طائفته. ولم يزل الأمير في تلمسان ونواحيها، إلى أن أصلح خللها وأبرم الصلح بين الحضر والكول أوغلان. وجمع كلمتهم، ثم رجع إلى معسكر. وفي أثناء الطريق، بلغه خبر موت والده، سيدي الجدّ رحمه الله، في ثالث ربيع الأول سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1249) وعشرين من يوليه (تموز) سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة وألف (1833).

وكان الفرنسيس ابتنوا حصنا على البحر في ساحل بلاد "مجاهر" وشحنوه بالحامية والذخيرة. وزعانف تلك الناحية يواصلون أهله ويعاملونهم بالبيع والشراء. فلما آب الأمير من تلمسان، أجمع

على النهوض إلى تلك الناحية. فجمع شأنه وأغذَّ السير إليها إلى أن قرب من الحصن. وكان أهله يخرجون كل يوم بماشيتهم يطلبون المرعى، مستعدين للدفاع. فلما خرجوا، تربص بهم حتى أوغلوا في الطلب ثم غار عليهم؛ فثبتوا ودافعوا عن أنفسهم —وهم راجعون إلى الحصن— ولم ينج منهم إلا من دخله. وغنم المسلمون جميع ما كان معهم. وكان في المرسى عدة مراكب، مشحونة بالذخائر؛ فخاض الجيش إليها وغنموا ما فيها وأقام الأمير أياما يرتب العيون على الحصن ويأمرهم بالتضييق على أهله. وذُعر من كان يواصلهم من أهل تلك النواحي ثم رجع إلى معسكر.

وطار خبر هذه الوقائع إلى حاكم الجزائر، فوجم لها وبعث الصريخ إلى دولته؛ فجهزوا الجيوش وأرسلوا معها ذخائر ومهمات كثيرة وفوضوا أمر الحرب إليه وعزلوا الجنرال "بويّه" حاكم وهران وولوا مكانه الجنرال "دي ميشيل". فجاءها في رابع ذي الحجة سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1249) والخامس عشر من شهر أبريل (نيسان) سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف (1833) ووجد وهران تحت الحصار، مغلقة الأبواب، وجيوش المسلمين تجول في أنحائها، لا يفترون عن مهاجمتها. فضاق صدره لذلك. وطفق يلقي الدسائس في قلوب ضعفاء أهل الإيمان كالدوائر والزمالة ويعدهم ويمنّيهم؛ فأثر ذلك فيهم وفتحوا له طرق المواصلة من جهتهم. ثم إن الأمير، بعد رجوعه من واقعة الحصن إلى معسكر، أخذ بها أهبة الحرب واستكمل استعدادها وارتحل يريد وهران. وكان العدو ابتنى في القرب منها

حصنا يعرف "بغفور". فلما وصل الأمير، خرج الجنرال دي ميشيل في العساكر وكان القائد عليها يومئذ الجنرال "بوبريص"، وتزاحف الفريقان؛ فقسم الأمير جيوشه إلى فرقتين ، فرقة تقاتل "بوبريص" والفرقة الثانية جعلها تحت قيادته وزحف بها على حصن "غفور". ولما قرب منه، ترجّل ومشى في مقدمة الجيش، وحمل على الحصن مرتين؛ فامتنع عليه وانقلب إلى مظاهرة الفرقة المعينة لقتال "بوبريص". فقوى عزمهم وثبّت قلوبهم وحمل بالجميع عليه؛ فهزمه، وشتّت شمله وولت عساكر فرنسا على أدبارها، يطلبون البلد. ولحقهم المسلمون وأثخنوا فيهم قتلا وأسرا إلى أن امتنعوا عليهم بأسوارها.

وبعد انصراف الأمير من القتال، بلغه أن أهل "أرزيو" ركنوا إلى الفرنسيس بدسائس قاضيهم المعتقل في "معسكر" وأقاربه، وأنهم أحضروا شرذمة من عسكر وهران لحمايتهم. ثم دسَّ إليه رجل منها اسمه "طوبال" أنه يخرج كل يوم مع ضباط العسكر في طلب الصيد. وعيّن له المحل الذي يبتغونه فيه. فركب الأمير في الحال وخلّف جموع الغرابة ومن يليهم، على حصار وهران وبعث الأسرى إلى معسكر وأغَذَّ السير إلى "أرزيو" وكمن في القرب من الموضع الذي عينه طوبال. فلما خرج الضباط وأتباعهم في معية طوبال، فاجأهم الأمير بخيله وحال بينهم وبين البلد. فدافعوا عن أنفسهم واتهموا طوبال في أمرهم. فعدا عليه أحدهم بسيفه وقتله، ثم أظهروا علامة التسليم وألقوا السلاح؛ فأمّنهم الأمير وجعلهم تحت الحفظ وتقدم إلى البلد؛ ففرت حاميتها إلى المراكب وأقلعت بهم إلى وهران ودخل الأمير

فقبض على من توجهت عليه التهمة في مواطأة حاكم وهران في هذه القضية. وأصلح شأن البلدة وثقّف أطرافها وأنزل فيها حامية كافية وانفتل راجعا إلى الحضرة؛ فأنزل الضباط في دار الضيافة وأمر بإكرامهم والقيام بشؤونهم وعقد للقاضي "احمد بن الطاهر البطيوي" مجلسا خاصا من العلماء. فأمعنوا النظر في أمره وقامت البينة عليه؛ فحكم المجلس بقتله. فسُملت عيناه وقُطّعت يداه ورجلاه ووضع في حفرة في ساحة "الصراية"[1] إلى أن مات بعد ثلاثة أيام.

ذكر استيلاء الفرنسيس على مستغانم وخروج الأمير على قتالهم، وغير ذلك من الحوادث

لما رأى الفرنسيس أن الأمير قد استقام أمره وقويت شوكته، وظهر لهم منه ما لم يكن في حسابهم، تقلقلت أفكارهم واضطربت آراؤهم. فمنهم من يقول ترك البلاد أولى ومنهم من يقول الثبات فيها أليق بالمقام بين الدول. ثم قرَّ رأي الأكثر منهم على مداومة الحرب وبذل الجهد في الاستيلاء على داخلية البلاد. وكان حاكم الجزائر يرفع إلى وزارة الحرب ما يحدث من الوقائع في وهران وما هي عليه من الحصار وضيق المجال، مع قلة الجند والذخيرة فيبعثوا إليه المدد. فقوي عزمه ودعته نفسه إلى الاستيلاء على مستغانم. فتوجه إليها

1. الصراية : لفظ أجنبي، انتقل إلينا عن طريق الأتراك. معناه صرح الحكومة ومبنى الحاكم ومثوى السلطان. وقد يكتبونه في الشرق (السراي) أو (سراي الحكومة).

في فرقة من الجند واستولى عليها. وفرّ أكثر أهلها إلى الداخلية. وطار الخبر إلى الأمير؛ فوجم لها وفاوض رجال دولته ومن حضره من أعيان القبائل وذكر لهم تكالب العدو على الوطن وأراهم كيف مدّ يده إليه واستولى على سواحله. وقال : يوشك إن تغافلنا عنه أن يختلّ أمر المسلمين. فامتعضوا لذلك وتداعوا إلى الجهاد والذبّ عن الدين والوطن. فجمع الأمير الجيوش واحتشد عرب المغرب الأوسط وبرابرته ونهض من حضرته إلى مستغانم ونازلها. وكان العدو عند دخوله إليها جمع الأيدي على ترميم سورها وتثقيف أطرافها وابتنى حصنا خارجها ليستعين به على الدفاع ووضع المدافع في السور والحصن وبالغ في تحصينها. ولأول نزول الأمير عليها، بعث إلى أهلها في الخروج منها. فخرج الجم الغفير، ولحقوا بالحضرة وتلمسان وغيرها من مدن الداخلية وقراها. ولم يبق فيها إلا من اختار مجاورة العدو من الكول أوغلان. ثم إن الأمير، لما رأى امتناع البلد وتحصينها، أمر بإحضار المعاول والفؤوس وغيرها من آله الهدم. والعدو لما رأى الجيوش الإسلامية ملأت أنحاء البلد، حام عن اللقاء. وانحجر داخلها ورتب عساكره داخل السور يقاتلون منه. فأمر الأمير بالهجوم؛ فثار الغبار وتزلزلت الأرض برعود البارود وتوالت كُلَلُ[1] العدو وقنابله على المسلمين؛ فلم يثنهم ذلك واستمروا على هجومهم والأمير أمامهم، إلى أن انتهوا إلى السور وأخذوا في هدمه بالمعاول والفؤوس؛ فلم تعمل فيه.

1. كلل : جمع كله. لفظ تركي تعني كتلة كروية صماء من الحديد، يقذفها المدفع فتساقط رجوما كالصخور الصغيرة على الأعداء.

ولما أعجزهم الأمر ولم يتمكنوا من عدوهم، أمرهم بالرجوع إلى مخيمهم وحفر نفق في الأرض من المعسكر إلى السور وجمع الأيدي عليه، ثم ملؤوه بارودا، وأضرموه نارا، ثم أمرهم بالهجوم على السور. ولما انتهوا إليه، وجدوه قد انفتحت فيه كوة، غير كافية لما قُصد به من نقب السور أو تضعضعه. فعمدوا إلى المراكب في المرسى وسبحوا في البحر إليها، واضعين أسلحتهم على رؤوسهم. فألحت عليهم بالقنابل وظاهرتها حامية الحصن فارتدوا عنها. ولما علم الأمير أن العدو لا يخرج من البلد ليناجزه الحرب، ارتحل إلى أرزيو وأخلاها من الحامية الإسلامية. وعرض الهجرة على أهلها وانقلب راجعا إلى حضرته. وخرج حاكم وهران من مستغانم من بعده إلى أرزيو واستولى عليها ووضع فيها حامية وذخيرة واستمر ذاهبا إلى وهران. وكان بين "دي ميشيل" وقبيلتي "الدوائر والزمالة" مواصلة خفية. فعمل الحيلة ومدّ يده إليهم، وهم في منازلهم من سهل "أغبال"؛ فأخذ منهم رجالا ونساء في صورة أسرى، ثم راسلوه في فك أسراهم، فاشترط عليهم الخضوع لدولة فرنسا والسكنى في "مسّرغين" من ضواحي وهران. فأجابوه إلى ما اشترطه وردّ عليهم أسرارهم وظهر ما كان كامنا في صدورهم. واتخذوا أسر الأسرى عذرا فيما قصدوه. ثم اتصل الخبر بالأمير؛ فعظم عنده ذلك ورأى أن لا سبيل إلى تدارك أمرهم إلا بالسياسة الفعالة. فبعث إليهم من خاصته من يثقون به ويقبلون نصيحته؛ فوعظهم وحذّرهم من مكائد العدو وغوائله وأوقفهم على ما ألقوا به أنفسهم من مكر الله تعالى، وغضبه، والخروج عن الدين الإسلامي الذي قام

بنصرته وتأييده آباؤهم وأفنوا فيه أنفسهم وأموالهم. فأثر ذلك فيهم وأذعنوا له واعتذروا بأنهم لم يجنحوا إلى العدو رغبة عن دين الإسلام ولكن للتوصل إلى المعيشة والراحة مما لحقهم من معاناة الحروب ومقاساة الخطوب، إلى غير ذلك مما لم يجعله الرسول عذرا لهم فيما ارتكبوه. واستمر يراودهم ويعظهم إلى أن أجابوه وأدلجوا في "مسّرغين" ورجعوا إلى بلادهم. وارتاح الأمير إلى فيئتهم إلى الإسلام وبقيت وهران على ماهي عليه من الحصار وقطع الطرق عنها. واستمر الأمير يبث السرايا والغوازي في نواحي الساحل؛ فيسومنها خسفا ودمارا ويثخنون فيمن يصادفونه من أنصار العدو وأشياعه بالقتل والسبي. وتارة يشن الغارات بنفسه على الخوارج عليه من قبائل البربر وغيرهم من ظواعن العرب وزناتة ويثخن فيهم حتى يذعنوا إلى الطاعة، ثم يعطف بعد ذلك إلى السواحل ويعظم النكاية في العدو ويرصد من يتردد إليه من أوغاد الناس الذين لا دين لهم. وجعل ذلك دأبه وديدنه إلى أن ضاق الحال على الفرنسيس في تلك النواحي. وتأخر عنهم إسعاف دولتهم لما كانت عليه من الارتباك الداخلي. فجنح الجنرال "دي ميشيل" إلى السلم وطفق ينظر فيما يوصله إلى مطلوبه من غير أن يلحقه انحطاط في مترلته عند دولته. فاتفق أن محافظي الثغور في جهة مستغانم صادفوا رجلا من متنصري "البرجية" راجعا من "أرزيو" ومعه نفر من حاميتها يحرسونه إلى أن يبلغ مأمنه. فحملوا عليهم وقتلوا بعضهم واستاقوا الآخرين إلى معسكر. فارتاح لها "دي ميشيل" واتخذها ذريعة لمخاطبة الأمير.

وفي السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وأربعين ومائتين وألف 1249 ، أول سبتمبر (أيلول) سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة وألف 1833، خاطبه بتحرير يقول فيه :

إلى سمو الأمير عبد القادر! إني لا أتأخر عن كوني أخاطب سموكم بشيء تحثني عليه بواعث الإنسانية، وإن لم تدعني إليه وظيفتي، وهو إطلاق سبيل النفر الذين بينما يحرسون رجلا عربيا إذ خرج عليهم كمين من جيوشكم، فأخذوهم أسرى. ولا أظن أن قوة شهامتكم تأبى هذا وتضع أمام طلبي شروطا لأنني كنت من قبل أخذت بعض أسرى من عرب "الغرابة والزمالة" في ميدان الحرب ثم أطلقتهم من غير شروط. وبناء عليه، أتأمل أن سمو الأمير، إذا كان يرغب أن يأخذ من الاعتبار قدرا عظيما أن لا يطيل المراجعات وأن ينعم بإطلاق الأسرى.

فأجابه الأمير :

بانّ ما وقع من الأسر وسفك الدماء ويتم الأولاد وتأييم النساء وسائر ما حصل من المصائب والنوائب العمومية والخصوصية، لا مسؤولية علينا فيه. وإنما المسؤولية والعهدة على القائد الفرنساوي.

فوجم الجنرال وقواد العساكر لهذا الجواب. وعجبوا من شدة الأمير وجزالة جوابه. قال "شرشل" الأنكليزي في تاريخه، عند ذكر هذه القضية : إن حضرة الأمير عبد القادر أجاب الجنرال "دي ميشيل" بتحرير يظهر منه دقة أفكاره، وحسن سياسته حيث أنه جعل العهدة على القائد الفرنساوي حتى أن الجنرال –وإن يكن تأثر بذلك الجواب– فإنه قال، بعد أن أمعن النظر فيه : شتان ما بين السياسة الفرنساوية والأفكار العربية.

ثم إن الجنرال كتب للأمير كتابا ثانيا، ونصه :

من الجنرال "دي ميشيل" إلى الأمير عبد القادر بن محي الدين.

لي أمل بأن تطلق الحرية للأربعة الأسرى التعيسي الحظ، المحبوسين في قلعة معسكر. وما كنت أتردد عن السعي لديكم، فيما تمنعني وظيفتي الرسمية عنه حيث تدفعني الإنسانية إليه. ولعلي أعتقد أن البشر الراقين إلى الدرجات العليا، عليهم أن يمتازوا بأعمال كريمة، دالة على التفاوت الذي وضعه الله بينهم. فأرجو الإفساح عن الفرنسويين الذين وقعوا في شر مكيدة، وهم في الدفاع عن بعض العرب لتخليصهم من انتقام أبناء جنسهم. ولا أظن أنكم تضعون في طريق ذلك بعض العقبات؛ لأنكم إذا رغبتم أن تعدوا من كبار أهل الأرض، لا تتأخرون عن إظهار كرم أخلاقكم ،وإذا دواعي الحرب أوقعت بين يديَّ بعض أتباعكم، فأنا أعدكم بإرجاعهم بدون عوض.

ثم كرر الطلب ثالثة بما نصه :

إلى الأمير عبد القادر بن محي الدين.

بما أنني ما أخذت جواب كتابي الذي أرسلته إليكم منذ شهر، فأحبُّ القول إليَّ بأنه لم يصلكم، من أنكم لم تلتفتوا إلى قبول مطالبي. وعليه جئت لثالث مرة، أكرر طلب فكّ الأسرى الفرنساويين الموجودين عندكم، لأنهم لم يؤخذوا في ساحة الحرب بل سقطوا بأقبح خدعة في أقبح مكيدة. وعليَّ أن أذكّركم أن فرنسا هي أقوى دولة في الدنيا. فليس من الحكمة ان تداوموا على خطّة المقاومة. فإذا كان

اليوم في إمكاني أن أنتصر عليكم قبل وصول النجدات التي استنظرها، فماذا تكون حالكم إذا فرغ صبر فرانسا نحو العرب، وأرسلت ما تهيئه لي؟ فعندها تهجم عليكم عساكرنا فتفرقكم كما يبعثر (الهوى)[1] الرمال. فإذا رغبتم أن تبقوا في مركزكم السامي، فما عليكم إلا إجابة دعوتي حتى إذا أجرينا المعاهدات، تبادر القبائل إلى زرع حقولهم الخصبة، غانمين ما يقدمه الشعب العظيم إليهم.

فجاوبه الأمير :

من عبد القادر بن محي الدين إلى الجنرال دي ميشيل.

أما بعد؛ فقد وصلنا كتابكم المتضمن أفضل النصائح، فقدرناها قدرها وعلمنا أنكم تحثونا في كتبكم الثلاثة على الإفساح عن الأسرى وتندبون حظّهم. مع أننا نعتني بشأنهم غاية الاعتناء. والإفساح عنهم ليس له أهمية لدينا، غير أن الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا أن نردهم بدون فدية. فإذا رغبتم في الاتفاق، أقبل تسليم الأسرى إليكم عند المعاهدة بيننا على أن ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ابتداء ويسمح لنا بقبوله إذا عُرض علينا. وإن الثقة التي منحتمونا إياها في تحاريركم، حملتنا على أن نبدأكم بالمخابرة. وإن المفاوضة التي تطلبونها، يقتضي أن تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم. ولا يحصل الاتفاق إلا إذا عرّفتموني شروطكم، وما تطلبونه مني وأنا أعرّفكم بمثلها. والله المعين. وكيف تفاخروني بقوة فرنسا ولا تقدرون القوة الإسلامية؟

---

1. الهوى : إملاء مغلوط في "الهواء" ولقد تركته كما كتبوه في زمانهم : للتاريخ فقط.

مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على قوة الإسلام، وانتصاراهم على أعدائهم. ونحن -وإن كنا ضعفاء، على زعمكم- فقوّتنا بالله الذي لا إله إلاّ هو ولا شريك له. ولا ندّعي بأن الظفر مكتوب لنا دائما بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الموت مسر[1] لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شريك له لا بعدد وعُدد. وإن دويٌّ الرصاص وصهيل الخيل في الحرب لآذاننا، من الصوت الرخيم. فإذا صمّمتم على عقد صلات ودادية دائمة بيننا وبينكم، فأفيدونا حتى نرسل إليكم رجلين، من كبار قومنا، مأذونين بالمفاوضة معكم، وحينئذ تتمُّ أمانيكم بمعونة الله. ولا تظنوا بأننا نأسف إذا اضطررنا إلى ترك البلاد لأننا نعلم يقينا : أن الأرض لله تعالى، يورثها من يشاء من عباده. وقد سلّمنا وراثتها. فحيثما كنّا، نجد أمتنا. وقد ظهر لنا من مضمون كتبكم أنكم تحتقرون قوة العرب، مع داوم استعدادهم للقتال، ومسابقتهم للنزال، في كل زمان ومكان. إذا فتحتم التواريخ تروا ما أجروه في آسيا، وجهات الشام من الجراءة والثبات والإقدام والفتوحات التي أظهرها الله على أيديهم. وإني أعتذر، لعدم جوابي على كتابكم السابق بأني كنت مشغولا في الوقت الذي استلمته. وعندما كتبتُ الجواب كان رسولكم ترك "مُعسكر" وتوجه لطرفكم.

1. مسر : خطأ. الصواب سار. لأنه ثلاثي. واسم فاعله يأتي على وزن فاعل.

وهذه المراجعات أوقفت الجنرال وقواد العسكر في ميدان علموا منه أنهم يخاطبون إماما عادلا. وتعلقت آمالهم بالوصول إلى مأمولهم. وقال بعضهم، عند ذكر تحرير الجنرال، ما ملخصه : هذا المكتوب لم يكن لتحريره محل في مجال السياسة لأن الحرب بين الأمير عبد القادر والفرنساوية ما برحت قائمة على قدم وساق. وبحسب أصول الحرب، يحقُّ لهذا الأمير أن يحاصر المدن والقلاع الموجودة بأيديهم، وأن يرصد سائر طرقاتهم ويمنع المواصلات التجارية وغيرها وأن يجري القصاص على من يتعرض لها. ثم قال : فانظر إلى هذا الجنرال الذي يدّعي الفطنة والمعرفة بالنظامات الحربية، كيف كبا به جواده في ميدان سطور تحريره المذكور، الذي لا يمكن تحريره إلا في حال السلم. ولذلك أجابه حضرة الأمير أخيرا :

بعد التحية؛ وصلني كتابك الذي أظهرت فيه رغبتك في الحصول على إطلاق الأسرى الذين أوقعتهم الأقدار الربانية بين يدي. وقد فهمت جميع ما تضمنّته رسائلك وما اشتملت عليه من تكرار الطلب. ومن المعلوم عندكم أن جميع الأسرى الذين أوقعوا في أيدي عسكركم في ميادين الحرب، لم أتعرض لكم ولا لمن كان قبلكم في إطلاقهم ولا أتعبت أفكاركم بمراسلة قطّ لأن حكمهم عندي حكم الأموات، وموتهم أعتبره حياةً لهم. غير أني كنت أتألم عليهم شفقة ورحمة. وقولكم : "إن هؤلاء الأسرى الذين تطلبون إطلاق سراحهم، ما كان خروجهم لأمر يتعلق بكم بل كانوا يحمون عربيا من انتقام أبناء وطنه" ! فهذا لا أعتبره وسيلة لإطلاقهم. فإن المحافظ والمحافَظ عليه

كلاهما أعداء لنا. وانتهاز الفرصة في الانتقام منهم غاية مقصودي. وسائر العرب الذين عندكم أوغاد وأراذل يجهلون واجباتهم الدينية. هذا وإني رأيتك تفتخر بأنك أطلقت الأسرى من "الغرابة والزمالة" من غير شروط مع أنك لو راجعت أفكارك لوجدت ان رحمتك إنما كانت لأناس استظلوا بظلكم، واحتموا بحماكم، يملئون أسواقكم ذخائر ويكونون عيونا لكم على المسلمين ويخدمونكم بكمال الصدق. ومع ذلك فإن عسكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه. فلو كان هذا المعروف الذي تحججتم به، مع غير هؤلاء، كالحشم وبني عامر مثلا، لكان يحقُّ لكم الافتخار. وكنتم تستحقون الشكر. وعلى كل حال، فمتى خرجتم من وهران، على مسافة يوم أو يومين، يظهر للعيان من يستحق الفخر منا.

قال المؤرخ الإنكليزي : لو كان هذا الجواب الكبريائي في غير تلك الأيام لأهاج في صدر الجنرال الفرنساوي نيران الحماسة وحرك منه سواكن الإحن. وربما صاح بأعلى صوته وقال : أين العربي المبارز؟ والبطل المناجز؟ ولكن الوقت لم يساعده!

وكان "دي ميشيل" لما ارتحل الدوائر والزمالة من جواره، ورجعوا إلى بلادهم؛ حفظها لهم. فعند ما خسرت صفقته من مخاطبة الأمير، ولم يحصل منها على طائل، غزاهم وأخذهم على غرة. وطار الخبر إلى الأمير فأغذّ السير، وواصله وقطع مسافة خمسين ميلا في ثلاث ساعات. وكان العدوّ، لكثرة ما في يده من المسلوبات والأسرى، رجع

إلى وهران على مهله؛ فأدركه الأمير قبل وصوله إليها وحمل عليه حملة شتّت بها شمله وأوهى بها قوته ولم يسعه إلا الفرار. فاتخذه وسيلة لنجاة وترك جميع ما استولى عليه من المسلوبات والأسرى في أيدي المسلمين. كما أنه ترك قتلاه في محل المعركة. ولحق فلُّه بوهران. ثم إن الأمير ردّ على الدوائر والزمالة مسلوباتهم، وأسرارهم. وأمرهم بالرحيل إلى "تمزوغت" في نواحي تلمسان، فارتحلوا في العشرين من رجب سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1249) والرابع من ديسمبر "كانون الأول" سنة ثلاثة وثلاثين وثمانمائة وألف (1833) وبعد هذه الواقعة، انسدّ باب المخابرة بين الأمير وحاكم وهران فيما كان بصدده.

ذكر رجوع الجنرال دي ميشيل إلى المخابرة مع الأمير وإظهار رغبته في السلم

كان الجنرال دي ميشيل معروفا عند دولته بأنه من رجال الحرب، وأبطال الطعن والضرب. فعزلوا الجنرال "بويّه" وولوه مكانه. وبوصوله، أضرم نار الحروب، وفتح باب الشدائد والخطوب. فكانت الدبرة فيها عليه. ودام ويلُها يصاحبه ويماسيه. ولم يزل على ذلك إلى أن يئس من نجاحه في أمره، وعجز عن درك ما كان يؤمله من فوزه. فرجع القهقري وأخذ يدبر فيما يخلصه من ورطته ويكون وسيلة للوصول إلى إرضاء دولته. فلم ير أوفق من وضع أوزار الحرب، والتملص من شرك الشدة والخطب. ففتح لذلك بمراسلة الأمير بابا

وهيأ لها أسبابا. فحيل بينه وبين مراده. وعاد إلى مقارعته وجلاده. ثم رأى أن دون فوزه خرط القتاد؛ فعاد إلى ما عوَّل عليه أولا من قرع الباب ومعاطاة الأسباب. قال المؤرخ الأنكليزي :

لما استعظم "دي ميشيل" جراءة عدوّه، الأسد الكاسر، وسرعة حركته في النواحي، فكأنه في كل ناحية حاضر، تبين له أن تدبيراته لم تنتج له الظفر بالآمال وتأسيسات أفكاره قد اعتراها التلاشي والاضمحلال وأن سور الحصار قد حال بينه وبين الزاد وبلاء المجاعة ما برح في شدة وازدياد، وعجز عن المدافعة بعد بذل الجد والاجتهاد، فلم ير أحسن من الصلح أو تخلية البلاد. ثم فكر في أمره وأوفد على الأمير "مردخاي الموسوي" في طلب الصلح، وأصحبه برسالة يقول فيها :

إلى سمو الأمير عبد القادر :

حيث لا تجدني أيها الأمير! غافلا أبدا عن كل فعل حسن، فإذا كان سموكم تريد أن تتخابر في أمر المعاهدة، فأنا مستعدّ لذلك مع الأمل أنه يمكن الحصول على معاهدة موافقة يتوقف بها سفك دماء أمتين اقتضت الإدارة الإلهية أن لا تكونا تحت سلطة واحدة.

حرر في رجب سنة تسع وأبعين ومائتين وألف (1249) وفي ديسمبر (كانون الأول) سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية (1833).

قال بعضهم : فهذا الكتاب حقق لحضرة الأمير عبد القادر ما كان يتصوره، وهو أن عدوه واقف موقف المستغيث. ولذلك ضرب عن رد

الجواب صفحا. وإنما قال للرسول، وهو مردخاي : إنه بحسب الوقت الحاضر لا يمكنني ردّ الجواب. وإن كان الجنرال يسمح بإيضاح وتفصيل هذا الأمر، فهو أولى .

فلما وصل اليهودي إلى الجنرال، وبلغه الرسالة الشفاهية، عن لسان الأمير عبد القدر، تلقاها بالقبول ورد مع اليهودي كتابا آخر يقول فيه :

إلى سمو الأمير عبد القادر :

حيث لم يصلني جواب من سموكم عن التحرير الذي قدّمته، وقع في فكري أنه لم يصل إليكم، لا أنه وصلكم؛ ولم تهتموا به! حيث إنكم لا تفعلون شيئا أوفق لحفظ المقام الذي رفعتكم الظروف إليه من التسليم بطلبي لأنه بواسطة المعاهدات المطلوبة التي نعقدها بيننا، تتمكن الأهالي أن تلتفت إلى فلاحتها وتتمتع بلذة حاصلات أراضيها وتذوق حلاوة السلم، بدلا عن مرارة الحرب.

ثم أنهى كتابه بعبارات أوضح من الأولى وأبين في طلب الصلح!

ذكر إبرام المعاهدة وما جرى في أيامها من الحوادث الداخلية

لما اتصل مكتوب حاكم وهران بحضرة الأمير، جمع رجال دولته وأعيانها وأخبرهم بما وقع بينه وبين الجنرال من المخابرات في شأن أسرى "أرزيو" أولا، ثم في أمر الهدنة ثانيا. واستشارهم في ذلك. واستكشف ما عندهم فيه؛ فرآهم جانحين إلى السلم، راغبين في عقد

الهدنة، لاسيما أن العدو هو الطالب لها، والراغب فيها. قال شرشل الإنكليزي، ما حاصله : قد تمكن هذا الأمير المظفر، الحديث السن، من أن يُطلع رجال دولته ورؤساء رعيته على هذا المكتوب الذي هو في الحقيقة سند يشهد له بأن العدو هو السابق التماس الصلح، وقد تأتى له أن يجيب إليه إذ لا داعي للتأخر عنه. فلذلك حرر في جوابه :

بعد التحية :

وصلني كتابك أيها الجنرال المحترم! وفهمت ما ذكرته فيه. واعلم : أن أفكارك مواطئة لأفكاري، موافقة لها. وبذلك تحققت استقامتك. فكن متأكدا بأن الشروط التي توفقنا العناية الإلهية لإجرائها بيننا، نتمسك بها بصدق عظيم ولا نتجاوزها. وها أنا مرسل لنحوك معتمدين وهما : وزير الخارجية، "الميلود بن عرّاش" والآغة "خليفة بن محمود" يتخابران معك في الشروط التي يمكن إجراؤها. وحينئذ، تجري المعاهدة، وتذهب العداوة من بيننا. ونستبدلها بالصداقة التي لا تخلّ بمقامنا. وينبغي لك أن تثق بي لأنني -والحمد لله- لم تسبق لي خيانة في عهدي، ولا نقض لعقدي.

ثم قال : وكانت المقابلة بين القواد الفرنساويين ومعتمدي عبد القادر، خارج وهران، على فرسخين منها، في خمس وعشرين خلون من شهر رمضان سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1249) وأربع فبراير (شباط) سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية (1834) وجرت مذاكرة طويلة في قضايا مختلفة قدمها الجنرال "دي ميشيل"

ثم ركب وزير الخارجية راجعا إلى الحضرة، ومعه نسخة الصكّ المشتمل على المسائل التي وقعت المذاكرة فيها، غير ممضية من الجنرال. ونصها :

أولا : إن العداوة من هذا اليوم تبطل بين الفرنساوية والعرب.

ثانيا : إن الفرنساوية تلتزم بتكريم ديانة الإسلام مع عوائدهم.

ثالثا : إن العرب تلتزم برد الأسرى الفرنساوية.

رابعا : أن يكون السوق حرا.

خامسا : إن العرب تلتزم برد من يهرب من الفرنساوية إليهم.

سادسا : من أراد السفر في الداخلية، من الفرنساوية، يجب أن يكون بيده رخصة مختومة من قنصل الأمير ومن قنصل الجنرال.

ولما اطلع عليها الأمير، وافق عليها وأمضاها بخطّه ثم حرر ورقة أخرى ذكر فيها ما اشترطه، وهي :

أولا : يكون للعرب الحرية بأن يبيعوا ويشتروا كل ما يتعلق بالحرب.

ثانيا : يكون متجر مراسي "أرزيو" تحت ولاية الأمير، كما كان قبلا، بحيث لا يصير شحن شيء إلا منه. وأما وهران ومستغانم، فلا يرسل لهما إلا البضائع اللازمة لأهلها.

ثالثا : يلتزم الجنرال بترجيع كل من يهرب إليه من العرب، مقيدا! مع أنه لا تكون له سلطة على المسلمين الذين يحضرون عنده برضاء رؤسائهم.

رابعا : لا يمنع مسلم من الرجوع إلى بيته متى أراد.

وفي اليوم الخامس، رجع وزير الخارجية واجتمع بالجنرال "دي ميشيل" داخل وهران وأخبره ولم يسلمه ورقة مطالبه إلا بعد أن أمضى ورقة الأمير التي فيها شروطه! ثم إن الجنرال اختار أن يكون صك الهدنة واحدا، تحرر فيه مطالب الأمير بالخط العربي ومطالب الجنرال بالخط الفرنساي. وكل منهما يمضي للآخر على شروطه بخطه. فأجابه ابن عرّاش إلى ذلك، ونص الصك :

إن قائد الجيش الفرنساوي، المقيم في وهران، الجنرال "دي ميشيل" والأمير عبد القادر بن محي الدين اعتمدا، واتفقا على ما يأتي ذكره من الأمور :

الأول : منذ يوم تحريره، يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنساويين والعرب. وكل من الجنرال "دي ميشيل" والأمير عبد القادر يجتهد في إلقاء الألفة بين شعبين، اقتضت الإرادة الإلهية أن لا يكونا تحت سلطة واحدة. ولأجل ذلك، تتعين وكلاء من الأمير عبد القادر في وهران ومستغانم وأرزيو كي لا تقع الخصومة بين الفرنساوية والعرب. كما أنه يقام وكيل عن فرنسا، ضابط فرنساوي في "معسكر".

الثاني : يصير احترام ديانة الإسلام وعوائدهم.

الثالث : يلزم ردّ الأسرى من الفريقين.

الرابع : يصير إعطاء الحرية الكاملة للتجارة.

الخامس : تلتزم العرب بإرجاع كلّ من يفر إليهم من العسكر الفرنساوي. ويلتزم الفرنساويين بتسليم كل من يفر إليهم، من أهل الجرائم، الهاربين من القصاص، إلى وكلاء الأمير في المدن الثلاث.

السادس : من أراد من الأوروبيين، يسافر إلى داخلية البلاد، يجب أن يكون مصحوبا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الأمير. ويصححها[1] الجنرال. وبذلك، يحصل على الحماية في جميع الإقليم.

حرر في وهران في السابع عشر من شوال، سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1249)، والثامن والعشرين من شهر فبراير (شباط) سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف (1834). ثم إن ابن عراش أخذ الصكّ وعرضه على حضرة الأمير. وبعد اطلاعه عليه، وإمعان النظر فيه، أمضاه بخطه، ورجع ابن عراش إلى وهران. فلما رآه الجنرال وعلم أن الأمير واقف على ما حرر في الصك، وأنه أمضاه، تهلل وجهه. وأظهر لابن عراش بشاشة زائدة لم يعهدها منه. قال المؤرخ الفرنساوي "لويس دينليوت" في تاريخه، عند ذكر هذه المعاهد : إن الميلود بن عرّاش، وزير السلطان عبد القادر، ومعتمده في عقد المعاهدة مع الجنرال دي ميشيل لمّا وفد عليه، حاملا صكها الذي صادق عليه الأمير، قابله بكمال الاحترام والاحتفال. وكان أمراء الجيش الفرنساوي جالسين على حسب مراتبهم، والعسكر مصطفة حولهم

1. أي يصادق عليها. ومازال هذا التعبير مستعملا في الشمال الإفريقي إلى اليوم.

يسمعون ما تقرر في الصك. وبعد تلاوته، أمضاه الجنرال بخطه ثم التفت إلى ابن عراش وفتح معه باب المذاكرة. فقال :

– إن العرب لا تجهل قوة فرنسا واستعدادها. فأجابه ابن عراش :

– نعم إن العرب لا تنكر قوة سلطنة فرنسا و اقتدارها. ثم قال الجنرال:

– إنني كنت عازما، قبل عقد المعاهدة، على أن أطلب من دولتي عشرة آلاف جندي زيادة على ما عندي، وأخرج من هذه المدينة وأتابع محاربتكم مدة شهر. وما يدريك يا مولودا! أن بهذا الفعل يدخل على سلطانك الوهن ويلحقه الضعف؟ فأجابه ابن عراش :

– إننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب ولكن محاربة هجوم وإقدام. ولو فعلت ما قلت وخرجتم بهذه القوة، كنا نتقهقر أمامكم، متوغلين في الصحراء، بأهلنا وأثقالنا. وفي حال هذا التقهقر، نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا، ثم تصابركم؛ حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم. ومتى سنحت الفرصة، وتورطتم في فيافي الصحراء، قلبنا الكرة عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية. وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم لحقها التعب وأضر بها التعب. فحينئذ، ماذا كنت تصنع أيها الجنرال؟

– قال : فلما سمع الجنرال هذا الجواب، المفصح عن جمل من أوضاع الحرب التي لم تخطر له على بال، تعجب ولم يسعه إلا السكوت. وتفرق المجلس. وانقلب ابن عراش إلى الحضرة، بعد أن أتم سفارته. وشاع أمر المعاهدة وارتفع الحصار عن وهران ومستغانم

وأرزيو وسلكت الطرق إليها من الداخلية وتعينت الوكلاء فيها من قبل الأمير. فعين "مردخاي بن درّان الموسوي" في الجزائر! و"محمد بن يخ" في وهران و"الآغا خليفة بن محمود" في أرزيو.

وعين سفير فرنسا ، الكومندان "عبد الله ويسون" في "معسكر"، وأصله من مماليك الأمراء المصريين، استخدمته دولة فرنسا في العساكر المشاة. وأمست أفكار الجنرال دي ميشيل، هاجعة على بساط الراحة، لعلمه أن هذه المعاهدة صارت حدا فاصلا بينه وبين الغوائل السابقة. وطيّر الخبر إلى وزارة الحرب في باريز؛ فأجابته : إن الملك صادق على المعاهدة، وانتقد عليه أمورا أخل بذكرها في صك المعاهدة. ففهم الناس أن دولة فرنسا انشرحت لعقد المعاهدة ولم تنشرح لشروطها. وأيد لهم ذلك أنها أخذت في استعمال الوسائط لنقضها. قال المؤرخ "لويس دينلبوت" : إن دولة فرنسا قد حاولت أن تنقض هذه المعاهدة واستعملت لذلك مكايد متنوعة. ولكن فطنة الأمير، ومعرفته بالسياسة عرقلت أمورهم. وأفسدت سبيل نجاحها (انتهى).

وقصارى ما يقال : إن تلك المعاهدة كانت عبارة عن متاركة لا تخلو عن مخاتلة من الطرفين، وذلك أن كلا من الأمير والجنرال دي ميشيل جعل لنفسه بابا في صكه يخرج منه متى شاء. وعلى كل حال، فإن الأمير ارتاحت أفكاره من جهة الحروب الفرنساوية، وانصرفت همته لتنظيم الوطن، وتوسيع سلطنته في بلاد المغرب الأوسط؛ كما قال بعض مؤرخي الإفرنج. كانت هذه المعاهدة كمنادٍ قام ينادي في أندية العرب بوجوب طاعة هذا الأمير. فسمع نداءه

وأجيب دعاه وامتد ملكه وبُعد صيته ومداه. كما أنها جعلت للفرنسيس نوع سلطة في الأماكن التي استولت عليها. ولما وصل "عبد الله ويسون" إلى العاصمة، دخل على الأمير في القاعة الملوكية بملابسه الرسمية وقدم إليه الرقيم المعلن بتعيينه وكيلا عنده. فلما قرأه، قال له : الآن أدخل علينا السرور حيث أننا نظرنا شروط المعاهدة أخذت مفعولها وظهرت من القوة إلى الفعل. وأمره أن يواصل التردد عليه ويرفع ما يعرض له من الحاجات إليه. وغِبَّ خروجه من الحضرة الأميرية، توجّه لزيارة أرباب الدولة وأعيانها في منازلهم. ثم قابلوه بمثلها في منزله. وأظهر لهم غاية الميل والمحبة وخدعهم بلسانه العربي الفصيح. ثم إن المسلمين الذين هاجروا من وهران ومستغانم، تشوقت نفوسهم إلى الرجوع إليهما وانتهزوا فرصة المعاهدة. فمنعهم الأمير وأوعز على قناصله بمنعهم وسد باب القبول في وجوههم. وفي سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف (1834)، بعد إبرام المعاهدة، وصل وفد السلطان "عبد الرحمن بن هشام" صاحب المغرب الأقصى، لأداء التهنئة للأمير بالملك وأصحبهم هدية من نفائس بلاده، ومقدارا وافرا من ذخائر الحرب وأدواته. فأكرم الأمير وفادتهم وأعظم جانبهم. وكان نفر من العساكر الفرنساوية فروا إلى المغرب الأقصى؛ فبعثهم السلطان مع الوفد ليرى الأمير رأيه فيهم، فقبلهم. وأرسلهم إلى الجنرال دي ميشيل؛ فاهتز لذلك فرحا،وعلم صدق الأمير ووفاءه بعهوده ووعوده. ولما فرغ الأمير من هذه الأعمال، صرف همته إلى تمهيد القاصية من البلاد وردع أهل البغي والفساد كالدوائر والزمالة ومن

شايعهم كابن العريبـــي ومن تبعه من قبائل"شلف، وابن المخفي رئيس البرجية". وكان الأمير، لما تقلد أمر الأمة واشتغل بالجهاد، نظر فيما يلزمه من النفقات. فرأى أن ما يجبي من أموال الزكاة والأعشار لا يفي بواجباته، فطرح المسألة في مجلس الشورى للنظر فيها. فاتفقت آراؤهم على فرض ضريبة على الرعية، تسمى (معونة) (بضم العين) وبنوا ذلك على أساسات شرعية، مؤيدة بنقول فقهية وأعمال سلفية. فلما تم أمر المعاهدة قام أولئك الظلمة، وبثوا دسائسهم في أفكار العامة بأن البيعة، إنما كانت على الجهاد. وحمل أثقال الضريبة إنما كان لنفقاته. وحيث أن الجهاد طوى بساطه، والأمير ركن إلى مسالمة العدو، فلنا أن نرجع في بيعتنا ونمتنع من دفع المعونة من أموالنا. فأثرت دسائسهم في بعض القبائل كبني عامر؛ فامتنعوا من دفع المعونة واتصل خبرهم بالأمير. فأوعز إلى "مصطفى آغا بن اسماعيل" رئيس الدوائر أن يركب عليهم فيردعهم ويجبي أموالهم. فارتاح لها ابن اسماعيل، لما تهيأ له في ذلك، من أخذ ثأره منهم. ثم راجع الأمير أفكاره وفطن لدسائس ابن اسماعيل. فكتب إليه بالكف عنهم؛ فلم يمتثل وسار إليهم بجموعه. فدافعوه وقهقروه، ثم أوفدوا على الأمير جماعة من أعيانهم؛ فصادفوه على المنبر يخطب على الناس في أمر المعونة. فأراهم الوجوه التي بعثته على أخذها منهم. ثم قال : اعلموا أن الغاية الوحيدة في قبولي لتقليد هذا المنصب أن تكونوا آمنين على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم، مطمئنين في بلادكم، متمتعين بوظائفكم الدينية. ولا يمكن أن أبلغ مرادي من ذلك إلا بمساعدتكم مالا ورجالا. وبهذا تعلمون أن المنافع

الحاصلة منكم عائدة عليكم. ولا أظن أن يخطر في بال أحدكم أن الأموال التي تؤخذ منكم، ابتغيها لنفقاتي الشخصية لعلمكم وتحققكم أنني غني مليءٌ بما خلفه لي والدي. وبالجملة فنحن لا نطلب منكم إلا ما تجبركم الشريعة على دفعه وتجبرنا على أخذه. فراجعوا أنفسكم. وسدوا آذانكم مما يلقيه أهل الفساد إليكم وكونوا على كلمة واحدة، وصفقة متحدة فيما ينفعكم ويصلح شؤونكم. ولا يتم لكم ذلك إلا بطاعتنا. قال الله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**[1] ألا فليبلّغ الشاهد منكم الغائب. فلما سمع الناس كلام الأمير، انشرحت صدورهم وأظهروا الإذعان لأوامره، والطاعة لأحكامه وتقدم إليه وفد بني عامر في شأنهم؛ فبرّأوا ساحتهم مما نسب إليهم من الخروج عن الطاعة ومنع الجباية وأوقفوه على دسائس مصطفى بن اسماعيل وأشياعه وأخبروه بما هو عازم عليه من نبذ الطاعة وذكروا له ما لحقهم منه من الظلم والعسف. فأسرها في نفسه وأكرم الوفد وردّهم إلى البلاد. وفي غزة ذي الحجة سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1249) والحادي عشر من أبريل (نيسان) سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف (1834) توجه قاصدا تلمسان ونواحيها. فطار الخبر إلى الدوائر والزمالة؛ فاحتشدوا، واستجاشوا بعرب "رياح" وأهل "أنكاد" وصمدوا لقتال الأمير. ولما قرب من منازلهم، بعث إلى ابن اسماعيل وغيره من أعيانهم،

1. سورة النساء، الآية 59.

يدعوهم إلى الحضور عنده لينظر في حوادثهم مع بني عامر؛ فاستنكفوا وزحفوا إليه بجموعهم. ودارت بينه وبينهم حرب انكشف فيها أولا الخوارج وتركوا جميع موجوداهم. فلما أكب جيش الأمير على الغنائم والتهوا بالتعبئة، عطف عليهم الخوارج بجموعهم من كل ناحية فهزموهم. وكان الأمير على.... حدة في فرقية قليلة. فلما رأى الهزيمة قد استولت على جيشه، حمل عليهم —مع كثرهم— فأصيب فرسه ووقع بين الصفوف. فأردفه.... ابن عمه السيد "المولود أبو طالب" ثم ركب فرسا آخر واتصل القتال إلى الغروب وقُتل من الفريقين عدد كثير وجرح ابن اسماعيل في جملة من بني عمه. ثم بلغ الأمير أن الخوارج يكيدونه في تلك الليلة، فتغافل عن ذلك ونام مع كافة الجيش في غاية الأمن! فلما كان الثلث الأخير من الليل؛ هجم الخوارج على المعسكر فاستولوا على موجوداته وتخلص الأمير من بينهم. وبعد طلوع الشمس، تراجع الناس إليه، فانقلب بهم إلى حضرته. وطار الخبر إلى حاكمها "محمد بن السنية" فجمع الأيدي على تجديد ما سلبه الخوارج من أدوات الملك ومهماته وهيأ الموكب الملوكي. ولما قرب الأمير من الحضرة، تلقاه بذلك وتلقاه العلماء والأعيان ودخل عاصمته التي خرج فيها وأصبح في دار ملكه على ما كان عليه.

ترى الناس في أبوابه ورحابه   كأنهم من فرط كثرتهم نمل

ولما رأى الخوارج أن حادثتهم لم تحدث في أمر الأمير ضعفا ولا في أفكار رعاياه تشويشا ندموا ندامة الكسعي وأقاموا يترقبون شديد الانتقام ووقعوا من أمرهم في حيرة، وقد تبرأ منهم الحميم وتباعد عنهم القريب ولم يبق على مشايعتهم إلا ابن الغماري وقومه، والبعض من قبيلة "رياح" وسنلمّ بما وقعوا فيه من الوبال والخسران والذلة والهوان وما آل إليه أمرهم. إن شاء الله تعالى.

ذكر تنظيم الجند وما يتعلق به

لما علم الأمير ما بين الجنود المنتظمة والحشود المتطوعة من الفرق العظيم، عزم على تنظيم جند كاف، يكون دأبه التمرين والتدريب، ليصل بقوته ومعرفته بالأمور الحربية إلى مقاصده الجسيمة. فبعد رجوعه من واقعة الدوائر، عقد مجلسا عموميا من رجال الدولة وأعيان الرعية وزعمائها. وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه، وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه كاف. فأجابه الجميع إلى ذلك، ووافقوه عليه. وطفق المنادي يقول بأعلى صوته في الأسواق : «ليبلغ الشاهد الغائب : أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر، من كافة البلاد. فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي، ويشمله عزّ النظام، فليسارع إلى دار الإمارة، "معسكر"، ليتقيد اسمه في الدفاتر الأميرية». فتلقى الناس هذا الأمر بانشراح وارتياح وتسابقوا إليه طوعا من كل جهة حتى

من القاصية. وصار له موقع عظيم عند العامة والخاصة. واستحسنه كل عاقل ووافق عليه كل فاضل وامتلأت، عند سماع أمره، قلوب الأعداء رعبا وعلموا أنهم قد حملوا أنفسهم من عداوة الأمير أمرا صعبا. وأمست أفكارهم في قلق وقلوبهم بنار الخوف في التهاب وحرق. ولم يكل الأمير أمر الجند لغيره بل هو تولى تربيته وتنظيمه بنفسه. فجعله ثلاث فرق : فرقة مشاة وفرقة يركبون الخيل، وعرفوا بالخيالة، والفرقة الثالثة مدفعيون. وولى-وقتئذ- على المشاة والخيالة من مشاهير الأبطال : قدور بن بحر، وعبد القادر بن عز الدين، ومحمد قوشارمة، ومحمد السنوسي، وسالم الزنجي، واحمد الغديوي ... وغيرهم، كل واحد على ألف جندي. وولى على المدفعيين "محمد آغا"[1] المعروف "بابن كسكسه" (الكول أوغلي).

ووضع لهم قوانين وضوابط جمعها بعض كتّاب الجند في رسالة سماها (وشاح الكاتب وزينة العسكر المحمدي الغالب) ونصها :

حمدا لمن أعزّ كلمة نبيه، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وأعلاها، ومكّن شريعته على أساس التقوى وبناها، وصلاة وسلاما على نبيّ الملاحم، المؤسس ترتيب الصفوف، كأنهم البنيان المرصوص، أو الموج المتلاطم، من كان يتقي به أكابر أصحابه (رضي الله عنهم وأرضاهم وجعلنا ممن اقتدى بهم ووالاهم).

---

1. آغا : كلمة فارسية (آقة) أو (آقا)؛ معناها : رئيس أو سيد أو زعيم.

وبعد؛ فإنه لما كان يجب للجيش وضع قوانين لا يتعداها وهيئات يتميز بها وشؤون أخرى لابد أن يرعاها، وكان، من ولاه الله أمرنا واختاره أميرا علينا ناصرا للدين، سيدنا ومولانا عبد القادر بن محي الدين، أيده الله، عارفا بذلك، خبيرا بتلك المسالك، وضع لعسكره المحمدي وجنده الأحمدي قوانين تجري أمورهم عليها ويرجعون في شؤونهم إليها. وهيئات تتميز بها أمراؤهم وترتيبات يكون عليها اعتمادهم. ثم أمر -نصره الله- بجمعها؛ فجاءت -بحمد الله- كما أمر، وعلى الوجه الذي صدر، سميتها (وشاح الكاتب وزينة العسكر المحمدي الغالب) ورتبتها على مقدمة وأربعة وعشرين قانونا وخاتمة.

أما المقدمة فإنها تشتمل على المسائل :

الأولى : رتّب -نصرة الله- عسكره عل ثلاثة أصناف.

الأول الراكبون، وسماهم الرماة والطوبجية[1]. وجعل على كل صنف من هؤلاء الثلاثة رئيسا. فعلى الألف خيال (آغة) وعلى الخمسين (سيّافا) وعلى العشرين (رئيس الصف) ودونه (الجاويش)[2]. ولكل ألف وكل مائة (كاتبا) وعلى الكاتب رئيسا سماه (باش كاتب)[3].

وأما العسكر المحمدي، فإنه قسمه إلى مئات. وقسم كل مائة إلى ثلاثة أقسام. وجعل لكل قسم خباءً (أي الخيمة) ورئيسا عليه سماه

---

1. طوبجي : نسبة إلى طوب، وهو المدفع. والكلمة والنسبة إليها : تركيتان، معناهما المدفعي.
2. الجاويش : كلمة تركية معناها العريف.
3. باش : كلمة تركية معناها : رئيس. فمعنى باش كاتب : رئيس الكتاب.

(رئيس الخباء) وعين له نائبا يقوم مقامه وسماه (خليفة رئيس الخباء). وجعل على كل ثلاثة أقسام من هؤلاء رئيسا سماه (سيافا) وعين لهم كاتبا يخصهم. وجعل على كل عشرة من السيافين فأكثر رئيسا سماه (آغة). ورئيس العسكر المحمدي شأنه النظر في أحوال السيافين، فمن دونهم. وأما الطوبجية فيسمى رئيسهم (باش طوبجي) وعين لكل مدفع اثني عشر جنديا يقومون بأمره وعليهم رئيس وكاتب.

المسألة الثانية : كسوة العسكر المحمدي على نوعين : الجوخ والكتان. أما الجوخ فعلى ثلاثة أصناف : أحمر قان، وهو الأعلى. وأدنى منه الجوخ العسكري، وهو الأحمر الكاشف. والصنف الثالث أسود. فأما الصنف العالي الجيد، فلرئيس العسكر المحمدي ولرئيس الخيالة. وأما الصنف الذي دونه، فهو للسيافين والكتاب، أصحاب الرتبة الأولى، ومعلم الحرب، والطنبورجي (وهو صاحب الطرنبيطة). وأما الأسود؛ فلباس الطوبجي، ورئيس الأثني عشر مدفعيا، وكاتبهم. وأما رئيس الصف، ورئيس الخباء، فكسوتهم متنوعة. فيختص رئيس الصف "بالغليلة" المعروفة "بالمنتان" من الجوخ الأسود، والسروال من الأحمر. وعكسه رئيس الخباء، فمنتانه أحمر، وسرواله أسود. وأما الكتان، فهو كسوة سائر أفراد العسكر المحمدي بخلاف الخيالة، فإن أكسيتهم من الجوخ الأحمر الدون.

تنبيه : أمر مولانا أن لا يغير أحد كسوته المخصوصة به، سواء كان آغة، أو سيافا، أو رئيس صف، أو رئيس خباء، أو خيالا، أو طوبجيا،

أو عسكريا. ولو بلغ ما بلغ في الغنى. ومن استهون[1] بهذا الأمر فإنه يعاقب العقوبة الشديدة.

وقد جعل مولانا -نصره الله- لسائر رؤساء الأصناف المذكورة علامات يتميزون بها، ويعرف بها الرئيس من المرؤوس. فجعل لرئيس العسكر المحمدي وهو الآغة أربعة علامات من الذهب : اثنتان على منكبيه، إحداهما مكتوب عليها : (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله)، والأخرى مكتوب عليها (الصبر مفتاح النصر) واثنتان في صدره، على شكل القمر. فذات اليمين مكتوب عليها (لا إله إلا الله) وذات الشمال مكتوب عليها (ﷺ). وجعل لرئيس الخيالة علامتين من الذهب أيضا، إحداهما على منكبه الأيمن، مكتوب عليها (الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة). والأخرى يضعها على صدره، مكتوب عليها (محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم). وجعل لسياف الخيالة علامة واحدة من الفضة، يجعلها على عضده الأيسر، مكتوب عليها (أيها المقاتل! احمل تغنم) وجعل لرئيس الصف علامة واحدة يضعها على عضده الأيمن، وهي من الفضة أيضا، مكتوب عليها (من أطاع رئيسه، واتقى مولاه، نال ما يرجوه ويتمناه). ولنائبه علامة من الجوخ الأحمر، يضعها على ساعده الأيمن. وجعل للباش كاتب.... علامة من الفضة، على شكل القمر، مكتوب عليها (ناصر الدين) يضعها على ساعده الأيمن. وجعل لرئيس الطوبجية

1. استهون : استهان. ونتركها كما هي في الأصل؛ للتاريخ.

علامة من الفضة، يضعها على كتفه الأيمن، وهي صورة مدفع، مكتوب عليها (وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى).

المسألة الثالثة : لما كان يجب على الجند بأصنافه، أعني المشاة والخيالة والطوبجية، أن يكون كل فرد منه عالما بمكائد الحرب، متخلقا بها، مستعملا لها عند مقابلة العدو ومن غير تكلف، عين مولانا لكل صنف من هؤلاء الأصناف معلما، عارفا، نشيطا، حافضا لجميع ما يجب استعماله حال الحرب وعين -نصره الله- للعسكر والطوبجية منبها سماه (الطنبورجي) يعني "الطرنبيطي" يجمع العسكر والطوبجية، ويفرقهم بنقرات الطنبور، أي الطرنبيطة، ويدعوهم للإقدام وللإحجام وله في تعليم الحرب صيغ مخصوصة. وفي غيره صيغ أخرى، منها : صيغة للعسة، وصيغة لتبديلها، وصيغة لاجتماع رؤساء الصفّ وصيغة لاجتماع السيافين، وصيغة للحمل على العدو، وصيغة للحذر منه إلى غير ذلك. وجعل -نصره الله- للخيالة منبها، وهو النفير المعروف بالبوري، يجمعهم ويفرقهم بأصوات مختلفة يفهمونها. وعين لتعليم الحرب، والتمرين عليها أوقاتا معلومة، في أيام معلومة، يخرج فيها العسكر والخيالة والطوبجية، كل صنف على حدة، حسبما تقضي به عليهم قوانين الحرب.

تنبيهات :

الأول : يجب على رئيس العسكر، والسيافين، ورؤساء الصفوف، وخلفاء الجميع، وسائر الجند أن يتعلموا حرب البواريد (البندقيات) إلى أن تحصل لهم الملكة، ويقدروا على تعليم غيرهم. ومن لم يتعلم منهم يعاقب.

الثاني : يجب على المدفعيين أن يتعلموا حرب المدفع من دكّ، ونيشان[1] وحركات المدافع، يمينا وشمالا على حسب الحاجة. ومن تعلم ذلك وحصّله يكرمه مولانا. ومن لم يتعلمه يعاقب.

الثالث : وهو آكدها. إن الآغة، أعني رئيس العسكر المحمدي، وخليفته، إذا قاتلا العدو على غير القوانين الحربية، وحصل من ذلك اختلال في صفوف العسكر، أو هزيمة، فإنهما يعاقبان على حسب اجتهاد السلطان.

المسألة الرابعة : اخترع مولانا علامات، من خالص الذهب والفضة، على شكل بديع، سماه "الشيعة المحمدية" يعني "النيشان"[2] ونبه على سائر الجند أن من ظهرت شجاعته أو أبدى مزية وقت الحرب بأن أنقذ أخاه من يد العدو أو سبق غيره بالهجوم، أو الكرّ، أو ردّ الهزيمة على العدو، وغير ذلك من المزايا التي توجب له العزّ والاحترام عند مولانا وثبت لديه ذلك، فإنه يمنحه "الشيعة" ويلبسه إياها بيده

1. الدك : هو تلقيم المدفع. والنيشان : هو الاستهداف.

2. النيشان : الوسام.

الكريمة. وتضرب الموسيقى له إعلاما بذلك والشيعة تكون على حسب المزية. هذا إذا كان حاضرا بين يديه. وأما إذا كان مع أحد الخلفاء، فإنه يلزمه أن يثبت مزيته التي يستوجب بها حمل "الشيعة" عند الخليفة وهو يرفع الأمر إلى مولانا. فحينئذ، يأمر له بها. وسنذكر مراتب الشيعة في آخر الخاتمة.

تنبيهات :

الأول: إن مات الآغة (أعني رئيس العسكر المحمدي) أو السياف، أو كبير الصف في الحرب، فلا ينقطع راتبه، وإنما يبقى جاريا على بنيه إلى أن يقدر أحد أولاده على حمل السلاح؛ فيجري عليه -بعد ذلك- (راتب عسكري حتى يترقى في الخدمة، فيزداد في راتبه على حسب الرتبة التي ترقى إليها.

الثاني : إن جُرح العسكري في القتال جرحا يمنعه من المشي، ويقدر على القتال راكبا، فإنه يدخل في صنف الخيالة. وإن تعطل بالكلية، فإنه يجري عليه راتبه من غير شرط، إلى أن يموت.

الثالث : إذا مرض العسكري مرضا يمنعه من الخدمة بشهادة الأطباء، فإنه يجري عليه نصف راتبه إلى أن يموت.

المسألة الخامسة : إن مولانا جعل للمسكوكات الجارية في البلاد صرفا معلوما تتعامل به رعيته. وسك -نصره الله- نوعين من العملة : إحداهما المحمدية، والأخرى؛ النصفية. فجعل صرف "الدور، أبو مدفع" المعروف "بأبي عمود" أربعة ريالات. وكل ريال فيه ثلاثة أرباع

"جزائرية". وكل ربع جعل صرفه ثمان "محمديات". وكل "محمدية" "نصفيتين" من السكة الجديدة المضروبة في دار السكة بحيث إذا أطلق الريال؛ لا ينصرف إلا إلى هذا الصرف. وجعل "الدور الجزائري" ثلاثة ريالات إلا ثمان "محمديات". وبهذا الصرف يعطي راتب العسكر بأصنافه.

المسالة السادسة : في قيمة الكسوة وآلات الحرب

أما كسوة الجوخ، فالسروال ستة عشر ريالا. والغليلة.(وهي المنتان) قيمتها خمسة ريالات. والصدرية ست عشرة محمدية.

وأما كسوة الكتان، فالكبود[1] قيمته اربع ريالات. والسروال ثلاثة ريالات، وثماني محمديات. والقميص ريالان إلا ست محمديات. والشاشية (وهي الطربوش) عشرون محمدية. والبلغة (وهي المداس) على حسب سعر السوق. وأما آلات الحرب فالبلاصكة (وهي محل الفشك) ريال واحد. والمحزمة ثماني عشرة محمدية، والبندقية، أي البارود بتمامه، عشرون ريالا. وقيمة العالية (وهي السنكي) ثلاثة ريالات. والسكين وهي (السيف) أحد عشر ريالا.

تنبيه

إذا أضاع الجندي شيئا من الكسوة وآلات الحرب، في الحرب أو في حال تعلمه، فلا ضمان عليه. وكذلك الخيال، إذا أتلف الفرس،

---

1. الكبود : الرداء الطويل. يلبس للاستدفاء به، في الشتاء، فوق جميع الملابس. والكلمة فرنسية دخلت اللغة التركية، وهنا استعيرت منها.

أو السرج، أو آلة حرب، في حال القتال أو تعلم الحرب فلا ضمان عليه. ومن أتلف شيئا مما ذكر، في غير هذين الموطنين، فإنه يضمّن ما أتلفه بالقيمة المذكورة. وإذا بلي شيء كالبلاصكة أو المحزمة مثلا، فإنه يجدد من بيت المال.

المسألة السابعة :

إن مولانا أوجب أن يكون رؤساء الجند بأصنافه من ذوي النجدة، والشجاعة، والإقدام، والقوة في الدين، واليقين، والصبر والثبات، والفطنة، والتنبه للمكائد الحربية لأن الرئيس في المعسكر بمنزلة القلب في الجسد. إذا صلُح، صلح الجسد كله وإذا فسد، فسد الجسد كله فلأجل ذلك، لا تكون رئاسة العسكر، والخيالة، وأصحاب الرايات إلا باختيار مولانا ونظره لمن فيه هذه الخصال الحميدة ومن ثمة، لا يكون العسكري سيافا إلا بعد أن يتولى في الرتب الصغيرة، وتظهر نتائجه، إلا إذا كان ممن حمل "الشيعة"، فإنه يستوجب أن يتولى سيافا من غير تدريج. هذا، إذا توفرت فيه الشروط وأوجب -نصره الله- أن لا يكون أحد الخيالة رئيسا على العسكر المشاة إلا إذا كان من أهل "الشيعة" فإنه له ذلك إن احتيج إليه، واختاره الأمير لمصلحة رآها فيه.

المسألة الثامنة : قد جعل مولانا، لمؤونة العسكر المحمدي، ميزانا معلوما بالرطل ونصفه. وجعل وزن الرطل ست عشرة أوقية، وكل أوقية ثمانية أثمان، وكل ثمن مائتي شعيرة مقصوصة الأطراف، وأن لا يكون الكيل وآلة الوزن إلا بختم الإمارة. وعين -نصره الله-

لكلّ عسكري رغيفا وزنه نيا عشرون أوقية. ونضيجا ثمان عشرة أوقية واثني عشرة أوقية من البرغل، وستة أثمان من السمن. فإن فقد الخبز فرطل بقسماط[1] مكانه. فإذا فقدا معا، فإنه يعطى من البرغل بدلهما. وعين للعسكر السمن في الصيف، والزيت في الشتاء.

القوانـــين

القانون الأول

لرئيس العسكر المحمدي، وهو الآغة؛ اثنان وعشرون ريالا، راتبا شهريا. لا ينقص له من هذا العدد شيء. وله في كل يوم ثلاثة أرغفة، أحدهما من الخبز الأبيض الخاص، والآخران من الخبز الأسمر أو خمسة أرطال بقسماط، عند فقد الخبز. وله ستة أرطال من البرغل، في كل ليلة، ونصف رطل سمنا، وخمسة أرطال حطبا. وله مثل ذلك في النهار؛ إن فقد الخبز والبقسماط معا. وله في كل يوم خمس واثنين شاة. وله كسوة تامة من بيت المال. وإن بليت فإنها تتجدد له بالثمن. فثمن المنتان (وهو الغليلة) ثمانية وعشرون ريالا جزائريا. وثمن السروال أربعة وأربعون ريالا. وثمن القميص ريال واحد.

القانون الثاني

للسياف اثنا عشر ريالا في الشهر. وله في كل يوم رغيفان، أحدهما أبيض، والثاني من مطلق الخبز، أو رطلان ونصف بقسماط إن لم

1. البقسماط : كلمة تركية تعني : الخبز المجفف كالحطب.

يوجد الخبز. وله في كل ليلة رطلان من البرغل، وأوقيتان سمنا، مثل ذلك في النهار إن لم يوجد خبز ولا بقسماط. وله في كل يوم خميس واثنين من اللحم ربع شاة. وكسوته تجدّد بالثمن.

القانون الثالث

لرئيس الصفّ ثمانية ريالات، راتبا شهريا. وله رغيفان في كل يوم، أو رطل بقسماط. وله من البرغل رطل ونصف، في كل ليلة. وإن فقد الخبز والبقسماط، يعطي في النهار مثل الليل. وله من اللحم، في كل خميس واثنين، نصف ربع شاة. ولخليفته ستة ريالات ونصف شهرية. وله في الخرج مثله. وكسوتهما تجدد بالثمن.

القانون الرابع

لباش كاتب العسكر اثنا عشر ريالا في كل شهر. وله رغيفان أحدهما أبيض والآخر أسمر، أو رطلان من البقسماط ورطلان من البرغل في كل ليلة، وأوقيتان من السمن. وله مثل ذلك في النهار عند فقد الخبز والبقسماط. وله في كل يوم خميس واثنين ربع شاة ورطل حطب في كل يوم وليلة. ووظيفة هذا الباش كاتب كتابة أمور الجيش كالرواتب والأكسية، والديون التي تترتب في ذمة أفراد العسكر، وقراءة القانون وقت الحاجة. ومن وظيفته أيضا أنه يجمع ما تحته من الكتّاب ويعلمهم... فرائض الغسل، والوضوء والتيمم، والصلاة والصوم، وعقائد التوحيد. كما أن كل واحد من هؤلاء الكتاب يعلم المائة التي هو كاتب عليها جميع العبادات، والعقائد،

ويؤذن للصلاة، ويصلى إماما. كما أن الباش كاتب يجب عليه أن يعلم الآغة وظائف الدين، ويؤمه في الصلاة. وقد أوجب مولانا على العسكر ورؤسائه أن يحترموا هؤلاء الكتاب ورئيسهم. ومن أهان أحدهم فإنه يعاقب العقوبة الشديدة.

القانون الخامس

لكاتب المائة سبع ريالات في كل شهر. وله في كل يوم رغيفان من مطلق الخبز أو رطلان من البقسماط. وله في كل يوم خميس واثنين نصف ربع الشاة من اللحم. وكسوة الكتاب جميعا —إن بليت— تجدّد بالثمن.

القانون السادس

لحامل الراية المحمدية سبع ريالات في كل شهر. وله رغيفان من الخبز الأسمر أو رطلا بقسماط إن فقد الخبز. وباقي الخرج، فهو فيه مع رئيس العسكر. ولا يكون حامل الراية إلا من أهل النجدة، والشجاعة، والجرأة ويترل مع الرئيس في محله.

القانون السابع

للطباخ ريالان في كل شهر. وله جلود الشياه التي يذبحها.

القانون الثامن

لمعلم الحرب إثنا عشر ريالا في كل شهر. وله رغيفان من مطلق الخبز أو رطل ونصف من البقسماط عوضا عنهما إن فقد الخبز. وله

في كل ليلة رطل من البرغل وأوقية من السمن وربع شاة من اللحم. ولا يكون المعلم إلا واحدا عند كل رئيس. ويكون نزوله مع السياف.

القانون التاسع

لرئيس الطنبور تسع ريالات ونصف في كل شهر. وله رغيفان كل يوم من مطلق الخبز أو رطلا بقسماط. ويترل مع الرئيس.

القانون العاشر

لمطلق العسكري المحمدي (أعني لكل فرد منهم) ستة ريالات في كلّ شهر. وله رغيف أو رطل بقسماط. ولسائر أهل الخباء (أي الخيمة) في كل ليلة خمسة وعشرون رطلا برغلا ورطل ونصف رطل سمنا. ومثلها زيتا في فصل الشتاء، وعند فقد السمن. ولهم من الحطب خمسة عشر رطلا، سواء كانوا في سفر أو حضر. ولهم خمسة وعشرون رطلا من البرغل. ورطل ونصف رطل سمنا ومثلها زيتا في فصل الشتاء، وعند فقد السمن. ولهم من الحطب خمسة عشر رطلا، سواء كانوا في سفر أو حضر. ولهم خمسة وعشرون رطلا من البرغل؛ إن فقد الخبز، أو البقسماط. والمائة منهم لها في كل يوم خميس واثنين خمس شياه، يقسمونها على الأخبية. هذا تمام المؤونة. وإذا نقص من المائة أو أهل الخباء فإنه ينقص لهم من هذه الأشياء كلها بقدر ما نقص من الأشخاص.

القانون الحادي عشر

لجاويش العسكر سبع ريالات شهريا. وله مثل العسكري في كل شيء. وأمره بيد الآغة (أي رئيس العسكر المحمدي) تولية وعزلا.

القانون الثاني عشر

لرئيس الخيالة تسعة عشر ريالا في الشهر. وله رغيفان أحدهما أبيض، والآخر أسمر. وله أربعة أرطال من البرغل. وأربع آواق سمنا في كلّ وقت، أعني ليلا ونهارا، وأربعة أرطال من الحطب في الليلة. ومثل ذلك كله من البرغل، والسمن، والحطب؛ إن فقد الخبز والبقسماط.

القانون الثالث عشر

لسيّاف الخيالة تسع ريالات، في كل شهر، وست عشرة محمدية. وله رغيف واحد أبيض. وله نصف ربع الشاة من اللحم في كل يوم خميس واثنين.

القانون الرابع عشر

لكل خيال سبعة ريالا في كل شهر. ولكل واحد منهم، في كل يوم رغيف أسمر أو رطل بقسماط، عوضا عنه. وللخمسين خيالا، في كل خميس واثنين، شاتان ونصف شاة. ولهم في كل ليلة سبعة وثلاثون رطلا من البرغل، ومن السمن رطلان وربع. ولهم مثل ذلك في النهار إن فقد الخبز والبقساط ولهم من الحطب عشرون رطلا وينقص لهم من اللحم والسمن بقدر ما ينقص من عددهم.

القانون الخامس عشر

لباش طوبجي أربعة عشر ريالا في كل شهر. وله في كل يوم رغيفان، أحدهما أبيض والآخر أسمر ورطلان من البقسماط عند فقد الخبز. وله ثلاثة أرطال من البرغل في كل ليلة وثلاث آواق سمنا. ومثل ذلك في النهار إن فقد الخبز والبقسماط وثلاثة أرطال حطبا. ومن اللحم ربع شاة في كل يوم خميس واثنين.

القانون السادس عشر

عين مولانا -كما سبق- لكل مدفع اثني عشر جنديا، ستة يقاتلون، وستة يرتاحون. وعليهم رئيس، وهو الثالث عشر، سماه رئيس المدفع. ولهذا الرئيس، كل يوم، رغيفان من الخبز الأسمر. وله في كل يوم خميس واثنين، من اللحم ثُمن شاة. وباقي الخرج والمرتب فكالعسكر.

القانون السابع عشر

كاتب الطوبجية مثل كاتب المائة في كل شيء

القانون الثامن عشر

لكل واحد من الطوبجية ستة ريالات ونصف في كل شهر وله رغيف واحد أسمر في كل يوم، أو رطل بقسماط. ولهم من البرغل واللحم والسمن والحطب مثل ما للعسكر. وإذا نقصوا ينقص لهم من الخرج، بقدر ما ينقص من عددهم.

القانون التاسع عشر

إن معلم الطوبجية، في الأيام التي يتعلم العسكر فيها الحرب، لا بدّ أن يكون مقابلا بالأنفار والمدافع للعسكر. ويتحاربون كما يفعلون مع العدو لأجل التدريب والتمرين.

القانون الموفي عشرين

إن ربط الفشك، وتذويب الرصاص، إنما هو على الطوبجية في كل محلة أي (عرضي) لأنهم أحقُّ بذلك. وإذا كثر عليهم الشغل يستعينون بالعسكر.

القانون الحادي والعشرون

إن العسكري البعيد الدار، إذا طلب التسريح إلى اهله و أخذ الرخصة فيه، فإن بارودته تبقى محفوظة عند السياف، و كذلك العسكري المريض الذي يكون في المستشفى.

القانون الثاني و العشرون

المؤونة، إنما تجري على العسكر، والخيالة، والطوبجية، ورؤسائهم، في السفر والحضر ما داموا في الخدمة. فإن كانوا مسرحين بالرخصة، في بلادهم عند أهلهم، فلا شيء لهم منها البتة.

القانون الثالث والعشرون

لا يرخص لأحد من العسكر، أو الخيالة، أو الطوبجية؛ أن يأخذ شيئا من المؤونة إلا بحضور باش كاتب العسكر، وباش كاتب الخيالة،

وباش كاتب الطوبجية. ومن تخلف من هؤلاء الكتاب عن الحضور في الوقت المعين لهم؛ يعاقب ويشهَّر عقابه.

القانون الرابع والعشرون

إن من اعتناء مولانا بجنده أنه ابتنى لهم في كل محل يتعينون فيه مستشفى، وهيأ فيه للمريض جميع ما يحتاج إليه من أكل وشرب وفراش وغطاء وخدمة من أفراد العسكر، بشرط أن يكونوا من ذوي النباهة والآداب وطلاقة الوجه واتساع الخاطر حتى لا تضيق نفوس المرضى منهم. وعين في كل مستشفى طبيبا ماهرا، وجميع ما يلزم من الأدوية يؤخذ ثمنه من بيت المال. والخَدَمَةُ إذا تعلموا صناعة الطب والتمريض، وشهد لهم الأطباء بالمعرفة التامة، فإن مرتّباتهم يزاد فيها، على حسب تفاوتهم في المعرفة. ومن شأنهم أن يقوموا بتمريض المرضى في حال السفر والحضر وجميع نفقاتهم من بيت المال. وجعل لرئيس الأطباء كسوة من الجوخ الجيد تامة، واثني عشر ريالا في كل شهر وله في كل خميس واثنين من اللحم ربع شاة. وله رغيفان من الخبز الأبي في كل يوم، أو رطلان من البقسماط، وفي كل ليلة رطلان من البرغل وأوقيتان سمنا، أو زيتا عند فقد السمن. وكذلك في النهار إن فقد الخبز والبقسماط معا. وله في كل يوم ثلاثة أرطال حطبا.

انتهى تقييد المسائل والقوانين التي هي في الحقيقة أصول. ولها فروع كثيرة مذكورة في غير هذا المختصر.

الخاتمة في أنواع الجزاء

أوجب مولانا على رئيس العسكر، وهو الآغة أن يتفقد عدد العسكر وكسوته، وسلاحه، وجميع آلات الحرب في كل يوم سبت. وإن تخلف عن ذلك، لغير عذر ظاهر يحبس عشرين يوما.

وأوجب عليه أن لا يأخذ من العسكري، ولا من السياف، ولا من كبير الصف، ولا غيرهم "محمدية" واحدة. وأن لا يغش في شيء من الخدمة. وإن ثبت عليه شيء من ذلك، فإن اسمه يُمحى من الديوان العسكري ويطرد ويهان.

وأوجب -نصره الله- على السياف أن يتفقد ما تحت يده من العسكر، في كل يوم اثنين وخميس. فإن تخلف عن ذلك، لغير عذر ظاهر فإنه يحبس عشرة أيام. وإن وُجد في سلاحه فساد لم يصلحه، فإنه يحبس خمسة أيام.

وأوجب عليه أن لا يظلم أحدا من العسكر وأن لا يأخذ منهم شيئا وأن لا يغش في الخدمة، ولا يخون. فإن فعل شيئا من ذلك، وثبت عليه، فإنه يحبس ستين يوما.

ويجب عليه أن يطيع الأوامر الأميرية ولا يخالف في شيء ما.

وأوجب على كل سياف من سيافي العسكر أن لا يركب في يوم الحرب ولا في يوم تعليمه. وإنما يكون مع المرؤوس عليهم ماشيا، ليرتب صفوفهم للقتال أو التعليم ويشجعهم. وهو المتكفل بسلاحهم. وهو المسئول عنه بالنسبة لمن فوقه. فلابد أن يتفقده ويعده، وإلا، فإنه

يضمن ما فقد منه. وإذا مات العسكري، أو غاب بالرخصة، وكانت البارودة في يده، فإنه يأخذها منه ويدفعها إلى الخليفة ويأخذ منه سندا فيها، تبرئة له من الضمان. فإن غابت، ولم يأخذ فيها سندا، فإنه يضمنها.

وأوجب على رئيس الصف أن يتفقد ما تحت حكمه من العسكر، كل يوم، صباحا ومساء،وذلك أن يصفّهم ويقف الكاتب معه، والدفتر في يده فيسمي أفراد العسكر واحدا واحدا. وكل من ذكر اسمه يجيب. فإن ذكر اسما، ولم يجبه أحد، يعلم أن المسمى غائب. فحينئذ ينظر في أمره. فإن كانت غيبته لعذر مقبول، فلا بأس عليه. وإلا فإنه يطلب ثم يحبس يوما وليلة. ومن أنف من الخروج للتعليم، فإنه يحبس يوما وليلة. وإن تخلف السياف والكاتب، أو كل منهما عن الحضور للتعليم فإنهما يحبسان ستة أيام. وأوجب على الجندي طاعة سيافه، والقيام بأمر العسة.

وأوجب على عموم العسكر طاعة عموم رؤسائهم. فمن عصى رئيسه في شيء، فإنه يحبس خمسة عشر يوما. ومن سمع الطنبور ليتعلم الحرب ولم يجب، فإنه يحبس يومين. ومن سمع الطنبور يدعو إلى الخروج إلى القتال، ولم يخرج، فإنه يحبس شهرا. ومن خرج للتعليم أو للقتال في غير الكسوة الأميرية، فإنه يحبس يوما وليلة. وكذلك الآغة، والسياف ورئيس الصف ومن ترك الوسخ على سلاحه أو كسوته، فإنه يحبس ثلاثة أيام. ومن أتلف شيئا من سلاحه، أو أفسده في غير يوم الحرب أو تعليمه، فإنه يضمن قيمته كما تقدم

في المسائل. ومن هرب من الخدمة العسكرية ورجع باختياره، فإنه يحبس على قدر الأيام التي غاب فيها. ومن هرب وقبض عليه بأمر الأمير، فإنه يحبس على حسب اجتهاد الأمير. ومن أطلق طلقا واحدا من بارودته، ليلا أو نهارا، لغير مصلحة، فإنه يحبس يوما وليلة. وإذا نام العسكري في العسة القائم بها، فإنه يحبس ثمانية أيام. وإذا باع العسكري شيئا من البارود وثبت عليه ذلك، فإنه يحبس شهرا. وإذا كان العسكري المذنب مسافرا، فإنه يضرب بالسوط، على قدر الأيام التي يحبس فيها قانونا. وجميع ما يلزم رئيس العسكر المحمدي يلزم الخيال. وكل ما يلزم سياف العسكر يلزم سياف الخيالة. وإن ركب الخيال فرسه من دون موجب، فإنه يحبس يوما وليلة. وما يجري على العسكر يلزم سائر الطوبجية ويجري عليهم. وما يجري على السيافين يجري على باش طوبجي. وإن عمل أحد رؤساء العسكر أو الخيالة أو الطوبجية ما يستوجب العزل، فإنه ينحط عن رتبته إلى رتبة عسكري ويلبس لباسه، وكسوة الجوخ ترجع إلى بيت المال. وإن وجب حكم من الأحكام السابقة على أفراد العسكر، فإن رؤساء الصف هم الذين يتولون نفوذ الحكم القانوني. فإن السياف يحكم عليه بحسب القانون الذي يخصه. وإن فرط رئيس العسكر في نفوذ الحكم القانوني، فإن مولانا أو خليفته يعاقبه، حسب القانون. وإن فعل العسكري خصلة حميدة في حال الحرب، فإنه يحوز "الشيعة المحمدية" ويستوجبها على الهيئة المذكورة في المسائل. ويحوز حرمة فوق السيافين. وإذا فعل رئيس العسكر مزية، فإنه يحمل "الشيعة اللائقة"

والشيعة نيشان، صورة يد مفتوحة الأصابع، ذهبا وفضة وفي وسطها مكتوب (ناصر الدين) تربط على الرأس فوق الأذن اليمنى. ولناقلها في كل شهر خمسة وعشرون ريالا. ويجب احترامه على الجميع. وهكذا الخيالة، ورؤسائهم. فمن عمل بمقتضى هذه القوانين وبما ذكر في المسائل، فقد فاز في الدنيا والآخرة ونال من الله تعالى الرضى وزيادة. فيجب على من سمع ما ذكرناه أن يطيعه، ويعمل به، ويذعن له، ويرضى به. والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق.

حرر في أواخر جمادى الأولى، سنة تسع وأربعين ومائتين وألف 1249 هـ.

صفة هيئة المعسكر وترتيبه في السفر

كانت هيئته شبه دائرة حسنة الانتظام، خيامها مخروطية الشكل متناسبة البعد في البناء. كل خيمة تضم ثلاثة وثلاثين نفرا. ومدخل المعسكر من جهة الشرق، وعليه مدفعان.وفي المقدمة خيمة رئيس المدافع. ويقابلها خيمة رئيس الجراحين، والأطباء، والمستشفى. وفي نصف الدائرة، خيمة الأمير. وطولها خمسة عشر مترا في عرض ستة أمتار، مزينة الباطن بأنواع الأقمشة الملونة، مفروشة الداخل بالزرابي المتقنة، تبنى على ثلاثة عواميد، ارتفاع كل واحد منها خمسة عشر قدما، متناسبة الوضع في البعد. ومجلس الامير فيها، مقابلا للمدخل و أمامه صندوقان صغيرا الحجم، من حديد، ضمن أحدهما أوراقه المهمة، وضمن الثاني مال ينفقه في الإحسان والخيرات. ويقابل

المدخل ستارة يقف عندها عبدان دائما. ومن ورائها مكان يختلي فيه للوضوء، والصلاة، والمقابلة السرية. وعلى بعد ستة أمتار من الخيمة، مركز راياته و مربط خيله المختصة به و إذا جلس داخل الخيمة، تقف حوله كتبة أسراره وخواص المأمورين وأركان الحرب، بغاية ما يكون من الأدب والخضوع. ويقف من ورائهم ثلاثون عبدا من أهل الشدة والبأس، المشهود لهم بالشجاعة والفروسية. وهم الحرس الخصوصي للأمير. يتناوبون ليلا ونهارا، وأثمانهم من بيت المال. وإذا أراد إصدار أمر ما أشار لمن يريده، فيقرب منه ويتلقى الأمر. ثم يرجع القهقري. وخيام كتبة أسراره وخواص مأموريه عن يمين خيمته وشمالها. ومن ورائهم خيام محافظي الخزنة، ولوازم الجند من ألبسة وأسلحة وغيرها، ومؤونة الجيش ومرابط الجمال والبغال على ناحية منها. وفي كل جهة من المعسكر، سوق يشتمل على قهاوي، ودكاكين تباع فيها أصناف البضاعة والمأكولات. وإذا حضر وقت الصلاة، وأذّن المؤذن؛ يخرج الأمير، فيصلي بهم إماما. ويعاقب كل من تخلف عن صلاة الجماعة لغير عذر. وكان يجلس لفصل الدعاوي بعد فراغه من صلاة الضحى إلى أذان الظهر. ثم يخرج ويصلي إماما، ويرجع لخيمته ليقيل ساعة ثم يجلس للفصل أيضا إلى أذان العصر. وبعد الفراغ من الصلاة، تصدح الموسيقى أمام خيمته بأنغام شجية وألحان أندلسية تحرك أوتار الأشجان ويتواجد -من ألحانها- كل إنسان حتى إن الخيل تكف عن الأكل. ويتخيل الناظر أنها ترقص من كثرة حركة يديها ورجليها عند استماعها! فإذا انتهت الموسيقى، نادى الجاويش :

(الله ينصر ناصر الدين، ويطيل عمره) فيجيبه الجميع بمثل ذلك. وبعد أداء صلاة العشاء، تضرب الموسيقى لحنا واحدا ثم يُمنع الدخول والخروج من المعسكر. ولا يؤذن في الدخول والخروج منه إلا بأمر الأمير. وكل من يخالف هذا القانون فجزاؤه الإعدام.

صفة رحيل المعسكر ونزوله

إذا أراد الأمير الرحيل، يطلب الخزندار، بعد أداء صلاة الصبح ويأمره بتهييء الجيش للرحيل؛ فيطلق مدفعان، بينهما برهة يسيرة، وهذه علامة الرحيل. فحينئذ، يثور جميع الجند لجمع الأمتعة، وهدم الخيام، وتحميل المؤونة والذخائر. وتمتطي الفرسان صهوات الخيل. ثم تأتي الأغوات، وقواد القبائل، إلى خيمة الأمير؛ فيأذن لهم بالدخول. ويسألهم عن الأراضي والمراكز الموافقة للنزول. ثم يأتي الخزندار، فيخبره بتهيء الجيش للمسير؛ فيخرج من خيمته، ويمتطي صهوة جواده. فيثبت به وثبتين ثم تصدح الموسيقى بلحن الرحيل؛ فيبتدئ الجيش بالمسير، على ترتيب عجيب، إلى أن يصلوا المحل المناسب للمبيت. فينزل الأمير وتنصب الرايات ويحيط به الحرس ويذهب الخزندار لترتيب نزول الجيش وتعيين محلّ خيمة الأمير. وفي أقرب وقت، ترى الخيام نصبت، والمضارب ضربت، ونزل كل فريق في منزله ووقف الخفر في محله. فعند ذلك، يذهب الخزندار وأحد أركان الحجاب، فيخبر الأمير بإمكان دخوله المعسكر؛ فيركب جواده ويسير، والمأمون

من ورائه، والموسيقى تصدح بلحن الوصول إلى قرب الخيمة. ثم تغير اللحن؛ فيهدأ فرس الأمير، ويتقرب من الكرسي المعدّ لنزوله. وعند وطئة الأرض، تطلق ثلاث مدافع، إعلاما بنزوله.

ذكر خروج الأمير لتمهيد البلاد

لما بلغ ابن عريبـــي خبر انتصار الدوائر على جيوش الأمير، أظهر ما كان كامنا في صدره من نبذ الطاعة والدعوة لنفسه وحمل قبائل البربر في ناحيته على إظهار ما كان يدسه إليهم من الخروج عن طاعة الأمير واجتماع كلمتهم عليه؛ فأجابوه إلى ذلك واحتشدوا إليه. فنهض بهم إلى نواحي القلعة واستحاش "بالبرجية" وكان رئيسهم "قدور بن المخفي" على مشربه. فصمدوا جميعا في القرب من قصبة "البرج". فخرج إليهم الأمير بعد أن أخذ أهبته وعرض جنده المنظم وسار إليهم، في الثامن من صفر سنة خمسين ومائتين وألف (1250) وفي السابع عشر من يونيه (حزيران) سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف (1834)؛ ففض جموعهم وأثخن فيهم قتلا وسبيا ودخل القصبة؛ فأضرمها نارا وحطم أشجارها ثم بعث السبي ،وفيهم حريم ابن المخفي وأولاده، إلى الحضرة. وارتحل إلى "القلعة" وفر "ابن عريبـــي" بجموعه إلى نواحي "مينة" فاتبعهم الأمير وناجزهم القتال؛ فهزمهم أقبح هزيمةوامتلأت أيدي جيوشه بالغنائم. ولما علم أهل تلك النواحي أن ابن عريبـــي، قد تلاشى أمره ولا مناص لهم من عقاب الأمير،

أوفدوا عليه علماءهم وأشرافهم؛ فاعتذروا إليه وأوقفوه على دسائس ابن عريـــي وأدّوا إليه طاعتهم، وطاعة من خلفهم؛ فتقبلها منهم وولى السيد "أبا شقور" خليفة عنه في تلك النواحي. وولى السيد محي الدين بن علال على "مليانة" ونواحيها. وفوض إليه في جمع كلمة القبائل الشمالية إلى "شرشال" و"تنس" من الأساكل البحرية. وانقلب راجعا إلى الجهة الغربية؛ فاحتل "بسيك". ثم ارتحل إلى ثنية "ماخوخ" وشنّ الغارات على قبيلة "رياح" في منازلهم، فيما وراء تلمسان، لجهة الشمال، فصبّحهم واكتسح أموالهم وحملهم على الطاعة. ثم انعطف غازيا عل "بني خلاد" من قبائل "ولهاصة" في الساحل، فأثخن فيهم واستولى على موجوداهم وأدّوا طاعتهم وعسكروا معه. فلما بلغ الدوائر ما حلّ بأشياعهم، تنادوا وانضموا إلى حليفهم، الشيخ "ابن الغماري" وقومه وصمدوا لقتال الأمير في "المهراز" غربي "تافنا" فزحف إليهم الأمير، في السادس من ربيع الأول سنة خمسين ومائتين وألف 1250 وأربعة عشر يوليه (تموز) سنة أربع وثلاثين وثمانمئة وألف (1834) فاصطفوا تجاه الجند ودعتهم نفوسهم إلى الهجوم عليه؛ فأذاقهم نكال الحرب وردهم على أعقاهم ووقع رئيسهم ابن اسماعيل جريحا؛ فحملوه وولوا الأدبار، تاركين قتلاهم في المعركة. وبعث الأمير رؤوس من هلك من أعيانهم المشاهير كعبد الله ابن الشيخ الغماري، وغيره من الأبطال المعروفين؛ فنصبوا على أبواب الحاضرة "معسكر"، عبرة لغيرهم، وطارت البشائر بهذه الانتصارات المتتابعة إلى الولايات وأعلن بها في المدن والقرى والضواحي؛ ففرح الناس بذلك وانشرحت

صدورهم لما يعلمونه من مرض قلوب الخوارج، وشدة حقدهم على المسلمين، وظلمهم عباد الله، أيام الحكومة الجزائرية. وبعد أن فرغ الأمير من أمر الخوارج وأشياعهم، ارتحل إلى تلمسان. فكان يوم دخوله يوما مشهودا وتفاوض الخوارج في أمرهم؛ فأشار عليهم رئيس الدوائر "مصطفى ابن اسماعيل" بأن يلحقوا بالمغرب الأقصى ويدخلوا في طاعة سلطانه. وأشار "الشيخ ابن الغماري والمازري" بالإذعان للأمير، قائلين : هو سيدنا، وابن سيدنا، فإن تقبل توبتنا ورفع قدرنا بين أقراننا، فذلك وإلاّ، فحينئذ ننظر في أمرنا. واللحوق بسلطان المغرب الأقصى غير موافق لأن فينا الضعيف، ومن لا قدرة له على الوصول إلى تلك البلاد على أن غالب سكانها لا تنالهم الأحكام السلطانية! فلا نسلم من غوائلهم و لا يخفى أن توالي الحروب و تتابع الغزوات علينا، أفنى لنا الظهر وأباد المال وأخذ قوانا. فقال ابن اسماعيل: إن ابن محيي الدين، إذا ظفر بكم، لا بدّ أن يقتلكم ويعلق أشلاءكم، واحدا بعد واحد، على أسوار معسكر. وكأني أنظر إلى "الحشم" يتفرجون عليكم ويشتمون بكم والذي ينجو منكم يعيش تحتهم ذليلا حقيرا. وأطال عليهم في التحذير والتنذير، فلم يلتفتوا إليه واستأمنوا للأمير؛ فبعث إليهم منشور الأمان، مع كاتبه الخاص السيد "مصطفى ابن التهامي" والعلامة السيد "عبد الله سقّاط"، فاطمأنت قلوبهم وطابت نفوسهم وتوجهوا مع الرسولين إلى تلمسان. ولما دخلوا على الأمير مذعنين، تقبل طاعتهم وأكرم نزلهم وأقر الشيخ ابن الغماري على رئاسة قومه وولى المازري على قومه، الدوائر.

وأمرهم بالرحيل إلى قرب تلمسان؛ فامتثلوا وارتحلوا وخالفهم ابن اسماعيل ولحق ببلاد "ولهاصة". ثم إن المازري قدم شفاعته إلى الأمير، في عمه ابن اسماعيل؛ فشفعه فيه وأحضره إلى أعتابه؛ فتلقاه الأمير ولاطفه وأحسن السؤال عنه وعن أحواله. وبعد أن خرج من عنده، لقيه أقاربه، فسألوه عما جرى؟ فقال لهم :

- هذا آخر العهد، بيني وبين هذا الأمير!

- فقيل له، في ذلك؟

- فقال : إني رأيته لا يتأثر بما يرضي ولا بما يغضب! فعلمت أنه يضمر لنا السوء. كيف؟ وقد وقع منا ما وقع، مما يوجب ذلك. والآن قد استقام له الأمر؟

ثم ذهب إلى أهله وتنصر. وقُتل فيمن قتل من جيش الفرنسيس. وسنأتي على بقية خبره. إن شاء الله تعالى.

ولم يزل الأمير مقيما في تلمسان إلى أن أصلح شأنها وشأن إيالتها وفي أثناء ذلك ظهر قصور من قائد طائفة "الكول أوغلان"، فعزله وولى مصطفى باي، ابن الباي "المقلج". ثم بلغه أن فرقة من الدوائر فروا من منازلهم المعينة لهم، قرب تلمسان، ولحقوا "بالحمرا" نواحي"وهران" من جهة البحر، فغزاهم. وفي طريقه، رأى بعض الرعاة الجيش، فسبقه إليهم، وأنذرهم؛ فبادر جماعة إلى الهروب ودخلوا في حصن للفرنسيس -كان قريبا منهم- وتراخى آخرون فلحق بهم الأمير واكتسح أموالهم وردّهم عن وجهتهم. فتفرقوا أوزاعا في القبائل. وانفتل الأمير، راجعا

على بلاد أولاد "خالفه" من بني عامر. ونزل بوادي "الكحيل" فحضر لديه من أعيان الدوائر رئيسهم "المازري" و"بنو عدة" ولد عثمان ومن أعيان الزمالة رئيسهم "محمد بن المختار" و"محمد ولد قاسم" و"ابن غغور" وجماعة من "الونازرة"، فأمرهم أن يرتحلوا من منازلهم إلى معسكر. وعين محلة العرقوب، لسكناهم. فأجابوا وارتحلوا حالا.

وأصل هؤلاء الدوائر والزمالة أخلاط من العرب والبربر كانوا يلوذون بالباي محمد حاكم "معسكر" وفاتح وهران من يد دولة إسبانيا. فلما حدث الطاعون الجارف في المغرب الأوسط، في أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة، خيم الباي في ظاهر البلد وخرج الناس لخروجه؛ فعين من هؤلاء الخدم جماعة للنزول في دائرة خيامه. فسموا "دوائر"، وعين آخرين لحمل أثقاله، وأثقال عسكره؛ فسموا "بالزمالة". ولما حصل لهاتين الفرقتين ما حصل من الاحترام والامتياز بين جميع الرعية، بإحراز مقاصدهم، واستثنائهم من سائر المطالب الأميرية؛ صار الناس -من جميع الجهات- يهرعون إلى الدخول في خدمتهم والانحياز إليهم. فكثر عدد كل من الطائفتين وصارتا قبيلتين عظيمتين وكثر نسلهم وقويت شوكتهم. ولما انتقل الباي محمد إلى وهران، بعد أن فتحها، انتقلوا معه فحازوا الوظائف الجليلة، والمراتب العالية وتقدموا على من سواهم من أعيان الوطن ورؤسائه عند حكومة وهران. فلما بُدّلت تلك الحكومة بدولة الأمير، وأحسوا بانحطاطهم عما كانوا عليه؛ أنفوا واستنكفوا. واقتحموا الشدائد العظيمة التي لا يعانيها غيرهم. فهلكت رجالهم وفنيت أموالهم وقل عددهم

وانقطع مددهم وبلغوا من الضعف غايته ومن العوز نهايته. ثم حملتهم الأنفة على الانخراط في سلك الفرنسيس، والدخول في عددهم، فقاتلوا المسلمين دونهم وبذلوا قوتهم في نصرتهم ! ولم يتخل عنهم الأمير إلا بعد أن اطلع على نفقاتهم، وإعراضهم -ظاهرا وباطنا- عن الإسلام. ولطالما حاول إبعادهم عن وهران؛ فما أمكنه ذلك، ولم يزل أعقابهم ومن لم يهلك من كبارهم مع الفرنسيس، لهذا العهد.

وأما "الحشم" فإنهم أخلاط من القبائل. وكانوا خدما وحشما لبني زيان ملوك تلمسان.

وأما بنو عامر، فأصلهم من عرب الشام ومنازلهم معروفة بفلسطين : "بمرج بني عامر". ولما فرغ الأمير من تمهيد الجهة الغربية وإصلاح شؤونها، ولى عليها السيد "محمد البوحميدي الولهاصي" وانفتل راجعا إلى حضرته "مغسكر" وتفرغ للنظر في أحوال الجند وتكثير عدده واستكمال عدده. ولما اتصل ذلك بالجنرال "دي ميشيل" حاكم وهران، أوعز إلى وكيلهم في معسكر "عبد الله" بمساعدة الأمير، وإعطائه الآراء في تحسين أحوال الجند والاستقصاء في تعليمه، وتدريبه. وأرسل، من طرفه، معلمين ماهرين وأربعمائة بارودة، ومقدارا وافرا من الذخائر الحربية. وقال إن الأمير مستعد للقيام بأعباء الملك، غير أن ذلك لا يتم له إلا بالعساكر المنظمة والجيوش المدربة. وأما الحشود والجموع غير المنتظمة، فلا تجدي نفعا.

ولا تستطيع جلبا ولا دفعا. فعجب الناس من نصائح هذا الجنرال ومساعدته للأمير! وعدوه من شعائر الإنسانية ودلائل الرغبة في دوام المواصلة والمسالمة! ثم إن الأمير وجه خليفته على "بسكرة" والصحراء، السيد محمد الصغير بن عبد الرحمن ومعه السيد محمد بن كانون، إلى أحمد باشا باي تونس. وأصحبهما بسيف مرصع بالجواهر، وخيول بسروج مذهبة وآلة شاي من الذهب، وغيرها. ثم رجع الوفد بغاية من الممنونية مصحوبا بالهدايا السنية، فتقبلها الأمير. قال بعض مؤرخي الإفرنج : وبهذا الإتفاق، اتجهت أحوال العرب للتقدم والنجاح. ثم في أواخر شهر آب وفد الشيخ ابن الغماري رئيس قبيلة «أنكاد» حليف الدوائر، على الحضرة و ابن عريبـــي ، مظهرا للخضوع و الطاعة و معه صهره «محمد بن المداح» رئيس قبيلة "أولاد خويدم"، و"قدور بن المخفي". ورؤساء "البرجية" فأنزلهم الأمير في دار الضيافة. وقدموا كلهم، في وقت واحد، كأنهم على ميعاد. وفي ثاني يوم وصولهم، أذن لهم الأمير في الدخول عليه؛ فبش في وجوههم وأحسن السؤال عنهم. وبعد أيام، أذن لهم في الانصراف إلى أهلهم، سوى ابن عريبـــي وصهره، وشيخ أنكاد ابن الغماري. فإنه بحبسهم حتى ينظر في أمرهم. ومن الاتفاق العجيب أنه حدث الوباء المعروف "بالريح الأصفر"[1] تلك الأيام؛ فمات به ابن عريبـــي وصهره ابن المدّاح وبقي ابن الغماري ففر من السجن. وكان دسَّ إلى أهله

---

1. يكنون بالريح الأصفر عن الهيضة (الكوليرا) وهي كناية قديمة معروفة حتى في المشرق.

أن يأتوه بفرس ليهرب عليه، نظرا لشيخوخته.وعين لهم الوقت والموضع الذي يلاقيهم فيه؛ ففعلوا. فقبض عليهم العسكر بالليل وذهب ابن الغماري وخادمه إلى الموضع الذي عينه لأهله، فلم يجدهم! ولحق "بحرش" بلد المشارف، على مسافة قليلة من الحضرة، فأقام به ينتظر أهله. ولما طال عليه الحال، بعث خادمه ليأتيه بما يقوته، فقبض عليه المشارف، وسألوه عن حاله؛ فأجاب إنه غريب سائل. ثم قويت الشبهة فيه؛ فضيقوا عليه، فأقر بأمره ودلهم على سيده؛ فقبضوا عليه وأحضروه بين يدي الأمير؛ فأمر به، فعلق على سور البلد وعلق خادمه لجانبه.

ولم يزل الأمير جائلا في ميادين هذه المقاصد، متواصل الحركة، في درء المفاسد، تارة بالطعن والإثخان، وتارة بالوعظ والإحسان، على حسب ما يقتضيه الحال والزمان إلى أن استقامت الأمور وأمنت السبل وارتفع الشقاق وارتاحت الأفكار واشتغلت الرعية بما يعينهم من زراعة وتجارة وعم الأمن البراري والقفار. قال بعض المؤرخين : "بلغ أمر بلاد الجزائر في الأمن، إلى حالة لو سارت البنت البكر الجميلة في صحاريها وقفارها، حاملة نفائس الجواهر على رأسها، لا تجد من يسألها، فضلا عمن يتعرض لها بسوء! وتعطرت المحافل بذكر الأمير عبد القادر ورمقته عيون التعجب لما وصل إليه -مع حداثة سنه- من الأمر المدهش الذي لم يكن مظنونا عندمن يعرف أحوال بلاد الجزائر وضغائن أهلها وعدم انتظام أمرهم" ... ثم قال : "وكان الأمير محافظا على إقامة الحقّ، ناشرا لواء العدل على عموم الرعايا، يجري القصاص الشرعي والسياسي على أصحاب الجنايات بما يستحقونه. لا تأخذه في ذلك لومة لائم. وكان

الناس يقبلون أحكامه ويتلقونها بانشراح صدر وطيب نفس". وقال غيره،بعد ذكر ما جرى،بين عساكر الأمير والخوارج:"إن همم الأمير عبد القادر لم تفتر -في أثناء ذلك- عن السعي بما فيه راحة البلاد. فإنه رتب سائر ما يلزم من الخلفاء عنه والولاة ووطّد الراحة العامة، والحق يقال : إن الحصول على ذلك في تلك الأوقات أمر عظيم جدا.وهو دليل كاف على عظم همّته. فإنه قطع ما يوجب سقوط إمارته وحوّل أحوال البلاد من العسر إلى اليسر، ومن الاضطراب إلى السكون، في مدة عشرين شهرا، من يوم بيعته، وابتداء دولته" ... وقال : "ومن العجيب أن تَمَكُّنَ إمارته كان بقوتين، قوة رغبة وقوة رهبة، إلا أن القوة الأولى كانت هي المعول عليها. ولذا كان الأكثر من سكان البلاد يطيعونه بخلوص ووداد"... وقال : "بلغ الأمير عبد القادر في الفطنة والدهاء ما لم يبلغه غيره من أمراء العرب. وناهيك به من أمير جليل تلطف في الشروط التي قررها في عقد المعاهدة وأظهرها في أسلوب عجيب حتى إن الجنرال "دي ميشال" لم يتوقف في قبولها ولم يتعثلم في الموافقة عليها بل أجراها وأمضاها في الحال. ثم ظهر له منها ماتركه في حيرة من أمره! وعلم أن الأمير قد خدعه، والحرب خدعة! فمن ذلك أن جميع المعاملات التجارية تكون في مدينة "أرزيو"، لا في سواها من الأساكل، وأنها تكون تحت نظره، لا مدخل للفرنسيس فيها، وأن جميع ما يرد من الداخلية لا يباع إلا في أرزيو ولا يشحن إلى بلاد أوروبا إلا منها. وأما وهران ومستغانم، فلا يرد عليها من الداخلية إلا ما تقتضي به حاجة أهلها. فاعتمد الوكيل "خليفة بن محمود" في أرزيو

على هذا وجعله نصب عينيه واستقصى في إجرائه، وأفرط حتى إنه منع غيره أن يشتري شيئا من واردات الداخلية، وإنما هو يشتري من الباعة ما يجلبونه إلى البلد.ويشحنه -على حسابه- إلى بلاد الإفرنج. فغضب لذلك تجار فرنسا ونقموا على الجنرال "دي ميشيل" ظنا منهم أن ذلك عن إذنه وبرخصته. فرفعوا أمرهم إليه، فأنكر أن يكون ما يفعله الوكيل منه. ثم إنه أجرى ما أرضى الطرفين وذلك أنه أبقى للوكيل ما يرد عليه من واردات الأمير، المختصة به، من أملاكه وما سوى ذلك، فجعله حرا لا يختص بأحد دون آخر". قال : "وكان الأمير نبّه على وكلائه أن لا يقبلوا رجوع المسلمين الذين هاجروا من وهران ومستغانم وأرزيو. فكانوا يمنعون كل من رجع من أولئك المهاجرين أن يدخل إلى إحدى هذه المدن ويجبروهم على الرجوع إلى داخلية البلاد. وساعدهم ما ذكر في الشرط الثالث من شروط المعاهدة! ثم اتصلت هذه الإجراءات وأمثالها بدولة فرنسا؛ فكبر عليها الأمر. ولعدم اطلاعها على أحوال البلاد، توهمت أن الأمير يراجع أمير مكة المكرمة ويطلب منه الإمداد. فانتخبت لمراقبة أعماله وحركاته غلاما فطنا اسمه "روس ليون" وسنه نحوا من عشرين سنة، وهو من عائلة شهيرة في فرنسا وأرسلته صحبة أبيه إلى الجزائر، بعد أن أعلمته بالأمر المهم المرسل لأجله وهو تحقيق أحوال الأمير ومراقبة حركاته. فلما وصل إلى الجزائر، تلطف حتى وصل إلى الأمير وأسلم على يديه. فأمر الأمير بعض الفقهاء بأن يقرّئه القرآن، وآداب الشريعة، والعقائد الدينية ويعلمه اللغة والكتابة العربية. ولما تعلم، أحضر إلى الأمير، فتعجب

من اعتنائه وذكائه، ثم زوجه واستعمله في كتاباته الخصوصية،تأليفا له وتشويقا لغيره. فقام بأداء وظيفته أتمّ قيام ولازم الأمير في أغلب المواضع وخاض بعض المعامع، ودام على هذا الشأن مدة من الزمان. ولما أحكم التدبير في أمر الولوج، شرع في التفكر بإتمام العمل، وسرعة الخروج. فكتب كتابا -بما أراده- على أمير مكة المكرمة. وقلد خط الأمير في الإمضاء وبخاتمه الخصوصي ختمه وترك الأمير مشتغلا بالحرب مع فرنسا، في بعض الوقائع، فانتهز الفرصة وآب إلى معسكرهم راجعا، ومنه توجه إلى باريس وأخبر الحكومة بما فعل. فأصحبته بهدية ووجّهته إلى مكة. ولما قابل الشريف "محمد بن عون" وسلمه الكتاب والهدية، اعتبره وأكرم نزله. وبعد أيام، سلمه الجواب مع هدية لائقة بالأمير. ثم ودّعه وأمره بالمسير. فانقلب راجعا. وكان مضمون الجواب إهداءه السلام والدعاء بالتوفيق وبلوغ المرام. فعند ذلك، تحققت الحكومة الفرنساوية أن لا مخابرة بينهما في أمور سياسية. وقد ألف "روس" تاريخا سماه "ثلاثين سنة في الإسلام" أودع فيه من أخبار الأمير ما حسنه وزينه. ثم أمرت الجنرال "دي ميشيل" أن يبعث -من طرفه- إلى دار الإمارة "معسكر" مراقبين مستعدين لإلقاء الدسائس في قلوب أعيان الرعية. فجاءوا إليها في صورة متفرجين وجُعل أمرهم إلى وكيلهم "عبد الله". فأحس الأمير بهذه المكيدة وتنبه لها وأخذ حذره منها. فسدّ على المراقبين طرق نجاحهم وقصّر يد الوكيل وأيديهم عن الوصول إلى مرادهم. وبالجملة، فإن آمال الفرنسيس التي كانت تتعلق بحصول الراحة لهم وإلقاء الدسائس

المؤثرة في قلوب رعايا الأمير خابت وذهبت سدى. ثم إن دولة فرنسا بعثت جماعة من أعيان أمرائها إلى الجزائر، في السادس من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف 1251 والثالث من يولية (تموز) سنة خمس وثلاثين وثمانمائة وألف 1835. وجعلت إليهم النظر في أمورها. وعند وصولهم إليها، تذاكروا فيما أنتجته حروبهم من المنافع والمضار ثم تفاوضوا فيما يلزم استعماله لتوطيد سلطتهم في البلاد. واتفقوا على وضع حكومة عسكرية ممتازة بسياسة مخصوصة، في الجزائر وسائر المواطن التي استولوا عليها في الساحل. فصدر أمر دولتهم بإجراء مااتفقوا عليه وتعين الجنرال "الكونت دورروان دورلو" واليا على الجزائر وعزل الجنرال دي ميشيل عن وهران. وقد سمعت من الوالد (رحمه الله) أن سبب عزله أنه بلغ دولته بأن مراده الدخول في الإسلام، فعزلوه حالا وولّوا مكانه الجنرال "تريزيل" وأُمر بدوام المحافظة على المعاهدة والرعاية لها. ولما كان ميالا -بالطبع- إلى الخصام، جلابا لأسبابه، جرى -في ظاهره-على ما تقتضيه أوامر دولته وفي سره على مقتضى طبعه. واتفق أن أهل "تيطري" بعثوا بيعتهم إلى الأمير وأوفدوا عليه مشيختهم؛ فاتصل به خبرهم، فوجم لذلك ورأى أنه قد ...تهيأ له الوصول إلى ما يريده من نقض المعاهدة التي عقدها الجنرال "دي ميشال"،لثقل أمرها عليه، ومخالفتها لمرامه. وجاءته رسل ابن اسماعيل وقومه يعرضون عليه أمرهم ويعدونه بآداء الطاعة، عند أول فرصة تتهيأ لهم؛ ففرح لذلك.ثم إن الأمير بعث وزير الخارجية الميلود بن عراش إلى والي

الجزائر؛ ليبلغه التهنئة والتبريك بالولاية، ويرى ما عنده في أمر الوطن. وأصحبه مكتوبا إليه ملخصه:

"بعد التحية؛ إن معتمدي "ابن عراش" وجهته إلى حضرتكم ليبلغكم التهنئة والتبريك من قبلي بالولاية على الجزائر. ولقيامي بالمحافظة على أمور المعاهدة أوعزت إليه أن يفاوضكم في أمور، تعيَّن عليّ إجراؤها، لتوطيد الراحة في جميع المقاطعات الداخلية ، في السهول والجبال والسواحل التي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران، والمدية. وخشيت أن يكون ذلك سببا مكدرا لما بيننا من المصافاة".

ومراد الأمير من هذه أن يثبت -بوسيلة خفية- إمارته على جميع الإقليم، ما عدا أربع المدن التي بيد الفرنسيس. وصار ينتظر الجواب معتمدا : إن أجابه برفض قبول المداخلة مع العرب الذين هم خارج وهران بأنه لا يعنيه التعرض له بمن لا يعنيه أمرهم، يعلم من الجواب هل يمكنه أن يملك إقليم "تيطري" بدون مجاوزة حدود المعاهدة أم لا؟ فلما وصل ابن عراش على الحاكم، أكرم وفادته وألان له الجانب وكان جوابه للأمير :

بعد آداء واجبات التعظيم، قد وصلني مرسومكم وبلغني معتمدكم ما تعلقت به إرادتكم في الجهة الشرقية. وحيث أن جلّ مقاصد سموكم توطيد الراحة العامة، كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها، فلا تتوقفوا. وإني أؤمِّل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد . ولك أن تعتقد بأنك لا تقاوم في كل أرض تقصد الاستيلاء عليها بشرط أن تكون لك قوة على أخذها.

قال بعض مؤرخيهم : إن قُرب عهد الجنرال بدخوله إلى الجزائر واليا عليها، وعدم معرفته بدهاء العرب وطرق حيلها وخلو مجلسه ممن يشير عليه بالرأي، ويوقفه على خفايا أحوال البلاد... هو الذي حسّن له هذا الجواب، مع ما أوصته به دولته، عند تقليده الولاية، بقولها: يلزمك أن تحافظ على مسالمة الأمير عبد القادر في سائر الأحوال، وأن لا تجري أمرا ما يوجب اغبرار خاطره.وإياك أن تتعاطى حركة تقضي عليك بطلب العسكر من هنا مطلقا.

ثم إن الأمير، لما رأى أن لا شيء يمنعه من إجراء ما عزم عليه، اعتمد على التوجه إلى "تيطري". فمنعه حدوث "الريح الأصفر" حينئذ في البلاد. وبعد زواله، تأهب للسفر وكتب إلى حاكم الجزائر يخبره بذلك.

وكان بعد رجوع ابن عرّاش بعث إليه بصورة الشروط التي أبرمها مع "دي ميشيل" في المعاهدة، فهاله أمرها، فلما اتصل به خبر المسير، غضب وكتب في الجواب ما نصه :

قد فهمت ما تضمنه تحرير سموكم. والذي أنظره أن هذا العزم خال من الصواب. وليكن في علمكم : أن الجنرال "دي ميشيل" لم تكن له سلطة ولا حكم إلا على إيالة وهران. ولذلك، لم يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات. ومهما توسعت دائرة التأويل فيما جرى في معاهدة الثامن والعشرين من فبراير (شباط) فلا يكون لكم طلب إلا على إيالة وهران. وبناء على ذلك، فلا نسمح لكم أن تدخلوا إيالة تيطري ولا ان تتجاوزوا "وادي شلف" شرقا ونهر "أرهيو" إلى "كوجيلة".

وبالجملة، فلكم أن تحكموا في البلاد التي هي الآن بحسب شريعة الإسلام. وبذلك نكون أصحابا. ولا أقدر أن أرخص لعساكركم أن تدخل ولاية تيطري لأن كلما يجري هناك يختص بي. وإني مستمر مع ساكني الأقاليم على السلم ومعتمدا على تعيين مراكز فرنسوية في "البليدة" و"بوفاريك" متى رأيت ذلك مناسبا لصالح فرنسا.

فأجابه الأمير :

قد وصلني تحريركم وتعجبت مما ذكرتموه فيه ، ثم أقول : إن مرمى أفكار حضرتكم بعيد عن الإصابة لأن محافظتي على السلم لا يجهلها أحد. ولولا ذلك ما احتجت إلى مذاكرتكم فيما أجريه في وطني. وقصارى الأمر إنه لا يبعد أن يكون بعض أهل الفساد ألقى في ذهن حضرتكم ما أوجب أن يكون جوابكم على هذا الأسلوب. وعلى كل حال، فإني عدلت الآن عن النهوض إلى "تيطري" إبقاء للسلم ورعاية له!

ثم إن أهل "تيطري"، لما طال عليهم الأمد وتأخر عنهم الأمير، في إنجاز الوعد، ولوا أمرهم رجلا من "غزّ"[1] مصر يقال له الحاج "موسى بن حسن" ويعرف "بأبي حمار" لإدمانه على ركوب حمار له. قد جاء إلى تلك الولاية واستوطن بلاد "أولاد نائل" منها وأظهر النسك والصلاح وانتحل تلقين أوراد الطريقة الشاذلية. فاجتمعت عليه كلمة أولاد نائل وغيرهم من قبائل تلك الناحية وزحف بهم على مدينة "المدية" وهي حاضرة الولاية؛ فدافعه أهلها وأطلقوا عليه مدفعا كان

---

1. الغز : من مماليك التركمان. وفي مصر مثل مشهور "آخر خدمة الغز علقة".

عندهم، من أيام الحكومة الجزائرية فانكسر، فجعلوا ذلك كرامة له ودانوا بطاعته وأدخلوه إلى البلد، ثم إنهم نظروا على مدفعهم، فوجدوه متداعي الأجزاء من قبل أطرافه. فلما استعملوه، تفرقت أجزاؤه. ولما شاع أمره واتصل خبره بالدوائر والزمالة -وهم في منازلهم، قرب تلمسان- نبذوا طاعة الأمير ونكثوا عهده وارتحلوا من منازلهم إلى قرب وهران ولحق رئيسهم ابن اسماعيل "بالكول أوغلان" في قصبة "المشور" من تلمسان. فاهتز "ترزيل"، حاكم وهران، لذلك فرحا وطار الخبر إلى الأمير؛ فتغافل عنهم وأقام ينتظر ما يفعله حاكم الجزائر مع أبي حمار المستولي على الولاية التي أرعد وأبرق في أمرها. ولما رأى الأمير أن الجنرال تصامم عن أبي حمار ولم يتعرض إليه، احتشد الجيوش وعرض عساكره النظامية وأصلح خللهم وضرب معسكره العام في "هبرة" لنظر أخيه الكبير السيد "محمد سعيد" لمراقبة الفرنسيس من جهة مستغانم وأرزيو وأوعز إلى "البوحميدي" والي تلمسان أن ينحدر -بجموعه- إلى نواحي وهران ليشغل حاكمها ويقف في وجهه، ونهض هو في عساكره النظامية وحشود الجهة الشرقية قاصدا "تيطري" بعد أن أعلم الجنرال بذلك، في أواخر كانون الأول سنة أربع وثلاثين وثمانمائة 1834 وأن توجّهه ضروري لتوطيد الراحة في تلك الجهة ولقطع الحركات بين القبائل. ولما قارب بلاد العرب "العرب صبيح"، تعرضوا له وطلبوا جائزة الطريق، جريا على عادتهم مع حكومة الجزائر! فكبحهم وأعظم النكاية فيهم. فأذعنوا للطاعة. ثم احتل ببلاد "جندل" واتصل خبره بأبي حمار؛ فجمع أعيان حشوده وخطب فيهم

ووعدهم بالظفر وقال لهم : آية صدقة أن مدفع ابن محي الدين لا يعمل فيهم وأن باروده -عند المواجهة- يصير ماء ومثل هذه الترهات ... ثم كتب إلى الأمير يدعوه إلى الجهاد. فأجابه إن هذا غير ممكن الآن، لكوني عقدت معاهدة مع الفرنسيس. وأما أنت، فإن كنت مستعدا لذلك، وعزمت عليه فشأنك وما تريد. فلما اطلع على هذا الجواب، كتب إليه يدعوه إلى بيعته.فأجابه : إنني مبايع من أهل الوطن "فإن كانت بيدك أوامر سلطانية، فأظهرها حتى نراها. فإن وجدناك صادقا، نقدم لك الطاعة، امتثالا لأمر السلطنة العظمى. وإلا، فالذي تراه أعظم مما تسمعه ، فلما بلغه هذا الجواب، اشتاط غيظا ونهض من "المدية" في جموعه للقتال وتزاحف الفريقان في بلاد "وامري". وكان الأمير -عندما شاع ما ألقاه هذا المدعي على جموعه من الخزعبلات -خطب في عسكره بقوله : "الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا، رسول الله. وعلى آله وأصحابه.

أما بعد؛ فاعلموا أن الحق تعالى؛ قلدني هذا الأمر للمدافعة والذب عن الدين والوطن. وقد بلغكم خبر هذا الرجل. فإن تركته وشأنه، أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الفرنسيس على حين غفلة، وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا إصلاحه" ... وأطال في هذا المعنى ثم قال : "هذا، وإني أختبر أمره الذي كاد أن يوقع في قلوبكم ما يؤول بكم إلى تشتيت الشمل وتبديد الجمع، وذلك أني أطلق عليه مدافعي. فإن كان الأمر كما زعم، فأنا أول مطيع له، بعد اختبار أحواله من جهة الشرع. وإن كان الأمر بخلاف زعمه، فهو دجال من دجالي

هذا الوقت." ثم أمر بالزحف وإطلاق المدافع عن أبي حمار. فلما أطلقت على جموعه، انهزموا وولوا مدبرين، لا يلوي أحدهم على الآخر في تلك الجبال والأودية. وفرّ هو، تاركا نساءه وأولاده، وسائر ما كان معه من الذخائر والمهمات. وأثخنت العساكر في تلك القبائل الضالة عن سواء السبيل، قتلا وسبيا. ثم صدر الأمر بالكف عنهم، بعد أن لاذوا بالطاعة. وكان سبيهم قد أرسله إلى "مليانة"، فرده عليهم وجاء الطلب من أبي حمار في رد نسائه وأولاده، فردوا عليه. ثم ارتحل الأمير إلى "المدية" فدخلها وأدى أهلها واجبات الخضوع واسترسلت عليه الوفود من جهات الولاية وقاصيتها لأداء البيعة؛ فبايعوه عن أنفسهم، وعمن وراءهم. وبعد أن أصلح شؤونهم، وثقف أطراف الولاية، عقد عليها للسيد "محمد البركاني" من أعيان أشرافها. ولما شاع خبر هذا الاستيلاء، واتصل بالجنرال "تريزيل"، حاول أن يتخذه وسيلة لنقض المعاهدة. فجمع مجلسه وفاوضهم في ذلك وقال : إن أمير العرب عبد القادر تجاوز الحدود المقررة له. فمن المتعين علينا أن نهاجمه في دار ملكه. فاستحسنوا قوله.ثم بعث بهذا النص إلى حاكم الجزائر، فأبى ذلك ونقمه عليه واطلع مجلسه على ذلك وقال : إنني لست مأمورا من الدولة بنقض المعاهدة ولا مستعدا الآن لفتح باب الحروب. ويجب أن نتنازل ونسعى في تجديد المعاهدة مع الأمير مادام في المدينة التي استولى عليها وعلى إيالتها ونضرب صفحا، عن تعرضنا له لعدم مساعدة الوقت على منجزاته. فوافقوه على ما قرره،

ثم حرروا شروط المعاهدة وبعثوها صحبة القبطان "سنت ايبوليت" والموسوي "ابن درّان" وأصحبهما الحاكم بهدايا فاخرة إلى الأمير.

وصورة الشروط التي انتخبها الحاكم:

أولا : يعترف الأمير برئاسة ملك فرنسا على إفريقية.

ثانيا : تكون سلطنة الأمير عبد القادر محصورة في إيالة وهران، المحدودة بنهر "شلف" ونهر "أرهيو" إلى "كوجيلة".

ثالثا : تعطى الرخصة العامة للإفرنج في السفر في سائر جهات بلاده.

رابعا : إعطاء الحرية التامة للتجارة في الداخلية.

خامسا : لا يصير تسليم ولا استلام شيء من الغلال والبضائع إلا من الأساكل التي بيد الفرنسيس.

سادسا : يدفع الأمير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للأمن على ذلك.

فلما وصل الرسولان إلى الأمير، في مدينة "المدية" وكان على أهبة الرجوع إلى دار ملكه، رحب بهما وأكرم وفادتهما وعرض عليهما أن يصحباه إلى الحضرة. فأجاباه إلى ذلك ونهض من "المدية" راجعا والرسولان في معيته. قال بعض مؤرخي الإفرنج : وقد حصل للناس تأثير عظيم من ذلك واستدلوا به على عظم ملك الأمير، وحسن سياسته حتى إنه جعل ضباط الفرنسيس يسافرون معه ويقصدون عرش ملكه. ولما كان الأمير في المدية كان في معيته خليفته، السيد محي الدين بن علال، والي "مليانة"؛ فلما بلغ في مسيره إلى وادي الفضة، أعطاه

الإذن بالتوجه إلى ولايته واستمر سائرا إلى معسكره العام في "هبرة" "ففضة". وارتحل إلى معسكر، ودلائل اللطف والوداد تتجدد لأولئك الضيوف من قبله. وبعد أيام، سلمهما رقيما إلى حاكم الجزائر وضمنه الشروط، التي رغب في عقد المعاهدة أن يكون عليها وبموجبها. وهذه صورتها :

يشترط ناصر الدين، عبد القادر بن محي الدين:

أولا : أن تبقى جميع الإيالات الخاضعة له تحت سلطته وحكمه. كما أن المدن التي استولى عليها الفرنسيس تبقى على حالها في أيديهم.

ثانيا : إن ولاة "المدية ومليانة" عند عزلهم تبعث أسمائهم إلى الحاكم العام ليعرفهم ولتكون المواصلة مع الأمير بواسطتهم.

ثالثا : إن المتجر يكون حرا للجميع.

رابعا : إن الفرنسيس يكرمون العرب كما أن العرب يكرمون الفرنسيس في جميع الأماكن.

خامسا : إن الأمير، له أن يشتري من الجزائر، بواسطة وكيله فيها، سائر ما يحتاج إليه من الآلات، والمهمات الحربية.

سادسا : إن الأمير يرد جميع الفارين إليه من الفرنسيس كما أن الحاكم العام يردُّ الفارين إليه من العرب.

سابعا : إن الأمير إذا عزم على السفر إلى قسنطينة أو غيرها، يخبر بذلك الحاكم العام مع الإفادة عن سبب ذلك السفر.

فلما اتصلت هذه الشروط بالحاكم، أظهر السكون إليها وفهم من فحواها أن الأمير جانح لعقد معاهدة جديدة. فسافر لوقته إلى وهران وبعث إليه لأول وصوله يخبره بقدومه إليها ليكون قريبا منه، تيسيرا للمخابرة. وكتب إليه ما نصه :

بعد التحية والتعظيم. قد وصلني رقيم سموكم من يد رسولي القبطان "سنت ايبوليت" وفهمت منه ما في أفكاركم. ولأجل أن أتمكن من إجراء المخابرة معكم، بوجه السرعة حضرت الآن إلى وهران، في السابع عشر من صفر سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف (1252). واليوم الرابع من يوليه (تموز) سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف (1836).

فأجابه الأمير، يهنيه بوصوله. وكان الحاكم ينتظر الجواب بغير ذلك حيث إنه كان يتمنى أن يدعوه الأمير إلى الاجتماع. ثم إن الجنرال "تريزيل" أنكر على الحاكم قدومه إلى وهران وقال له : لا أجد لزوما لحضوركم لأنني أنظر أن ذلك مما يدل على ضعف أحوالنا. وأيضا، فإن دنوكم من الأمير يكون كالمصادقة له على سائر تصرفاته. فأثر ذلك في الحاكم وانقلب راجعا إلى الجزائر. قال مؤرخي الإنكليز، عندما تعرض لذكر شروط الأمير: "إن معاهدة كهذه، جاء بها القلم النحيف، لتنقض حقوقا عظاما، ومنحا أوجدها السيف البتّار؛ لابد أنها تعتبر فتحا لباب الحرب. وفي الحقيقة، إنها كانت نتيجة سياسة الأمير حيث علم أنه بعظم أهمية قوته، تقوم هذه المعاهدة وعلم أن تلك القوة، تأتيه باستقلالية تامة، سواء اشترط أو اشتُرِط عليه. ولذلك وصف نفسه

في تحريره إلى الحاكم "بناصر الدين". ثم إن الحاكم لما وصل إلى الجزائر، أمر الجنرال، "تريزيل" أن يعتني دائما باستجلاب صداقة الأمير له والاتحاد معه. فاستشاط "تريزيل" لذلك غيظا وأمسى متحيرا بين كونه يخضع لأوامر الأمير ويطلب رضاه في كل الأمور المتعلقة بداخلية البلاد، وبين كونه يضع نفسه في حالة يتمكن بها من الاستقلال في عمله. ثم كتب إلى الحاكم يخبره بتروع الدوائر والزمالة إلى الخضوع لدولة فرنسا وأنهم طلبوا منه أن يأذن لهم في الترول بأرض"مسرغين" خارج وهران وأن يعين لهم فرقة من العسكر لحمايتهم. وحيث أن الحاكم كان مؤملا في الحصول على المعاهدة، أجاب الجنرال أن يتربص في أمرهم وأن يكون معهم على حالة تحتمل قبول طلبهم ورفضه. ولما اتصل ذلك بالأمير، كتب إليهم:

أما بعد ؛ فليكن في علمكم جميعا. أنه طالما نصحناكم وبينا لكم ما يجب عليكم -شرعا- أن تفعلوه أو تتركوه، فلم تقبلوا ذلك و لم تلتفتوا إليه. والآن، بلغ السيل الزبى. فلابد أن ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الإسلام التي مضى عليها آباؤكم وتتركوا منازلكم التي أنتم فيها الآن، وترجعوا إلى منازلكم الأولى، بقرب تلمسان، وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم، لما يحل بكم من الانتقام، بحول الله وقوته.

قال بعضهم : ولما بلغ هذا الكتاب أولئك القوم، تحيروا في أمرهم. وصاروا بين أمرين خطيرين إما الانقياد إلى الطاعة والرحيل من منازلهم الجديدة وقلوبهم تأباه ، وإما إشهار ما هم عليه من التروع

إلى الفرنسيس والانفصال عن المسلمين. ثم ترجّح عندهم الأخير، وأرسلوا وفدهم إلى الجنرال "تريزيل" فأطلعوه على حقيقة أمرهم وطلبوا منه إنجاز ما كان وعدهم به؛ فأجابهم إلى مطلوبهم وخرج مسرعا إلى "مسّرغين" حيث مخيمهم، فتلقاه رؤساؤهم وقدموا إليه طاعتهم وعقد عليهم شروطا هي :

أولا : تعترف القبائل برئاسة ملك فرنسا وتلتجئ تحت حمايته.

ثانيا : تخضع القبائل لمن يولّيه عليها من رؤساء الإسلام.

ثالثا : تقدم القبائل في الأوقات المعينة المرتب الذي كانت تقدمه إلى بكوات الترك.

رابعا : يكون اقتبال الفرنسوية جيدا عند القبائل كما يكون اقتبال القبائل عند الفرنسوية.

خامسا: تجارة الخيل مع سائر المواشي وتجارة المحصولات تكون مطلقة لكل إنسان عند القبائل. أما البضائع التي تعين للوسق، فلا يصير وسقها إلا من المراسي التي يعينها الحاكم العام.

سادسا : لا تكون تجارة الأسلحة وسائر متعلقات الحرب إلا بواسطة مأموري الفرنسوية.

سابعا : تلتزم القبائل بتقديم نجدالها، متى دعاها والي وهران إلى غزوة حربية في إقليم إفريقية. ويكون للفارس فرنكان، وللماشي فرنك كل يوم. وكل واحد منهما يحمل في الأقل خمس فشكات[1].

---

1. الفشك : كلمة تركية، معناها الخرطوش.

ويعطى من الترسخانة[1] عشر فشكات. وكل من يقتل حصانه في الحرب يعطي بدله.

ثامنا : أن لا تتعدى القبائل على من يجاورها من القبائل، فإن صار تعد منها، عليها حينئذ أن تعلم والي وهران ليحضر حالا لنجدها.

تاسعا : متى ذهبت العساكر الفرنسوية إلى العرب، يعطى لهم كل ما يحتاجونه من المؤونة، بالثمن العادل.

عاشرا : الاختلاف الذي يحدث في القبائل : إن كان في قبيلة واحدة، يصرفه قاضيها. وإن كان بين قبيلتين، يصرفه قاضي وهران.

الحادي عشر : ينتخب رئيس من كل قبيلة ويسكن مع عائلته في وهران.

فقبلوا هذه الشروط وصادقوا عليها. ولما رجع إلى وهران، بعث إلى الحاكم يخبره بما أجراه مع أولئك المتنصرة وأرسل إليه صورة ما اشترطه عليهم؛ فلم يجز القبول ولا وقع موقع الاستحسان وبعث إليه الجواب بما حاصله :

وصلني تحريرك، مع الشروط التي أجريتها مع قبيلتي الدوائر والزمالة. وهذا العمل، وإن يكن سيعود على فرنسا بالنجاح، فإنه سيكون -لا محالة- مانعا لإمضاء المعاهدة المنتظرة مع الأمير عبد القادر. وقد رجع إليّ "ابن درّان" الموسوي إجراء ما نبتغيه من الأمير. وبالجملة، فإني أرى عملك هذا لم يوافق طريق الصواب.

---

1. الترسخانة : لفظة تركية محرفة عن العربية. أصلها : دار الصناعة. وكانت تطلق على معامل الأسلحة، ومصانع السفن في أحواضها. ومازال المصريون، حتى الآن، يسمونها "ترسانة".

قال المؤرخ المذكور : فغضب "تريزيل" لهذا الخطاب. وكان جوابه إلى الحاكم :

قد وصلني تحريركم وفهمت منه أن وساوس ابن دران الموسوي كادت تؤثر فيكم. والذي أقوله : إن هذا الرجل، لم تكن له خبرة، ولا عنده وقوف على بواطن الأمير عبد القادر. وإنّ التربص بهذا الأمر؛ مما يزيد ملك هذا الأمير قوة جديدة. وخلاصة الأمر : إن ما أجريته مع الدوائر والزمالة لم يكن مخالفا لأوامر مجلس وزارة الحرب في باريز. وإن كانت أفكاركم تأباه، فتكرموا بردّ ورقة الشروط، مع تعيين من يخلفني في وهران. فلما اطلع الحاكم على هذا الكلام، علم أنه قد أخطأ في اجتهاده وأن "تريزيل" أكثر اطلاعا منه على غوامض أمور العرب. ومع ذلك، فإنه لم ييأس من الحصول على ما رغب فيه من إجراء المعاهدة مع الأمير.

قال : وكان الأمير يتحنب كل أمر يكون سببا في نقض المعاهدة الأولى حتى إنه دائما يصدر أوامره إلى خلفائه بذلك. ثم كتب إلى الحاكم يحتج عليه فيما أجراه تريزيل. ويقول له : قد ارتكبتم ما يؤذن بنقض المعاهدة التي عقدناها مع الجنرال دي ميشيل، ارتبطت بها دولة فرنسا واعتمدتها ومن جملتها : أن لا تقبلوا من يلتجئ إليكم من العرب، كما أننا لا نقبل من يفر إلينا من الفرنسيس. فجاء الجواب من الحاكم محتويا على مخادعة ومحاولة. وصورته :

إني أوضح لسموكم أن المعاهدة التي رغبنا في إجرائها الآن معكم؛ لا تكون مخالفة للمعاهدة التي وقع عليها الاتفاق مع الجنرال دي ميشيل سابقا. نعم، إن لفظة "هارب" المحررة في صك المعاهدة السابقة، لم تفهم منها العموم إذ ربما يكون الهارب ليس في نيته الالتجاء، وإنما قصد بسكناه عندنا ما هو جار بين الناس، من تفضيل ولاية على أخرى. وهذا أظنه لا يضر ولا يكون فاتحا لأبواب الخصام الذي لا شك أن يكون ممقوتا عند أصحاب السلم العام. هذا وإنني على كل حال، أحافظ على تلك المعاهدة، بكمال الشرف والاعتناء.

فأجابه الأمير بقوله :

قد وقفت على ما حواه كتابكم. والذي أقوله لك الآن : إنك أيها الحاكم تعلم الشروط التي ربط بها دي ميشيل نفسه بإذن دولته. وعند وصولك إلى الجزائر، وعدتني بالمحافظة عليها. وإنك تعلم جيدا أن الحكومة الفرنسوية ملزومة بأن ترد إليّ كل مذنب التجأ إليها، ولو كان رجلا واحدا. فكيف بالعشيرة والقبيلة!

وعلى هذا، فإن قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيتي التي أحكم فيها بموجب شريعتي. والآن أبلغك البلاغ الأخير : إنك إن رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي وقع عليها الاتفاق قديما. وإلاّ فإني لا أستطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم حتى إنهم لو اعتمدوا على رأيكم، لضعف آرائهم وقلة دينهم، ودخلوا مدينة وهران فلا أرفع عنهم يدي. ولابد أن ألحقهم وأطالبهم

بالرجوع عن خطإهم الفاحش. فإن كنت -ولابد- معتمدا على إنفاذ ما صورته أفكارك من إدخالهم تحت حوزتك، فاطلب وكيلكم من عندي، واختر لنفسك ما يحلو وميادين المعامع تقضي بيننا. ومسؤولية إهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك وعليك، والله يخلق ما يشاء. ويفعل ما يريد.

ذكر انتقاض المعاهدة

لما وصل الأمر إلى هذا الحد. وعلم الأمير أن المعاهدة قد طوي بساطها وانقطع نياطها، فاوض أهل دولته، وندبهم إلى الجهاد. ثم دعا رؤساء الجند وأعيان الحضرة، إلى الجامع. وطلع على المنبر. وخطب عليهم بقوله :

أما بعد؛ فلا يخفى أن الله تعالى، في كتابه المجيد : **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾**[1]. وقال : **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله﴾**[2] وهؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا وصدقناهم فغدروا وصابرناهم فلم يصبروا. وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة. وهاهم قد خدعوا الدوائر والزمالة، وغيرهم من ضعفاء الدين. وحازوهم إليهم. فما الذي يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم؟ ونحن موعودون بالنصر على أعدائنا! فهيا بنا، أيها المسلمون! إلى الجهاد.

---

1. سورة التوبة، الآية 123

2. سورة الأنفال ، الآية 39

وهلموا إليه باجتهاد وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل. أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا. ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا.

ثم هز سيفه في يده ثلاثا، فضج القوم -عندنا- بالتكبير. وقالوا : "نحن على السمع والطاعة، لسيدنا ومولانا، ناصر الدين". ثم قام أياما، ينتظر جواب حاكم الجزائر. فلما تأخر عنه، وجاء الأمر للوكيل بالسفر إلى وهران، دعا وكلاءه من مواضع إقامتهم وأمر بنصب العلم الأكبر خارج الحضرة ونودي بالجهاد. وصدرت الأوامر إلى سائر النواحي والجهات بالتأهب للحرب. فارتاح المسلمون لذلك وأخذوا يستعدون للقتال. واهتز المغرب الأوسط -بأهله- لقتال العدو وبادر أبطاله من المتطوعة إلى دار الملك.

ذكر واقعة المقطع وهزيمة الجنرال تريزيل وعزله وغير ذلك من الحوادث

ولما كان الجنرال تريزيل، عازما على نقض المعاهدة بما أمكنه، خرج من وهران في الرابع عشر من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف (1252) وأول شهر يوليه (تموز) سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف (1836) في خمسة آلاف من المشاة، وفرقة من الخيالة، وأربع قطع مدافع جبلية وعشرين مركبة زادا، عدا عن المركبات الاحتياطية، يقدمهم جيش الدوائر والزمالة! ونزل في "تليلات" على مرحلة

من وهران. وكان الخليفة البوحميدي في تلك النواحي مراقبا له، من مدة شهور. فطير الخبر إلى الأمير. فنهض لوقته من الحضرة في نحو ألفي فارس، وألف من المشاة واحتل "بسيك" عازما على الإقامة هناك إلى أن يتلاحق الناس به. فعاجله "تريزيل" وارتحل من "تليلات" زاحفا إليه. فعبأ الأمير كتائبه ورتب مصافه وحضر خليفته "البوحميمدي" في جيشه؛ فعينه في الميمنة وجعل خليفته "بوشقور" على الميسرة. وثبت هو في القلب. وتزاحف الجمعان في "حرش مولاي اسماعيل" بالقرب من "سيك" وابتدأ القتال مناوشة واستمر على ذلك متواصلا يومين. وفي اليوم الثالث، هجم عسكر الفرنسيس على المسلمين والتحمت الصفوف واشتد القتال. فارتدت عساكر الفرنسيس على الأعقاب منهزمة إلى داخل الحرش، بدون ترتيب، ولا نظام. وقتل منهم -على ما ذكره "روا" في تاريخه- عدد كثير، فيهم : الكمندان "أودينو" ابن الماريشال "دوك دي تريجو". ووقوع هذا الرئيس قتيلا، أمام صفوفه، كان سببا في الهزيمة الشنعاء إلى الحرش حيث أن جيوش الأمير أجهدهم العطش وطال عليهم القتال ورأوا العدو قد الهزم؛ رجعوا عنه وتفرقوا، ظنا منهم أنه يستمر منهزما إلى وهران. ولم يبق مع الأمير سوى عمه، سيدي الجد للأم، السيد على أبي طالب. وهذه النادرة الاتفاقية ذكرتني بما وقع للنبي (ﷺ) في غزوة "حنين" حين تفرقت جيوشه، حتى المهاجرين والأنصار ولم يبق معه سوى عمه العباس، آخذا بلجام بغلته (ﷺ) التي كان راكبا عليها يومئذ. ثم إن جيوش الأمير، لما علموا أن العدو بات تلك الليلة في الحرش

وأن الأمير لم يزل مراقبا له؛ صاروا يتراجعون إليه أفواجا أفواجا، حتى اجتمعوا كلهم. وتلاحقت به الجموع التي شهدت القتال بالأمس. وامتلأ سهل "سيك" بالمسلمين. وأما الجنرال تريزيل، فإنه لما رأى أن طريقه التي جاء عليها، قد سدت في وجهه، انعطف راجعا إلى وهران، على طريق "أرزيو". ولما رآه الأمير أنه سلكها، خف في ألف فارس، انتخبهم من عساكره وأردف كل فارس منهم عسكريا من المشاة. وسبق بهم إلى مجاز نهر "هبرة" المعروف "بالمقطع" وليس لذلك النهر مسلك غيره. فأحاطت جيوش المسلمين بالجنرال وعساكره. وأضرموا عليه نار الحرب في حال السير من كل جهة. واستمروا على ذلك إلى أن قاربوا "المقطع" وكان الأمير وصل إليه. فلما رأته مقدمة الجنرال، ارتدت على أعقابها، واظطرب العسكر الفرنساوي وخاض بعضه في بعض واختل نظامه وألجأه المسلمون إلى غياض النهر وأذاقوه نكال الحرب وأثخنوا فيه بالقتل والأسر. واستولى الغرقُ في النهر على عدد كثير منهم. واستولت الأيدي على سائر العجلات وما فيها من الذخائر والمدافع. وأكب المسلمون على جمع الغنائم والأسرى إلى الغروب. وكان التعب أخذ منهم مأخذه. وفي هذه الفرصة، انسل الجنرال "تريزيل" ومن بقي معه من الجيش إلى ساحل البحر ومن هناك جدوا في الهرب إلى "أرزيو" تاركين القتلى والجرحى، وسائر ما خرجوا به من وهران، في أيدي المسلمين. وفي الساعة السابعة ليلا دخلوا إلى "أرزيو" على اسوأ حال.

وقد أسهب الإفرنج في هذه الواقعة. وملخص ما انتخبته من أقوالهم أنه، لما علم الجنرال تريزيل وقواد العسكر أن طريقهم التي جاءوا عليها من وهران، قد سدت عليهم، عرجوا على طريق "أزيو" فبلغهم أن الأوعار التي في تلك الجهة، يتعذر المرور فيها، بمركبات الذخائر، ومركبات المدافع؛ فاعتمدوا على السير، فيما وراء جبال "حميان" ويعبرون نهر "هبرة". ولما نظر الأمير إلى الطريق التي سلكوها، علم أنه إذا سبقهم إلى "المقطع" يتمكن من جوزه، قبل أن يصلوا إليه. وبذلك يمسون في قبضته. وكان الأمر كذلك. وقد أدرك منهم ما أراد، وارتاد وقال آخر سبقُ الأمير إلى مجاز النهر، وضبطه من نتائج التصورات السعيدة التي تكلل صاحبها بالنجاح. وقد وصل الجنرال تريزيل وجيشه إلى المقطع عند انتصاف النهار بعد أن أعياهم السير ودوخهم جيوش العرب التي كانت محيطة بهم وتجاذبهم القتال. وبينما هم في حالة الدفاع نظروا الأمير قد أنقض عليهم، هو ومن معه، كالعقبان على مستضعف الطيور. فتحيرت عساكر فرنسا واستولى عليها الدهش ولم يجد الجنرال مسلكا يقود إليه ولا مغيثا يفرج عنهم ما هم فيه. فاندفع آخر العسكر إلى الأمام، وأولهم إلى الخلف وأخذ الطوبجية ذات اليمين، فغرقت عجلاتهم بمدافعها في تلك المخاضات المهلكة التي لا اطلاع لهم عليها من قبل. وتفرقت كتائب العسكر وانقلبت من هنا إلى هناك، ابتغاء الخلاص. ولات حين مناص. واقتحم أكثرهم مسيل النهر؛ فأخذهم ولم يأت الغروب إلا وقد تشتت من بقي منهم. وتركوا موتاهم وجرحاهم وسائر ذخائرهم في يد العرب وأسرعوا

متسابقين إلى ناحية "أرزيو" دون انتظام، لا يلوي بعضهم على بعض. فوصلوها ليلا في الساعة السابعة.وأما العرب، فإنهم باتوا –تلك الليلة– في ابتهاج لا مزيد عليه وارتفعت أصواتهم وتعالت مشاعلهم وأقاموا على ذلك طول الليل. ولو صعد إنسان إلى الجو لرأى منظرا عجيبا وسمع أصواتا كالرعد القاصف وتراءت له هضبة مجتمعة من رؤوس الجيوش الفرنسوية! وقال غيره : لما ارتحل الجنرال "تريزيل" من حرش مولاي إسماعيل، قاصدا أرزيو، حشرته جيوش العرب عند المقطع وهو المحل الذي أعده الأمير عبد القادر لدفن العساكر الفرنسوية. ثم هجمت عليه جموع المسلمين يقدمها حضرة الأمير، كالعقبان على الطيور الضعيفة. وفي أقل زمان، فتكت في العساكر، فتكاً لم يُعهد نظيره. وكرت على باقي الجيش فتشتت شمله. ولم تكتف حتى حكّمت سيوفها في أعناقهم.وقدحاول العسكر الفرنسوي الذي أكثره جرحى أن يفروا؛ فلم يهتدوا إلى الطريق. ومن اقتحم النهر منهم هلك. والعرب في وسطهم، كالجزّار استعمل مديته في أعناق غنم محبوسة وفي وقت الغروب تلاحق الباقون وفيهم الجنرال "تريزيل" في سهل ممتد على سيف البحر. وساروا إلى "أرزيو". ولو أتبعهم العرب ما تركوا منهم مخبرا. انتهى.

أخبرني من يُعتد بخبره، من أحبابي، قال : حدثني من أثق بحديثه وأمانته من أصحابي، قال : ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف (1247) إلى مدينة وهران، بقصد التجارة بها. وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها. قال : وكنت يومئذ في سن الشباب، حين بَقَلَ

عذارى. فأقمت بها مدة. وكان الحاج عبد القادر بن محي الدين، إذ ذاك مهادنا لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر، قد أنزل كل واحد منهما ببلد الآخر وكيله وتجّاره، على العادة في ذلك أيام الهدنة. فلما كان ذات يوم، ورد الخبر بان قبيلتي الزمالة والدوائر، من إيالة الحاج عبد القادر —وهم نحو ألفي خيمة—قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران، مستجيرين بالفرنسيس. وقد رفعوا رايتهم وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيته. فبعث إليهم الفرنسيس يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه. فلما كان من الغد، بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته، الحاج "الحبيب" ولد "المهر العسكري" كتابا إلى الفرنسيس يقول فيه: إنك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فرّوا إليك هم رعيتي، ومن إيالتي. وعليه؛ فلابد ان تردهم عليّ. وإلا؛ فالحرب بيني وبينك. فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب إلى الحرب. واتفقوا أن يُخرج كل منهما إلى الآخر تجارة الذين في أرضه وأن من بقي منهم، بعد ثلاثة أيام، فدمه هدر. واتفقوا أيضا على ان يكون الوكيلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل، بحيث يلتقيان على المحدّة التي بين أرض المسلمين وأرض النصارى. ففعلوا وخلص كل إلى مأمنه. ولما انقضى الأجل، تزاحفوا للقتال في يوم معلوم. فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد! ولما كان المساء، سمع الناس، من داخل البلد ضوضاء، وجلبة عظيمة، وبارودا كثيرا، وإذا بالحاج عبد القادر قد هزم الفرنسيس هزيمة شنعاء حتى ألجأهم إلى سور "أرزيو" وازدحموا على أبوابه. وركب بعضهم بعضا.

وجاءت خيّالتهم من خلفهم فركبوا أيضا. ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم ... فهلك،بهذا الازدحام من الفرنسيس، نحو أربعة آلاف، غير الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح. واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث. وكانت فتكة بكرا.

ثم قال لي : وكنت في تلك المدة، مساكنا لبعض كبراء عسكر الفرنسيس في دار واحدة. فلما انقضت الواقعة، بيوم أو يومين سألته:

– كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس، في هذه الواقعة؟

– قال : أقرّب لك أم ابعّد؟

– قلت : بل قرّب.

– قال : أنا كبير من كبراء العسكر، وتحت نظري ثمان عشرة مائة، بقي منها في هذه الواقعة ثمانية عشر عسكريا. (انتهى كلام المخبر)

واستشهد في ذلك اليوم العظيم، من رؤساء العسكر المحمدي : الآغة قدور بن بحر، ومن أعيان الجيوش المتطوعة : خليفة بن محمود، الذي كان أيام المعاهدة وكيلا في أرزيو، والسيد محمد بن الجيلاني الورغي، والسيد محمد المشرفي، في عدد من المسلمين.

ثم إن الأمير أمر بجمع الغنائم ودفن المجاهدين وارتحل إلى "سيك" وبعث الأسرى والغنائم إلى الحضرة. وكتب إلى خلفائه في مليانة والمدية يبشرهم بما منَّ الله به على المسلمين من عجيب الانتصار الذي خلّف لعدوّهم "تريزيل" عند دولته العار والشنار. وبعد أن أقام الأمير

في "سيك" أياما، ارتحل إلى حضرته "معسكر". وكان عمه، سيدي الجدّ، علي أبي طالب قدّم إليه، ثاني يوم المقطع، قصيدة تهنئة يقول فيها :

هنيا لك البُشرى نُصرت على العدى ودمّرت جيش الكفر بالقتل والخسف
وحُزت مقاما دونه كل باسل يرى الحرب ميدان الخلاعة والقصف
بجيش عظيم قد تفرّد في الوغى له سطوة عزّت وجلّت عن الوصف
فسُعدى بعزٍ مذ حللت بشطّنا تطوف بكأس الراح مخضوبة الكفّ
تُعاطيك طورا من لهيب ومن لظى وآونة، تأتيك بالقرْقف الصرف
ولما تولّت خيلُنا ورجالُنا مددنا لهم أيدي النزال إلى السيف
بكلّ جوادٍ يسبق البرق عدْوَهُ وآخر يطوي الأرض كالريح والطّرف
نهارٌ بدا كالليل أظلم حالكا أصبنا لهم ألفي قتيل مع النصف
قلبنا لهم ظهر المجَنِّ عشية فمالوا إلى حبِّ الحياة عن الحتف
وبدّد شمْل المشركين بنصره أزالت غياهيب الضلالة باللُّطف
إمام، له تبدو المعالي بقطرنا فلله ذاك الفرد، قد قيس بالألف
أمير شريف في البرية مفردٌ وفرعُ لُمحي الدين أغنى عن الوصف
صرفنا به غمّ الزمان وكربه وغبنا عن الدّهر المروع بالصرف

إلى أن قال :

وتبنى أصول الحبِّ على الوفا إذا ما بناها الكافرون على خوف
يحيّيك الدهر أنت ظرف وداده وما كلُّ خلٍّ ظرْفُه لك كالظرف
وإنّ أخا الودّ الذي عمّ فضله ليقنع من تلك الشمائل باللّطف
ألا أرانا الله فيك إساءة فدُم لعروس الملك زاهية العطف

وهنّأه بعض الأدباء أيضا بمقصورة مطلعها :

هوِّن عليّ الأمر يا دهر فما أنصفتني ولا قلبْت المشتطا
عسى الذي أجدب روح مُهجتي يُخصِب مني روحه الوصل، عسى
أو يرتضيني حضرة المولى الذي ساوى الذي مضى وما يأتي ورا
باهت به الأقيال عند حربها لما رأت نار الحروب تصطلي

"ومنها"

أدرك ثأرا في العدى بحزمه كعُمَرَ الفاروق فيما قد مضى
وبرّ أمر الملك حتى شاده برغم من عاداه من كل الملا
جاهد في الله وأمسى ضاربا بسيفه هامات عسكر العدى
قاتل أهل الكفر لا يبغي بذا إلا رضي مولاه في يوم الجزا

"ومنها"

فخر لعبد القادر المولى السري يبقى ليوم الدين حيث الملتقى
ابن الملوك الصيد والقوم الأولى يُروى حديث مجدهم عمّن روى

"ومنها"

رقيت يا كهف الأنام للعُلى وكلُّ باغٍ؛ سُقتَه إلى الردى
بشرى لك الفتح الذي أوليته هُنِّئت بالنصر وإدراك المنى

"ومنها"

نفسي لك الفدا وكل من على وجه بسيط الأرض ذاته فدا
مَحَوْتَ ظُلْمَ الشرك والكفر أيا نتيجة الدّهر سليل المصطفى

"ومنها"

يزهو به الدّهرُ العبوسُ بعدما قد كان قِدْمًا قبله على شفا
نِدا حُداة النّصر لا يجيبه إلا أمير قد أجاب من دعا
حاز الكمالَ كله بين الورى عِلما وحِلما ثم مُلكاً وتُقى

ولما بلغ حاكم الجزائر خبر هذه الواقعة، أصدر أمره إلى الجنرال "ترزيل" أن يتخلّى عن وهران ويسلمها إلى الجنرال "دولورانج" ويحضر إلى الجزائر؛ ففعل. وطار الخبر إلى دولة فرنسا، فاحتدمت لذلك وكثر الشغب ونودي في محافلهم أن العرب هدموا شرف فرنسا. فتحرّكت فيهم الحمية. قال بعض مؤرخيهم : قام أحد الأعيان في مجلس النواب وقال إن هجوم الفرنسيس على بلاد الجزائر أراه من الأعمال الناشئة عن الطيش والهوس لأن سائر الأعمال الحربية فيها لم تأت بنجاح والمدن التي استولوا عليها، لا أرى فائدة لهم في الإقامة فيها. ثم قام المسيو "تيريس" (الذي تقلّد رئاسة الجمهورية الفرنسوية، سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف (1288) وسنة احدى وسبعين وثمانمائة وألف (1871)، بعد حرب ألمانيا) فقال : إن غزتنا الإفريقية لا تحسب من قبيل المهاجرة، ولا من قبيل المطالبة بقصد التملك وحالنا في تلك الأقاليم لا يحكم عليها بأنها من أحوال الحرب، ولا من أحوال السلم. وقصارى ما أقول إنها غزوة باطلة، عارية عن الفائدة. ولا أقول هذا، طعنا في حق عسكرنا، بأنهم ليسوا بأهل الشجاعة وأن قوادنا ليسوا بأهل معرفة. ولكن أقول إن الحرب لا تكون إلا لأمرين إما للفتح، وإما للتربية. فإن كان الأول، فليس هذا سبيله وإن كان الثاني، فلم نحصل عليه. ولم نصل إليه! فلما سمعت رجال المجلس هذه الخطب، تغيرت أفكارهم وكثر الضجيج وكاد أن يختل نظام المجلس. ثم اتفقوا على أن ينفضّ المجلس في ذلك اليوم ثم يعقد مرّة أخرى. ومن الغد اجتمعوا وقرّ قرارهم على عزل الكونت "دورِوان دورلون" حاكم الجزائر وتولية المارشال "كلوزيل" مكانه وإقرار الجنرال "دولورانج"

على ولاية وهران. وأمروا كلوزيل بالحمل على "معسكر" عاصمة مملكة الأمير عبد القادر. وأما الأمير فإنه علم أن يوم "المقطع" وإن جاء بنصر عظيم وتأييد جسيم، فإنه قد فتح باب حروب يشيب لها الوليد ويتقاعس عن دخول ميدانها البطل الشديد فشغله هذا التصور؛ عن التبجح بما أوقعه بعدوّه. وأخذ يتأهب للحرب ويستنهض همم المسلمين وكتب إلى خلفائه ينبّههم، ويستلفتهم إلى سطوة الفرنسيس ويذكرهم بشدّهم، وعدم تغافلهم عمّا وقع بعساكرهم.

وكان السيد محي الدين بن علاّل، خليفته في "مليانة" كتب إلى قبائل البربر، المستوطنين في ساحل ولايته، الدائنين بطاعة الفرنسيس؛ يدعوهم إلى الدخول في طاعة الأمير، والتعاون على الجهاد، ودفاع العدو عن البلاد وينبههم من غفلتهم ويقرع أسماعهم بما صاروا إليه من الوبال والخسران في الدنيا والآخرة. فقال :

"اعلموا أيها القوم! أنني رأيت أنه من الواجب عليّ أن أرشدكم إلى ما فيه صلاحكم والقيام بأمر دينكم. ولكن أخاف أن تكون آذانكم صمّاء عند ذكر نصائحي الناشئة عن صفاء طويتي لكم، وصدق نيتي في أمركم. ولا شك أن الله تعالى يغضب عليكم لكونكم أطعتم عدوّه الذي يعبُد غيره. أما تذكرون الآخرة وأهوالها؟ أما تعلمون أن المسلمين كالبنيان يشدّ بعضهم بعضا؟ أما سمعتم قوله تعالى: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾**[1] وأي برٍّ أعظم من آداء فريضة الجهاد؟ وأي إثم يقاس بطاعة الكفار والدخول في زمتهم، والانحياز

1. سورة المائدة، الآية 2.

إليهم؟ أما بلغكم قوله تعالى : ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾[1] وبالجملة، فإن ما أنتم عليه ضلال مبين وخسران لا يقاس به خسران. فبادروا –رحمكم الله– إلى الإقلاع عمّا أوجب لكم بذلك وتوبوا إلى الله تعالى، أيها المؤمنون! وهلموا إلى الانضمام إلى إخوانكم المسلمين وهاجروا إلى مواطنهم. واتركوا منازلكم التي هي الآن في خطر عظيم ولا يمسكم خوف على أنفسكم وأموالكم. وأنا الزعيم والكفيل بذلك. وإذا خالفتم أمري ولم تقبلوا نصيحتي وأقمتم في خدمة الكفّار وإعانتهم على المسلمين فإنكم قد ألقيتم نصيحتي وأقمتم في خدمة الكفّار وإعانتهم على المسلمين؛ فإنكم قد ألقيتم بأنفسكم وأولادكم إلى التهلكة وعرّضتموها لمقت الله، ولسيوف المسلمين كما هو مقتضى الشريعة المحمدية، فافهموا كلامي وتعالوا نتفق ونجتمع على كلمة واحدة، وقلب متّحد، بحيث إذا حرّك أحدنا يده، تحرّكت جمع الأيدي معه. فافهموا وبادروا إلى ما فيه وقاية أنفسكم، وحماية أموالكم وتقوية دينكم، وما يبعدكم عن غضب ربكم وانظروا إلى ما فعله الفرنسيس وخلفاؤهم من المنافقين "بعلال بن الراعي" من التعدي على مواشيه وكراعه ظلما وجورا. وإذا وفقكم الله إلى ما دعوناكم إليه، وصرتم إلينا؛ فإننا نعوّض عليه أضعاف ما أخذه العدو منه. والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته".

فوقع هذا التحرير عند أولئك القبائل الكثيرة العدد موقعا حسنا. وأجابوا –جميعا– إلى الدخول في الطاعة وهاجروا من بلادهم وفارقوا

1. سورة المائدة، الآية 51.

مساقط رؤوسهم ولحقوا بالجبال القريبة من "مليانة" وسهولها وانخرطوا في سلك إخوانهم المسلمين. ولما رجع الأمير إلى معسكر من واقعة المقطع، بعث إلى خليفته المذكور أن يجمع جيوشه، ويغزوَ على الجزائر، فغزاها في خمسة آلاف مقاتل. وكان هؤلاء القوم في مقدّمة الجيش ومروا -في طريقهم- في سهول "متيجة" وأعظموا النكاية بالمستوطنين فيها وفتكوا بهم وأثخنوهم بالقتل والأسر حتى وصلوا إلى أبواب مدينة الجزائر ثم انقلبوا بما في أيديهم من الأسرى وضروب الغنائم من الأمتعة والمواشي. وأوعز إلى خليفته البوحميدي في تلمسان أن يجمع الجيوش، وينهض بهم إلى منازلة وهران فنازلها وضرب الحصار عليها وقطع عنها مواصلة المستنصرة.

قال بعض مؤرخي الإفرنج : وبحسب الأمر فعل البوحميدي، جميع ما أمره به الأمير وصار الفرنسيس داخل وهران في أشد الضيق إلا أنهم أحسن حالا من أسرى الحرب. وكاد الأمير أن يحقق قوله : إنه لا يسمح للطير أن يجول من غير إذنه، فوق المدن التي استولى عليها الفرنسيس الذين أمسوا كالمغول يطلب الخلاص من قيوده، يتنفسون الصعداء وتتفتت أكبادهم غضبا. وأقاموا يترقبون وصول المدد مع أوامر الهجوم ليندفعوا على ذلك الأمير الذي رماهم بسهام نباهته المدهشة. (انتهى).

واستمر الأمير في معسكر ينتظر ما يحدث من دولة فرنسا. وفي الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنةاثنين وخمسين ومائتين وألف (1252) والثالث عشر من أغسطس سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف (1836)، وصل

المارشال "كلوزيل" والدوق "دورليان" ولي عهد ملك فرنسا الى الجزائر مع مقدار وافر من العساكر. فتلقيا بالإكرام. واصطفت لهما الجنود، عند باب البحر بالزينة الكاملة. ومن الغد، جلسا لقواد العسكر وأعيان البلد. وأطلعهم الماريشال على أوامر الدولة بولايته على مدينة الجزائر، وعلى حرب الأمير وأخبرهم ابن الملك إنما حضر معه ليراقب إجراء الأوامر. فضجّ القوم استحسانا لذلك وأنشدوا الأشعار المهيجة، المشهورة بغناء الجزائر، لأخذ الثأر. فوهم الماريشال لذلك وأخذ يتكلم عليهم، فيما يفتتح به أمره. وقال : أول ما نبتدئ به أن نزحف بجيوشنا على عاصمة الأمير. وإن ساعدنا الوقت في الاستيلاء عليها، نتمكن من أخذ الثأر. ونشفي أنفسنا من العرب. ثم نعقد مع الأمير عبد القادر صلحا باتا لكل نزاع. فضجّوا في محافلهم وكثر تصفيقهم، استحسانا لخطابه ولما رأى ارتياح القوم لما ألقاه إليهم وشاهد منهم النشاط لأخذ الثأر بيوم "المقطع" وأخذ الطيش وتخيل أنه استولى على سائر البلاد.

ودانت له بالطاعة والخضوع. وجعل ما ارتسم في خياله محسوسا في الخارج. ولم يكتف بذلك حتى رسم خريطة، جعل البلاد فيها أقساما. وعيّن على كل قسم منها عاملا وبعد مضي شهرين، أمسى ما تخيله هباء منثورا قال بعض مؤرخيهم : إن أعمال هذا الماريشال قضى الله عليها أن تناقض ما تخيله وتنتج له خلاف ما توهمه لأنه أرسل البعوث إلى جهات مختلفة، يستفسر بها عن الأحوال؛ فخسرت صفقتها ورجعت للجزائر مغلولة، لا يلوي بعضها على بعض. وأمسى الماريشال في كدر لا مزيد

عليه، لما حصل لجيوشه من الفشل والخيبة.واتخذ الناس خطابه، وخريطته هزوا وسخرية.

ذكر مسير الماريشال كلوزيل وولي العهد من الجزائر إلى وهران، واستيلائهما على عاصمة الأمير وخروجهما منها

وفي أول ديسمبر من السنة ركبا أسطولهما في العساكر والذخائر إلى وهران، وخيّما خارجها. وفي السابع والعشرين منه سارا قاصدين لمعسكر باثني عشر ألف عسكري. وكان مع الأمير ثمانية آلاف خيال، وألفان من المشاة، وأربع قطع من المدافع. وكان يترقب الفرصة بانفصال خطوط العساكر الفرنسوية ليكون الهجوم عليها مناسبا. إلا أن الماريشال كان يتجنب ذلك. وجيشه مضموما بعضه إلى بعض؛ ووجهه تجاه ميمنته، متقدّما لمهاجمة العرب. فتركه الأمير يتمتع بمنازلة مقدمة العرب واندفع لمعارضة الطريق التي تؤدي إلى معسكر. وميمنته كانت محمية بحرش. وميسرته مقيمة على تل أقرّ عليه الطوبجية. وكان ترتيبه هذا مما يجلب الإكرام لجنرال أوربي. فإنه كان يتمكن للقائد المقتدر أن يأخذ مركزا حربيا مناسبا، فاصلا للنزاع، لأن الحاذق بفن الحرب يجعل الوقت والفسحة خاضعين لمآربه على أن الأمر، قدّر له بأن يختبر وقتئذ. وبتركه

مبادئ فنّ الحرب الأوربي في وقت التزال وإخلاء المركز من تحت إرادته، كانت وسائطه دون المطالب التي تقتضيها حذاقته. كذا قال بعض مؤرخي الإفرنج. ثم إن الأمير، لما رأى العدو لا يثني عزمه شيء، زال عن وجهه وانسحب إلى قصر عائلته بالبستان المسمى "بكاشرو" ولم يخطر بباله أن يدافع عن حضرته "معسكر" لأن قوته لم تكن قوة حصار. وكان يقول لي : "كل محصور مأخوذ". وطيّر الخبر إلى حاكم الحضرة يأمره بالجلاء عنها قبل وصول العدو إليها. فخرج الناس سراعاً، بما خفّ عليهم من الأثاث والمتاع.ولم يتخلّف فيها إلا اليهود؛ واستمر العدو سائراً، والعرب يناوشونه القتال من أطرافه. وكان الحشم، لما نزل العدو بالبطحاء المعروفة "بهبرة" شقّوا العصا وتطايروا إلى بلادهم وجعلوا طريقهم إلى الحضرة؛ فانتهبوا دار الملك واستولت أيديهم على الخزائن وفشا النهب في البلد. وفي السادس من كانون الأول (ديسمبر) دخلها "كلوزيل" فوجدها خالية من الأهل والمتاع. فأقام فيها يومين. وجاءه الأمر بغتة بالرجوع، فانقلب راجعا إلى وهران وتخلّف فيها أوغاد القبائل المتنصرة من الدوائر، والزمالة. وأضرموا النار في أكثر دورها الشهيرة. وكان اليوم ماطراً، فلم تعمل النار فيها. وباءوا بها شقاءً لآخر الدهر. ثم جاء الأمير؛ فدخل الحضرة وتراجع أهلها من الجهات. وبعد أيام قليلة، عادت آهلة، عامرة الأسواق. وأقبلت الجيوش تردُ عليها أفواجا،

متأسفين، نادمين على ما سلف منهم، من التقصير في دفاع العدو. وجاء الحشم واعتذروا للأمير وأحضروا جميع ما انتهبوه من الأمتعة والذخائر ووعدوه بالثبات وحلفوا له الإيمان على ذلك وتضرّعوا في العفو والصفح عنهم؛ فأجابهم :

إن مرادي أن تريحوني من الحمل الذي وضعتموه على عاتقي. وقدّرتني الصوالح الدينية وحدها أن أقوم به إلى هذه الساعة. فلينتخب القوم خلفا عني. وإني ذاهب مع عائلتي إلى مراكش!

فتراموا على أقدامه صارخين :

"أنت أميرنا، وسيدنا وإذا تركتنا؛ فما لنا إلا أن نذلّ لعدونا".

فقبل الأمير توبتهم وصفح عنهم وأقبل على رؤساء الجيش النظامي، الذين ثبتوا معه، ولم يفارقوه، وهم أحلاس حرب، وفتيان كريهة. فأحسن السؤال عنهم وشكر شجاعتهم في حروبهم قبل هذه الواقعة. واستدرّ أرزاقهم. ثم وفدت عليه أعيان القبائل وأمراؤها من القاصية. فخطب عليهم وعرّفهم بعزمه على استمرار الجهاد، والذب عن البلاد. فأخلصوا الدعاء. وصدرت أوامره بالنفير إلى وهران وجعل نهر "سيك" موعدا لاجتماع الجيوش والحشود. وأخذ في الأهبة وكان رجل من الحشم يقال له "معمر" عينا للعدو على المسلمين. فاعتقله وأمر بشنقه، فشنق في يوم مشهود وتتبّع من كان على شاكلته من الأوغاد؛ فشرّد بهم من خلفهم وجعلهم عبرة. وحضر "أواري"، آغة الحشم،

بشمسية الملك، وكان انتهبها يوم الحادثة، فردها الأمير عليه. وقال له، وهو يبتسم :

"احفظها عندك إلى أن تصير ملكا يوما ما."

وأقرّه على رئاسته على الحشم الغرابة. وجعل خجله بين أقرانه قصاصا له وعقوبة تذكر بين الناس. وعلى هذه الحال، انتهت تلك الحادثة التي ابتدأت بما يشعر بسقوط الأمير. وختمت برجوع سطوته، بعد ثلاثة أيام، بما بهر العقول. قال بعضهم مؤرخي الإفرنج : ولطف الله تعالى هو الذي قاد الشعب العربي إلى الميدان، لذي شعر فيه بخطئه وألهمه إظهار الطاعة؛ فاتخذها كفارة عن الذنب الذي ارتكبه. فكان ذلك من أعظم الأسباب لتجديد قوة الأمير، ووقوع هواجس الخوف والرعب، في العسكر الفرنساوي وحلفائه من قبائل العرب. وكان الآغة "المازري" وغيره، من رؤساء الدوائر والزمالة، ألزمهم الأمير بسكنى الحضرة بأهلهم. وارتحلوا إليها –كما تقدّم– من حوز تلمسان وسكنوها. ولما قصد "كلوزيل" ولي العهد في هذه المرّة، وخرج أهلها إلى الجهات كانوا فيمن خرج ثم ساروا ليلا ولحقوا بإخوانهم، في جوار وهران، رغبة في موافقتهم على طاعة الفرنسيس والدخول في زممهم!. وكان مصطفى بن إسماعيل، عمّ "المازري" محصورا في قلعة "المشور" بتلمسان، مع الكول أوغلي. وكانوا بعد إذعانهم للأمير ودخولهم في طاعته؛ انتقضوا عليه ووافقوا ابن إسماعيل على التمرّد والرضى

بالردَّة. فلما بلغه أن ابن أخيه "المازري" ارتد، ولحق بوهران؛ أرسَل إليه يستنجده في أمره ويطلب إليه : أن يرفع أمره إلى "كلوزيل" ففعل.

ذكر خروج بوشناق التركي ورجوعه إلى مستغانم

ولما اتصل خبر الأمير بكلوزيل، بعث إلى بوشناق، حاكم مستغانم أن يتوجه بجيشه إلى نواحي الحضرة ليشغل الأمير عما هو بصدده. فخرج حتى انتهى إلى البطحاء، ومعه أعيان البرجية في قومهم. وطار الخبر إلى خليفته؛ فانحدر إليهم في الجيوش الإسلامية وناجزهم الحرب واشتد القتال بين الفريقين وأبلى المسلمون بلاء حسنا في ذلك اليوم. واتصل إلى الليل. ثم رجع كل فريق منهما إلى معسكره. وفي تلك الليلة، عمد المرتدون من البرجية، إلى نهر "هبرة" وفتحوا فيه أفواها؛ فانطلق الماء منها على السهل حتى عمّه. فلما أصبح المسلمون ورأوا أنه قد حيل بينهم وبين عدوهم؛ ارتفعوا إلى الجبل وانقلب العدو، راجعا إلى مستغانم.

ذكر واقعة واصل في نواحي تلمسان

ولما بلغ الأمير خبر المازري ورفقائه، وما أزمع عليه الماريشال كلوزيل من الإجلاب على تلمسان؛ تأهب لدفاعه. وكانت عساكره النظامية مخيمة في سهل بني "يخلف" من ضواحي الحضرة. فولى السيد "محمد بن فريحة بن الحضر" خليفة في الحضرة وما إليها ورتب له جيشا من العسكر النظامي ونهض بباقيه إلى نهر "سيك" حيث المعسكر العام. فعرض الأجناد والحشود. ثم سار غازيا على ابن عودة الزمالي في قومه؛ فصبّحهم، وهم على جبل "أغبال" المطل على سهل "ملاته" المتصل بوهران، فاكتسحهم. وقتل ابن عودة، في حومة القتال. ولم ينجح من قبيلته إلا الذي فر في الشعاب واستولى المسلمون على جميع أموالهم وأهليهم وامتلأت الأيدي من أثاثهم وأمتعتهم. ثم بعث الأمير بسبيهم إلى الحضرة. وارتحل إلى ثنية "ماخوخ" فسمع بنزول عرب أنكاد، في المنصورة، خارج تلمسان، نجدة لابن اسماعيل، والكول أوغلي. فسار منها حتى انتهى إلى "الحناية" بالقرب منهم وخرج ابن اسماعيل والكول أوغلي لينظموا إلى أنصارهم فحيل بينهم. ثم قسم الأمير جيوشه فرقتين : فرقة جعلها ردا له وفرقة تقدم بها لقتال عرب أنكاد. فناجزهم الحرب واتصل القتال عامة اليوم وكان الظفر للأمير في الجانبين. وارتد ابن اسماعيل وقومه على أعقابهم. فدخلوا القلعة، وتحصنوا بها وتركوا في حومة القتال ما يزيد على مائتي قتيل، ومثلهم جرحى. وامتلأت الأيدي من أسلابهم ومهماتهم. وأما عرب أنكاد،

فانهزموا من أول طلق وجعلوا طريقهم على أثقالهم؛ فحملوا منها ما قدروا عليه وأبعدوا المفر. فاستولى العسكر على أكثر نسائهم وأولادهم وأمتعتهم ... وجرح قائدهم، عبد الله بن الغماري، واستشهد من الأعيان "أبو زيان، مصطفى النكاري"، قائد الشمسية الملوكية، و"ابو حميد الزايري". واشتهرت هذه الواقعة باسم المحل الذي وقعت فيه. ثم ارتحل الأمير واحتل بوادي "الصفصيف" وتقدم إلى تلمسان وضرب عليها الحصار الشديد وبالغ في التضييق عليها.

ذكر مقتل الخليفة ابن فريحة، وولاية السيد مصطفى ابن التهامي على الحضرة

وبعد أن أقام ابن فريحة في أعالي البطحاء أياما، ارتحل إلى بلاد البرجية. وضربت له الخيام بالقرب من قرية "البرج" وطفق الجيش يلعبون على الخيل ويطلقون بواريدهم بالبارود -على عادة أهل الوطن- والخليفة ينظر إليهم، وهو في خيمته. فأصابته رصاصة في صدره؛ فمات لوقته. وعظم المصاب وانقلب السرور حزنا. ووقعت الريبة على بعض الفرسان؛ فمسكوا. ورجعت الجيوش إلى الحضرة ونما الخبر إلى الأمير -وهو محاصر لتلمسان- فأرسل ابن عمته السيد "مصطفى بن التهامي" إلى الحضرة وقلده خلافتها. وبوصوله إليها، قبض على زمام الأمور ونظر في أمر المتهمين؛ فتحققت براءتهم عنده.

وتبين له أن الأمر كان خطأ فأطلق سراحهم وهدأت القلوب. والتفت الناس إلى أشغالهم.

ذكر خروج كلوزيل من وهران إلى تلمسان وما آل إليه أمره في تلك النواحي

زعم كلوزيل أن دخوله إلى الحضرة يؤثر في المسلمين ويحدث في الملك وهنا يحمل الأمير على مسالمة الفرنسيس. فأقام في وهران ينتظر ما يصدّق ظنه. فلما تبين له أن الأمر على خلاف ما زعم ورأى أحوال المسلمين قد استقامت في أقرب مدّة، وكلمتهم اتّحدت ... وعلم أن الأمير غير ملتفت إلى مخابرته، بادر لإجراء ما وعد به "المازري" من إغاثة عمه "ابن إسماعيل" جماعة الكول أوغلي؛ فسار في عسكره إلى تلمسان، في الثاني من شوال سنة اثنين وخمسين ومائتين وألف 1252 والثاني عشر من يناير (كانون الثاني) سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وألف 1837. ففعل الأمير بتلمسان ما فعله بالعاصمة. فأمر بخروج الأهالي، والجلاء عنها؛ فخرجوا بما خفّ حمله من الأثاث والمتاع. فلما وصل كلوزيل بعساكره إلى ساحة البلد؛ قاتله الأمير واتصل القتال بين الفريقين من طلوع الفجر إلى الزوال. وخرج جماعة الكول أوغلي، وابن إسماعيل نجدةً للعدو. وفتحوا له أبواب القلعة؛

فدخلها بعد عناء لا مزيد عنه، في السابع عشر والثاني عشر من الشهرين المذكورين. وفي الثالث من دخوله، خرج من القلعة ووقع بينه وبين الأمير قتال شديد تكافئا فيه. ثم بثّ العدو سراياه في نواحي البلد. فعثروا على الكثير من أهلها، فأجبروهم على الرجوع إليها. ولّما تمكن كلوزيل من زمامُ البلد، وضع ضريبة باهظة على أوليائه، مثل الكول أوغلي، وابن إسماعيل، ومن معه من قومه ليسدّ نفقات تلك الحملة التي ارتكبها، من غير إذن دولته. فانتدب لجمعها رئيس الكول أوغلي "مصطفى ابن المقلش" فألح فيها على قومه حتى إن الرجل يبيع ملبوسه وفراشه ويؤدي ما افترض عليه، وأن المرأة تبيع مصاغها وثيابها، وتدفع عن نفسها ما افترضوه عليها. وشاع خبر هذه الضريبة في النواحي؛ فنفرت قلوب الناس من الفرنسيس، لسوء تصرفاتهم. ثم اتصل الخبر بدولة فرنسا، فنقمت ذلك على كلوزيل. فخرج من تلمسان، راجعا إلى وهران، بعد أن ترك فيها حامية وذخائر، لنظر القائد "كافينياك"، فلقيه الأمير بعساكره، قرب البلد وانتشب الحرب بين الفريقين، واتصل عشرة أيام. وكانت الدبرة فيها على كلوزيل وجنوده. فرجع مغلولا الى تلمسان، وتحصّن بالقلعة. ثم جدّد عزمه وخرج في الثالث من ذي القعدة سنة اثنين وخمسين ومائتين وألف (1252) والعاشر من فبراير (شباط) سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وألف

(1837)، فالتقاه الأمير الثانية، بعزم لا يردّه راد، ولا يصده صاد وألّح عليه المسلمون في القتال؛ فدمّروا أكثر عساكره واستولوا على معظم ذخائره. وقد حكى هذه الواقعة بعض مؤرخيهم بقوله: خرج المارشال كلوزيل بجنوده من تلمسان راجعا إلى وهران. فصادف، في طريقه، أهوالا جمّة، وعاين مصائب شديدة، منها هزيمة عساكره، وتشتيت شملها، بوادي "عوشبة" ومنها أنه ارتدّ عن طريقه التي جاء عليها وسلك طريق الساحل إلى مرسى "رشكون" فوصلها على أسوإ حال. ومنها أن الأمير أخذ بمخنقه فيها وأقام محاصرا له مدّة شهرين كاملين، لا يخلو يوما منها من القتال. ثم لما أعياه الأمر وضاقت به الحيلة، بعث صريخه إلى نائبه في وهران؛ فبعث إليه بالمراكب فركبها بجيوشه وحمل ما أمكنه من الذخائر ولحق بوهران. وكاد الغضب يمزق فؤاده. وسوّلت له نفسه أمرا أوقعه في الخجل وهو ما أشاعه في الدوائر الرسمية من أنه قهر الأمير، وغلبه، وألجأه إلى الفرار إلى الصحراء. فكانت جنوده تتحدث في المحافل والمجامع بما يكذب خبره، وتعلن بما حلّ بها من الوبال، وبما شاهدته من إقدام العساكر العربية، وقوّة جأشها وشدّة بأسها. ورؤسائهم يؤيدون ما يخبرون به. ثم إن كلوزيل نصب الجنرال "دولورانج" واليا على وهران. والجنرال "بهاراغو" قائدا على الجند. وتوجّه إلى الجزائر. وبعد ثلاثة أيام من سفره؛ سار "بهاراغو" في ثلاثة

آلاف عسكري، وثمانية مدافع، إلى تلمسان ليمهّد الطريق بينها وبين وهران. فتمكنوا من المواصلة بين البلدين. ولما وصل إلى نهر "تافنا" أقام متاريس على شطوط النهر. واتصل الخبر بالأمير؛ فسار إلى "ندرومة" حيث يمكنه رؤية حركات العدو من كل جهة، في المحل الذي تتشعب منه الطريق، من "تافنا" إلى "تلمسان ووهران". واستمرّ عدة أسابيع، يقطع جبال القبائل الممتدة حول "تافنا". وبقي عدّة ليالٍ، من دون رقاد؛ محرّضا وواعظا! ثم توجه بجيوشه واعترض العدو في وادي تافنا، في سابع نيسان (أبريل) والتحم القتال بينهما نهارا كاملا. ثم ضرب الجنرال معسكره في الوادي ورتّب صفوفه على هيئة قلعة ونزل الأمير بعساكره بالقرب منه وحاصره في الهيئة لتي هو عليها. وفي الرابع والعشرين من الشهر؛ تهيّأ الجنرال للانتقال من مكانه؛ فضج المسلمون من كل جهة، وزحفوا إليه دفعة واحدة، غير مبالين بصلصلة المدافع، ولا بقعقعة البارود. وهجموا على المدافع؛ فاستولوا عليها. وسار الجنرال بجنوده على الهيئة التي كانوا عليها، والعساكر الإسلامية محيطة بهم، تذيقهم نكال الحرب حتى أعجزتهم؛ فعسكروا على هيئتهم الأولى. ويؤيده قول بعضهم : خرج الجنرال "بهاراغو" من وهران، قاصدا تلمسان. وحين حلّ في وادي تافنا، التقاه الأمير بجيوشه وهجم عليه هجوما أمسى به محصورا. ولما طال عليه الأمد، أمر جيوشه

بالزحف على جيوش الأمير المحيطة بهم، مؤملا أن ينال فرجا، أقلّه أن تتوسع عليه دائرة الحصار. فسوء حظه لم يمكنه من مراده. وكانت نتائج أفكاره وبالا عليه وعلى جيشه وقد أظهر العرب على ذلك اليوم شجاعة غريبة. وكان الأمير ممتطيا صهوة جواده أمامهم، يخترق صفوف العسكر الفرنساوي غير مبالٍ بما تقذفه أفواه بواريدهم من بَرَد الرصاص. ولما شاهدت جيوش العرب بسالة أميرهم، ازدادت حميتهم وقوي هيجانهم. فهجموا بقوة لا مزيد عليها حتى انتهوا إلى المدافع الفرنسوية. فلم يكن من الطوبجية إلا الفشل. ولم يسعهم إلا الهروب وتسليم المدافع وحينئذ، تقهقر الجيش وارتدّوا على أعقابهم، مدافعين عن أنفسهم، حسب ما تقتضي به أحوال الحرب. فكانت العساكر الفرنسوية تركض، وخلفها فرسانها، يحمونها. ومن ورائهم، الجيوش العربية تفتك بهم، ولم يرتدّوا عنهم حتى أتلفوا منهم عددا وافرا. ولما رأى الجنرال أن عسكره قد دمره الحرب وطال عليه الأمد، أزمع على الهجوم الأخير فتهيأ وجمع قوّته وأصبح سائرا على طريق وهران. وسار المسلمون يأخذونه من أطرافه إلى أن لحق بها في شرذمة قليلة. وكانت الجيوش الإسلامية قد أخذ التعب من قوتها، ونشاطها. فجعلوا يتسللون إلى أوطانهم. ورجع الأمير بعسكره النظامي إلى "ندرومة".

ذكر ولاية الجنرال بيجو على وهران وخروجه إلى تلمسان

لما اتصل خبر الجنرال "دولورانج" وجيشه بدولة فرنسا؛ امتعضت له وجهزت الجنرال "بيجو" بثلاثة آلاف، لإغاثته. فسار بيجو من باريز في جيوشه إلى وهران. ثم في السادس والعشرين من ربيع الأول، سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف (1253) وأول يوليه (تموز) سنة سبع وثلاثين وثمانمائة والف (1837) سار إلى تلمسان بالذخيرة إلى جيشهم المحصور في قلعتها. وكانت الجيوش الإسلامية من المتطوعة قد لحقها الضجر. وطالت عليها المدّة في الحروب. فلحقت بأوطانها. ولما اتصل خبر بيجو بالأمير، وهو في "ندرومة"، سار إليه فيمن معه من العسكر، والتقى الفريقان، على نهر "سكّاك". واهتاج المسلمون للجهاد وهجموا عل تلك الجيوش الكثيرة؛ فاستطرد لهم بيجو حتى أجازوا النهر. ثم انعطف عليهم فأثخن فيهم. وانكشفوا أمامه. وكثرت القتلى والجرحى بينهم. ومحّص الله المسلمين في ذلك اليوم. واستمر بيجو سائرا إلى تلمسان. وبعد أيام، رجع إلى وهران وطيّر الخبر إلى دولته يبشرهم بانتصاره. ويتبجّح بما اتفق له من النجاح، في أوّل حركة كانت منه في بلاد الجزائر. ثم توجّه إلى فرنسا وجعل قيادة الجيش إلى الجنرال "والستاك".

ذكر حصار الأمير تلمسان

وبعد واقعة نهر "سكّاك"، أرسل الأمير في المدائن والضواحي ينادي بالجهاد. فاجتمع المسلمون في الجهات والضواحي التي عيّنها لهم؛ لانتظار خلفائه فيها. وسار فيها من "ندرومة" بعد أن أزاح العلل في نواحيها. فنازل تلمسان بقوّته وضيق حلقة الحصار عليها وضبط خارجها؛ فاشتد الأمر على أهلها ونفذت ذخائرهم وأجهدهم الجوع حتى أكلوا جميع ما حضرهم من أنواع الحيوان. وأفضى بهم الأمر إلى أشنع الأحوال. ذكر القائد "كافينياك" رئيس العسكر الفرنسوي، المحصور في قلعتها أنه كان يشتري الهرّ الواحد بأربعين فرنكا، لقوته. وأمّا غيره فإنه كان لا يجد فأرا يقيم به أوده. وكانت مدّة إقامة الحصار عليها تسعة أشهر. وختم الأمير في هذه المدّة قراءة صحيح البخاري أربع مرّات. وقد أخبرني ابن خالي السيد محمد أبو طالب أنه رأى نسخة من البخاري، في مجلّد واحد، عند الشيخ "محمد القلي" قاضي "بجاية" كانت للأمير، مكتوبا بآخرها بخطّه :

"ختمت البخاري بهذه النسخة أربع ختمات، وأنا محاصر تلمسان عجّل الله بفتحها للإسلام" ... وبسفر "كلوزيل" و"بيجو" إلى فرنسا، انقشعت غيوم جيوشهم عن الدّاخلية. ولم تصل يدهم إلى وضع الحاميات، في الأماكن التي اختاروها لذلك فيما بين وهران وتلمسان والجزائر والمدية. ورجعوا إلى حدودهم. وانحجزوا في مدنهم. ونازلتهم

الجيوش الإسلامية فيها حتى أجهدهم الحصار واحتاجوا إلى الأزواد. وانقطعت أخبار الداخلية عنهم لشدّة الضبط بحيث أن الجواسيس والسعاة من المتنصرة لم يجدوا سبيلا إلى تبليغ التحارير إلى أهلها. وأقاموا على ذلك مدّة. ولّما عُمِّيت أخبارهم عن الأمير، بعث إلى السيد "حمادي السقال" من أهالي تلمسان يفاوضه في ذلك. ويحثّه على اتخاذ وسيلة يتوصّل بها إلى مطالعة أخبار العدو. فأجابه إلى مطلوبه وتقدّم إلى الحاكم في أن يجعل إليه إرسال المكاتيب إلى وهران والجزائر وغيرهما ويتكفّل بتبليغها وردّ أجوبتهما. فانشرح صدرُ الحاكم إلى ذلك وطفق يجمع المكاتيب ويسلّمها إلى سعاة من العرب يمرّون بها على الأمير. فيطلّع عليها ثم يردُّها إليهم. فيذهبون بها إلى مواضعها، وعند رد أجوبتها كذلك. فكان الأمير لا يفوته شيء من أخبار العدو وأحواله ومكائده، وما في عزمه أن يجريه معه. ثم أناب ابن عمته السيد "مصطفى بن التهامي" على الجيش وسار في شرذمة قليلة من الفرسان إلى المدية، لما بلغه أن "الكول أوغلي" من أهلها أثاروا الفتنة فيها وكاتبوا حاكم الجزائر بطاعتهم. فقبض على أهل الريبة منهم وأذاقهم نكال العقاب وأصلح خلل البلد وولّى عليها أخاه السيد "مصطفى بن محي الدين" وانفتل راجعا إلى تلمسان. وانتقل أمره

إلى طور التأييد والانتصار على الأعداء. وأمسى يوم "سكّاك" وغيره من الأيام الهائلة نسيا منسيا.

ويعجبني ما ذكره "اسكندر بالمار" في تاريخه، عند تعرُّضه ليوم سكّاك "وهو أن من العجب رجوع قوة الأمير عبد القادر إلى حالها الأولى، بعد أن اعتراها الاضمحلال والتلاشي، ثلاث مرّات.

الأولى : بعد استيلاء الجنود الفرنسوية على عاصمته.

الثانية : بعد غزوة تلمسان.

الثالثة : بعد وقعة "سكّاك".

وكل حادثة من الحوادث كانت صالحة، لأن تكون سببا قويا لسقوط قوّة أعظم سلطان، راسخ القدم. ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره ولم تحصل الأمة الفرنسوية منه طائل. فلهذا أقول : لله درُّ هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة، وتصرفاته الغريبة لا تفارقان ذاته طرفة عين. ومن هنا تعلم أنّه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوته".

وقال غيره : "إن تلك الوقائع تسحق عقل القوي، وتضعف عزمه ولو كان كالصّخر. إلا أن الأمير كان لا يبالي بذلك لأنه عالم بأنه إذا ابتسم ثغر السعد؛ فبسيفه البتار، يقدر كل ساعة أن يجلب العُصاة والمتمرّدة ليخرّوا عند قدميه".

ذكر مسير كلوزيل إلى قسنطينة وهزيمته، ثم عزله عن الجزائر ولحوقه بفرنسا

بعد واقعة "عوشبة" و"رشكون"؛ رجع كلوزيل إلى وهران ومنها إلى الجزائر ثم إلى فرنسا، يستعتب دولته فيما ارتكبه من غزو تلمسان بدون إذن منها؛ فأعتبته واستنجدها، فلم تنجده. وجعلت إليه أوامر الحرب، بما عنده من الجند، في الجزائر ووهران؛ فرجع بصفقة خاسرة. وكان متهما بغزو قسنطينة؛ فسار إليها في المراكب في الثامن من شعبان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف 1853 والثامن من نوفمبر "تشرين الثاني" سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وألف 1837. وأرسى في "عنابة" وفي الخامس عشر منه، احتل "بكالمه" فأقام فيها أياما. ثم عرض جنده وزحف إلى قسنطينة؛ فتلقاه القائد "علي بن عيسى" واقتتلوه قتالا شديدا. وفي آخر النهار، انكشفت الجيوش الفرنسوية واتصلت الهزيمة إلى نصف الليل. واستمر "كلوزيل" راجعا إلى "كالمه" تاركا قتلاه ومعظم ذخائره و مهماته في أيدي المسلمين. ثم سار من كالمه إلى "عنابة" ومنها إلى الجزائر. واتصل خبره بدولة فرنسا؛ فامتعضت له. ثم عزلته. ولحق بفرنسا وتولى مكانه الجنرال "دوبروسوار".

وقد ساق بعض المشاهير، من المؤرخين، أخبار كلوزيل. فقال: "أما عمل كلوزيل في فرنسا، في سفره الأخير فهو أنه تشبث بما رآه سببا عظيما في الحصول على مقاصده؛ فطلب نجدة جديدة لكي

يتوصل بها إلى الاستيلاء على بلاد الجزائر. وأظهر لوزير الحرب أن الأمر لا يتم إلا بجيوش كثيرة. فلم يجبه الوزير إلى مطلوبه. ولم يوافقه مجلس نواب الأمة. وإنما أُمر بالرجوع إلى الجزائر وإجراء ما اعتزم عليه بما عنده من الجند في الجزائر ووهران. فكان هذا الأمر موجبا لضعف همّته. فرجع إلى الجزائر وجهّز تسعة آلاف جندي وسار في المراكب إلى عنابة، قاصدا قسنطينة. وفي الخامس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) وصل إلى "كالمه" وهي مدينة قديمة رومانية، خربتها العرب، لأول الفتح الإسلامي، ولم يبق فيها إلا آثار ورسوم. فأقام هناك للاستراحة والنظر في أحوال الجيش. ثم ابتنى فيها برجا من خشب وشحنه بالحامية والذخيرة وسار إلى قسنطينة. وكان القائد علي بن عيسى صمد لهم في العساكر. فتناجز الفريقان وأخذ كلوزيل يسوق جنده إلى لظى الحرب وأضرم نارها. وبعد هجمات، ارتدت جيوش فرنسا على أعقابهم وغلبهم العرب على حمل القتلى والجرحى؛ فتركوهم في أيديهم وأثخنوا فيهم بالقتل والأسر. وبعد العناء الشديد، وصل كلوزيل بجيوشه إلى "كالمه" ومنها توجّه إلى عنابة، بعد أن ترك فيها فرقتين من الجند لنظر الأمير ألاي "دوفيفه". ثم توجّه إلى الجزائر. ولما اتصل الخبر بدولته، عزلته عن غضب. فلحق ببلاده. ولم يزل في كدرٍ إلى أن مات.

ذكر البعوث إلى الثغور

ولما اتصل بالأمير أن كلوزيل توجّه في عسكره إلى قسنطينة، انتهز الفرصة وجهّز البعوث إلى وهران، في جموع قبيلتي : الغرابة، وبني عامر، ومن انتمى إليهم. فاكتسحوا نواحيها وأشفوا مزارعها واستولوا على ماشيتها وانتهبوا الأبراج والأكواخ القريبة من أسوارها وضربوا عليها سياجا من الرماة والأنجاد وقطعوا عنها مواصلة المتنصرة من العرب. وأمست محصورة من جميع نواحيها البرية. ثم سرّح إلى الجزائر خليفته السيد محمد بن علاّل. فعاث في نواحيها واستباح القرى في ضواحيها وانتهبتها جيوشه. ثم أضرموا نارا وأثخنوا في أهلها قتلا وأسرا ووصلت خيله إلى أبواب الجزائر. وجعل الأرصاد على من يواصلها من متنصرة البربر. وأقام في تلك الجهة يواصل الغارة على الساحل حتى امتلأت الأيدي بالغنائم وضاق الفضاء بالماشية. ثم جعل العيون على العدو ورتب الحاميات والمسلحات وانقلب راجعا إلى حاضرة ولايته "مليانة" وطيّر الخبر إلى الأمير بما أجراه في حركاته. وفي أثناء هذه الوقائع، حدث ارتباك في فرنسا بين مجالسها. وانقطعت الميرة والمدد منها عن مدينة الجزائر ووهران، وغيرهما من مدن الساحل. والتحق أهلها بأهل تلمسان في شدّة الانحصار والجوع.

ذكر انعقاد الهدنة

ولما اشتد الحصار على المدن التي فيها الفرنسيس، وطالت مدّته، وصاروا إلى حالة يرثى لها؛ أدركهم حسن حظهم، ونباهة "ابن درّان الموسوي" فانتدب من وهران، ولحق بالأمير؛ وهو محاصر لتلمسان. وفاوضه في إبرام الهدنة مع حاكم وهران. ورغبه بما ينجم عنها من الفوائد مع راحة الجيوش الإسلامية من معاناة الحروب وشدائدها. وألّح عليه في ذلك؛ فأجابه بشرط أن يطلق العدو أسرى المسلمين. فرجع ابن درّان إلى وهران وأخبر الجنرال "دوبرو سوار" قائد الجيش، بما كان من الأمير، فأظهر ارتياحه إليه. ثم قرّ القرار بين الفريقين على أن ابن درّان يتولّى المواصلة بين الطرفين فيما يحتاج إليه كل منهما من الآخر. فيبتاع سائر ما يحتاج إليه الفرنسيس في الجزائر ووهران وتلمسان من أنواع الحبوب والماشية لنفسه من الأمير. ثم يبيعها إلى الجنرال. ويأخذ منه بأثمانها جميع ما يحتاج إليه الأمير من المهمّات الحربية.ثم يبيعها من الأمير وانعقدت الهدنة على هذا بين الفريقين...

ثم أطلق الجنرال الأسرى، وأفرج الأمير عن تلمسان. وصدرت أوامره إلى خلفائه، المحاصرين لوهران والجزائر بالإفراج عنهما. وارتفع الحجر عن المدن المحصورة وراجت الأسواق فيها. وعاد أهلها في أرغد عيش فقدوه منذ زمان طويل. وبهذه الهدنة، استحصل الأمير من عدوه

مهمّات حربية وذخائر عظيمة. وبعد مدّة قليلة، استعملها في قهره وكبحه. وبهذه الهدنة، زادت قوّته وتوصل إلى فك الذين كان المسلمون يتأسفون عليهم من الأسرى. واستمر الأمر على ذلك مدة أخذ كل فريق فيها الراحة والدعة ورجعت له فيها قوته.

ذكر ولاية الجنرال دومرمون على الجزائر، والجنرال بيجو على وهران

ثم إن فرنسا اتفق رأيها على نقض الهدنة وتجديد الحرب مع الأمير إذا لم يجنح للسلم على شروط ترضيهم. فعُزل المارشال "كلوزيل" عن الجزائر. ونصِّب الجنرال "دومرمون" حاكما عاماً عليها. وعُزل الجنرال "دوبرو سوار" عن وهران وولّي مكانه الجنرال "بيجو" وسار كلٌ منهما إلى موضع ولايته، في العدد والعُدد. فوصل الجنرال دومرمون، الحاكم العام، إلى مدينة الجزائر بثمان ألف عسكري مع مهمّاتهم في أوائل المحرّم سنة أربع وخمسين ومائتين وألف 1254، وأوائل أبريل (نيسان) سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وألف 1838. فأرسل له الأمير "ابن الدرّان" ليبارك له في مأموريته. ويخبره بأنه أزمع على ضرب نقودٍ، ويطلب منه أن تجري المعاملة بها، في المحلات الحالّة بها الفرنسوية. فأجابه : إنه لا بدّ له من الاستئذان من حكومته. وبعد

مدة، سأله عن ذلك، فأجاب بأن الحكومة لم تسمح حيث لم تحصل المخابرة عليها في معاهدة "دي ميشيل" وكانت آراء العامة في فرنسا -وقتئذ- متفقة على ترك الجزائر لأهلها. ورجال الدولة كانوا يرون دوام الحرب فيها إلى النهاية أولى من تركها. وكان الجنرال "بيجو" مخيّراً من دولته بين أمرين : إمّا أن ينقض الهدنة المعقودة بين الأمير وحاكم وهران السابق. وإما أن يعقد الصلح مع الأمير، على وجه يوافق مقام فرنسا. وأمرت حاكمها العام أن يجري جميع الوسائل والأسباب التي يحصل بها الوهن في قوة الأمير أو يجري صلحاً متين الأركان، مقبولا عند دولة فرنسا.

ذكر انعقاد الصلح وما جرى في شأنه من المخابرات والمحاورات

ولما وصل الجنرال بيجو هذه المرة، كان أشد ما يكون من القوة والحماسة. فعزم أولا على نقض الهدنة، وإشهار الحرب. فكتب مكتوبا يتهدد فيه أهل البلاد. وعدل عنه إلى مكاتبة الأمير في الصلح. فكتب إليه:

"إلى سمو الأمير عبد القادر. أخبركم أنني قد حضرت إلى وهران مكلّفا من طرف دولة فرنسا بإجراء أحد أمرين :

إما الصلح؛ وهو الأولى والأسلم، على شروطٍ يكون خيرها ونفعها عائدين على الأمتين العربية والفرنسوية.

وإما الحرب لآخر درجة تصل إليها الاستطاعة. فأرجو –بعد التأمل فيما ذكرناه– أن تتناولوا لردّ الجواب".

فلمّا اطّلع الأمير على المكتوب، علم أن إقدام هذا الجنرال على الحرب يحمله –ولابد– على إضرام نارها. وهذا يضر بالمسلمين. وأن إجراء الصلح –ولو إلى وقت غير مديد– لا بدّ أن يأخذ من سورة الجند الجديد، ويكسر شوكته. وحينئذ، تميل أنفسهم إلى الراحة. وتضعف قوّتهم. ولذا، أجاب الجنرال بما أطمعه في إجراء الصلح. وصورة جوابه :

"إلى حضرة الجنرال بيجو. أمّا بعد؛ فقد وصلني كتابكم. واحتطت به علما. فذكرتم أن دولة فرنسا أمرتكم بإجراء الصلح –إن أمكن– وإلا فاستعمال السيف، مع أن دولة فرنسا تعرف أني أشدّ الناس رغبة في حصول العافية وأشدّهم بغضا لسفك الدماء، بدون موجب شرعي. وإنما لتعلم أنني لراغب في عقد الصلح، وإقامة دعائمه، على أساس قوي، لا يتضعضع. ويشهد لذلك ما خابرتما به، على يد سفيرها في طنجة. فإن ساعدت العناية الإلهية على إجراء هذا الأمر على يدكم، فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى، وصدق خدمتكم للدولة والشعب معاً، فانظروا ما ترغبون فيه وأخبروني به على الفور، بواسطة رسولي إليكم، حتى أنظر فيه".

ولّما وصل "ابن الدرّان" الموسوي بمكتوب الأمير إلى الجنرال بيجو وفاوضه في أمر الصلح وزيّنه في قلبه، وقلوب بطانته؛ مالت نفوسهم إليهم واتفّقت كلمتهم عليه. فكتب الجنرال الشروط الآتية. وجعلها كالأساس للاتفاق. أصحبها بمكتوب نصّه :

"إلى سمو الأمير عبد القادر. أخبركم بوصول رقيمكم. وجميع ما حواه من كلامكم صار معلوما عندي. ولرغبتي في حصول الخير للأمتين، قد حملت الرسول ورقة، وذكرت فيها الشروط، التي يتوقف إجراء الصلح عليها، وإني أطلب أن تقبلوا احترامي لجنابكم العالي".

ونص الشروط التي كتبها :

الأول : أن يعترف الأمير برئاسة فرنسا.

الثاني : تحديد مملكته إلى نهر الشلف.

الثالث : أداء الجزية.

الرابع : أن يعطي رهينة كفالة وفعلا موافقا لكل معاهدة يتفق عليها في المستقبل.

الخامس : كل من التجأ من الأمتين إلى الأخرى لا يجبر على الرُّجوع إلا إذا كان قاتلا.

ولما اطّلع الأمير على هذه الشروط، صعب عليه قبولها. فردّ اليهودي فورا. وأمره أن ينهي للجنرال بيجو شفاها :

"أن الأمير يرى أنه لم يزل على الحال التي كان عليها، من قبل المخابرة. بل يرى أنه في مقام أعظم وأعلى. فلا يمكنه أن يقبل هذه

الشروط المجحفة بمقامه الذي اعترف به من تقدّمك من حكام الجزائر ووهران بمعاهدة الجنرال "دي ميشيل" لاسيما والمسلمون لا يرضون أن يكونوا تحت حكم الإفرنج. فإن كانت دولة فرنسا تريد إذلالهم وإخضاعهم لحكمها؛ فدون ذلك حرب طويلة الذيل، مديدة السيل! ثم إن ابن الدرّان، بلّغ الجنرال ما سمعه من الأمير وفاوضه في إقليم تيطري. فقال له : إنما كان استيلاء الأمير عليه برضى أهله وعن طلب منهم. وعلى هذا فلا تسوغ له ديانته، وشرف نفسه أن يفوت قوما مسلمين سلّموا إليه أرواحهم وأموالهم، على أنه ليس من مصلحة الفرنسيس أن يستولوا على قومٍ هم لهم كارهون. فالأولى أن تعدل دولة فرنسا عن الشروط وأمثالها وتجعل الصلح مبنيا على شروط تجارية في الأساكل التي بيدها وتعرض عمّا سوى ذلك.

ثم،قرّر له من عنده أن الأمير يمكن أن يسمح للفرنساويين أن يعمّروا سهل "متيجة" ماعدا "البليدة"، ويمنحهم ضواحي وهران الواقعة على الشط البحري، الممتد منها إلى مستغانم بحيث لا يتعدّون سيف البحر وأن يتعّهد لكم بالقيام بحقوق كل فرنسوي يختار الإقامة في داخل مملكته، وبكونه يدفع عنهم كل تعدٍّ من العرب، وإن طرأ على أموالهم شيء من ذلك؛ فعليه ضمانه. وقد آلى على نفسه أنه لا يسمح بمقدار فترٍ من الشطوط لدولة أجنبية غير دولة فرنسا".

واحتراس اليهودي بهذا، دفعا لما بلغ فرنسا من أن دولة انكلترا أرسلت للأمير معتمدين ليجعلوا معه معاهدة، بناء على أن يعطيهم حقّ التملك في مدينة وهران التي هي في يد الفرنسيس، ودولة انكلترا تتعهّد بإخراج الفرنسيس منها، ومن جميع القطر الجزائري. فلم يقبل الأمير ذلك.

فلما سمع الجنرال هذا التقرير استكان له، وكتب هذه الشروط :

أولاً : يعترف الأمير برئاسة فرنسا في إفريقية.

ثانياً : إنّ فرنسا تحتفظ -لذاتها- في إيالة وهران بقعة عرضها : من عشرة إلى اثني عشر فرسخاً، ابتداؤها من وادي المالح. وانتهاؤها نهر شلف. وفي إيالة الجزائر تحفظ -لذاتها- مدينة الجزائر، وهي تتخلّى له عن إيالة "تيطري" و"وهران". وماعدا البقعة المذكورة آنفا.

ثالثاً : يدفع الأمير جزية سنوية، من حبوب ومواشٍ.

رابعاً : أن يكون للتجارة حرية كاملة.

خامسا : يتكفل الأمير بكل الأموال التي تحتاج إليها فرنسافي الحال والاستقبال".

فلما وصلت للأمير واطلع عليها عدل عن مخاطبة بيجو، وكتب إلى الحاكم العام "دومرمون" :

"إنه غير خفي على حضرتكم، ما جرت به المخابرة، بيننا وبين الجنرال بيجو، حاكم وهران، في عقد الصلح، والعدول عن عادية الحروب التي أضرّت بالأمتين. وحيث أنني وجدت مطمح

أنظاره بعيدا عن المطلوب، عدلت عن مخابرته إلى مخابرة حضرتكم؛ مؤملا النجاح في ذلك. ولبعد المسافة بيننا، عزمت على التوجه إلى "المدية"، حاضرة ولاية "تيطري" لأكون فيها قريبا منكم. وبذلك تسهل المخابرة بيننا".

فاهتز الحاكم لهذا الخطاب، فرحاً. وكان جوابه :

"إلى سمو الأمير عبد القادر، سلطان العرب. أخذت مرسومكم. وفهمت منه ميلكم لوضع حدّ فاصل لنوائب الحرب، غير أنني إلى الآن، ما وقفت على ما جرى، بين سموكم وبين الجنرال بيجو. وإني اعتقد رغبتكم في صالح الجنس البشري، عموما. وأطلب من الإله القادر أن يمنحنا قوّة على تذليل الأمور الصعبة وإجراء ما نرغب فيه جميعا، من الخير العمومي. وأرجوكم أن تقبلوا احترامي".

ثم توجّه الأمير إلى "المدية" وفاءً بعهده. ولما اتصل بابن الدرّان الموسوي ما جرى بين الأمير وحاكم الجزائر من المخابرة؛ خشي أن تحصل الموافقة بينهما، على يد غيره! فتقدّم إلى الجنرال بيجو في ذلك وعظّم له الأمر وقال : هذا مخالف لأمر الدولة!. فاستشاط الجنرال غيظا وطيّر شكواه بالحاكم العام إلى دولتهم. فخطّأت الحاكم فيما أجراه من قبول المخابرة مع الأمير بدون علم بيجو. ونهته عن التداخل في أمر الصلح بل يترك أمره إلى بيجو. وفي الوقت نفسه كتب إلى الأمير :

"قد أخبرتكم بشديد رغبتي في إجراء الصلح و إلى الآن، لم أزل إلى ذلك، غير أن أمر الحرب و الصلح منوط بالجنرال بيجو. فإن وجدتم وجها مناسبا لإجرائه معه، فافعلوا.واقبلوا مني مزيد الاعتبار، لمقامكم".

ولّما اطلع الأمير على هذا التحرير، اضطره الحال إلى الرجوع إلى عاصمته. وبعد أن أخذ الراحة، سار إلى نواحي تلمسان وأرسل إلى الجنرال بيجو، هذه اللائحة، جوابا عن لائحته. وهي :

أولاً : يعترف الأمير بسلطة فرنسا.

ثانياً : كل المسلمين الذين يسكنون خارج المدن يكونون تحت حكومته.

ثالثاً : ملك فرنسا في الغرب ينحصر في البلاد التي بين البليدة" والبحر. ويمتد إلى حد المقطع. ومن جهة مدينة الجزائر يسمح لهم أن يستولوا على البلاد التي بين تلك المدينة ونهر "بني عزا".

رابعاً : الأمير يدفع عشرين ألف كيلة حنطة ومثلها شعيرا. وثلاثة آلاف رأس من المواشي في هذه السنة فقط.

خامسا : للأمير أن يشتري من فرنسا بارودا وكبريتاً وسلاحاً.

سادساً : أن الكول أوغلي، الذين يختارون أن يبقوا في تلمسان، تحفظ أموالهم ... ويكونون تحت حكمنا. ولهم أن ينتقلوا إلى أرضنا.

سابعاً:إن الذين يتركون أرضنا، أو أرضاً فرنسوية، ينبغي أن يسلموا عندما يُطلبون من أحد الفريقين الذي ينتمون إليه.

ثامناً : أن تترك فرنسا للأمير رشكون وتلمسان مع قلعتيهما، والمدافع والهواوين التي بها من قديم. والأمير ينقل ما فيها من الذخائر إلى وهران.

تاسعا : أن تكون التجارة حرّة ما بين العرب والفرنسيس.

عاشراً : الفرنسوية تُحترم عند العرب كما أن العرب تحترم عند الفرنساوية.

الحادي عشر : الأمير يتكفّل بالمزارع والأموال التي تحصِّلها الفرنسوية ويتمتعون بها بحرية.

وبعد مراسلات عديدة، كتب كل منهما شروطا توقّف الجميع في قبولها!. ثم إن بيجو اعتزم على تجديد الحرب، وخرج بجيوشه من وهران إلى الناحية الغربية. ولما احتل "بتافنا"؛ بعث بالميرة والذخيرة إلى تلمسان في جيش كثيف. واتصل الخبر بالأمير —وهو في نواحي ندرومة– فبعث في الجهات يدعو الناس إلى الجهاد. ونما الخبر إلى الجنرال؛ فوجم لها وفكّر في أمره؛ فوجد ما عنده من الظهر لايقاوم بحمل أثقاله ومهمّاته في حرب ربما تطول مدّتها. فوقع في حيرة. كذا مؤرخوهم، وغيرهم، وقالوا : إن بيجو؛ ذهبت به أفكاره –وقتئذ– في كلّ واد؛ فلم يجد بدّا عن المهادنة لاسيما وقد توارت الأخبار عنده بنفير المسلمين إلى الجهاد، في سائر الثغور فحمله ذلك على تجديد المخابرة مع الأمير في عقد الصلح. وأما الأمير، فإنه نظر في شروط بيجو التي صعب عليه قبولها، فرأى أن يصلح خللها ويعدل بها إلى ما لا يقدح

في دينه ومنصبه، ثم يعرضها عليه. فجمع مجلسا عاما من العلماء وأعيان الدولة وأراهم كيف كثر الشغب بعمالة تيطيري، في الجهة الجنوبية. وأن يجدد الحرب بينه وبين العدو، يفوته إصلاح الخلل الواقع في تلك الأطراف الشاسعة. وربما اتسع الخرق. وانتهى الأمر إلى ما لا خير فيه. فمنهم من بادر إلى قبوله، واستحسانه، ورآه من الأمور الضرورية التي لا بدّ منها. ومنهم من لم يقبله. ورأى أن استمرار الحرب أولى فقام سيدي الجدّ، السيد علي أبو طالب. وخطب على أهل المجلس. فقال :

"بعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه : "وقد علمتم -أيها السادة!- أنه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمّال، ومن وافقهم على ارتكاب المآثم، انتقم الرب -تعالى- منهم. وعمّنا ذلك معهم قال تعالى ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾[1]. فسلّط الله علينا عدو ديننا. فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس وأخلاها من المدرّس والدارس. فمرج لذلك أهل قطرنا وضاقت بهم أرض مغربنا واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر، ومضارب الوبر وتفرّقوا أوزاعاً في المواطن وتباينوا في الموارد والمعاطن وتغيّرت الأحوال واشتبه الممكن بالمحال وتوالى الحلّ والارتحال وضعف الرجاء في أن يؤوب المسافر ويعود الشارد النافر إلى أن طالت القصة وعزّ ما ندفع به هذه الغصّة ومالت شمس الاتفاق

1. سورة الأنفال، الآية 25

إلى الأفوال وهيأ جند التناصر والتعاضد للروائح والقفول. فأظهر الله تعالى- بلطفه بدر الدين، ومؤيّد كلمة المؤمنين، ابن أخي هذا، السيد عبد القادر بن محي الدين. فبذل جهده في الذب عن الدين والوطن وأتى في ذلك من العجائب والغرائب ما هو به قمن. فكم من حروب أضرم نارها وكم من كروب أزالها عن المسلمين، وأطفأ أوارها. وكم ضيق على العدو وأخذ بمخنقه وصيّره محجورا في أحرج مكان وأضيقه. وفي بعض الأحيان -كما علمتم- تكون الحرب بينهما سجالاً ويفقد كلّ منهما من جيوشه أبطالاً. ثم لازال العدو يتكاثر ويجلب من بلاده العساكر والذخائر، بالعدد الوافر حتى كاثره بجنوده وجاء بما ملأ جميع أغوار الوطن ونجوده. فاستمر القتل في المسلمين وتوالى عليهم التمحيص في سبيل رب العالمين. وقد استدعى حضرة الأمير -كما لا يخفى- ملوك الإسلام في أقاصي البلاد واستنصرها للجهاد. فأعاروا أذنا صماء ولم يسمعوا له نداء بل أجابه لسان الحال : لا حياة لمن تنادي ولا معين على من تعادي. فإذا تمادى الأمر -أيها السادة- على ما نحن عليه، ولم ينجح الأمير إلى ما دعاه العدو إليه، فلا جرم أننا نكون قد ألقينا بأيدينا إلى التهلكة وتسببنا فيما يضيق على كل منا مسلكه ونكون قد أعنا أهل الفساد على أنفسنا ومهّدنا لهم السبل، إلى ما يؤذينا. فيتابع الذعار والغوغاء غارتهم ويجرّد الحفاة صوارمهم وتمشي سماسرة الفتن بين رؤساء القبائل ويسعى المفسدون فيما يفسد عليكم أمركم، في العاجل والآجل. وبالجملة، فالمنصف يقول الحق ولا يراعي بعدا ولا قربا ولا يخاف لوما ولا عتابا.

وما عليّ إذا ما قلت معتقدي دَعِ الجهول يظن العدل عدوانا

فإذا صحّت النية والمقاصد السنيّة، فلا حرج على حضرة الأمير فيما استشاركم فيه واستلفتكم إليه إذ هو من سياسة السلف، ومن تبعهم من ملوك الخلف وهو الذي عليه فتوى الفقهاء وبه عمل العلماء. والكلام في هذا السبيل -كما لا يخفى- مديد السل، طويل الذيل. والإنصاف من أعظم تقوى الله. والنصيحة واجبة في دين الله. وصون دماء المسلمين فرض متعين حتى في الجهاد. وقد قيل "سلامة مسلم واحد خير من فتح حصن لكافر معاند". وقد ورد في الحديث النبوي : "من أعان على قتل مسلم، ولو بشطر كلمة، جيء به يوم القيامة، مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله". والمتسبب كالمباشر. وورد أيضا : من تشكل بغير شكله، وتغير بغير طوره، وحام حول حمى سفك الدماء، وهتك المحارم، فقد باء بغضب من الله ورسوله. فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر شرطه الأمن على النفس والأهل والمال مع ظن الإفادة. وكونه لا يؤدي إلى منكر أعظم من هذا مع تحققه. فما بالكم، إذا كان لمحرض الدعوى؟ فالنظر -أيها السادة- إنما هو للإمام، لا لغيره. وكيف تذهبون إلى أن عدم قبول الصلح أولى من قبوله مع علمكم بقلّة الأنصار، والأعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الأقطار والأوطان. وحاصل ما أقول إن ما تسعون فيه، إن لم ترجعوا عنه،

يدعكم لأجله القريب والبعيد وينقمه عليكم الأريب والبليد. ثم لا شك أنكم ترجعون بخسارة الدارين وفقد الراحتين وشماتة الأعداء، علاوة على ذلك. ولله الأمر من قبل ومن بعد. وما قلت إلا بالذي علمت سعد".

فلما سمع المخالفون ما نبههم إليه، رجعوا عمّا كانوا عليه من الخلاف. واتفقت كلمة الجميع على إجراء الصلح وتقريره. ورأوا أن فيه مصلحة كبرى للأمة. فأرسل للجنرال اللائحة الآتية : بواسطة السيد "حمادة السّقال" رئيس حضرة تلمسان. وهي :

أولاً : ترك البليدة للفرنساويين.

ثانياً : رفض كل سلطة عن المسلمين المقيمين بالأملاك الفرنساوية.

ثالثاً : توسيع معين لحدود ملك الفرنسوية. وقد ولّج الأمير السيد "حمادة السّقال" لينظر في الحدود المنوه عنها، ويعطي التفصيلات المقتضية.

وحيث أن الجنرال "بيجو" أدرك جيدا أن التأخر، لا يأتيه بفائدة. وعليه، حرّرت المعاهدة، المعروفة "بمعاهدة تافنا" على شروط :

الأول : يبقى لفرنسا في إقليم وهران : مستغانم ومزغران، وأراضيها. ووهران وأرزيو، وأراضيها. يحد ذلك شرقا : نهر المقطع، والبحيرة التي يخرج منها جنوبا بخط ممتد من البحيرة المذكورة فيمرُّ على الشط الجاري إلى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد. ومن هذا النهر إلى البحر بحيث يصير ضمن كلّ ما في الدائرة من الأراضي للفرنسوية. وفي إقليم الجزائر : مدينة الجزائر، مع السّاحل، وأرض

متيجة. يحدّ ذلك شرقا وادي القدرة وما فوقه. وجنوبا رأس الجبل الأول، من الأطلس الصغير إلى نهر الشفة، مع البليدة وأراضيها. وغربا نهر الشفة إلى كوع مزغران. ومن ثم بخط مستقيم إلى البحر. فيكون ضمنه : القليعة، مع أراضيها بحيث يصير كلّ ما في داخل هذه الدائرة من الأراضي للفرنسوية.

الثالث : على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران، وإقليم تيطري، والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم مدينة الجزائر، لجهة الشرق، بحسب التحديد، المعيّن في الشرط الثاني. ولا يسوغ للأمير أن يمدّ يده لغير ما ذُكر من أرض الجزائر.

الرّابع : ليس للأمير حكم ولا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المموكة لفرنسا. ويباح للفرنسويين أن يسكنوا في مملكة الأمير كما أنه يباح للمسلمين أن يستوطنوا في البلاد التّابعة لفرنسا.

الخامس : أن العرب السّاكنة في الأراضي الفرنسوية تمارس ديانتها بحريّة تامّة. ولهم أن يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الديني تحت رئاسة علماء دينهم الإسلامي.

السّادس : على الأمير أن يدفع للعساكر الفرنسوية ثلاثين ألف كيلة من الحنطة، ومثلها من الشعير بمكيال وهران، وخمسة آلاف رأس بقر.

يؤدي ذلك كلّه في مدينة وهران على ثلاث قسوط. الأول : من غرّة أغسطس إلى الخامس عشر أيول سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وألف 1837. والقسطين الآخرين، يدفع بانتهاء كل شهرين قسطاً.

السابع : يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا البارود، والكبريت، وسائر ما يحتاجه من الأسلحة.

الثامن : أن الكول أوغلي الذين يريدون أن يقيموا في تلمسان أو غيرها من المدن الإسلامية لهم أن يتمتعوا بأملاكهم بكامل الحرية. ويعاملون معاملة الحضر. والذين يريدون منهم الانتقال إلى الأراضي الفرنسوية تكون لهم الرخصة على بيع أملاكهم أو إيجارها، بكل حرية.

التاسع : على فرنسا أن تتخلى للأمير عن إسكلة رشكون ومدينة تلمسان، وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها قديماً. ويتعهّد الأمير بنقل الذخائر الحربية والأمتعة العسكرية التي للعساكر الفرنسوية في تلمسان إلى وهران.

العاشر : المتجر يكون حرّا بين العرب والفرنساوية. وللجميع أن يتمتعوا بالتبادل في كل من الأرضين.

الحادي عشر : تكرّم الفرنسوية عند العرب كما تكرّم العرب عند الفرنسوية. وكل ما تملّكته أو تتملّكه الفرنسوية من الأملاك في بلاد العرب يكفل لهم حفظه بحيث يتمتعون به بكل حرية ويلزم الأمير أن يدفع لهم الضرر الذي تحدثه النوائب فيها.

الثاني عشر : يكون ردّ المجرمين من الطرفين بالتبادل.

الثالث عشر : يتعهّد الأمير بأن لا يعطي أحدا من الدول الأجنبية قسماً من الشاطئ إلا برخصة من فرنسا.

الرابع عشر : لا يسوغ بيع من محصولات أو لوازم الإقليم ولا شراء ... إلا في الأسواق الفرنسوية.

الخامس عشر : لدولة فرنسا أن تعيِّن في المدن التي في مملكة الأمير وكلاء ينظرون في أشغال الرّعايا الفرنسوية وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب. وكذلك للأمير أن يضع وكلاء من طرفه، في المدن التي تحت إدارة دولة فرنسا.

حرّر في تافنا، في السادس من ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف 1254 وأول يونيه (حزيران) سنة ثمان وخمسين وثمانمائة وألف 1858.

وحرّر صك المعاهدة نسختين، كل منهما على شطرين : عربي وفرنساوي. فكتب الأمير اسمه بخطّه على الشطر العربي، وختم عليه بخاتم الإمارة. وكتب الجنرال بيجو اسمه بخطّه على الشطر الفرنساوي، وختمه بخاتمه الرسمي. وأخذ كل منهما نسخة. وبعد إمضاء صك المعاهدة وتقريرها، كتب الجنرال لوزير الحرب يعتذر عن عقده المعاهدة التي اقتحمها بقوله : "إنكم معتقدون أنه يؤلمني جداً أن أعمل أفكاري بعدم إتباع تعليماتكم بالنظر إلى الحدود المعينة فيها للأمير، على أن ذلك كان محالا. وتيقنوا أن الصلح الذي عملته هو أحسن. والأرجح أن يكون طويل المدة. وأفضل مما أعمله بحصر الأمير بين نهر شلف ومراكش".

ثم التمس الجنرال بيجو من الأمير أن يجتمع به، فأجابه لذلك وعين له موضعا يجتمعان فيه. فركب الجنرال مصحوبا بست فرق من المشاة، وفرقة من الخيالة، وفرقة من المدفعية وفرقة من فرسان العرب. وسار إلى المحل المعين. وبعده سبع ساعات عن معسكر الأمير وثلاث ساعات عن معسكر الفرنسوية. فوصله قبل الأمير. وبعد مضي نحو خمس ساعات؛ أقبلت فرسان من العرب. يعتذرون عن تأخر الأمير بأنه أبطأ في الخروج لانحراف مزاجه وليس ببعيد أن يصل. ثم أقبلت فرسان آخرون يطلبون من الجنرال أن يتقدّم قليلاً لملاقاة الأمير؛ فلم يمكنه الرُّجوع حتى ينال مطلوبه، وهو اجتماعه بالأمير!. وبعد أن سار نحو الساعة، أشرف على جيش الأمير المشتمل على نحو خمسة عشر ألف فارس قادمين بنظام عجيب، وترتيب غريب، في سهل يموج بهم، ومنظرهم يفتن العقول. وبعدهم شاهد الأمير، وقد أحاط به نحو مائتين، من رؤساء العرب، راكبين على سوابق تختال بهم تيها، متسربلين بأسلحة صقيلة، وأمامهم إمامهم يفوقهم بالمنظر والشهامة، ممتطيا جوادا أسود تليعا، مسيره بصنعة غريبة. تارة يختطف الريح بقوائمه خطفا، وأخرى بمشية على رجليه. وكانت تلك الحركات تزيده هيبة، وهو غير مبال بها. وحوله ستة من السيّاس، آخذين

بركابه. فتقدّم إليه الجنرال، مطلقا عنان فرسه نحوه، فتصافحا ثم ترجلا، فجلسا.

وأخذت الموسيقى تصدح بأنغامها المطربة. فسأل كلٌ منهما الآخر عن صحّته. وأخذا في الحديث. فقال الجنرال :

- إنني على هذا الشرط جعلت نفسي كفيلا لك عند ملك فرنسا. فأجابه الأمير :

- ليس لك خاطر في ذلك. فإن لنا ديناً، وأخلاقاً عربية، تلزمنا المحافظة على قولنا. وأنا لا أغير قولي. قال الجنرال :

- فلهذا، اعتمدت على ذلك. وبحسبه أقدم لك محبة خصوصية. أجابه الأمير :

- إن الفرنسوية لا تنقاد لكلام أحد وليس بعض حوادث خصوصية يفعلها البعض تنزع السلام بيننا. وإنما ينزعه عدم إجراء شروط المعاهدة أو وقوع خصومة كبيرة. وإنما الذنوب التي يرتكبها البعض، فإننا نعلم بعضنا بها، ونقاصص عليها من يتجاسر على فعلها. فأجابه الأمير :

- هذا حسن جداً. فليس عليك إلا أن تعلمني وأنا أجري ما يقتضي. قال الجنرال :

- إني أوصيك بالكول أوغلان الذين يبقون في تلمسان. فأجابه الأمير :

- كن مطمئنا من جهتهم. فإنهم يعاملون معاملة الحضر. قال الجنرال :

– وعدتني أنك تضع عرب الدوائر والزمالة في بلاد هبره. فأظن أنها لا تكفيهم. فأجابه الأمير :

– يوضعون في مركز لا يمكنهم من إيقاع ضرر لحفظ السلام.

– وبعد أن سكتوا قليلا رجع الجنرال إلى الحديث. فقال :

– وهل أمرت أيها الأمير، برجوع علاقات التجارة في الجزائر والمدية؟ فأجابه الأمير :

– لا أفعل هذا إلا بعد أن ترد لي تلمسان. فقال الجنرال :

– تعلم جيدا بأني لا أقدر على ردّها لك إلا بعد تصديق الملك على المعاهدة. فأجابه الأمير:

– فإذاً ليس لك قوّة على إجراء المعاهدة، فقال الجنرال :

– نعم لي قوة على ذلك، ولكن يقتضي أن يصادق الملك على ما أجريه، حيث يكون ذلك كفالة له، فإنه إذا صُدق عليها مني فقط، ثم أتى جنرال آخر، فإنه يقدر على إبطالها. وأما إذا صُدّق عليها من الملك، يصير ملتزما بالإجراء على موجبها، فأجابه الأمير :

– إن لم ترجع لي تلمسان –ما وعدتني في المعاهدة– فلا أرى احتياجاً لإجراء الصلح. بل لا يكون ما جرى إلا من قبيل هدنة مؤقتة. فقال الجنرال.

– هذا صحيح، ولكن أنت تكسب بهذه الهدنة حيث أني بمدّتها لا أخرب المواسم. فأجابه الأمير :

- ذلك لا يضرنا، حتى إن أعطيك الرخصة بأن تخرب كل ما تقدر عليه. ولا يمكنك أن تخرّب إلا مقدارا زهيدا. ومع ذلك، يبقى عند العرب حبوب وافرة. فقال الجنرال :

- أظن أن العرب لا يفتكرون مثلك لأنني أرى أنهم يرومون الصلح. والبعض منهم أثنى عليَّ لكوني حافظت على الموسم من الشفة، كما وعدت بذلك حمادة الصقّال. فتبسم الأمير، ثم سأل الجنرال عن المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا، فأجابه :

- لا تكون أقلّ من نصف شهر. فقال الأمير :

- حيث أن الأمر كما ذكرت، فلا نجدّد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئا من مقتضيات المواصلة إلا بعد ورود الجواب من فرنسا.

ثم قاما من مجلسهما وودّع كلّ منهما الآخر. وهذه المقابلة كانت أول مقابلة جرت بين الأمير وحاكم فرنسوي. وقد أخبرني "ابن رابح" أحد ضبّاط الفرسان الذين كانوا يومئذ في حرس الأمير أنه عندما وقف في مجلسه لوداع الجنرال، قرّب إليه فرسه الأدهم الشهير ليركبه. وبعد أن صافح الجنرال ونزع يده من يده، التفت إلى الفرس وعلا عليه في اقل من لمحة، وحرّكه بركابه، فمرق بين الخيل مروق السهم، واندفع به ثلاث دفعات متوالية على وتيرة واحدة؛ فانبهر الجنرال لذلك وتعجّب من سرعة ركوب الأمير، وخفّه الفرس. وبقي واقفاً، برهة من الزمان، ينظر نظر المتحير، ثم ركب فرسه ومضى. وبعد أن سار الأمير وجيوشه على مسافة بعيدة من موضع الاجتماع أمر الجنرال

أحد ضباط عسكره؛ أن يرجع إلى المحل ويأخذ مساحة ما بين تلك الدفعات الثلاث. ووضع لها علامات، فكانت مساحة ما بين كل منها تقرب من ثلاثين ذراعا!.

وفي الحادي والعشرين من ربيع الأول، والخامس من يونيه (حزيران)، ورد الجواب من فرنسا مع ضابط بقبول المعاهدة. وصحبته هدّية نفيسة من الملك للأمير، وهي أسلحة بجوهرة. وأقمشة حرير مطرّزة بالذهب وأواني صينية فاخرة مكتوب بالذهب، على كل صفحة منها كلمة حكمة من كلام الحكماء الأقدمين. وطقم شاي؛ جميعه من الذهب الإبريز.

ولما وصل الضابط بالجواب والهدّية إلى الجنرال بيجو، أرسل إلى الأمير يخبره بإتمام الصلح والتصديق عليه من الملك ويخبره بالهدية. وطيّر الخبر إلى حامية مدينة تلمسان، يأمر قائدها "كافينياك" بالخروج منها. وتسليمها -مع القلعة- إلى نائب الأمير. فخرج القائد بجيشه من باب ودخل الخليفة السيد محمد البوحميدي من باب آخر وأخذ في نقل أثقال العسكر الفرنسوي، منها إلى وهران على حسبما وقع.

قال بعض المؤرخين : إن هذه المعاهدة كانت مستحسنة جدا عند الحكومة الفرنسوية التي اعتبرتها ككلمة صادق. والشعب الإفرنسي نظر إليها كخافضة شأن. فالدولة افتخرت بأن عبد القادر الذي كان عدوا أصبح حليفا لها. والشعب رأى فيها خطأً وهو تسليم إيالة فرنسية إلى قوّة أجنبية. أما عبد القادر فكانت عنده هذه المعاهدة

كحجر زاوية للبناء الذي كان يشيده بمواظبة واجتهاد. وأنه كان يقيم عدّة سنين، بواجبات مضاعفة. فكان -من جهة- يضع في قالب التنظيم والمناسبة، أسباب المنازعات التي كانت تحيط به، مسكنا القلاقل، ونازعا النزاع، ومُخمِّدا لفتن، ومن أخرى كان يتلقى -بجراءة- صدمات وهجمات عدوٍ كان يفوقه جدا في كل الوسائط والحيل، التي هي من فنّ الحرب في أعلى طبقة. وعند ما كان يتخلص من شدّة خارجية، كان يفرغ كل وقته ليتغلّب على الصعوبات الداخلية. ثم كُتِب هذا الإعلان من الديوان ونُشر في أنحاء المملكة ونصه :

"الحمد لله وحده. وصلى الله على من لا نبي بعده. وبعد؛ فإن البشائر الإسلامية والمفاخر الإيمانية، ينبغي أن تشاع، وتشاد، ويطال -في ذكرها- الإطراء والإنشاد. وينادى عليها بالتهاني في كل ناد، وترفع أحاديثها الصحيحة ثابتة المتون، عالية الأسناد، وتسير بخبرها الركبان في الأغوار والأنجاد، وتحلّى بحليها الشفاه، والآذن، والأجياد. ليأخذ كل مسلم حظه من سواطع مطالع مسرّاتها، وينال كل مؤمن نصيبه من مواهب رغائب مبرّاتها وخصوصاً فيما يرجع إلى إعلاء الدين وظهوره، ورسوخ قواعد الإسلام وفروعه، وما يعود إلى الأعداء بالصغار والهوان، ويلبسهم الخزي والخسران. فإن لذلك تأثيرا كبيراً في قلوب الذين هدى الله. ويدل عليه : "**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**"[1]. والى هذا -أدام الله لكم التسديد والتوفيق. وهداكم إلى أقوم

1. سورة الروم، الآية 4.

سبيل وطريق- فقد ورد البشير بما شرح الصدر. وأعلى الإسلام لظهور القوة، ورفع القدر من فتح تلمسان، في تاسع شهر صفر الخير سنة أربع وخمسين ومائتين وألف 1254 على يد من رفع راية الإسلام وأعزّها، حضرة مولانا ناصر الدين، سيدنا الحاج عبد القادر ابن محي الدين، بفضل الله، وسعادة صاحب هذا الميدان. وبعد محاصرتها شهورا عديدة، وأياما مديدة، بصلحٍ أسفر عن العزّ، وجه نجاحه. وطلع في فلك الإسلام طالع سعده وفلاحه. فأصبحت به ثغور الدين بواسم وهبّت به رياح بتتابع النصر نواسم وقامت بالتهاني كالأعياد والمواسم. وبشّر بتوالي فواتح تلك الثغور وإحياء تلك المراسم. واعلم أن خيل النصر تنجد كل حين وتغور وتوالي الشدائد على العدو في المساء والبكور حتى تردّه على أعقابه وتدخل عليه من أبواب الظهور وألقابه. فيتهافت في الفرار تهافت الذباب على الشراب ويقنع من الغنيمة بالإياب، وقد أعلمناكم بهذه البشرى وأطلعناكم على هذه النعمة الكبرى لتأخذوا أوفر نصيب من معانيها اللطيفة وترووا أحاديث صحيحة، موصولة بأسانيدها المنيفة. وتعلموا أن كيد الأعداء في إفتار وأن أمرهم-بمجرد إقباله- يعقبه الإدبار. فبمثل هذا تقرّ العيون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون".

وما ورد البشير حتى انتشرت راية الإسلام في معاهدها وشهد الله بالوحدانية في مشاهدها وأقيمت الصلوات الخمس في مساجدها. فلله الحمد على هذه المنّة العظيمة، والمنحة الجسيمة، نسأل الله : أن يتم مسرّات المسلمين بفتح وهران والجزائر ويجعلها في صحائف المجاهدين

من الذخائر ويخلّص الجميع من يد عصابة. إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

وعند دخول الأمير إلى تلمسان، حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله. وقال :

إلى الصون، مدّت تلمسان يـداها ولبّتْ. فهذا حُسنُ صوت نِداها
وقد رفعت عنها الإزار فلُجّ بـه وبــرِّد فـؤاداً مـن زُلال نَـدَاها
وذا روضُ خـدّيها تفتّـق نـوره فلا ترض من زاهي الرياض عَدَاها
ويا طالما صانت نقاب جمالهـا عُـداةً وهـم بـين الأنـام عِـداها
وكم رائم رام الجمال الذي ترى فــأرْدَاهُ منهــا لحظُهــا ومُـداها
وحاول لثم الخال من ورْدِ خدِّها فضنّتْ بما يبغـي وشَـطَّ مـداها
وكم خاطبٍ لم يُدع كفئاً لهـا ولم يلثم طرفا من وشي ذيـل رِداهـا
وآخـر لم يَعْقِـدْ عليهـا بعـصمةٍ ومـا مـسّها مـسّاً أبـان رضـاها
ولم تـسمح العـذرا إليـه بعطفَـةٍ ولم يتمكن من جميل سناهـــا
وشدّت نطاق الصدّ صونا لحسنهـــا فلـــم يتمتـــع مـــن لذيـــد لماهـــا
وأبدت له مكرا وصدّا وجـــــفـوة وسـدّت عليـه مـا نـوى بنواهـا
وخابت ظنون المفسدين بسعيــــهم ولم تنـل الأعـدا–هنـاك–مناهـا
قد انفصمت من تلمسان حبالـها وبانت والت لا يحل عراهـــــا
سوى صاحب الإقدام في الرأي والوغى وذي الغيرة الحامي حماة حماهـــا
ولما علمتُ الصدق منها بأنـــــــها أنـــالتني الكرسي و حزت علاهـــــا
ولم أعلمـن في القطـر غـيري كـافلا ولا عارفـــا في حقهـــا و بهاهـــا
فبادرت حزْمها وانتصاراً بهمّتي وأمهرتها حبّاً شفاء دواهـــــا

فكنت لها بعْلا وكانت حليلتي وعرسِي ومُلكِي ناشراً للواها
ووشّحتها ثوباً من العزِّ رافلاً فقامت بإعجاب تجرُّ رِداها
ونادت : أعبد القادر المنقذِ، الذي أغثْتَ أناساً من بحار هواها
لأنك أُعطيت المفاتيح عنوة فزدني أيا عزَّ الجزائر جاها
ووهران والمرساة؛ كلاً بمن حوت غدتْ حائزاتٍ -من حماك- منها

ذكر ظهور محمد بن عبد الله البغدادي في جنوب ولاية تيطري، وقيام محمد بن عودة المختاري بدعوته

قدم محمد بن عبد الله من بغداد إلى المغرب الأوسط أيام سيدي الجدّ السيد محي الدين (رحمه الله) وزعم أنه من ذرية الغوث الأكبر والقطب الأشهر، سيدي عبد القادر الجيلاني (قدّس الله سرّه) فاحتفل به سيّدي الجدّ وأجلّ مقامه. وكان يحضُر معه في تلك الأيام جهاد العدّو. ثم لحق بالمغرب الأقصى، متجمّلا بنسبته؛ فلقيه السلطان، عبد الرحمن بن هشام؛ بالتحية والإكرام. وبعد سنين، رجع إلى المغرب الأوسط فوجد سيدي الوالد، مرتبكا في أمر العدو. فعدل عنه إلى قبائل "الزناخره" و"أولاد نائل" ومن إليهم من القبائل في الجهة الجنوبية. وكان زعيم أولاد مختار، محمد بن عودة، من أقوى المشاغبين في تلك الجهة، فلحق به وجعله داعية له. فقام بنصرته ودعا الناس إليه وقال لهم : هذا محمد بن عبد الله المنتظر؛ فاجتمع عليه خلق كثير، وكانت نفس

ابن عودة، منذ ظهر الأمير، تحدّثه بالخروج عنه والدعاء إلى نفسه وأخذ يستميل الناس إليه بأنواع العطاء. فلما قوي الإنكار على الأمير في مصالحة العدو وترك الجهاد، مع ما كان الناس عليه من استثقال أمر المعونة التي ضربت عليهم للقيام بأمر الملك، ولوازم الجهاد، أظهر ما كان يخفيه وجاهر بالخروج عن الطاعة ودعا الناس إلى البغدادي المذكور على أن يكون زمام الأمور بيده. فانقادت إليه قبائل "الزناخرة، وأولاد نائل، وأولاد موسى، وأولاد مختار" وغيرهم في تلك الأطراف.

ذكر خروج الأمير إلى الجهة الشرقية وهزيمة محمد البغدادي ومصير أمره

ولّما فرغ الأمير من عقد المعاهدة مع بيجو وأصلح خلل الجهة الغربية من مملكته، رجع إلى الحضرة ثم نهض منها في ثمانية ألاف فارس وألف من المشاة وقطع من المدافع لتمهيد النواحي الشرقية، ومشارفة الأمور بنفسه. فجال في نواحيها حتى انتهى إلى "المدية" حاضرة ولاية "تيطري". فلقيه خليفته، السيد محمد بن علال، في وادي شلف، في أربعة آلاف خيّال وألف من المشاة. وكان وصول الأمير إلى المدية، لما قويت شوكة البغدادي فأهمّه أمره. ثم سار إليه في الجيوش وجعل على مقدّمته الخليفة السيد محمد بن علاّل. فكان بينهما في المسير مسافة مرحلتين. ثم إن الخليفة بعث إلى أعيان القبائل الدائنة بطاعة الثائر، بكتابٍ يدعوهم فيه إلى مراجعة الطاعة. ويعذرهم من سوء العاقبة. ونصه :

"الحمد لله الواحد القهّار والصلاة والسلام على نبيه ورسوله المختار وعلى آله وأصحابه الأخيار، وتابعيه من المهاجرين والأنصار.

أما بعد؛ فالذي نخبر به قبائل الزناخرة، وأولاد نائل، وأولاد مختار، ومن والاهم ووافقهم على الخروج عن طاعة حضرة الأمير أنه لما بلغه -أيّده الله- خبر عتوكم، وشقّكم عصا المسلمين، بخروجكم عن الطاعة ومخالفتكم لأهل السنة والجماعة وإعلانكم بالعدوان ومجاهرتكم بالعصيان؛ صدر أمره العالي المطاع، بالله تعالى بإعذاركم، وإنذاركم، وبذل النصيحة لكم. فإن رجعتم عن غيّكم، وارتكاب ما أدّاكم إليه جهلكم، ومرض قلوبكم، وضعف دينكم وجئتم إليه تائبين، وعن أفعالكم الشنيعة مقلعين؛ فذلك، وإلاّ فإنه -نصره الله- يقاتلكم وينتقم، بسيف الله ورسوله منكم. ولا يخفى أنكم بانتقاضكم عليه، وخروجكم عن طاعته التي أجمع عليها أهل المغرب الأوسط وبايعوه عليها؛ صرتم ممن أباح الله دماءهم، وأموالهم. فالمقتول منكم مصيره إلى النار. والمقتول من العساكر المحمديّة المنصورة مآله الجنة. فيجب عليكم -أيها الناس- أن تتوبوا إلى الله تعالى وترجعوا عما أنتم عليه من الضلال وتعلنوا بالطاعة، والدخول في سلك الجماعة وتبادروا إلى أعتاب مولانا خاضعين، طائعين، مذعنين لأوامره. فإنه -أيده الله- يقبل توبتكم ويصفح عن زلّتكم ويُعرض عن جهلكم ولا ينالكم منه إلا ما تحبون. فهذه نصيحتي لكم. فإن تلقيتموها بالقبول، فذلك، وإلا فإنكم ستشاهدون-بقدرة الله تعالى- ما يدع أطفالكم يتامى، وأموالكم غنيمة يقتسمها المسلمون. وحينئذ، تندمون على ما فاتكم من الخير وتتأسفون.

حرر بأمر الخليفة، السيد محمد بن علال، نائب مولانا الأمير في إيالة مليانة".

فلم يزدهم هذا المكتوب إلا اعتداءا وعتوا. ومع ذلك فإن الخليفة أقام ينتظر فيئتهم أياما. ولما يئس من طاعتهم وبلغه أنهم تجمّعوا وصمدوا للقتال، في بلاد "أولاد مختار"، بعث إلى الأمير يخبره. فوجم لذلك. وسار إليهم في جيوشه وزحف إليهم الخليفة بعسكره في وقت عيّنه له الأمير. فلما تراءى لهم، سوّى الخليفة صفوفه والتقى الجمعان والتحم العسكر بالحشود واشتدّ القتال واتصل في ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، جاء الأمير من وراء العدو وألّح في قتالهم؛ فانكشفوا وأثخن فيهم بالقتل والأسر وفرّ الثائر وصحابة ابن عودة، لا يلوي أحدها على الآخر وتفرّقت جموعهما في جهات مختلفة. فأقام الأمير في موضع المعركة ثلاثة أيام لراحة الجيوش. وفي الرابع، ارتحل يقفو أثرهم. وبثّ البعوث في النواحي؛ فدّمروا من أدركوه منهم وأثخنوا فيهم بالقتل والأسر والتجأت القبيلة المعروفة "ببني عنتر" إلى موضع كثير الشجر والصخور وتحصّنوا فيه، فلحقهم العسكر المشاة. وأحاطوا بهم وضربوا عليهم حلقة حصار إلى أن أجهدهم الجوع والعطش. فلاذوا بالطاعة ونزلوا تحت حكم الأمير فعفا عنهم. وأمّن روعتهم. ولما ذاع خبر هذه الواقعة وما لحق بالعصاة من الوبال والنكال؛ أذعن الناس وجاءت الوفود من القاصية إلى الأمير وهو في بلاد "أولاد مختار". ورجع العصاة كلهم؛ فقدّموا طاعتهم إليه واعترفوا بذنوبهم بين يديه. فشملهم بالعفو وردّ عليهم سبيهم وأسراهم واستأمن إليه محمد بن عودة؛ فأمنه ووفد عليه فأكرم

وفادته وكتب له بالولاية على سائر القبائل في ناحيته من عرب وبربر. وسمّاه آغة وقرئ الظهير[1] الأميري بذلك على أعيان القبائل الذين ترأس عليهم. وبهذه السياسة الحسنة، صار من كان عدوا بالأمس صديق اليوم بل خادما أمينا.

وبعد هذا الانتظام العظيم، صلحت الأحوال في الجهات واستقامت الأمور وعفّيت آثار الفتن وانكشف الديجور من ساحل البحر إلى القفر. وأما البغدادي، فإنه وقع في يد بعض العصاة، فقبض عليه وأحضره إلى أعتاب الأمير وجعله ذريعة لتوبته. فتقبّلها الأمير منه وأشخص الثائر إلى المغرب الأقصى.

ولم يزل الأمير يتنقل في تلك النواحي الجنوبية والجهات الشرقية؛ إلى أن اجتثت المفاسد من أصلها وأخضع قبائل الصحراء ودوّخها وولى عليها العمّال وأهل الجباية، ثم انفتل راجعا إلى المدية حاضرة الولاية.

فوفدت عليه وفود "الأغواط" وقدّموا طاعتهم؛ فتقبّلهم وأكرم وفادهم وأفاض عليهم من إحسانه ما استعبدهم. ثم إنهم أخبروه بأحوال بلادهم وأوقفوه على ما عليه من عشائرهم وبطونهم من الطاعة له وطلبوا منه أن يولي عليهم من يسوسهم ويضبط بلادهم؛ فأجابهم على ما طلبوه وولّى عليهم السيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى اللغواطي،

---

1. الظهير : كلمة شائعة في بلاد المغرب الأوسط والأقصى حتى اليوم، وهي تعادل كلمة "المرسوم" الملكي أو الجمهوري ... المصطلح عليها في المشرق.

المشهور فيهم بالسؤدد والرئاسة الموروثتين عن أسلافه. وأقامه نائبا عنه في تلك النواحي الشاسعة وكتب له في ذلك ما نصه :

"هذا ظهير شريف، يتضمن الترغيب في جمع كلمة الرعية، والترهيب من السعي في تفريق الجماعة، والدعاء إلى التمسك بأوامرنا المطاعة. أصدرناه للمكرّم المحترم، السيد الحاج العربي اللغواطي وذلك أنه لما تقرر لدينا فضله وعدله، رأينا أنه أحقّ من نقلّده الأمر الأكيد ونرمي به الغرض البعيد ونستفسر به أحوال الرعية حتى إنه لا يغيب عنّا شيء من أحوالها ولا يخفى علينا ما يتجشمها من طارق أهوالها وينهي إلينا جميع ما يحدث فيها إنهاء يتكفل بجلائها ودقائقها وجعلناه نائبا عنّا خليفة لنا، في قبائل الأغواط ، الغرابة والشراقة[1] ومَن إليهم من القبائل الصحراوية في الجهات الجنوبية. فيجمع سائر وجوهها وأعيانها ويخبرهم بأمرنا هذا ويتلو عليهم ما قلّدناه به ويقرر لديهم وجوب طاعته ولزوم اتباعه والإذعان لأوامره ونواهيه. وقد عيّنا له من العسكر النظامي ما يتوصل به إلى تقرير الأحكام وجباية الأموال وقهر المظالم والأخذ بيد المظلوم.

هذا ، مع ما نعتمد عليه من انقياد رعيّتنا للأحكام الشرعية، والأوامر المرعيّة. ولذلك لم نبالغ بالاستكثار من العسكر لخدمة خليفتنا المذكور. فكونوا -أيها الناس- لأمره السالك فيه على جادّة الحق

---

1. الغرابة والشراقة : وصف غير قياسي للمنتسبين إلى الغرب والشرق. وما زال عندهم حتى اليوم. وهو شائع في سائر أنحاء الشمال الإفريقي كذلك.

والعدل. سامعين ولكلمته مطيعين. واعلموا أن من نكث فإنما ينكث على نفسه، والله ولي للتوفيق.

حرّر عن إذن مولانا، ناصر الدين، عبد القادر بن محي الدين، في سنة أربع وخمسين ومائتين وألف 1254 وثمان وثلاثين وثمانمائة وألف 1838".

وبعد تحرير هذا الظهير وتسجيله، تناوله السيد الحاج العربي وسار مع الوفود إلى بلادهم، فرحين بما نالهم من الأمير من الإكرام، وقضاء المطالب ونيل الرغائب. ثم رجع الأمير إلى "المدية"؛ فاستقبله الأهالي على بعد أميال منها حتى غصّ الطريق بألوف من الذين تقاطروا من كل نواحي المدية ليمتّعوا أعينهم بمشاهدة ذاته. وكانوا يصرخون : "فليعش مولانا عبد القادر" وصدحت -عند دخوله- الموسيقى بأنغامها المطربة ورشقوا ممرّه بباقات الزهور ولم يزل سائرا إلى أن دخل الجامع الكبير، فصلّى فيه وخطب ووعظ ثم توجّه إلى محل الإمارة؛ فتوارد عليه الوجوه والعلماء، مقدّمين له التهاني فكان يستقبلهم بالبشاشة والمؤانسة. ثم وفد عليه الوفود من قسنطينة والقبائل المقيمين بالحدود الجنوبية في إيالتها يستنجدونه ولكن محافظته على معاهدة تافنا منعته عن ذلك. وكان -رضي الله عنه- بعد فراغه من الاشتغال بالأمور المدنية، يشتغل بالأمور الدينية، إمّا في نفسه، وإما للعموم. فكان مدّة وجوده بالمدية يدرّس درسا عاما في التوحيد. وكان يوم ختمه "أم البراهين" للسنوسي يوما مشهودا حضره العلماء من القطر الجزائري وقدّموا له المدائح. ومن جملة من امتدحه العلاّمة السيد قدور بن رويلة، فقال :

أغيوث السماء سحّت بـروض أم نسيم الصّبا زكّـت بربـوع؟
أم شموس الضحى تجلّت لسعدٍ أم بدا البـدر في سـعود الطّلـوع؟
وثغور الأقـاحي بـالزهر تبـدو باسمـات عـن البريـق اللمـوع
وخدود الورود تحـسبها وجــ ـنـة عـذراء ذات خـدر منيـع
وعيون من نرجس شاخـصات لم تذُق في الرياض طعم الهُجوع
وحمامُ الأراك في الدّوح يـشدو ببـديع التـسجيع والترجيـع
وذيول المُنـى تجـرُّ وتـاج الــ ثغـر يزهـو ببهجـة الترصـيع
أم سحابُ العلوم في الدّرس يهمي بفهـوم مـن الغمـام الهمـوع؟
أم فيوضـات بحـر لفظ كـلامٍ زاخــر في أصــوله والفـروع؟
أم عقـود مـن الـبراهين تبـدو بقياس يزهو من البيـان البـديع؟
أم لآلـــي فوائـــد ملحقـــات بمعـان مـن البيـان البـديع؟
قد أقـرّت لهـا أسـود غـريس ولها أذعنت جميـع الجمـوع
حيث شمس الهُدى لعيني تجلّت فاسـتنار الفـؤاد بـين الـضلوع
من سماء الإمام قطب المعـالي صاحب الوقت والمقام الرّفيـع
سيدي عبد قـادر مـن لـه قـد خـضع المرهبـون أي خـضوع
ابن محي الدين الحسني جَدّاً ومن الأصل كان طيـب الفرُوع
فهو للـدرس إن تـصدّى إمـامٌ وهُمـام إن جـال فـوق سـريع
جدّ حتـى أطاعـه كـلُّ شـيءٍ يا له مـن فتـى مُطـاع مطيـع
يا حِمى العلـم باطنـا ظاهريـا من به رُدِع الفيلسوف الطبيعـي
دُم لتوحيـد الله أقـوى مُعـزٍ أوقـع الـشّرك في أذل وقـوع
وصلاتي مع الـسّلام علـى جـدٍّ كم الهـادي الرسـول الـشفيع
وعلى آلـــه وأصحـــابـــه ما فاح مسك الختام بعد الشروع

غزوة وادي الزيتون

خرج الأمير ورؤساء القبائل من المدية، قاصدا فرقة من معسكره، نازلة في سهل قريب من البلدة. ولما وصل المعسكر، أمر بعدم خروج أحد منه وبالاجتماع عليه. فاصطف الجميع حوله كهيئة نصف دائرة فقال لهم :

"طالما قابلت اعوجاج قبائل وادي الزيتون بالاستقامة. وعاملتهم -على ما فيه من الإساءة- بالمعاملة الحسنة. فلم يزدهم ذلك إلا عتوا واستكبارا مع علمهم بأنا قد بذلنا نفيس الأنفس والمال للجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله. وإخترنا ركوب الأخطار للذب عن الدين والوطن. ودافعنا الأعداء بالمال والبدن. وقد خالفوا، فحالفوا أعداءنا في الدين ومنعوا دفع الزكاة والعشر -المفروضة عليهم شرعا- لبيت مال المسلمين. وإني قد بذلت الجهد في إرشادهم وأرسلت الأشراف والعلماء لنصحهم؛ فما ارتدعوا عن غيّهم. وقد أفل يوم الرّحمة عنهم ودنا يوم النقمة منهم. فاحملوا عليهم حملتكم المعروفة واهجموا عليهم بشجاعتكم الموصوفة التي ألقت الرعب في قلوب كل الأعادي ولا تخشوا رصاص رماتهم، فإن الله هو الرامي. ولا يهولنّكم اعتصامهم كالنسور في صياصي الجبال؛ فالصياد الماهر يتسلق الجبال لبلوغ الآمال. فتوكّلوا على الله. إن الله معنا. وهنيئا لمن يموت شهيدا. ومن آب ظافرا عاد -والله- سعيدا. واستمدّوا من الله المعونة والنصر. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطّهرة".

فنادى الجميع : "اللهم صلي على سيدنا محمد. وانصر ناصر الدين". ثم أمر بتهيؤ الجيش للمسير. ولما وصلوا وادي الزيتون أمر بترتيب الجيش للهجوم وقسّمه أربعة أقسام : قسم للميمنة، وقسم للميسرة، وقسم لجمع المجاريح وتعقيب المنهزمين. وأبقى الباقي في معيته على رابية مشرفة على ساحة القتال. ثم صدحت الموسيقى بألحان الحماسة والهجوم وشرعت الجنود بالزحف حتى قطعوا الوادي وابتدؤوا بالصعود إلى معتصم العصاة. فقابلتهم العصاة؛ بإطلاق البنادق من وراء صخور الجبال. وقتلوا عددا من الجند، فتوقف الباقي عن التقدّم، والقواد تشجّعهم وتحثهم على الإقدام، والثبات، وتعدهم بالنصر. وأمر الأمير بالحمل عليهم من كل جانب؛ فحملوا عليهم حملة رجل واحد وعلا القتامُ وضجّت الأصوات من الفريقين وصعد الجند إلى أعلى الروابي وأضرم النيران في القرى وثارت العصاة تدافع عن المال والعيال مدافعة الأسود عن الأشبال. والتحمت الرجال بالرجال وبطل الرمي بالبنادق وعمل السيف الفصّال بالأعناق والمفارق. ولم يزل السيف يعمل والأبطال تقاتل وتجندل إلى أن دبّ بالأعداء الفشل وسلّموا أنفسهم للأسر؛ فأمر القائد —عند ذلك— بوثق الرجال، وجمع النساء والأطفال في محل ووضع الحس الكافي عليهم. واستولى الجيش على الأموال والأمتعة، ثم رجع الأمير إلى خيمته وأمر بجمع العلماء لترتيب الجزاء على رؤساء الأسرى. فحكم عليهم بالإعدام. وأحضر —بين يديه— ثمانية عشر رجلا منهم؛ فقال لهم : "قد أمرنا الله بقتال من فارق الجماعة وخالف الشريعة المطهّرة وشقّ عصا الطاعة. وقد

أظفرنا الله بكم وجعلكم في أيدينا فماذا ترون؟" فأجابه أحدهم : "إن قطع أعناقنا أولى من تقديم الطاعة لك عندنا. والله يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة، وهو أعدل الحاكمين" فوبّخه الجاويش على ذلك وأمره بالسكوت؛ فرفع الأمير رأسه وأشار إلى الجلاد بضرب عنقه ثم الثاني، والثالث، إلى أن وصلت النوبة إلى شيخٍ هرمٍ؛ فقدّم -وهو يرتعد خوفا وجزعا- فهجمت أطفاله على الأمير ووقفوا يتباكون وبينهم طفلة صغيرة السنّ خاطبت الأمير بقولها : "بحق الله، ووالديك، وأولادك، أن تعفو عن والدي" فلما سمع الأمير كلامها، غلبت رحمته على غضبه وظهر أثر العفو والشفقة في وجهه وأمر بالعفو عن والدها وعن الباقين. واقتبل على البنت وقبّل جبهتها لأنها كانت سبب عفوه عنهم. ثم أعلن العفو على من حالفهم وردّ أموالهم عليهم. فلما سمعت رؤساء القبائل المخالفين لهم بذلك أسرعت للمثول بين يديه وأدّوا الطاعة والأموال المفروضة عليهم، من زكاة وعشرٍ. فعند ذلك، أقر كل رئيس على قبيلته وأمر برحيل العسكر ورجوعه إلى المدية.

ذكر خروج الجنرال دومرمون إلى قسنطينة ومقتل واستيلاء عساكره عليها

لما فرغ الجنرال بيجو، من أمر المعاهدة مع الأمير، بعث بالجند الذي كان عنده في وهران إلى الجزائر. وبعد أيام، أخذ الحاكم العام استعداده ثم سار في المراكب المشحونة بالعساكر والذخائر، قاصدا قسنطينة ونزل في "بونة" ومنها خرج إلى "كالمة" ولا زال يتقدّم إلى أن استولى على مضيق عمار. وكانت حاميته إذ ذاك، من عسكر أحمد باي، صاحب قسنطينة. فلما اتصل بها خبر الفرنسيس، تفرّقت من غير قتال وأقام الحاكم الفرنساوي، في المضيق المذكور، ينتظر لحوق الذخائر والمهمّات به وقسم عساكره أربع فرق وزحفت هذه الجنود في أول يوم من أكتوبر (تشرين الأول) واتصل الخبر بأحمد باي؛ فخرج في نقاوة جيشه إلى خارج البلد وأقام نائبه، عليّ بن عيسى، في باقي الجيش، داخلها. واستمرت الجنود الفرنسوية سائرة إلى أن وصلت قرب البلد؛ فناجزها المسلمون الحرب واستمر القتال بين الفريقين ستة أيام بلياليها ثم وقعت فترة من الجيوش الإسلامية؛ فتقدمت الجيوش الفرنسوية انتهازاً للفرصة واستولت على الخندق؛ فتوقّف الحاكم الفرنساوي عن القتال وكتب إلى الباي، وعليّ بن عيسى وأعيان البلد، يدعوهم إلى التسليم. ونص ما كتبه :

"من القائد العام، ورؤساء الجيوش الفرنسوية إلى أحمد باي، وعليّ بن عيسى وسائر العساكر، والأهالي المحصورين داخل البلد.

نعرّفكم أن العناية الإلهية منحتنا انتصارا مجيدا عليكم. ويد القدرة الربانية كلّلتنا بإكليل النصر. فها جيشنا الجسور، وأبطالنا الشجعان قد استولوا بعزمهم، وقوة سلاحهم، على خنادق بلدكم. ولم يبق بيننا وبينكم إلا أحد أمرين : إمّا إعمال السيف، وإمّا التسليم، للنجاة من الحيف. لا جرم أن عدم التسليم يعود عليكم بالدمار والخراب. ونحن لا رغبة لنا في سفك دمائكم. فالتسليم أسلم لكم، وأحسن بكم، لأنكم أمسيتم في مركز خطير جدا. والخلاص منه، بدون ضرر كبير يلحقكم؛ مستحيل؛ كيف؟ وبواريد فرنسا قد أحاطت بكم من كل جهة وصرتم في وسطها مثل السمك في الشبكة؟".

"فأجابوه بما نصه :

من الأمة المحافظة على شرفها وبلدها، إلى العسكر الفرنسوي المعتدي على حقوق غيره. قد وصلتنا رسالتكم. وفهمنا ما ذكرتموه فيها. نعم إن مركزنا أمسى في خطر عظيم. ولكن استيلاءكم على قسنطينة، المحمية بالأبطال العربية الذين لا يهبون الموت موقوف على قتل آخر واحد منهم. واعلموا أن الموت عندنا، تحت أسوار بلدتنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا".

فلما اتصل هذا الجواب بالحاكم الفرنساوي، قال لأهل مجلسه من القواد : ما ذكره هؤلاء هو كذلك. فإنهم أبطال، شجعان، أصحاب قلوب قوية. وما رغبوا فيه سيعود على جنودنا بالعز والفخر. ثم أمر باستئناف الحرب. وأخذ الجيش في طمّ الخندق. وتوجّه الحاكم

الفرنسوي، وفي معيته الدوك "دي نيمور" إلى محل العمل. فبينما هم ينظرون إلى عمل الجند، إذا أرسلت عليهم كلّه من مدافع البلد؛ فأصابت الحاكم الفرنساوي في صدره؛ فألقته قتيلا. وتقدّم الجنرال "بريكو" ليحمله؛ فأصابته رصاصة في جبهته؛ فألحقته برفيقه. ثم اتفق رأي القواد على تعيين الجنرال "كاله" قائداً عاماً. فأمر بإطلاق المدافع على البلد؛ فأرسلت عليها كالمطر، ثم هجم القائمقام "مورسيير" بفرقته على البلد. واتصلت النار باللغم الذي كان المسلمون أعدّوه للعدوّ؛ فدمّر عدداً كثيراً من الفرقة الهاجمة وجرح قائدها "لامورسيير" جرحاً أعجزه عن القيام. ثم هجم "كومب" بفرقته مدداً للفرقة الأولى التي هلك أكثرها. واشتدّ القتال بين الفريقين. وأبلى المسلمون بلاءً حسناً. فكان منظر القتلى مرعباً، وأنين الجرحى محزناً. واستمات الفريقان، وثبات أهل قسنطينة في ذلك اليوم أوجب مزيد الاستغراب لكلّ من شاهد تلك الحرب الهائلة. وبعد هذا، فالغلبة للجنود الفرنسوية، لأنهم اقتحموا شدّة ذلك البلاء وتعلّقوا بأسوار البلد وتمكّنوا من نشر راياتهم عليها غير أنّ الخسارة التي تكبّدوها لا يعادلها شئ. فقد قتل من القواد المشهورين عدد كثير، منهم: القائد العام الجنرال دومريمون، والجنرال بريكو، والبكمندار كومب، والقائد فمبه دمبريني، وغيرهم ألوف من الجند. ومعظم الوبال كان في النهار الأخير. ويؤيّد هذاما ذكره "بالمار" ووافقه "روا" في تاريخهما. ولما دخلت جنود فرنسا إلى البلد، تفرّقت العرب وفرّ أحمد باي صاحبها في لمّة من خواصّه. ولحق بالزاب ثم أخذ مدينة بسكرة من يد حاكمها، فرحات بن سعيد الزواوي. ورجع

الجنرال "كاله" إلى الجزائر بعد أن أقام القبطان "بتريل" حاكما على قسنطينة. وثبّت قدم الفرنسيس في مدينة قسنطينة. وانقطعت منها دعوة الدولة العلية. ولله عاقبة الأمور. ثم آل أحمد باي إلى الدخول في يد الفرنسيس. وكانت وفاته في مدينة الجزائر.

ذكر استيلاء الأمير على بلد الزيبان وصطيف وما إليها من البلاد الجنوبية والشرقية

ولما تمّ استيلاء الفرنسيس على قسنطينة وفرّ صاحبها أحمد باي إلى الزيبان، حشد الحشود وزحف بهم على بسكرة، حاضرة تلك البلاد؛ فدخلها وفرّ صاحبها فرحات بن سعيد. ولحق بالجزائر، مستنجداً بحاكمها الفرنسوي؛ فلم ينجده وتغافل عنه. وكان الأمير –وقتئذ– في المدية. فجاءه وشكا أمره إليه ودعاه إلى الاستيلاء على بسكرة، وما إليها من البلاد. فأجابه إلى ذلك وجهّز الخليفة، السّيد محمد البركاني، في الجيوش المنظّمة والمتطوّعة. وسار بهم، مع فرحات، إلى مدينة بسكرة. وكان خبرهم، اتصل بأحمد باي ففرّ منها ولحق بالتخوم مما يلي الصحراء. واستولى الخليفة على بسكرة ووفدت عليه أعيان العرب والبربر، من نفزاوة والزواودة وغيرهم. وقدّموا طاعتهم، وطاعة من ورائهم. وأرسل الخليفة بالخبر، إلى الأمير؛ فسرّ بذلك وأمره بتمهيد تلك النواحي، إلى أطراف الصحراء. ثم بالانقلاب إلى صطيف، وما إليها من بلاد مجانة، إلى جبال زنانة ففعل.ثم انتقل راجعاً إلى المدية، ظافراً. فأنعم الأمير على فرحات بن سعيد بإيالة بسكرة وما إليها. فاستلم زمام أمورها ورتّب العمال

في أعمالها. ولما فشت الدعوة، في سائر النواحي الشرقيّة والجنوبيّة، بادر من تقاعس من القبائل عن أداء الطاعة؛ فأدّى طاعته واتسع نطاق المملكة: مسيرة شهرٍ طولاً وعرضاً،للمجدّ. واستقامت الأمور وترتّبت الحاميات والمسلحات في الثغور والتخوم وأمنت السبل حتّى إن المرأة كانت تسير من أول المملكة إلى آخرها، لا تسأل مِن أين؟ وإلى أين؟

ذكر خروج التجيني في حصن عين ماضي من بلاد الأغواط ومسير الأمير إليه

تقدم أن وفود بني الأغواط الشراقة قدّموا طاعتهم إلى الأمير، فتقبّلها. وولى عليهم وعلى مَن يَليهم مِن القبائل السيد الحاج العربي. وردّهم إلى بلادهم فأذعن النّاس للخليفة وقبلوا ولايته ومشت كلمته في تلك النّواحي. ولم يشذّ عنه إلا السيد محمد الصغير التجيني، ومَن وافقه من الأغواط الغرابة. فإنهم امتنعوا مِن أداء الطاعة. وجاهروا بالعصيان. فبعث الخليفة بخبره إلى الأمير، فوجم لذلك. وخشي أن يسري هذا الحال في الناس ويرجع الأمر إلى ما كان عليه مِن الارتباك. فبادر إلى قمع هؤلاء الثائرين وتنكيلهم ليكونوا عبرةً لغيرهم. وسار في الثامن عشر من ربيع الأول، سنة أربع وخمسين ومائتين وألف 1254 واثني عشر يونيه (حزيران) سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وألف 1838 في ستة آلاف مِن الخيّالة، وثلاثة آلاف مِن المشاة، وثلاث قطع مِن المدافع، وستة هواوين. وبعد عشرة أيامٍ مِن مسيره سيراً عنيفاً، في قفارٍ رملية؛

شارف الحصن. فرأى مِن حصانته بالخندق والسور ومِن كثرة المقاتلة ما استعظمه. ثم تقدّم إليه وفرق الجند على جهاته، ومعهم النّقالون للسور؛ ومِن ورائهم الرماة. فمنع أهل الحصن ساحته. وحاربوا مِن المكامن التي اتخذوها تحت السور ومِن شرفاته؛ فتأخّر الجيش عنهم. وجعلوا يناوشونهم الحرب مِن بعيد. وأخذوا في قطع الغياض الملتفة الأشجار -حول الحصن- وحطم البساتين. وأقيمت البطاريات في تلك الفسحات. وصار الشروع بإطلاق النار. وكلّما فتحت ثغرة لأجل الهجوم؛ تسدّ مِن داخل. وتكرّر ذلك مراراً. ثم أمر الأميرُ بحفر النفوق؛ فحفر نفق مِن المعسكر إلى داخل الحصن ولما وصل العاملون فيه إلى داخل السور، أحسّ بهم الرئيس فنقب جيشُه على العملة. ووقعت بينهم مقاتلة داخل النفق وأبطلوا للعملة عملهم. ولما طال الحصار على أهل الحصن، مُدّةً تقرُب مِن ستّة أشهرٍ وأجهدهم الجوع، وأضناهم الخوف، اجتمعوا إلى رئيسهم، وأروه ما آل أمرهم إليه مِن الجهد، ونفاذ الأقوات، وما يحتاجون إليه في الدفاع. وتكلّموا معه بما اضطره إلى التسليم. وفي التاسع عشر مِن نوفمبر (تشرين الثاني)، بعث التجيني إلى السّيد، الحاج مصطفى بن التهامي، خليفة الأمير، يستأمن على نفسه وأهله، وسائر أهل الحصن، ومَن حضره مِن الحشود. وطلب مهلة أربعين يوماً يتأهّب فيها للانتقال، والجلاء عن الحصن. فعرض الخليفة ذلك على الأمير؛ فأجابه على شروط:

أولها: أن يدفع التجيني مصارفات الحصار.

الثاني: أن يكون مجبوراً على إخلاء المدينة، في برهة أربعين يوماً.

الثالث: أن يكون له حقٌّ بأخذ جميع أمواله المنقولة بلا استثناء.

الرابع: لأهل المدينة، حقٌّ بمرافقة التجيني بأسلحتهم.

الخامس: أن يرفع الأمير الحصار عنهم ويرجع ثمانية أميال عن المدينة حتى تخلى.

السادس: أن يكون ابن التيجيني، عند الأمير، رهينةً إلى تمام المعاهدة.

فقبل التيجيني الشروط المذكورة. أمضى عليها وأرسل ابنه معها؛ فأمَّنه الأمير، وأمهله. وبعد انقضاء المدة،خرج بأهله وحشوده ولم يتخلَّف في الحصن إلاَّ المستضعفون. فأمر الأمير بتخريب الحصن؛ فألصق سوره وسائر دوره، وأبراجه بالأرض وغوِّر ماؤه.

وأرسلت له قبيلتان، مِن قبائل الأغواط المجاورين للحصن الزكاةَ والعشورَ، وأصرَّت بقية القبائل على عدم دفع ما كان عليهم مِن الزكاة والعشر. ولحق التجيني بالأغواط الغرابة وساكنهم في حللهم، في خيام الشعر. فأعلن الأمير بذلك إلى خلفائه ووكلائه في الجزائر ووهران بما نصّه:

"الحمد لله وحده. وصلىَّ الله، على مَن لا نبيَّ بعده. وبعد فإن الله تعالى، منذ ولاّنا أمر المسلمين، والنظر في مصالحهم؛ لم نزل نجتهد،

ونسعى في تأليف قلوبهم، على الاتحاد، والخضوع لشريعة سيِّدنا محمَّد (ﷺ) لقوله عزَّ وجلَّ :﴿**ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾[1].

وقد توجَّهنا، هذه المرة،إلى بلاد الأغواط؛ لجمع كلمتهم، وإصلاح فسادهم. فأظهر عامة أهلها؛ غاية الطاعة والانقياد إلاَّ ما كان مِن التجيني، ومَن انتمى إليه. فإنهم تجاهروا بالشقاق. وتظاهروا بالتصدِّي عن الوفاق. فأمرناهم بالرجوع إلى الحقّ وحذّرناهم مِن شقّ عصا المسلمين، غير مرَّة وناشدناهم الله في صون دمائهم، وأعراضهم. فلم يرجعوا عن غيِّهم؛ بل صمَّموا على قتالنا. واستعدُّوا لمحاربتنا. فخفنا إن أهملنا أمرَهم؛ مِن سريان هذا الفساد إلى غيرهم، فيفوت المقصود الذي هو جمع الأمة، على كلمة واحدة وطريقة متَّحدة، وكادت أن تعمل فيهم المدى؛ طلبوا مناً الأمان –مع أنهم خدعونا مرَّات عديدة– فمنحناهم الصفح الجميل، صوناً لدمائهم، وحفظاً لأعراضهم لقوله تعالى: ﴿**فاعفوا واصفحوا**﴾[2] وأمَّناهم على أن يخرجوا مِن الحصن. ويتوجَّهوا حيث شاءوا. فخرجوا كلّهم منه إلاَّ المستضعفين منهم. وذهب التجيني وحريمه وأولاده إلى الأغواط الغرابة وبقي ابنه الكبير رهناً عندنا. فالحمد لله الذي أيَّدنا بنصره على مَن عَصى أمره، ونأواه. فإنه لا ربَّ غيرُه ولا معبود سواه".

وأصل التجيني مِن أشراف المغرب. انتقل والده، السيد أحمد؛ في أواخر المائتين بعد الألف، مِن فاس إلى بني توجين، أصحاب "تاهرت"

1 سورة الأنفال، الآية 46.

2 سورة البقرة ، الآية 109.

و"تاكدمت" من البربر، إخوان بني زيان، ملوك تلمسان، وبني مرِّين ملوك المغرب الأقصى. ولما طال مقامه، بين أظهر بني توجين، نسب إليهم فقيل له التجيني. وكان حصن "عين ماضي" موضع سكناه. وكان عالماً زاهداً، مشتهراً بالصلاح. وقصده الناس للتبرُّك به. وكان يقول: لم يوجد من الصحابة (رضي الله عنهم) إلى عصري عالم مثلي. وله تأليف سمَّاه "الكناش" ذكر فيه آداباً صوفيَّة، وحقائق إلهية. وثار ولده، محمد الأكبر، على الحكومة وزحف -بجموعه- على مدينة معسكر ودخلها، فخرج إليه حاكم وهران وقتله. وقد تقدَّم تفصيل الواقعة. وهذا الحصن اختطَّه "ماضي بن يقرب" من أقيال العرب، في المائة الخامسة، لأول استيلاء العرب على المغرب الأوسط، أيام العبيدين. ويحتوي على ثلاثمائة دار. وتدخل له العين، المسماة "بالحصن" في قناة. وبه صهاريجُ لجمع ماء المطر؛ تسدُّ عوز أهله. وله من المتانة والحصانة ما يبهر العقول. وحوله، من النخيل والأشجار المتنوِّعة؛ ما هو زينة للنَّاظرين.

وهنَّأ بعض أُدباء أهالي مليانة، الأمير؛ بفتح هذا الحصن، الذي عجز عن فتحه مَن قبلَه، بقوله:

أيا نسمةَ الأسحار طِبْتِ بصوْلةٍ وطابَتْ بكِ الأكوانُ طُراً بسرعةِ
وآب سرورُ الدهر مُذ طابَ نشْرها ونادى منادي النصر مِن كل وجهةِ
وأقبلت البُشْرَى وعمَّ سرُورُها ونالتْ به الأيام أحسن سطوة
بطلعَةِ عبدِ القادرِ السيِّد الذي له الشَّرَفُ السامِي بأشرفِ نسبةِ
هو البَدرُ وافَى في سماءِ كمالهِ بمحوِ ظلامٍ حلَّ قدْماً ببَلْدَةِ
فَعنْ عَين مَاضِي قَدْ أَزَاحَ غِشَاوَةً فضَاءَتْ وعادتْ خَيْرَ عيْن بَصيرَةِ

فويلٌ لمنْ عادَى ابن أكرَمِ مُرسلِ وَوَيْلٌ لمنْ يُدْعونَ أصحَابَ ذِمَّـةِ
هَنِيئـاً لنـاَ أهـلَ المحبَّـةِ. إنَّنـا بذا البدرِ نلنا اليومَ أكمل مُنيـةِ
بسعْيِ أميرِ دمـرَ الطـاغينَ مُـذْ جَرَى عَدْلهُ في كلِّ مِصْرٍ وقريـةٍ
فنطلبُ مِـنْ ربِّ الـسماءِ بقـاءَه لنطـربَ أيامـاً بأحـسنِ دولـةِ
عليهِ سلامُ اللهِ ما هبّـتِ الصبا وَمَا أشْرَقَتْ شمسُ العُلاَ كلَّ لحظَةِ

ولما فرغ الأمير من أمر التجيني، رجع إلى "معسكر" لأخذ الراحة.

وبعد أن أقام بها، بضع أسابيع؛ ألّف جيشاً من خمسة آلاف فارس. وأمر أن يأخذ، كلُّ واحد منهم، على فرسه، ما يكفيه من الزاد والشعير وأن يجتمعوا في سهل غريس؛ فاجتمعوا فيه. ولم يعلم أحد بمراد الأمير بذلك في وقت اشتداد البرد، وكثرة الشتاء. وقبل غروب الشمس، أقبل عليهم ممتطياً ظهر الجواد، لابساً لأمةَ الحرب والجلاد. فتوجَّه بهم نحو الشمال الغربي. ولما اعتكر الظلام، أمر بإيقاد أربعة مصابيح،أمام الجيش؛ فجعلت في أسنَّة الرماح.فكانت أشعتها تنبعث إلى وراءِ الجيش. ثم ترك الجادَّة وانعطف -فجأةً- إلى جهة الشمال الشرقي.فعلم الجيش إذ ذاك أن سيره السابق مجرَّد تورية وتمويه ولم يزالوا يجدُّون السير إلى نصف الليل. ثم نزلوا حافَّة جدول فأكلوا وأطعموا خيولهم. وبعد مضي ثلاث ساعات عادوا للسير العنيف إلى نصف النهار. ثم نزلوا فأطعموا الخيل، وأكلوا. ثم عادوا لما كانوا عليه من السير السريع. واستمرُّوا على هذه الحال أربعة أيام وأربع ليال. وفي صباح اليوم الخامس، انكشفت لهم منازل الأغواط الذين أصرُّوا على عدم الطاعة. وامتنعوا عن أداءِ العشر والزكاة. وكانت خيامهم تنوف عن عشرة

آلاف خيمة. وكان أهلها من نكبات الدهر آمنين. وفي لذّة النوم مستغرقين. لم توقظهم إلاّ الصيحات العالية، والضربات المتوالية. ولما انتبهوا رأوا ماهالهم، من الفرسان المنقضّين عليهم انقضاض العقبان على الغربان. وكثر، من النساء، العويلُ والنحيب واندهش عقل البطل النجيب وركض البعض لأسلحتهم، والآخرون لخيولهم. فلم يتمكّنوا من الاجتماع حتى صُمَّت الأسماع، بصوت الأمير "صونوا الحريم. وأما الرجال فأذيقوهم كأس الوبال".ثم أحيط بهم من كل جهة. واستاقوهم كقطعان الغنم. ولما أحضروا مشايخهم بين يدي الأمير، وقعوا على رجليه وتذلّلوا بين يديه وأعطوه المواثيق والعهود على الطاعة، وحسن السلوك؛ فرحمهم، وتقبّل طاعتهم وردَّ عليهم جميع ما أخذ منهم. وفي الحال، دفعوا له أربعة آلاف جمل، وثلاثين ألف رأس غنم عمَّا تبقّى عندهم من زكاة خمس سنين. وكانا بعد ذلك من أشدّ القوم تمسُّكاً بالأمير وأكملهم طاعةً له.

ذكر المقاطعات والعمال وغيرهم من ذوي المناصب العلية وترتيب الأحكام وشؤونها

لما تمت بيعة الأمير واستقام له الأمر واتخذ الآلة ورتّب الحاشية وعيَّن رجال الدولة، قسم ما دخل في طاعته إلى مقاطعتين: مقاطعة تلمسان وولى عليها السيد محمد البوحميدي الولهاصي، ومقاطعة حضرته "مُعَسْكر" وولى عليها السيد بن فريحة المهاجي. ولما قتل، ولى عليها

السيد مُحيي الدين بن علاّل القليعي. ولما مات، ولى عليها السيد محمد بن علاّل، من أقاربه. ولكلٍّ مِن هذه المقاطعات الثلاث، مرسى تخصُّها. فلتلمسان، مرفأ "رشكون" ولمعسكر مرفأ "أرزيو" ولمليانة مرفأ "شرشال". ثم دانت له بلاد تيطري فجعلها مقاطة رابعة. وجعل حاضرتها مدينة "المدية". وولى عليها أخاه السيد مصطفى بن مُحيي الدين ثم عزله وولى عليها محمد البركاني. ثم تزايدت الفتوحات، في الجهات الشرقية والجنوبية؛فاتسعت المملكة وأخذت في الشرق إلى ما وراء بلاد "مجانة"، قرب قسنطينة. وفي الجنوب إلى القفر، فيما وراءَ وادي سوف، حيث مجالات التوارك[1] من بقايا الملثّمين. وفي الشمال إلى ما وراء جبال زواوة. فجعل مقاطعة مجانة مقاطعة خامسة. وحاضرتها "صطيف". ومقاطعة الزيبان؛ مقاطعة سادسة وحاضرتها "بسكرة". ومقاطعة الجبال مقاطعة سابعة وحاضرتها "برج حمزة". فولى على مقاطعة مجانة محمد بن عبد السلام المقراني ثم السيد محمد الخرُّوبي القلعي، ثم السيد محمد بن عمر العيسوي، وعلى مقاطعة بسكرة والصحراء الشرقية فرحات بن سعيد ثم السيد الحسن بن عزُّوز، ثم السيد محمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بن الحاج. وعلى مقاطعة برج حمزة السيد أحمد بن سالم الدبيسي. وجعل الصحراء الغربية مقاطعة ثامنة وولى عليها السيد قدور بن عبد الباقي. وقسم المقاطعات إلى دوائر. ووضع في كلٍّ منها "آغا". وهذه الدوائر تشتمل على قبائل وكل

1. يسمونهم اليوم: الطوارق. و لم تعرف الأسباب التاريخية للتسمية -علمياً- حتى هذا التاريخ.

قبيلة تحتوي على بطون وعشائر. فجعل على كل قبيلة قائداً وعلى كل بطنٍ وعشيرة، شيخاً. فكانت الأوامر الأميرية تصدر إلى العمَّال المعروفين بالخلفاءِ ومن طرفهم إلى الأغوات ومنهم إلى القواد ومنهم إلى المشايخ.. والقضايا التي تحدث في الدوائر يرفعها المشايخ إلى القواد. وهم يرفعونها إلى الأغوات. ومنهم ترفع إلى الخلفاء. ثم تعرض على الحضرة الأميرية، أينما كان. هذا في القضايا المهمَّة. وأمَّا غيرها، فإنَّ الخلفاء يفصلونها بدون أن يرفعوها إلى الحضرة الأميرية. وفي وقت الحرب، يكون هؤلاء الرؤساءُ، رؤساء عسكرية. فيجمع كلٌّ منهم جماعة من عشيرته. ويحضر بهم إلى القتال.

ولما كان، غاية قصد الأمير ربط البلاد بالإدارة الشرعية؛ لم يستخدم في جميع أعماله، إلاَّ مَن اشتهر بمعرفة الأحكام وعُرِف بالعفاف والإقدام وأبعد غالب العمَّال أرباب التقدم والنفوذ في أيام الحكومة الجزائرية. واستخدم في إدارة الأمور الملكية من كان ذا حزم، وعزم، وقوة شكيمة مِن ذوي البيوت المشهورين بالعلم، والفضل، وحسن السياسة. ومع ذلك كان يحلِّفهم على صحيح البخاري بأن لا يعدلوا عنِ الحقّ. وأن يكونوا صادقين في الخدمة مع الأمير والرعيَّة.

وكان مناديه –في غالب الأوقات– ينادي في الأسواق : "أنَّ من له شكوى على الخليفة، أو آغا، أو قائد، أو شيخ، فليرفعها إلى الديوان الأميري مِن غير واسطة. فإن الأمير؛ ينصفه من ظالمه. وإن ظُلم أحدٌ، ولم يرفع ظلمته إلى الأمير فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه".

وتعيين العمَّال، بمراسيم خصوصية، تتحرَّر بقلم كاتب الديوان الخاص. ويختم بأعلى سطرٍ منها بخاتم الإمارة وهو خاتم كبير الحجم، نقشه في الدائرة :

وَمَنْ تَكُنْ برَسُولِ اللهِ نُصرتهُ إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامها تَجِمِ

وفي جوانبه : الله، محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، عليّ. وفي وسط الدائرة: الواثق بالقويِّ المتين، ناصر الدين، عبد القادر، بن مُحيي الدين. والتاريخ سنة 1248.

ويصير نصب العامل داخل الديوان الأميري. وعند تسليمه مرسوم التقليد يعطى خاتماً، عليه اسمه، ولقبه. ويخلع عليه برنس جوخ، على حسب الرتبة التي تولاَّها. ويحلف على صحيح البخاري الشريف: بحسن السيرة، والعدل. ومع ذلك، لا يغفل الأمير عن ملاحظتهم، والسؤال عن مسراهم مع الرعيَّة. وبعد موت المتولي، أو عزله، يرجع الخاتم إلى دار الإمارة.

وعلى حسب جسامة المقاطعة، أو الخطَّة؛ تكون أفراد الحكَّام في الشرف والشهرة. وقد أسندت نظارة الأمور الداخلية لأبي المكارم، السيد محمد بن السيد العربي ونظارة الأمور الخارجية لأبي محمد الحاج المولود بن عرَّاش ونظارة المالية لأبي عبد الله الحاج الجيلاني بن فريحة. ونظارة الأوقاف لأبي عبد الرحمن الحاج الطَّاهر أبو زيد ونظارة الأعشار وصنوف الزكاة لأبي محمد السيد الجيلاني بن الهادية والجباة يخرجون في السنة مرَّتين، مرَّة في الربيع لجباية الزكاة. ومرَّةً في الصيف لجباية الأعشار.

ونظارة دار ضرب السكة، والأسلحة، ومعاملها، وما يتعلق بذلك من أدوات الحرب لأبي البركات السيد محمد بن الجيلاني، من السادة الأقارب. وكتابة الديوان الأميري لابن عمِّه السيد أحمد بن علي أبي طالب، والسيد مصطفى بن أحمد التهامي. ثم نقل الأول إلى قيادة "فليته" والثاني إلى خلافة الحضرة. وعُيِّنَ بعدها للكتابة السيد محمد بن الخرُّوبي، ثم نُقل إلى صطيف. والسيد محمد بن عبد الرحمن المرسلي، والسيد مصطفى بن العوني واتصلت خدمتهما في كتابة الديوان إلى أن ماتا آخر أيام الإمارة. وأُسندت نظارةُ الخزينة الخاصة لأبي سعيد محمد بن فاخه؛ والحجابة إلى بن الحاج علي الرحاوي، والملبوس الأميري لنظر الحاج النجادي الرحاوي. وتعيَّن عبد القادر بن أبي معزة للفراشة. والبدالي بن شافعية للسقاية، وعبد الرحمن بن مقيطيف للسلاح. وعبد الله بن يوسف لحمل الشمسية أو اللواء وهو من حرير، أعلاه وأسفله أخضر، ووسطه أبيض، مرسوم عليه بالذهب المزركش، في سورة دائرة تامَّة "نصرٌ من الله، وفتحٌ قريب. ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين". وفي وسطها سورة يدٍ مبسوطة، مطرزة بالذهب. ولنظارة الإصطبل محيي الدين بن عبد الله. ولرئاسة الموسيقى أبو مدين بن أبي دغن... وغير ذلك من الترتيبات الأميرية ولوازمها.

وبعد أن فرغ منها، أقبل على الوظائف الشرعية. فعيَّن في كلِّ عمالة وكل دائرة واسعة الأنحاء قاضياً عالماً بفصل القضايا الشرعية (على مذهب الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة النبوية).فقيهاً، نزيهاً، مشهوراً بالعفاف، والقيام بأمور الدين... وربط إدارة هؤلاء

القضاة بمراجعة العلاّمة قاضي القضاة، السيد أحمد بن الهاشمي المراحي، رئيس بمجلسه الخاص. ونَصَّبَ السيد بن عبّ بن المصطفى المشرفي، قاضياً للعسكر. وعيَّن لكل قاضٍ كاتبين أكبرهما يقوم مقام المفتي في مطالعة الفتاوى التي تجري الأحكام على مقتضاها. ورتَّب في سائر المدن والقرى علماء: لتدريس فنون العلم. وعيَّن لهم مرتَّبات، على حسب طبقاتهم وأمر بطلب العلم وباحترام أهله واستثنائهم من جميع المطالب الأميرية. فإذا حضر عنده طالب العلم يمتحنه في الفن الذي يتعاطاه. فإن وجده ناجحاً فيه، أكرمه وإلاّ أعرض عنه.

فكان هذا سبباً قوياً للطلبة في الاجتهاد. وحصل من ذلك نجاح عظيم. وانتشر العلم في جميع المقاطعات. وأقبل الناس على تعليم أولادهم الأمور الابتدائية؛ فكثر النفع. وعمَّت الفائدة.

وكانت الكتب -حينئذ- قليلة في البلاد، فاجتهد في جمعها، من كلّ جهة. وأمر العسكر بأنّ كل من وجد كتاباً يحضره لهُ. ثم شدَّد، في حفظ الكتب الموجودة بأيدي الطلبة. وعزم على ترتيب مكتبة في "تاكدمت" فصار يجمع الكتب اللازمة. ولما احتاج إلى إخلاء المدن؛ جعلها في الزمالة. فتلفت كلها في وقعة "طاكين" لما هجم ابن ملك فرنسا، الدوك "دومال" على الزمالة. واجتهد في تهذيب الأخلاق، وبإصلاح الآداب العمومية، بحيث لو أراد الله بإطالة المدَّة، لعادت العرب إلى طريق أسلافهم، المؤسَّسة على منطوق القرآن الكريم لأنه منع -بشدَّة وصرامة- شرب الخمر، ولعب القمار، لاسيما من العسكر.

ومنع استعمال الدخان لكونه إسرافاً، من دون فائدة، لاسيما للفقراء. ومنع الرجال من استعمال الذهب والفضة، إلاّ في الأسلحة، وعلى الخيول. وأمر بالصلوات الخمس أن تكون في الجوامع. ومَن وُجد في دكّانه، وقت الصلاة؛ يُجلد. وعيَّن مأمورين لذلك. ومنع النساء من دخول الجوامع. وأمر بوابي الجوامع بأن تكون عندهم مغرة. وكلما جاءت امرأة، يسمونها بها! فبهذه الواسطة، انقطعت النساء عن دخول الجوامع، خوفاً على أغطيتهنّ.

وأحدث أموراً محسناتٍ للإمارة والمملكة، لم تكن موجودة في أيام مَن سلفه مِن ملوك المغرِب. فاتخذ في كلّ مقاطعة دار شورى، للمفاوضة في الدعاوى المهمة التي تحدث بين الرعايا، وفي مصالح المملكة. وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس إلى الخلفاء. والقضايا التي ترى فيها يكون فصلها، على الوجه الشرعي. ويكتب فيها صكوك، يضع أصحاب الشورى فيها أسمائهم بخطوط أيديهم. ورئاسة كلٍّ منها، تناط بالقضاة. فإذا حضرها الخلفاء فالرئاسة لهم. وعلى كل حال، فهم المأمورون، بتنفيذ صكوكها. وأمر هذه المجالس مربوط بالمجلس العالي الأميري، المؤلف من أحد عشر عالماً وهم نواب المملكة. ومَن تعيَّن فيه لأوَّل الدولة السيد أحمد بن التهامي والسيد عبد القادر بن روكش، والسيد عبد الله سقّاط المشرفي، والسيد طاهر المحفوظي، والسيد أحمد بن الطاهر بن الشيخ المشرفي، والسيد محمد بن المختار الورغي، والسيد المكّي الخرنوبي، والسيد المختار بن المكّي، والسيد الحاج عبد القادر بن روكش الأكبر، والسيد إبراهيم بن القاضي.

ورئاسة هذا المجلس الثانية لقاضي القضاة، السيد أحمد بن الهاشمي المراحي. وعند حدوث نازلة مهمَّة، يحضره الأمير، وتكون الرئاسة له. والوجه الشّرعيّ الذي بموجبه يجري الحكم في النوازل موقوف على اتحاد آراء الأعضاء. ولهذا المجلس سجلّ كباقي المجالس تحرّر فيه مفردات ما يراد من الحوادث. وبهذا الترتيب، كانت الأحكام جارية على جادة الاستقامة. ونفقات هذه المجالس تصرف من بيت المال، كباقي الوظائف والخطط الملكية. وأمَّا أهل الوظائف الدِّينية، وما يتعلّق بها؛ فتصرف مرتَّباتهم وتعييناتهم من خزينة الأوقاف.

ومن الأمور التي أحدثها الأمير، وحاز بها الفضل على من تقدَّمه من ملوك المغرب إنشاء المارستانات، لمرضى العساكر، في كلِّ المقاطعات. وعيَّن في كل مارستان أربعة أطباء، يرجع أمرهم إلى طبيب حضرته العلية وهو أبو عبد الله الرزوالي. وكان ماهراً في علم الطب، وشهد له أهل الخبرة بذلك. وكان عالماً بخواص الأعشاب، على اختلاف صنوفها. وكان يخرج الرصاص من داخل العضو المصاب بوضع عشب على مدخله، فيخرج بعد بضع ساعات من موضعه بسهولة، دون ألمٍ! وابتنى داراً للمسافرين والوفود، في الحضرة. وأقام ناظراً عليها من أمناء دولته، ينزل الناس فيها على حسب طبقاتهم وتقدّم لهم المآكلُ والمشاربُ على حسب مقامهم.

ذكر احتفال الأمير للمولد النبوي والعيدين

كان يحتفل للمولد النبويّ أيّام إمارته؛ احتفالاً عظيماً. فيخرج يوم المولد الشّريف، هو وخاصّته وأمراء جيشه، إلى أرض فيحاء متّسعة. ثم تصنع العسكر فيها شبه محاربة، بحيث تقف العسكر المشاة المنظمة، كهيئة قلعة مربعة الأركان. ويضعون ما يحتاجون إليه من البارود والذخائر وسط تلك القلعة لتردّها عنها. فتبعد عن القلعة نحو عشر دقائق. وتطلق البارود على الخيول المقابلة لها فتهجم الخيول عليها.. وتطلق النّيران حتى تقرب منها؛ فترجع تلك الشرذمة إلى وراء، وهي لا تفتر عن إطلاق النّار حتى تدخل القلعة، وتقف في مكانها الذي خرجت منه. ثم تطلق عساكر القلعة النيران المتتابعة على تلك الخيول. وتطلق مدفعاً أو مدفعين من الركن الذي يليها فترجع الخيالة عنها. ثم تخرج شرذمة أخرى، من الجهة الثانية، إلى ما يليها من الخيالة؛ فتهجم عليها فرقة من الخيّالة المقابلة لها بجميع قوّتها حتى تردّها إلى مكانها الذي خرجت منه، بحيث يخيّل للناظر أنّها لم تخرج منه أصلاً. ثم تطلق النّيران المتتابعة على الخيّالة. ويطلق المدفع عليها من الركن المقابل لها حتى ترجع القهقرى... وعلى هذا المنوال تفعل أصحاب الجهة الثالثة، والرابعة، من الأفعال. ويستغرق هذا العمل مقدار ساعتين من النّهار. فيشاهد الناظر من تلك الأفعال ما تقرّ له الأعين. وتبتهج به النفوس. وتقول في حقّه الألسن: لا عطر بعد عروس.

وهكذا كان العمل في أيّام الأعياد، بعد الفراغ من الصلاة.

ذكر ما شيَّده الأمير من الحصون، وما انتهى إليه عدد العسكر النظامي، مشاةً وركباناً

لمّاً فرغ الأمير من تمهيد البلاد، أقبل على تحسين أحوال المملكة، وتحصينها وتثقيف ثغورها. فابتنى في الخطِّ الفاصل، بين السواد والصحراء عدَّة حصون، منها: "سعيدة وسبدو"، في الجهة الغربية، وفي الجهتين الجنوبية والشَّرقية: "تاكدمت وبوغار وسباو وعريب وبوخرشفة وطازة"، ولما أن دخل "طازة" ورأى تشييدها في أقرب وقت؛ حمد الله، وأثنى عليه وقال إرتجالاً :

اللّه أعلـمُ أنَّ هـذا لم يكـنْ	منِّي على الأمل الطّويلِ دَليلا
كـلاّ... وإنَّ منـيَّتي لقريبـةٌ	منِّي. وأصبحُ في التّرابِ جديلا
وَرِضيَ الإله هو المنى ليكون مِنْ	بعْدي انتفاعُ الخلق تمّ طويلا

ثم أمر بكتابتها، على باب الحصن.

وحصن "تاكدمت" أعظم الحصون المذكورة، وأقواها، وأحسنها موقعاً وأوفقها لوصل تجارة الصحراءِ بتجارة السواد. وقد اعتنى به الأمير؛ نظرا لمركزه. ولما ابتنى هذا الحصن، انتقل إليه بأهله، وأهل دائرته. وأنشأ فيه دار السلاح. وجلب إليها عَمَلَةً من إسبانيا وفرنسا. فكانوا يصنعون فيها البواريد، وحرباتها، والسيوف، وغيرها من أدوات الحرب ومهمَّاته.

وابتنى فيها داراً لضرب السكة وجعلها ثلاثة أجناس، من الفضة والنحاس مستديرة الشكل. فالجنس الأوَّل مكتوب على أحد وجهيها (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً؛ فلن يقبل منه) وعلى الآخر (ضرب في تاكدمت) وتاريخ الضَّرب سنة 1255 وهذه القطعة عبارة عن فرنكين. والجنس الثاني، من الفضة والنحاس مكتوب على أحد وجهيه (إنَّ الدِّين عند الله الإسلام) وعلى الوجه الآخر، محلُّ الضَّرب والتاريخ. وهذه القطعة عبارة عن فرنك واحد والجنس الثالث، من الفضة والنحاس؛ مكتوب على وجهه الأول (ربَّنا أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا) وعلى الثاني محل الضرب والتاريخ. وهذه القطعة عبارة عن نصف فرنك. وتنقّله في رسم هذه الآيات بحسب ما كان عليه من اختلاف الظروف والحالات.

وابتنى في الحضرة "معسكر"، ومليانة، والمدية، معامل لصناعة الأسلحة بأنواعها، والبارود، والرصاص. ومع ذلك، كان يشتري منها —حين اللزوم— من مملكة تونس ومراكش، جانباً عظيماً. وكان تجار فرنسا يجلبون الملح والكبريت، لمراسي الجزائر، فيشتريه منهم. وفي أوقات الهدنة، يحضره من فرنسا وتارةً يستخرجه من معدن، بجبل وانشريس. وأمَّا الجوخ والمدافع فكان معملهما في تلمسان، تحت نظارة معلم اسبانيولي. وقد رأيت ثلاث مدافع في باريس أخذت في أيام الحرب، مكتوب على كل مدفع، فوق خزانته النارية: (عمل في تلمسان، وقت إمارة ناصر الدين، السيد عبد القادر بن مُحيي الدِّين سنة 1255). وقد ألزم كل من سلب في الحرب، بارودة فرنسوي أن يحضرها لناظر المعامل الحربية ويأخذ ثمنها منه اثني عشر ريالاً سينك. ورتّب صنّاعاً

لإصلاح السلاح، وهم المسمون قرداحية. وكانوا يرافقون الجيش سفراً وحضراً. ورتّب عدداً من الخيّاطين والسروجية لإصلاح ما يلزم إصلاحه من الألبسة، وسروج الخيل، للعسكر والمتطوِّعة في أيام الحرب. وبالجملة؛ فقد بذل الجهد والمال، في منافع الدولة والبلاد. واستقصى أساليب ما به العمران ووضع الحاميات والمسلّحات في المضايق، ومواضع الخوف. وحصّن الثغور؛ فعمَّ الأمنُ سائرَ المملكة. وأطفأ نار الفتن التي لم تزل منذ تقلّد أمور المسلمين، تتقدَّم تارةً وتخبو أخرى.واستأصل أهل الفساد.

وللجند في ذلك، اليد الطولى. فإنه لا يعرف، غير الفتك في أهل الضلال. ولا يراقب في طاعة مولاه ونصرته إلاً ولا ذمةً، مع قلّة عدده إذ لم تتجاوز: خمسة عشر ألفاً وثلاثمائة. منها، اثنا عشر ألفاً مشاةً، وألفان وخمسمائة خيّالة، ومائتان وخمسون مدفعيون. تدير عشرين مدفعاً للسفر، وخمسمائة عبد، اتخذها حرسا له، تحت رئاسة سالم آغا الزنجي، الفارس المشهور. وكانت ألبستهم من الجوخ الأحمر الجيِّد وسلاحهم محلّىً بالذهب والفضّة، مرصّعاً بالمرجان.

وهذا عدد أفراد الجند الشخصيّة. ومن حيث الشجاعة والبسالة؛ فقد كان الواحد منهم يعدُّ بعشرة وعلى أتم ما يرام من النظام. وكان ينظم له، عند اللزوم، من حشود المملكة وجيوشها ما تقتضيه الحال. وناهيك بجند -مع قلّته- فتح الأقفال، ونفل الأنفال، واستوثق به للأمير ملك أقام في مقارعة جيوش فرنسا، ومناضلة الثوار، والخوارج،

ستَّ عشر سنة. وبذلك تشهد الأخبار والآثار. ولكن لكلِّ هبوب ركود، وليس للأيام عهود. قال "شرشل" في تاريخه: إنَّ هذه الأعمال كبيرة جداً، بالنسبة إلى سنِّ الأمير، حين المباشرة لإجرائها، مع عدم اطّلاعه على أحوال العالم، كما ينبغي إذ ذاك. لكنَّها صغيرة، بالنسبة إلى ذكاءِ عقله الفريد. ولا شكَّ، أنَّه لو تركت فرنسا الأمير، مغتنماً تلك الغلطة التي أقرت بها في معاهدة تافنا لكان ظهر منه ما لم يكن في حساب. حيث أنَّ العاقل، يُدهش متى سمع بأن دولة فرنسا، احتاجت إلى مائة ألف عسكري، معدودةٍ من أوَّل عساكر الدنيا تقاتل بها الأمير. وقُتل منها، ما يزيد على مائة ألف حتى أمكنها هدم ما بناه في نحو الثلاث سنين!. على أنه لولا المساعدات الخارجية والداخلية؛، لكانت احتاجت إلى أكثر مِن ذلك. والله غالب على أمره.

ذكر توجيه السيد ابن عبد الله سقّاط وفداً إلى سلطان المغرب الأقصى، وما أرسله معه من الأسئلة إلى علمائها، وما أجاب به شيخ الإسلام الإمام التسولي

كان الأمير، يعاقب من يقع في أيدي ضباط الثغور، من أشقياء المتنصِّرة كالدوائر والزمالة والبرجيَّة وغيرهم... ممَّن يواصل العدوّ، ويتسلل إلى مدنه، بما اختلسه المسلمون من عروض وماشية، بما دون القتل إلاَّ مَّن تحقق ضرره للمسلمين؛ فكان يأمر بقتله. ثم بدا له أن يستفتي المحققين،من علماء مصر وفاس، في شأنهم، وشأن مانعي الزكاة

والإعانة التي افترضها للقيام بأمر الجهاد، وغير ذلك، مما اضطرّه الحال إلى السؤال عنه، تأكيداً لحجَّته، وتوطيداً لمحجَّته. فأمر بتجهيز هديَّة عظيمة، ذات قدر وقيمة، واختار السيد ابن عبد الله سقاط، لإيصالها إلى سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن بن هشام وإحكام عُرى المحبة بينهما. وكتب له كتاباً يذكر له فيه ما أجراه من تنظيم العسكر، وتمرينه، وتعليمه أبواب الحرب ومكايدها. وأطال في مدح ذلك. وجلُّ قصدِ الأمير، من ذلك الإطناب إيقاظه مِن غفلته وتنبيهه على انتهاز الفرصة في الاستعداد لذلك. وأعلمه بما مِن الأسئلة، صحبة رسوله، لعلماءِ فاس، ليجيبوه عليها. بالجواب الشافي على وجه التفصيل الكافي. ونصُّ السؤال:

"الحمد لله وحده.

السادة العلماء الأعلام، أئمة الهدى، ومصابيح الظلام. فقهاء الحضرة الإدريسية، حفظكم الله ورعاكم. ومِن كل سوءٍ حماكم.

جوابكم -أبقاكم الله- فيما عظم به الخطب. واشتدَّ به الكرب، في وطن الجزائر الذي صار لغربان الكفر مجازر. وذلك أن عدوّ الدين يحاول ملك المسلمين، واسترقاقهم، آونةً بالسيف، وتارةً بشبكات السياسة. ومِن المسلمين مَن يداخلهم، ويتابعهم، ويجلب إليهم المواشي، وجياد الخيل وغيرها من أنواع الكراع. ولا يخلو أمرهم من دلالتهم على عورات المسلمين. ومِن القبائل مَن يفعل ذلك. فإذا طولبوا بتعيين المرتكبين منهم؛ جعجعوا وتملثوا على الكذب والإنكار! مع أنّهم يعرفون منهم

العين والأثر! فما حكم الله في الفريقين: أنفسهم، وأموالهم؟ وما الحكم فيمن يتخلّف عن المدافعة إذا استنفر الإمامُ، أو نائبه الناسَ للدفاع عن الدين والوطن؟ فهل يعاقبون على ذلك؟ وبأيِّ شيءٍ يكون عقابهم؟ ولا يتأتى بغير قتالهم؟ وهل تُؤخذ أموالهم وأسلابهم؟ وما حكم الله فيمن يمتنع عن أداء الزكاة؟ كلاً أو بعضاً، لدعوى عدم وجود نصابه عنده مع تحقق وجوده في الحال؟ فهل يصدَّق في دعواه، مع ضعف الدين في هذا الزمن؟ أم يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومِن أين يرتزق الجيش المدافع عن المسلمين، الساد لثغورهم عن إغارة العدوّ... ولا بيت مالٍ موجود منظم الآن؟ والذي يجمع من الزكاة، لا يفي بقوتهم، فضلاً عن كسوتهم، وسلاحهم، وخيلهم، ولوازم مؤونتهم؟ فهل يترك الأمر، فيستبيح العدوّ الوطن؟ أم يكون ما يلزم على جماعة المسلمين؟ وإذا كان، فهل على العموم؟ أم على الأغنياء فقط؟ وهل يُعدُّ مانع المعونة باغياً أم لا؟ وما حكم أموال البغاة؟ وهو القول بعدم ردِّها؛ يجوز العمل به، أم لا؟ أجيبوا -أبقاكم الله- عمَّا يناسب المقام والحال، مأجورين. والسّلام عليكم، بدءاً وعوداً.

حرِّر في ذي الحجة سنة 1252 عن إذن ناصر الدين عبد القادر بن مُحيي الدين".

وفي اليوم التاسع عشر من ذي الحجة، سنة ألف ومائتين واثنين وخمسين 1252 توجَّه السيد ابن عبد الله بالهدية والكتاب والأسئلة. ولما وصل إلى فاس أمر السلطان بإنزاله وإكرامه. ثم قدَّم إليه الهدية والكتاب؛ فأخذ يسأله عن أحوال لأمير، وما هو عليه مع عدوِّه، وعن الرعيَّة وأفعالها معه... فأخبره بالحقيقة. وقدَّم إليه السؤال؛ فأرسله إلى شيخ

الإسلام -إذ ذاك- العلاّمة، أبي الحسن عليّ بن عبد السلام مديدس التسولي. وأمره أن يجيب عنها جواباً شافياً موضَّحاً كافياً. ولمّاً تمّ تحرير الجواب، وقدم إلى حضرة السلطان عبد الرحمن أمر وزيره بإحضارسبع كسوات فاخرات، وستّين فرساً. وأن يعطى -من الخزينة- عشرة آلاف مثقال، إلى الحاج الطالب، وكيل الأمير بفاس ليشتري له بها من الأدوات الحربية ما يأمره بشرائه. وأمر بتحرير كتاب إلى الأمير، مضمونه التحريض على استئناف الجهاد، ونقض المعاهدة، وأن ما أرسله له، من الخيل والمدافع؛ إنّما هو ليستفتح بها في الجهاد. وأجابه عمَّا نبَّهه له، من تنظيم العسكر وتعليمه... بقوله: إنّ عسكرنا -حين يأتينا العدوّ- ما نجمعه من الجموع. وعلى هذا؛ كان أسلافنا!. وكتب الوزير للأمير هذا. وزاد فيه: ذكر مفردات الهديَّة. وكذلك الحاج الطالب، كتب للأمير يعلمه بأنه قبض عشرة آلاف مثقال، من الخزينة. وأنه منتظر أمره بالذي يشتريه له فيها. ثم أمر السلطان؛ بإحضار السيد ابن عبد الله سقّاط. وأوصاه بأن يبلّغ الأمير -على لسانه- باستئناف الجهاد. ونقض المعاهدة. ثم أمر بإكرامه،وإكرام مَن معه. وبعد أن سلّم له الهدية والكتب، وجواب السؤال؛ وادعه. وأمره بالتوجُّه. فجدَّ في المسير إلى أن اجتمع بالأمير، في حصن طازة. فأخبره بما أوصاه به السلطان عبد الرحمن من نقض المعاهدة، واستئناف الجهاد. وقدَّم الهديَّة والكتب والجواب عن السؤال. وحيث أنه في غاية الإسهاب؛رُمْتُ اختصارَه، ليتأتى دَرْجه في هذا الكتاب محافظةً على أحكامه المنقّحة، وانتشاقاً لرياّ أزهاره المفتّحة. فأقول:

قال في خطبة رسالته :

"الحمد لله، الذي لا نشرك به أحداً. ولا نجد من دونه ملتحداً. ابتلى قلوب المؤمنين؛ ليميز الخبيث من الطيِّب. ويعلم أيُّهما أقوى جلداً. والصّلاة والسّلام على سيِّدنا محمد، الذي أنقذنا من الهلاك والردى. وتكفّل بالشّفاعة للأمّة غدا. ضاربِ هام العدا. ومجاهدِ مَن حاد عن طريق الهدى. وقاتل مَن اتّخذ مع الله ولداً. وعلى آله وأصحابه، الذين لم ترعهم الكتائب الوافرة؛ ولو كانوا هم أقل عدداً. ولا هالتهم الأمم الكافرة؛ ولو كانت أثر جمعاً، وأقوى عَدداً وعُدداً. وبعد، فقد ورد في هذه الأيام، من ناحية أعمال الجزائر كتاب من أميرها، المجاهد في سبيل الله ربِّ العالمين، سيِّدي الحاج عبد القادر بن مُحيي الدين. أيَّد الله كتائبه. وجعل عونه مظاهره ومصاحبه. متضمِّناً السؤال عن مسائل شتَّى، كما ستراه بعدُ، وتقف عليه. ولما وقف عليه مولانا الإمام، كهف الإسلام. وملاذ الخاصِّ والعام. كافل أمة محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) وقاطع طواغيت الشرك؛ بالسنان والحسام. أمير المؤمنين، الآخذ لراية الكتاب والسنة باليمين، نجل الملوك العظام، المنصور بالله، مولانا عبد الرحمن بن هشام. أيَّد الله أيامه بعزيز داده، ونصر مكين يتَّصل به إلى المولى إمداده. كلَّف هذا العبد الفقير، المعترف بالعجز والتقصير أن يجيب عن تلك المسائل، بحسب ما يراه. فامتثل، وأجاب -عن ذلك- بجواب، يدل بحسب فحواه على أن المجيب استفرغ -ما هو عنده- في سرِّه ونجواه. وكان -نصر الله- أمر بالاختصار في الجواب، وعدم التطويل والإطناب. ثم لَمَّا طولع به، وهو -أيَّده الله- على ما هو عليه من الشغف بمحبة العلم، والتلهف على بثه،

وغاية الحرص على إذاعته ونشره والمبالغة في التنفير من البدع والمحدثات، وقمع للملحدين المعتدين، ذوي الجرأة والتعصبات. والذبّ عن الحنيفية السمحاء وحياطتها. وقمع من لحظها، بعين الاعتداء والازدراء بها؛ رأى أن الجواب المذكور؛ في غاية الاختصار والقصور. فأمر المجيب أمرً ثانياً بأن يجعله تأليفاً، ليحيط بجميع معانيه. ويطلق في ذلك، عنان القول؛ بما يبرئُ العليل ويشفيه. ويتوسع في الجواب. ويتعرَّض لجميع متعلقاته. ويسلك به صوب الصواب... فقلت -ممتثلاً لأمر المولى- إنّ الجواب عن هذه المسائل التي عظم موقعها من دين الإسلام. وتأكد الاعتناءُ بها وبمتعلقاتها على التمام؛ يتوقف على تبحّر في الفقه، وتضلّع من قواعده، وباعٍ واسعٍ؛ في تحرير غوامضه ونوازله. وأنّى للقاصر مثلي أن يجول في مجالها؟ ويحصِّل دقائق فروعها وأصولها؟ وعلى كل حال؛ فأقول:

أمَّا **المسألة الأولى** ففيها فصول. الخوض فيها، لقاصر العلم مثلي خطير، والكشف عن لثامها مع كلالة الذهن صعب عسير. ولكن -للأمر المولوي- تكلفت الجواب عنها، على قدر نظري القصير لأن المسافر الجاد في السير قد أرخص له في التقصير. وبالله سبحانه الاستعانة. وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم ساق السؤال بحروفه. وقال الجواب:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيِّدنا رسول الله :

الفصـــل الأوّل

فيما يعامل به قبائل هذا الزمان المنهمكين في المحرمات والعصيان

قد أفتى كثير من الفقهاء المحققين بقتال القبائل، المجاورين للناس، ومن نحا نحوهم، لما هم عليه من التعدي على حقوق عباد الله، وكتمان أمر اللصوص والجواسيس، والذبّ عنهم ووافق الشيخ ميّارة –على ذلك– والإمام اللّبان والشيخ عبد القادر الفاسي... وغيرهم. قال الإمام بن العربي: قد اتفقت الأمة على أن فاعل المعصية يقاتل عليها، ويحارب إلاّ إذا أقلع عنها وتاب.

الفصـــل الثاني

في دليل عقوبة الجاسوس والنصاب وغيرهما

ممّن يستحق العقاب وسوء العذاب

اعلم أنه لا يخفى، أنّ كلّ من تلبّس بمعصية، توعّد الله عليها بالعقاب الأخروي فإن الإمام يجب عليه أن يعاقبه، سواءً كان فيها – مع ذلك– حقٌّ للآدمي ككتمان الجواسيس، والنصابين، وحمايتهم، والتعصب لهم لما في ذلك من الفساد وإدخال الضرر على المسلمين، في دينهم ودنياهم. أو كان فيها هضمٌ لحقٍّ مِن حقوق الله فقط كالأكل في نهار رمضان، أو ترك الصلاة، أو ترك الآذان، أو ترك النهي عن المنكرات، مع القدرة لأن من رضي بفعل قومٍ فهو منهم. وسبب هلاك الأمم السالفة أنهم كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه.

الفصــل الثالث

في كون الرجل يؤاخذ بجريرة غيره

روى مسلم -في صحيحه- وغيره عن عمران بن حصين (رضي الله عنه) أن ثقيفاً كانت حليفةً لبني غفار في الجاهلية. فأصاب المسلمون،من بني غفار رجلاً ومعه ناقة له. وأتوا به النبي (ﷺ) فقال:

- يا محمد! بِمَ أخذتني؟ وأخذت وناقتي؟ فقال النبيّ (ﷺ):

- أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف وكانوا أسروا رجلين مِن المسلمين.

وكان النبيّ (ﷺ) يمرُّ به -وهو محبوس- فيقول:

- يا محمد! إنّني لمسلم. فيقول له (ﷺ):

- لو قلت ذلك -وأنت تملك أمرك- لأفلحت.

ثم قبل النبيّ (ﷺ) المسلمين بالرجلين،فدوه من ثقيف. وإن لم يجرم إلا كونه حليفاً فقط: وبيان ما قاله الأبي أنّ هذه المسألة لا تخلو مِن ثلاثة أوجه.

أحدهما: أن يكون الغير ممّن لا يأوي إلى المذنب ولا يحميه ولا يتعصّب له ولا يقدر أن يكفّه عن الذنب. فهذا الغير لا يؤاخذ بذنب ذلك المجرم -كتاباً وسنّةً وإجماعاً- سواءٌ كان ذلك الغير من قرابته أم مِن الأباعد. وهو المشار إليه بقوله تعالى: ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ثانيها: أن يكون ذلك الغير ممّن لا يأوي إليه المذنب ولا يحميه ولا يتعصّب له إلاّ أنّه يقر أن يكفّه عن ذنبه ومفسدته ويقر على الانتصاف منه. فهذا تجوز مؤاخذته، سداً للذريعة.

ثالثها : أن يكون ذلك الغير ممّن يحمي المذنب ويتعصّب له أو يواسيه أو يأوي إليه ويرضى بفعله. فهذا يؤاخذ بجريرته، وبجميع ما أخذه. ولا يُختلف فيه لأنه بتعصبه له –ولو بجاهه وحمايته– والرضى بفعله، صار معيناً له على ظلمه، متسبّباً بذلك لإتلاف أموال الناس ودمائهم.

الفصـــل الرابع

فيما لا يجوز بيعه للنصارى ولا يحلّ تمكينهم من تناوله وأخذه

قال مالك في المدوّنة: لا يباع للحربيّين سلاحٌ، ولا كراعٌ، ولا نحاسٌ، ولا عروضٌ. قال ابن حبيب سواءٌ كانوا في هدنة أو غيرها. وهو المذهب كما في المعيار.

الفصـــل الخامس

في معاقبة العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الأقوال

ملخّص ما ذكره الأئمة الأعلام، في هذه المسألة أن ما شرع الله فيه حداً معلوماً كالزنى، والسرقة، والرابة، والقذف... ونحوها؛ لا تجوز العقوبة فيه بالمال –اتفاقاً– لما فيه من تبديل الحدود المعينة من الشارع. قال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[1] الظالمون، الفاسقون. اللهم إلاّ إن تعذّرت إقامتها؛ فيعاقب بالمال، ارتكاباً للأخفّ الضررين ودفعاً لأثقل المفسدتين، ولا يسقط إن زال العذر، وما فيه التأديب والتعزيز بالاجتهاد. فقيل: يعاقب فيه بالمال، مطلقاً. وبه قال الشافعيّ. واختاره: النّووي، وابن قيّم الجوزي. وقيل: لا يعاقب به مطلقاً.

---

1 . سورة المائدة، الآية 44

وهو ما لابن رشد ومن وافقه. وقيل: لا يعاقب إلاّ مع التعذّر. وهو ظاهر كلام الشيوخ المتأخرين.

الفصــــل السادس

في حرمة ترك الإمام ونوّاب الرعية على ما هم عليه من المفاسد وارتكاب المظالم

يجب على الإمام أن يجري على الرعية الأحكام الشرعية. ويحرم عليه أن يتركهم، على ما يتعمّدونه، من ارتكاب المفاسد والمظالم. ويتغافل عن جرائمهم: كتاباً، وسنّةً، وإجماعاً. إذ من المعلوم ضرورةً؛ أنّ نصب الأئمة والولاة إنما هو لزجر من ارتكب، من الرعية، شيئاً ممّا ينهى الله ورسوله عنه. وذلك فرض عين عليهم. فإنهم إن تركوه؛ أفضى الأمر إلى هدم الإسلام. واستوجبوا الوعيدَ في قوله (ﷺ) مَنْ غشَّ أمتي؛ فعليه لعنة الله.

وأمّا المسألة الثانية ففيها فصلان :

الفصــــل الأول

في حكم التخلف عن الاستنفار وما عليه من العقاب

من المعلوم أن الاستنفار للجهاد يتعيّن بتعيين الإمام. فمتى استنفر قوماً؛ فقد عيّنهم. ومتى عيّنهم وَجَبَ عليهم النفير. وحرم عليهم التخلّف. فإن أبوا إلاّ التخلف فقد عصوا الله ورسوله. واستوجبوا العقوبة في الدنيا. والآخرة. قال تعالى : **﴿إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً﴾**[1].

1. سورة التوبة، الآية 122

الفصـــل الثاني

فيما ينبغي أن يفعله الإمام قبل أن يستنفر الناس، وفيمن يجب استنفاره وتدريبهم للحروب واستعمال المكايد وما يستعان به على خذلان العدوّ وتشتيت شمله

اعلم أنه ينبغي للإمام -قبل النفير- بالتوبة، وردِّ المظالم إلى أهلها، والصدقة، وغير ذلك من أنواع البرّ، كما كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يفعل ذلك، ويقول : "إنّما تقاتلون بأعمالكم". وأن يستنفر وجوه الناس وأبطالها الصابرين في البأساء والضراء الذين لا يولُّون الأدبار وأن يدرِّبهم على أمور الحرب ويمرِّنهم عليها ويعرضهم بالعمل على حضرته المرَّة بعد المرَّة؛ إذ ينبغي له استعمال ذلك -شرعاً- في كل خمسة أشهر أو ستةٍ على الأكثر، فيجمعهم بين يديه على أحوالهم، وأفعالهم الحربية، ويعِدهم بالعطايا والخصوصيّات، متى صبروا وأظهروا الجَلَدَ في الحروب... إلى غير ذلك، ممّا يزيدهم قوَّةً ونشاطاً. كما أنه ينبغي له أن يستعين على العدوّ باستعمال المكايد، إذ ربَّما تفعل المكيدة ما لا يفعله الجيش. كما روي أن المهلّب بن أبي صفرة لما اعتاص عليه جيشه في حرب الخوارج وقالوا لا طاقة لنا على مقابلة السهام المسمومة - وذلك أن رجلاً اسمه "أبزى" من الخوارج كان يضع لهم سهاماً مسمومة يقاتلون المسلمين بها- فكتب كتاباً لأبزى وأرسله مع ساعٍ له وأمره أن يلقيه بين صفوف الخوارج. ونصّ ما كتبه :

"إنه وصلتنا هديتك وحسن موقعها عندنا. وقد أنفذنا إليك مع كتابنا هذا ألف درهم. فاقبضها من رسولنا. ولا تقطع مواصلتنا، ومهاداتنا. وما يصلك من عندنا أعظم. ومهما طلبتنا وجدتنا، حيث شئت".

فذهب الرسول بالكتاب. وفعل ما أُمر به. ووصل الكتاب إلى قطريّ رئيس الخوارج. وعجل على أبزى بالقتل، في الوقت، من غير أن يتحقّق خبره! وقال: ما أصنع بمن هادى المهلّب؟ ثم قال المهلّب لأصحابه: لا تشغلوا الخوارج، عن المنازعة بالقتل فإنهم إن افترقوا الآن فلا يجتمعون أبداً. فكان الأمر كما قال.

المسألة الثالثة:

اعلم أن مانع الزكاة يقاتل عليها إجماعاً. والمتّهم بتغييب المزكّى يحلّف في العين، مطلقاً. وفي غيرها؛ إن سبق له امتناع من أدائها. ويحرص على غير الأمين. وقيل: مطلقاً لفساد النّاس في هذا الزمان، وعدم الأمانة فيما إذا ثبت له المال، إماّ بيّنةً أو إقرار. وإلاّ فلا يكف مجرّد التّهمة.

المسألة الرابعة وفيها أربعة فصول:

الفصـــل الأول

يجب على الإمام؛ أن يجبر الرعيّة، على الاستعداد لدفاع العدو ولإصلاح خلل البلاد. قال تعالى : ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها**﴾[1]. فالخطاب للأئمة والولاة؛ على أحد الاحتمالات، بأداء الأمانات. أي التكاليف، التي كلّفوا بها في الرعيَّة: من الحكم بالعدل، وتدبير أمرهم بما يعود عليهم نفعه؛ من استعداد وغيره. وقال تعالى في حقّ الرعيّة : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم**﴾[2].

الفصـــل الثاني

في جواز صلح العدوّ وعدمه

الذي به فتوى العلماء: أنّه يجوز؛ فيما إذا كان العدوّ مطلوباً لأنّ الجهاد فرض كفاية. ولا يجوز فيما إذا كان العدوّ طالباً لأنّ الجهاد وقتئذ يكون فرض عين إلاّ إذا دعت الضرورة إليه؛ إبقاءً على المسلمين وبلادهم؛ فإنّه يجوز. والضرورة لها أحكام. وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب.

1 سورة النساء، الآية 58

2 سورة النساء، الآية 59

الفصــل الثالث

فيما يرتزق منه الجيش إذا فرغ بيت المال ووجوب المعونة إن احتيج إليها في الحال والأبدان والمال

قال في المعيار، عن الإمام ابن منظور: الأصل أنّ يطالب المسلمون بمغارم غير واجبة، شرعاً. لكن إذا عجز بيت المال، عن أرزاق الجند وما يحتاج إليه مِن آلة حرب، وغير ذلك مِن العدد؛ فيوزّع على النّاس ما يحتاج إليه من ذلك. ويستنبط هذا الحكم؛ من قوله تعالى : **﴿قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدين في الأرض فهل نجعل لك خرجاً﴾**[1]. ثم قال: إنّ هذا الأمر يتوقّف على شروط:

أحدهما: أن يعجز بيت المال، وتتعيّن الحاجة.

ثانيهما: أن يصرفه الإمامُ بالعدل، فلا يجوز أن يستأثر به دون المسلمين. ولا ينفقه في سرفٍ. ولا يعطي من لا يستحق، أو يعطي من يستحقّ أكثر ممّا يستحقّ.

ثالثهما: أن يكون الغارم قادراً، مِن غير ضرر، ولا إجحاف، وأمّا مَن لا شيء له، أو له شيء قليل فلا يغرّم البتّة.

رابعهما: أن يتفقّد أمر المعونة، في كل وقت. إذ ربّما جاء وقتٌ لا يفتقر فيه إلى زيادة، على ما في بيت المال. ثم قال: وكذلك إذا تعيّنت الضّرورة، للمعونة بالأبدان، ولم يكف المال، فإن النّاس يجبرون على التّعاون بأبدانهم، بشرط القدرة، وتعيين المصلحة، والافتقار إلى ذلك.

---

1 سورة الكهف، الآية 94

الفصـــل الرابع

في حكم مَن ساكن العدوّ الكفورَ ورضي بالمقام معهم فيما لهم مِن البلاد والثغور

اعلم أن الهجرة مِن أرض الفساد واجبة. ولا فساد أعظم في الدّين من الكفر. قال ابن العربي، في الأحكام: إنّ الهجرة -وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام- قد تقررت فريضتها في أيّام النبيّ (ﷺ) ولم تزل باقية إلى يوم القيامة. قال: وكذلك الهجرة، من أرض الحرام والباطل. قال (ﷺ) : "يوشك أن يكون خير مال المسلم؛ غنيمات، يتبع بها شغف الجبال، ومواقع القطر. يفرّ بدينه مِن الفتن". أخرجه البخاري، ومالك في الموطّأ. قال بعضهم: إن قيل إذا لم يوجد بلدٌ، إلاّ كذلك؟ قلنا: يختار المرء أقلّها إثماً، مثل أن يكون بلدٌ فيه كفر، وبلدةٌ فيها جور. فبلد الجور خيرٌ له. أو بلدةٌ فيها عدلٌ، وحرامٌ وبلدٌ فيه جورٌ وحلالٌ فبلد الجور والحلال؛ خيرٌ له. أو بلدٌ فيه معاص في حقّ الله تعالى، وبلدٌ فيه معاص في حقّ العباد. فبلدٌ فيه معاص في حقّ الله تعالى أولى من بلد فيه مظالم العباد... إلخ ما ذكره.

قال: ولا تسقط هذه الهجرة، الواجبة على هؤلاء الذين استولى على بلادهم العدوّ الكافر إلاّ بثبوت العجز عنها بكلّ وجه بحيث لم يجد لها حيلة ولا سبيلاً كأن يكون مريضاً جداً، أو ضعيفاً جداً. وأمّا القادر على الهجرة، بأيّ وجه كان؛ فإنّه غير معذور، بل هو داخل في وعيد قوله تعالى : **﴿إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم قالوا:**

كنّا مستضعفين في الأرض قالوا: ألم تكنْ أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً﴾[1] قال المؤلّف: فهذه النصوص القرآنية، والأحاديث النّبوية، مع الإجماع، كلّها -كما في المعيار- صريحة في وجوب الهجرة، وحرمة الإقامة في بلاد الكفّار، ولا تجد لذلك مخالفاً من أهل القبلة. فإن تعمّد المسلم ترك الهجرة مع القدرة عليها؛ فقد قال، في المعيار، ما نصّه: اختلف العلماء فيمن أسلم وبقي في دار الحرب. فقال مالك: دمه محقون، وماله فيء، فهو لمن أخذه وليس بمعصومٍ حتى يخرج به صاحبه إلى دار الإسلام. وقال الشافعي: دمه وماله معصومان وإن لم يخرج إلى دار الإسلام. وبقول الشافعي، قال أشهب وسحنون، واختاره ابن العربي، وبقول مالك في المال قال أبو حنيفة. وبه قال أصبغ واختاره ابن رشد وهو المشهور. قال: وهذا الخلاف؛ إنما ورد فيمن أسلم منهم، وبقي بين أظهرهم، ولم يهاجر. لكن المتأخرين ألحقوا به، في الحكم، من كان مسلماً بالأصالة، وبقي ساكناً معهم. وسوّوا بينهما في الأحكام الفقهية المتعلّقة بأموالهما وأولادهما. ولم يروا فيها فرقاً بين الفرقين إلى أن قال: فاجتهاد المتأخرين في هذا مجرّد إلحاق سكت عنه الأولون فيمن كان مسلماً بالأصالة، لعدم وقوعه، في زمانهم بمن أسلم، وبقي في دار الكفر لاستهوائها في المعنى، من كلّ وجه. وهو عدل من النظر واحتياط في الاجتهاد.

---

1 سورة النساء، الآية 97

المسألة الخامسة:

اعلم أن مانع المعونة بالمال والبدن باغٍ قطعاً لأنه منع حقاً وجب عليه. يجري عليه البغاة المشار إليهم، في قول خليل وغيره: البغاة؛ فرقة خالفت الإمام، لمنع حقٍّ... إلى قوله: واستعين بمالهم عليهم. ويظهر غاية الظهور أنه يؤخذ من مالهم ما جهّز به الإمام الجيوش التي قاتلتهم بها لأنهم ببغيهم تسبّبوا في إتلاف بيت المال. فعليهم ضمان ذلك. في المال الذي بأيديهم. وقد قالوا إن الغريم المماطل ضامن لما تسبَّب في إتلافه، على الخصم، مِن أجرة الرسول -والجيش كلّه رسول للبغاة في الحقيقة- ولا يشكّ أنّ من تسبّب في إتلاف مالٍ وجب عليه غرمه. وهو معنى قول خليل: "وضمن المعاند النفس والمال". ولعلّ هذا هو المستند في عدم ردّ الملوك -اليوم- أموال البغاة إليهم. إذ الغالب أنها لا تفي، بما جهّزوا به جيوشهم التي قاتلوهم بها. أو يقال: مستند ذلك سدّ الذريعة، إذ لو ردّت إليهم أموالهم؛لكان ذلك سبباً لبغي غيرهم. فعدم ردِّها إليهم فيه سدُّ تلك الذريعة. ثم قال: وأيضاً، فإن بغاة هذا الزمان غير متأوّلين.وكل باغٍ غير متأوّل، يضمن ما قتله من الجيش. كما أنه يضمن ما أتلفه من الأموال. ويؤخذ ذلك من مفهوم قول خليل: ولم يضمن متأوّل أتلف نفساً، أو مالاً. (انتهى، ما لخصناه من الأجوبة، المقرّرة في الرسالة).

ثم قال مؤلّفها الإمام التسولي في خاتمتها : "هذا ما قصدنا جمعه. نسأله (سبحانه وتعالى) أن يمنَّ علينا، وعلى من كان السبب فيها بتوبةٍ صادقةٍ، وأن يجيرنا وجميع المسلمين مِن الفتن الظاهرة والباطنة، وأنْ

يختم لنا ولهم بحسن الخاتمة، وأن يهب لنا ولهم قرباً على بساط الأدب،في مقام العبودية، وأن يدمّر أعدائنا تدميراً، لا تقوم لهم معه قائمة إلى يوم النشور وأن يجعل تأليفنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وينفع به المسبّب والقارئ ويجعله لنا ولهم سلّماً لجنات النعيم، بجاه أشرف الخلق، سيدنا محمد (عليه أفضل الصلاة، وأزكى التسليم). ورحم الله امرءاً رأى خللاً، فأصلحه أو عيباً فستره. فإن الإنسان محلٌّ الخطأ والنسيان. والله (سبحانه) يتكرَّم على الجميع، بالعفو والغفران. اللهم! ربّ كل شيء، وإله كل شيء، ووليّ كل شيء، وقاهر كل شيء، وفاطر كل شيء، والعالم بكل شيء، والحاكم على كل شيء، والقادر على كل شيء، بقدرتك على كل شيء اغفر لنا ولهم ولجميع المسلمين، كلّ شيء. ولا تحاسبنا وإيّاهم بشيء. ولا تسألنا وإيّاهم عن شيء. إنّك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير. ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم.

ووافق الفراغ ممّا جمعناه ظهر يوم الأربعاء، عاشر ربيع الأول، النبويّ الأنور، سنة ثلاثٍ وخمسين ومائتين وألف" 1253.

وهذا صورة السؤال وجوابه، من علماء فاس. وأما صورة السؤال وجوابه من علماء مصر، فلم تصل إليه يدي لطول العهد. وفي مناسبة ذكر الهجرة، قال الشيخ الأكبر، والإمام الأشهر، سيدي مُحيي الدين بن العربي، في الفتوحات المكية، في الباب الموفي ستين وخمسمائة في الوصايا، ما نصّه: واعلم أن المقيم بين أظهر الكفار، مع تمكنه من الخروج

من بين ظهرانهم، لا حظّ له في الإسلام. فإن النبي (ﷺ) قد تبرأ منهم. ولا يتبرأ رسول الله (ﷺ) من مسلمٍ. وقد ثبت أنه (ﷺ) قال : "أنا بريءٌ من مسلم يقيم بين أظهر المشركين". فما اعتبر له كلمة الإسلام. وقال الله تعالى، فيمن مات وهو بين أظهر المشركين : ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً**﴾[1]. ولهذا أنكرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس والإقامة فيه لكونه بيد الكفّار إذ الولاية لهم والمسلمون معهم على أسوأ حال. نعوذ بالله من تحكم الأهواء. فالزائرون اليوم لبيت المقدس، والمقيمون فيه من المسلمين هم الذين قال الله فيهم : ﴿**ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا**﴾[2]. وذلك، أيام كانت في أيدي الصليبين. ثم قال: وكذلك؛ تجب الهجرة من كلّ خلق، مذمومٍ شرعاً، قد ذمّه الحقُّ تعالى، في كتابه، أو على لسان رسوله (ﷺ).

---

1 .سورة النساء، الآية 97

2. سورة الكهف ، الآية 104

ذكر ما وقع فيه الخلاف بين الأمير والمارشال من مسائل معاهدة تافنا وما آل إليه الأمير في ذلك

ولما تمّ أمر معاهدة تافنا، عيّن الأمير وكلاءه، في وهران ومستغانم. وكتب إلى مسيو "كزماني" وهو إيتالياني الأصل، ووكيل أمريكا في الجزائر، في القيام بأعباء الوكالة له فيها، ونصّ كتابه:

"الحمد لله وحده. ولا معبود سواه.

من عبد القادر بن مُحيي الدين، ناصر الدين، إلى مسيو "كزماني كارل" قارئين السلام على من اتبع الهدى. وبعد:

فإننا منذ وقع الصلح، بيننا وبين دولة فرنسا ونحن نسأل، عمّن يكون لنا وكيلاً في الجزائر وواسطة بيننا وبينهم في دوام الألفة والمواصلة. ثمّ بلغنا عنك أنك من أعقل الناس، وأعلمهم بطرق السياسة، وأخبرنا بعض المحبين أنه لا يصلح لوكالتنا في الجزائر غيرك. فانشرحت صدورنا لذلك. وبناءً عليه، كتبنا لك هذا، إعلاماً بأن تكون لنا وكيلاً عند الفرنسيس، وتتولّى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها، وتجري أمورنا معهم على نظرك، وتعرّفنا بما هو الأصلح لنا معهم. والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرّفك به. والذي يعرض لك من ذلك تعرّفنا به. ومن المعلوم عنّا أننا نحبّ الخير والهناءَ والعافية، والأمن في سائر الوطن.

حرر في رجب، سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف 1253".

ولما اتصل به مكتوب الأمير، تلقّاه بالقبول والتبجيل. وعرض على المارشال تعيينه وكيلاً للأمير في الجزائر. فخشيت فرنسا أن يكون تعيينه واسطةً لربط علاقات ودّية بين أمريكا والأمير. فكتب المارشال إلى الأمير :

"لا يخفى سموّكم أن مفهوم الشرط الأخير من المعاهدة أن وكلاءكم تكون من العرب، كما أن وكلاءنا تتعيّن من الفرنسيس. وعلى هذا، فلا حقّ لكم في تعيين مسيو "كزماني" وكيلاً لكم هنا".

وكتب مضمونه إلى مسيو "كزماني"، وكزماني عرّف الأمير بالقضية تفصيلاً. وحيث أن ألفاظ تحرير المارشال كانت قاسية، اغتاظ الأمير وأمر أن يحرّر إلى المارشال:

"الحمد لله وحده.

من ناصر الدين، عبد القادر بن مُحيي الدين، إلى حضرة المارشال.

ألا إن وكيلنا، مسيو "كزماني"؛ قد بلغنا: أنه لا يسمح له، أن يقوم بمصالحنا. وقد كتبتم له تحريراً أرسل إلينا نسخةً منه، فقرأناها، وهي تعلن إليه أنكم لا تقبلونه وكيلاً عنّا وأنه يجب أن يقام مكانه ابن عرب.

فأوّلاً: لا نقدر أن نجد ابن عرب يتممّ وظيفته ويرضي كلانا ويرضي في صوالح الطرفين. وإن "كزماني" رجل حكيم وعاقل، لا يتمسّك إلاّ بما فيه النفع للفئتين.

وثانياً: ليس لفرنسا حقٌّ أن تجبرنا على تعيين وكيل ضدّ إرادتنا وميلنا لأن ذلك منوط بنا. ولنا أن نختار ما هو الأحسن لنا. وإن كنتم ترغبون أن تقيموا ابن عرب وكيلاً لكم عندنا، فافعلوا فإننا لا نعارضكم

في ذلك. فلماذا تتعرّضون لنا بانتخابنا؟ فعملكم هذا، يناقض مبادئ الشرف الذي يجب أن يراعى في كل الأعمال. ويظهر من هذا أنكم تريدون أن تردّوا الاختلال مرّة أخرى في إياليتي الجزائر ووهران!. حيث أن الأفراد، الذين أرادوا أن يأتوا ويستوطنوا أراضينا، لم يمنعوا عن ذلك بالقوّة الجبرية فقط بل ألقوا في السجن كأنهم مجرمون. ولما وكيلنا "كزماني" أقام الحجة على هذه الأعمال وأمثالها، فلم تتنازلوا أن تجاوبوه. فتصرّفكم هذا، يشير إلى الإجحاف عن الحقّ. ويظهر أنكم ترغبون أن تزرعوا الخصومات بيننا وبين دولة فرنسا. فها إننا قد انتخبنا مسيحياً من مدينتكم وأنتم ترفضونه وكنا نأمل أن تصرّف حضرتكم لا يكون كتصرّف من سبقكم. ولا تمشوا على أثرهم. وإن دولة فرنسا ترسل رجالاً ليحسنوا إدارة حكومة الجزائر، عاملين بما يقتضيه العدل والعقل لنتمتّع بأثمار السلام. واستناد حضرتكم -في تحريركم- على الشرط الأخير من المعاهدة المختصّ بتعيين الوكلاء، متبادلاً منا ومنكم، عندنا وعندكم. وفهم أن تكون وكلاؤنا من العرب ووكلاؤكم من الفرنسيس، فهو خلاف أصله المصادق عليه، بل هذا التفسير اختراعيّ. فإن كنتم محافظين على المعاهدة، فاقبلوا وكيلنا "كزماني" المعيّن بموافقة مجلس شورى الأمة. وإن كنتم استحسنتم خرق الشروط وإبطال المعاهدة، فنحن -مع عدم الميل إلى ذلك- نجيبكم إلى مرغوبكم. ولا يخفى أن البغي وخيم ونتيجة الشرّ تعود على البادئ به. وبالجملة، إنني انتخبت "كزماني"؛ وكيلاً عندكم في الجزائر. فرجوعي عنه محال".

فلما اتصل الجواب بالحاكم، وتأكد عنده أن هذا العمل أثّر في خاطر الأمير، أخذ في تلافي الأمر. وحرّر للأمير بالموافقة. وأخبره أنه محافظ على بقاء المعاهدة الجارية على أسلوبها، حيث لا أمل في الحصول على ما هو أحسن وأوفق منها. وهذه المراجعات التي دارت بين الأمير والحاكم، بواطنها وما ينشأ عنها وما تشير إليه من دقائق السياسة، لم تخف عن الأمير. ولذلك، جعل –بمقتضى حزمه وتفطنه للأمور– جواسيس حذّاقاً تخبره على الدوام بحقائق الأحوال لا سيّما ابن درّان الموسوي. وهذه الحال هي التي أوجبت التشديد وإثبات وظيفة "كزماني". ومن ثمّة، شرع الأمير يخاطب المارشال بألفاظ حرّة شديدة في سائر ما عليه الاختلاف والتراع كمسألة الحدود، وأشباهها. ومن غريب الاتفاق أنه في سنة ست وتسعين ومائتين وألف 1296 كان "مدحت باشا" والياً على سورية، فجاءه مكتوب من "كزماني" –وهو مقيم في إيتاليا– يقول فيه : "إن الدولة العثمانية عزلتني من وظيفة وكيلها في إيتاليا بسبب أنني قمت بخدمتكم، حينما كنتم في هذا الظرف. كما أن دولة فرنسا؛ لم تقبلني لّما عينني الأمير عبد القادر وكيلاً له عندها في الجزائر. ثم قال له: وهذا مكتوب الأمير الذي أرسله إليّ في ذلك الوقت بهذا الخصوص، يصلكم في طيّ تحريري هذا إليكم".

وممّا وقع فيه الخلاف مسير جيش فرنساوي من "أرزيو" إلى "مستغانم" على طريق البرّ، بأمر الجنرال بيجو، حاكم وهران. وجعل ذلك اختباراً لحال الأمير معهم. هل هو متفطّن لمكائدهم أم غافل عنها؟ فإن وجده متنبّهاً لها، خنس، وإلاّ، فإنه يمدّ يده إلى مطلوبه والداعي إلى ذلك أن

المارشال نقم عليه أموراً، بنيت عليها المعاهدة. وتعقّبها عليه، واتبعه في ذلك كثير من رجال دولتهم. فحاول أن يعالجها بمغالطة الأمير. وجعل فعله هذا مقدّمة لما قصده. ولما اتصل بالأمير خبر الجيش، غضب وعلم مكيدة بيجو؛ فبعث إليه يقول:

"إن مسير جيشكم من "أرزيو" إلى "مستغانم" على طريق البرّ مخالف للأصول التي قامت عليها المعاهدة وتقرّر عليها الصلح. ففعلكم هذا محض تَعَدٍّ على حقوقنا. وإن خفي عليكم الأمر، وادعيت أنك غير متعدٍّ بفعلك هذا، فراجع الشروط وأمعن النظر فيها. فإنك تجد أنه لا حقّ لكم في المرور على طريق البرّ إلى مستغانم. وتعلّم أن فهمك لمنطوق العبارة المقرّرة في صكّ المعاهدة، حائد عن الصواب. هذا، إن قلت إنك بنيت أمرك على ما فهمته من العبارة أو أوّلته".

فلما وقف بيجو على مكتوب الأمير علم أنه على غاية من الحزم في أموره؛ فلم يسعه إلاّ السكوت. ولما استولوا على قسنطينة، أرادوا أن يمدّوا أيديهم إلى المسافة الطويلة التي بينها وبين الجزائر. وقبل أن يظهروا هذا الأمر، رأوا أن يجعلوا لذلك مقدمة تكون توطئةً وتمهيداً له. فسيّر المارشال "فاله" مع فرقة من العسكر، من الجزائر إلى قسنطينة على طريق البرّ. ولما وصل الخبر إلى الأمير، كتب إلى المارشال في ذلك وشدّد النكير وأقام عليه الحجّة. فأجابه على ما ذكره المؤرّخ بالمار: "إن فرنسا قد وهبتك جميع إقليم وهران، وجميع إقليم تيطري، ومن الجزائر جميع ما هو غربي نهر الشفة. ولا حقّ لك في شرقيه. وأمّا إقليم

قسنطينة، فإنه خارج عن الحدود ولا كلام عليه في المعاهدة لأنه كان في وقت انعقادها تحت ولاية أحمد باي".

فاستشاط الأمير غضباً لقول المارشال: إن فرنسا قد وهبتك... وعظم عليه ذلك. فأجابه :

"أما إقليم قسنطينة فهو خارج عن محل البحث، وأما إقليم الجزائر فالواجب عليكم أن تتذكروا ما جرى بيننا عليه من المراجعات الكثيرة حين المخابرة في انعقاد المعاهدة حيث كان مرادي أن أجعل حدودكم محصورة في ضواحي مدينة الجزائر. ولما ألحّ عليّ الجنرال بيجو، في توسيع الحدود وامتدادها، جعلتُ وادي القدرة حدًّا لكم في الجهة الشرقية، وإلى البليدة غرباً وكلمة "إلى" عربية. وضعت لانتهاءِ الغاية في كل شيء. فكان الواجب عليكم أن لا تتجاوزوا وادي القدرة الذي جعلته لكم حداً ونهايةً لغاية ما أبحته لكم من البلاد على أن المسافة التي بينه وبين قسنطينة لا تعلّق لها بما جرى بيننا في المعاهدة، ممَّا استوليتم عليه. فإن ما استوليتم عليه في الشرق محصورٌ فيما بين قسنطينة وبونة. وبالجملة، فتجاوزكم لحدّ وادي القدرة خارج عن جادّة العدل، بعيدٌ عن خط الصواب لا سيّما وأهل تلك الناحية لم يحل في أعينهم فعلكم بل رأوه تعدِّياً محضاً على حقوق المسلمين وظلماً بحتاً لهم. ودولة عظيمة شهيرة مثل دولة فرنسا، لا ينبغي لها ذلك. وبالجملة، فتعريجكم على تأويل الألفاظ لا يليق بكم. بل يجب عليكم و علينا أن نحافظ على النصوص الصريحة ونجري في أمورنا على موجبها".

فأجابه المارشال : "إن مراجعاتي لسموّكم مبنية على ملاحظة كلمة "فوق" المذكورة في التحديد الشرقي. فأرجو أن تلاحظوها".

أجابه الأمير : "إن جوابي الأوّل، وما بعده ومراجعاتي كلّها مؤسسة على ملاحظة سائر ما ذكرناه، في التحديد، كلمةً كلمةً وهو الصواب المطابق للّغة. وما فهمتموه أنتم من كلمة "فوق" وكلمة "إلى" غير مطابق لما وضعنا له. وعندكم من علماء اللغة العربية من يحقق لكم ما ذكرناه".

وهذه المراجعات كلّها لم تجد نفعاً. واستمرّت المشاكل تتزايد يوماً فيوماً ومع ذلك، فإن الأمير غير مبالٍ بها ولا ملتفتٍ إليها لما اطلع عليه من ميل دولة فرنسا لدوام السلم. ولمّا استولى الأميرُ على مجانة والزيبان وغيرهما من النواحي الشرقية والجنوبية، قام المارشال وقعد. وبعث إليه في ذلك فأجابه:

"إنكم استوليتم على مدينة قسنطينة والخط الممتد بينها وبين مرسى بونة لا غير. فإن ادّعيتم أن جميع ما كان تحت سلطة أحمد باي لاحقٌ بذلك، فهو محل نظر. وأما ما استوليتم عليه، فإنه بعيدٌ عن دعواكم. ولا حقّ لكم فيه إذ لا يعدّ من أعمال قسنطينة التابعة لحكومة أحمد باي ولا كان في طاعته بل كانت حكّام هذه البلاد من أهلها، لا تعلّق لهم به ولا بدّ له عليهم، منذ انقرضت الحكومة من الجزائر. بناءً على ذلك، ليس لكم في البلاد التي استولينا عليها أيّ دعوى تسمع عند أهل العدل الذين يحافظون على حقوق العباد ولا تطمع نفوسهم إلى الاعتداء".

ثم إن هذه الأعمال التي أجراها الأمير، دون أن يلتفت إلى أحد فيها، قد فتحت له باباً عظيماً لتوسيع مملكته ومدّت له طريقاً متّسعاً لنفوذ كلمته. وبذلك، وضع يده على الأماكن الواقع عليها النزاع وعلى البلاد الشاسعة كالزيبان، ومجانة، وجبال البربر الشماليّة، وما إليها... وسلّم للفرنسيس استيلائهم على قسنطينة. ولم يسلّم لهم دعوى تابعية البلاد التي استولى هو عليها، بل قال إن هذه الأقسام خارجة عن حكومة أحمد باي، لكونه يعلم أن ما تغلّبوا عليه، لا يمكنه التعرض إليهم فيه، لعدم مساعدة الوقت له في ذلك. وما كان خارجاً عن محلّ تغلّبهم؛ فلا حقّ لهم فيه.

ذكر خروج ابن علاّل خليفة الأمير على مليانة لتحصيل الإعانة والزكاة من الأعراش

ولما طال على الأمير أَمَدُ حصار "عين ماضي" كتب إلى السيد محمد بن علاّل خليفة مليانة بأن يحصّل الإعانة المفروضة على الأعراش ويستوفي زكاة خمس سنين، لم يدفعوها. فخرج الخليفة في فرقة من عسكره. ومازال يصبّح عند قوم ويمسّي عند آخرين، ويحصّل الإعانة منهم والزكاة، وكلّ من تأخّر عن أداء ما عليه منها يناجزه القتال حتى انتهى إلى جبل "تاشتة". وكان سكّان هذا الجبل لصوصاً، طغاةً يسرقون الأموال ويتخطّفون النساء ذوات البعول من أخبيتهنّ ويذهبون بهنّ إلى أماكنهم الحصينة ويتزوّجون بهنّ. وكانت الحكومة السابقة لا تقدر على ردعهم

عن ذلك مع كثرة المتشكّين من أفعالهم البربرية. ولما طالبهم الخليفة بالزكاة والإعانة، وأمرهم بردٍّ ما عندهم من المظالم لأهاليها المجتمعين عنده، لم يعتبروا أمره وأجابوه بأنّا خدّام للأعراش، وقد أرسلنا لهم الخبر بذلك، وطيّروا الخبر للأعراش يستنفرونهم للقتال. فأقام الخليفة ثلاثة أيام يراجعهم، فلم يجده ذلك نفعاً. وفي اليوم الرابع، ركب في خمسين فارساً وأربعمائة من المشاة. فصعدوا الجبل وابتدؤوهم في القتال. وبعد ساعة، ولوّا منهزمين وتركوا العيال والأموال. فاستولوا على الجميع، ونزلوا بهم إلى المعسكر. وبعد ذلك، استأمن كبراؤهم، فأمّنهم. ولما حضروا عنه، أمرهم بدفع كافّة ما عليهم من الأموال، بأن يأتوه بالنساء اللاّتي خطفوهن، فأتوه بالبعض منهن. وقالوا: لم يبق إلاّ اللاتي هرب بهن رجالهن، وفيهن من ولدت منهم بطناً واثنين وثلاثة؛ فلم يقبل منهم. ثم اتفقوا أن يضعوا عنده عشرة رجال، من أعيانهم، رهناً إلى أن يأتوا بهنّ فأجابهم لذلك وأطلق عيالهم وسلّمهم جميع أموالهم بعد أن استتابهم وأخذ عليهم العهود أن لا يعودوا لمثل ذلك. وارتحل عنهم. وبعد أيام قلائل، ردّوا إليه بقية النساء. وأفلت رجالهم المرهونون عنده. وقد غيّر سيدي الوالد كثيراً من أمثال هذه الأفعال والعوائد. فمنها ما اعتاده أهل جبل مطماطة من عدم توريث الزوجات والبنات. فأرسل إليهم قاضياً وعدولاً، فحصّلوا لهنّ إرثهن ومنعوهم عن فعل مثل ذلك. وعيّن لهم الفقهاء والقراء يعلّمونهم أمور الدين، ويقرئون أولادهم القرآن العظيم وأمر بعقاب كلّ من ترك صلاة الجماعة لغير عذر.

ذكر توجه ناظر الخارجية
أبي محمد الحاج المولود بن عراش إلى باريس

ولما رأى الحاكم الفرنساوي -بعد إتمام معاهدة تافنا- ما عليه الأمير من شدّة العزم والحزم والإقدام، وأخذ أمرُه في النمو. وتهافت من جاهر بعصيانه على أداء الطاعة له، أصرّ على الأمير بإرسال سفيرٍ من طرفه إلى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويظهر له أنه جاء لتوطيد الحبّ، وتأكيد السلم. وذكر له من فوائد هذا الأمر ما جلب به موافقة الأمير له عليه. ثم إن الأمير أرسل أخاه، سيدي محمد سعيد، ومعه الحاج محمد فاخه، وفداً إلى سلطان المغرب الأقصى. وأصحبها بهديّة وكتابٍ ذكر له فيه أن الحاكم الفرنساوي طلب منه طلباً حثيثاً، إرسال سفيرٍ من طرفه إلى عاصمة فرنسا ليقابل ملكها ويحكم معه طريق المواصلة. وأعلمه بأن نفسه تميل إلى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحمّلته من أعباء الإمارة في زمانٍ كثر فيه العدوّ وفسدت فيه الأخلاق. وعرّفه بما أجراه "بعين ماضي"، وأخذ زكاة نَعَمِها عن خمس سنين.

ولما وصل الوفد إلى فاس، تلقّاهم السلطان، عبد الرحمن، بالمبرّة والإحسان وأنزلهم في أعزّ مكان. ثم أخذ يلاطف سيدي العم. ويسأله عن أحوال الأمير؛ فيحدّثه عن أفعاله بما يستغرب ويقضي على السامع بالعجب. وبعد أن قضوا بضعة أيام، استأذنوا ورجعوا إلى الأمير، مصحوبين بكتابٍ من السلطان ملخّصه:

"بعد الحمد لله

"محلّ ولدنا الذي نظّم به شمل الأمة وجلّى بنور صدقه الشدائد المدلهمّة، حامي حمى الإسلام والمسلمين، الأمير المجاهد، السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين، أيّدك الله بنور توفيقه ورعايته وجعلنا جميعاً من أهل قربه وعنايته، آمين، وسلام الله الأتمّ، ورضوانه الأعمّ يتواليان على حضرتكم، ظعناً ومقاماً، ويرفعان لكم، عند الله، مقاماً. ورحمة الله وبركاته مادام الفلك وحركاته. وبعد،

فقد وافى حضرتنا الوفد الذي اشخصتموه من بابكم ووجّهتموه من جنابكم، صحبة أخيكم البرّ الرّشيد، السيد محمد السعيد، نائباً عنكم في الزيارة، لابساً من عنوان صفاء مودّتكم أبهى زيّ وأحسن بشارة. فأدى إلينا كتابكم الذي تفتقّت عن أزهار روض أخوّتكم في الله مبانيه وتنفّست عن كريم عهدكم، وسليم عقدكم طيب معانيه. وأفصحت عن طيب سرائركم معاليه، وأعربت عن حسن ظنكم خواتمه ومباديه وأفاد بطابع مسرّاته من خبر هناء تلك الأقطار و بلوغ المسلمين بانتظام الكلمة، الأماني والأوطار، وأبقاك الله للأعلام رافعا، و عنحوزته مدافعا ولا عدمتَ من الله معونةً، وتأييداً، وهداية، وتسديداً.

هذا، وقد وافتنا الهديّة التي وجّهتم صحبة الوفد الذي أشخصتم، محفوفةً بجميل الآثار، مكسوّة بحلل البرّ والإيثار، جرياً على جميل اعتقادكم، وعملاً بحسن ظنّكم ووِدادكم؛ فقابلنا وجْهَ نظركم بالقبول. وتلقّينا حديث صلتكم بالبرّ الموصول، كثّر الله أمدادكم ووفّر عددكم

وأعدادكم. وما اقتضته المصلحة من توجيه "باشدور"[1] من قبلكم، لبرّ فرانسا حيث طلبه طاغيتكم بحثٍّ وإزعاج، جارياً من الرشد على مناهج؛ فأنت -والحمد لله- من دينك على بصيرة ومن سياستك على أقوم سيرة. فقد مارست أحوال العدوّ سلماً وحرباً واطلعت على بعض دسائسه شهوداً وغيباً. فأمره كلّه تمويهٌ وتدليس وشأنه كلّه خداع وتلبيس.فكن من مكائده على بال ومن أمر غدره على بصيرة واحتيال. فطالما أسرَّ حسواً في ارتغاء[2] وأظهر تمنُّعا في ابتغاء وأبدى تحبُّبا ووداداً وأضمر غدراً وعناداً. وفيما فعل بالأندلس وأهلها أعدل شاهد وبرهان. وليس الخبر كالعيان. فقد كانوا شرطوا عليه نيفاً وسبعين شرطاً لم يوفِ لهم منها بواحد وضربوا معه فيها في حديدٍ بارد.

لا يغرنّك ما ترى من خضوعٍ إن بين الضلوع داءً دوياّ

ذلّها أظهر التودُّدَ منها...الخ..

قال تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾[3] وقال سبحانه: ﴿ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم﴾[4]. وأيّ خيرٍ يحبّ عدوّ الدين لجماعة المسلمين؟ فالحازم اليقظ من لسلمه لا يستقيم ولا يبرح عن سوء الظن به، ولا يريم. والله -سبحانه- يجزيك من معونته على عوائده ويعيد على الكافر شؤم مكائده.

---

1. باشدور: كلمة تركية محرفة، تعني: المندوب الممتاز (فوق العادة)

2. أي: يقول بلسانه، ما ليس في قلبه. ويظهر على صورة؛ تختلف عما هو عليه في حقيقته.

3 سورة النساء، الآية 71

4 سورة آل عمران، الآية 73

وما ذكرت -أيّدك الله- من التفصّي من عهدة الأمور الاجتهادية، والميل إلى تعاطي المسائل العلميّة لتخرجك من ارتكاب تحلى إليها سياسة الخلق. وربما يخفى فيها ظهور وجه الحق. فاعلم أن الله سبحانه، وحركاته وسكناته ذخرٌ له وبضاعة.فإذا كانت النهضة لله، والعزيمة لنصرة دين الله، كملت المطالب وتوفّرت الرغائب وهذا هو السرّ في افتتاح الإمام البخاري -رحمه الله- في الجامع الصحيح : "إنما الأعمال بالنِّيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى". وإذا اجتهد الإنسان قَدْرَ وسعه وجهده، أمدّه الله بتوفيقٍ من عنده وهداه لسبيل رشده وللأئمة في هذا، مجالٌ. فبهديهم اقتده. وكيف يسوغ لك التفصِّي؟ وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الإسلام، وانتظم أمر الخاص والعام، وأُرغم بك أنفُ الكفر وأحزابه، وردّ كيده على أعقابه حتى صار العدوّ يخفض لك الجناح ويرسم اسمك على السلاح. وسارت بخبر ذلك، الركبانُ براً وبحراً. وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهراً. ولولا وجودك وجدّك لتفرّقت أشياع تلك القبائل الإسلامية شَذَرَ مَذَرَ، ولافترست كلاب الروم أهله وعمرت عبدةُ الصليب حَزنه وسهله. ولكن الله -سبحانه- تداركه بإقامتك وسدّ ثغوره بحمايتك. ولن تعدم من الله عوناً ومدداً ومن صالحي المؤمنين عدّة وعدداً. فإنه لن يعدم القائم بالدين، وحياطةُ الإسلام والمسلمين النصر والإعانَة والتمكينَ من القويّ المعين. والشاهد قوله (ﷺ) :"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين".

وما فعلتَ من أخذ زكاة نعم ناحية "عين ماضي" عن خمس سنين، حين ظفرت بها، بعد تكرر المطالبة للسيد محمد بن أحمد التجاني

بسببها؛ فقد أخذت حقاً، وطهَّرته وأهله. ولو أنصفَ، وقال حقاً، فأنت المكلَّف بتلك الأقطار، دانيها وقاصيها. وإليك مرجع طائعها وعاصيها. ونرجو الله -سبحانه- أن تضاف إليها جميع بلاد أهل الشرك وتنتظم -بطاعتك- انتظام الجوهر في السلك، وتنفذ كلمتك في الحواضر والثغور، وتبسم فرحاً بك الحامية والثغور بحول الله وقوّته. وقد تفرّسنا في أخيك، عند ملاقاته، الخير وعلمنا صحّة فراسة والدك -رحمه الله- حي تخيَّره للخلافة على الزاوية ورشّحه لتلك الرتبة السامية. فالدرّ من معدنه والخيرُ من أهله.

بنو الصالحين الصالحون. ومَن يكن لآباء صدق يلقهم حيث سيِّرا
أرى كل غصــــن نابتاً في أرومةٍ أبى منبــتُ العيدان أن يتغيّرا

ونسأل الله أن يجدِّد بك الآثار والأعلام ويجعلك من الأئمة المهتدين ويصلح بك وعلى يدك. آمين.

وإذا أردت توجيه "باشدور" لطاغية الروم، فاختره من أهل الدين المتين الذي يرجّح جانب الإسلام على المشركين، بإظهار القوّة وتوفُّر الأجناد واجتماع القلوب على الجهاد.فإن أكثر الناس اليوم كلٌّ على مولاه إلاّ الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وقليلٌ ما هم. والله -تعالى- يشدُّ أزرك ويديم نصرك. آمين.

من المولى عبد الرحمن بن المولى هشام بن المولى محمد بن المولى عبد الله بن المولى إسماعيل.

في أواخر ذي القعدة سنة أربع وخمسين ومائتين بعد الألف 1254.

ولما قرأ الكتاب، وفهم ما تضمّنه معناه؛ صمّم على إرسال سفيرٍ إلى ملك فرنسا. واستخار لذلك؛ فوقع اختياره على معتمده، ناظر الأمور الخارجية "ابن عراش"، فبعثه وأصحبه بهديّة تشتمل على عددٍ وافرٍ من الأبقار والحمر الوحشيّة والنّعام وأنواع من البسط والفرش الفاخرة المتّخذة من الصوف النّاعم، نادر الوجود. فسار أبو محمد في أصحابه إلى الجزائر ومنها ركبوا البحر إلى فرنسا. وعند وصوله إلى باريس، احتفل الملك بقدومه وبالغ في مؤانسته وأحسن السؤال عن الأمير ومدح ثباته في الذبّ عن دينه ووطنه. وشكر إجابته إلى الصّلح، وقبوله لما فيه من التّوصّل إلى ما يحتاج إليه في أموره، وما يناله في مدّته من الرّاحة له ولعساكره، وأطال في ذلك.

قال "بالمار" في تاريخه : "إنّ الحاكم العام، لما رأى تقدّم الأمير آخذاً في النمو على وجهٍ لم يكن في الحساب ونظر أنّ ألفاظ المعاهدة لم تزل مبهمةً بحسب فهمه، وشاهد ما عليه الأمير من الحزم وثبات الجأش، عرض عليه إرسال سفيرٍ من طرفه إلى عاصمة فرنسا؛ليقابل ملكها، ويظهر له إنّما جاءَ لتوطيد الحبّ وتأكيد السلم. فهذا رأي الحاكم في الظّاهر. وأمّا في الباطن، فمقصود أنّه ربّما تنتقل الأمورُ التي بينه وبين الأمير إلى طورٍ آخر يحمل الأميرَ على رجوعه عن تعصّبه لما يراه مصلحةً له وواجباً عليه أن يثبت فيه، ويعمل بمقتضاه، في الأمور المختلف فيها. وعلى كلا الوجهين، فقد رأى الأمير أنّ رأي الحاكم حسنٌ، فأجابه إلى ما رغب فيه واختار معتمده ابن عرّاش، لهذه السّفارة. فبعثه وأرسل معه هدايا غريبة". وذكر مفرداتها طبق ما ذكرناه.

ثمّ قال: "ولمّا وصل المعتمد الذكور إلى الجزائر،تلقّاه الحاكم بالمبرّة والإكرام. ثمّ ذاكره فيما يتعلّق بإيضاح مبهم العبارات المقرّرة في المعاهدة. ورأى أن مذاكرته في ذلك قبل سفره إلى باريس أوفق وأولى. فلم يفز منه بجواب شاف، بل سلك معه طريق المحاولة والمزاولة ووعد بأنّه بعد رجوعه من باريس، يجري له ما يرضيه. فغضب الحاكم من هذا الزوغان وحمله غضبه على أن كتب لدولته: إنّ إجراء أمرٍ نهائيّ مع معتمد الأمير لا يوافق صالح فرنسا، ولا أهل الجزائر. ولما وصل المعتمد إلى العاصمة، نزل في دار الضّيافة بكل إكرام وغبّ الاستراحة، قابله وزير الخارجيّة وتوجّها معاً لمقابلة الملك. فقابله الملكُ بكمال الاحترام، ونال منه حسن الالتفات، وسأله عن أحوال الأمير، واستعلم منه حركات عساكره، وأظهر له ارتياحه إلى الهديّة المرسلة معه وقبوله لها. وقال له: إني أعدُّ الأمير عبد القادر صديقاً وحيداً لي وإني أرجو نجاح عمله، وبلوغ البلاد الجزائرية إلى حالتي الرّفاهية والتمدّن.

ثمّ إنّ المعتمد أخذ في مذاكرة الملك فيما يتعلّق بالمعاهدة، والبحث في الألفاظ التي وقع الخلاف في المعنى المراد منها. فأجابه وزير الخارجيّة: إنّ هذا الأمر ينبغي أن تكون المذاكرة فيه مع المارشال "فاله" حاكم الجزائر. وبعد أيّام، انقلب المعتمد راجعاً من باريس، بهديّةٍ من الملك إلى الأمير وهي: سيف، وزوج طبنجة، كلّ منهما مرصّع بالياقوت والزّمرّد واللؤلؤ وحلق الماس، وكرودن منظّم من الياقوت والزّمرّد، وزرابي مخصوفة بقضبان الذّهب، وأثواب منسوجة بالذّهب، وغير ذلك.

ولما وصل المعتمد إلى الجزائر، قابله الحاكم وعاجله بالسّؤال عمّا وقع له في أمر المعاهدة؟ فأخبره بما أجابه به وزير الخارجيّة في حضرة الملك. فانشرح صدره واطمأن فكره ثمّ استأنف المذاكرة معه في تلك الأمور التي لم تزل شاغلة لأفكاره. وبعد مراجعات طويلة، تقرّر عند الحاكم أنّه يذيّل صكّ المعاهدة بما يؤذن بتغيير أشياء منصوص عليها فيه، وتبديلها يوافق مصالح فرنسا. ونصّ ما حرّره في ذلك التّذييل أن المارشال "فالا" حاكم الجزائر ومعتمد الأمير عبد القادر، الحاج المولود بن عراش اتّفقا على توضيح الكلمات المبهمة في صكّ معاهدة "تافنا" التّي تقرّر فيها العمل على ما يأتي:

الأول: أن يكون الحدُّ في جهة الشرق من الجزائر ممتداً من مجرى نهر القدرة إلى منبعه في جبل " "طبيارين". ومنه إلى "يسر" فوق جسر "بني هني". وعليه، فيكون خط التحديد الحالي، فيما بين وطن "فليسة" ووطن "بني جعد" وما بعد "يسر"، إلى "البيبان" وطريق الجزائر إلى قسنطينة، بحيث أن يكون "برج حمزة" وجميع الأرض الكائنة في شمال وشرق الحدود المذكورة إلى البحر، تابعاً لدولة فرنسا، وأن باقي أرض "بني جعد" و"نوغا" جنوباً، وغرباً من هذه الحدود يبقى تابعاً للأمير. وفي عمالة وهران، يسوغ لدولة فرنسا أن تمرّ عساكرها من أرض "أرزيو" إلى أرض "مستغانم". وإذا رأت مناسباً لها أن تصلح قسماً من الطريق الكائن في شرق "المقطع"، فلها ذلك بدون تعدٍّ على أرض الأمير.

الثاني: إن ما تعيّن على الأمير أن يدفعه للعساكر الفرنساوية من الحنطة والشعير في مدّة ثلاثة أشهر. وإلى الآن ما دفعه، يلزم أن يكون تقديمه منجماً على عشرين سنة، بحيث أنّه يقدِّم في أول كانون الثاني من كلّ سنة منها، قسطاً من كلّ صنفٍ من الصنفين المذكورين وأن يكون الدفع في مدينة وهران.

الثالث: إن جميع ما يحتاج إليه الأمير من الأدوات الحربيّة والذخائر يطلبه من الحاكم وهو يحضره، ويسلمه إلى وكيله في الجزائر بأثمانه الأصلية التي اشترى بها.

فعلى هذه الوجوه، يكون الإجراء بدون تغيير ولا تبديل. وباقي الشروط المذكورة في صكّ المعاهدة يبقى معمولاً بها".

ثم لما أنهى الحاكم تذييله، عرضه على المعتمد. ودعاه للموافقة عليه، بموجب كونه وكيلاً عن الأمير؛ فاعتذر إليه بأنه غير مرخّص له في مثل ذلك ووعده بالسعي فيما يحمل الأمير على الموافقة والإجابة إلى مراد دولة فرنسا منه؛ فلم يقنع الحاكم بجوابه وألحّ عليه أن يكتب في هامش التذييل أنه اطلع عليه واستحسنه؛ فتوقّف ابن عراش في ذلك. ثم كتب: إنني اطلعت على هذا الملحق وأستحسنته ولست مسؤولاً عن مصادقة أميري عليه! وبعد أن حرّر المعتمد ذلك،رخّص له الحاكم في السّفر. ولا جرم أن ما حرّر في هذا التذييل يستدعي الحيرة للأمير. فإن وافق عليه، يخرج من يده قسمٌ عظيمٌ من البلاد التي استولى عليها، وتقرّرت أحكامه فيها. وإن أبى، فلابدّ مِن خرق سياج المعاهدة ونقض الصلح.

قال بعض مؤرِّخيهم: وصعوبة القضية جعلت الفرنسيس يتلافونها باستعطاف خاطر الأمير. ولذلك بدا للمارشال أن يبعث مع المعتمد صهره القائد "دوسال" إلى حضرة الأمير ليذاكره في القضية مشافهةً. وكان الأمير -وقتئذ- محاصراً لحصن "عين ماضي" فاعتذر المعتمد بذلك وأخبره أن المسافة بعيدة جداً.

فأجابه الحاكم: إن بُعد المسافة لا يصدّه عن قصده، فاستكان المعتمد لذلك.وعلم أنه لا مناص من خروج القائد معه، فسارا معاً من الجزائر، قاصدين الحضرة. فلماّ وصلا إلى مدينة "مليانة"، تلقّاهما الخليفة، السيد محمد بن علاّل بالتبجيل والإكرام ورفض أن يعرّف القائد رسماً، بدون أمرٍ من الأمير. ثم إن المعتمد أسرّ إلى الخليفة بالأمر.وأطلعه على ما في سرِّه، من كونه يخلف القائد عنده، وهو يغذّ السير إلى الأمير ليخبره بالواقع. فوافقه الخليفة على ذلك وتلطّف المعتمد في الخروج ليلاً وأسرع في السير إلى "تاكدمت" وبوصوله، طيّر الخبر إلى الأمير، وهو على حصن "عين ماضي". أما القائد "دوسان" فإنه لما اتصل به خبر سفر المعتمد دونه، حمله الغضب على الرجوع إلى الجزائر. فرجع وأخبر المارشال بما اتفق له مع المعتمد. فقام لذلك وقعد وكتب إلى دولته بالواقع وأخبرها بأن الأحوال الراهنة تقضي ببطلان المعاهدة. وفي هذه المدّة، كان الأمير مشتغلاً فيها بأمر "التجيني"، فانتهز الفرنساوية الفرصة وشيّدوا الحصون المتينة في "بونة"، "وكالمة وميلة" من أعمال "قسنطينة"، في الجهة الشرقية منها ووضعوا فيها العساكر والذخائر. واكتشفوا آثار مدينة قديمة رومانية على البحر،

غربي "بونة" وتسميها العرب "سكيكدة" والبربر "روسيكادا" فابتنوا في حزبها مدينة، سمّوها "فيليبفيل".

وبهذا المركز، توصّلوا إلى وضع يدهم على "جيجل والقل" وغيرهما من المراسي الصغيرة فيما بينها وبين الجزائر.

وبعد فراغ الأمير من فتح حصن "عين ماضي"، رجع إلى "تاكدمت" وبوصوله، أحضر معتمده "ابن عراش" ووبّخه على استبداده فيما كتبه على التذييل، فاعتذر إليه بأنه لم يفعل ذلك إلاّ لاتّقاء شرّه، والخروج من قبضته، فقبل عذره.

ثم أقبل على تفقدّ أحوال الجيش ومهمّاته الحربية وبعث إلى خلفائه في الولايات يحثّهم على النظر في أحوال من عندهم من العساكر وأمرهم بمفاوضة الأعيان والرؤساء في أمر الجهاد والأخذ في الاستعداد. ودسّ إلى وكلائه في الجزائر ووهران وغيرهما باستقصاء الأخبار، واستطلاع الأحوال والنقب على دسائس العدوّ ومكائده. وبعث إلى أهل الثغور في التيقّظ والتنبه إلى غوائل العدوّ والتحذير من مفاجئاته.

ولما اتّصل بحاكم الجزائر ما عليه الأمير من شدّة الالتفات إلى أموره وما هيّأ الله له من النصر والتمكين وثبوت القدم، حرّكه الحسد مع ما اتفق لصهره مع المعتمد ابن عراش، فبذل وسعه في نقض المعاهدة وواصل رسائله إلى دولته في ذلك، وهي تعيره أذناً صمّاء. ثم بعث صهره، القائد "دوسال"، مرّةً أخرى إلى "مليانة" وكان معه رسالة من الحاكم في طلب الجواب على مقتضى ما في التذييل. وعند وصوله إلى الحضرة،

تلقّاه الأمير بالمبرّة والإكرام. وبعد اطلاعه على رسالة الحاكم، تحيّر في أمره ورأى أنه أمسى بين أمرين خطيرين: إما الموافقة، والوصول إليها صعب لبعده عن قبول الأمة له! وإما رفضها وهو يؤدّي إلى نقض المعاهدة. وكان ديوان الشورى وسائر الأمة يميلون إلى الحرب، ويقدّمونه على إعطاء الدنيّه بقبول ما في التذييل. فمال معهم وأجابهم إلى ما طلبوه واستحسنوه.

ثم إنه دعا القائد "دوسال" إلى الديوان. وكان حشر إليه الأعيان والقواد. فلما استقرّ به المجلس، أخذ الأمير يتكلّم على العموم. فأخبرهم بالقضية وبتحريض الحاكم على الإجابة إلى مطلوبه والموافقة عليه. ثم قال: وهذا الرسول الذي هو بمثابة وكيل لدولة فرنسا جالس بينكم، وحاضرٌ معكم، يسمع كلامي وكلامكم. فانظروا ما يحلو لكم وأظهروا ما فيه رغبتكم... فضجّ الجميع وقالوا: لا نقبل، ولا نجيب إلى ما هو مذكور في التذييل ولا نرضى بالدنيّه في ديننا، ولا بما يخلّ بشرفنا. فالنار ولا العار. فإن كانت الدولة الفرنساوية ترضى أن تبقى على ما انعقد عليه الصلح في "تافنا"، فذلك. وإلاّ فالحرب وبالله المستعان.

فأقبل الأمير على القائد "دوسال" وقال له: ها أنت قد نظرت بعينيك وسمعت بأذنيك. وليس الخبر كالعيان فأخبر الحاكم بما رأيت وسمعت. والذي عندي هو أن تتكلّم معه بما يقنعه، ويحمله على إبقاء المعاهدة جاريةً في سبيلها القديم. فإنّ ذلك أحسن للطرفين وأليق بالجانبين، وعاقبة الحرب -كما لا يخفى- وخيمة وسفك الماءِ -مع إمكان حقنها-

لا يجوز في سائر الشرائع المقرّرة، ولا يرضى به ذو عقل سليم. وعلى كل حال، فنحن مسرورون بقدومكم علينا. ونرجو أن يكون، ما شاهدته وسمعته من نواب المملكة أكبر عذر لنا عند الحاكم.

ثم إن القائد "دوسال"، بعد أن وقف على حقائق الأمور، انقلب راجعاً إلى الجزائر وأخبر مرسله بالواقع. فوجم لذلك ثم بعث إلى وزير الحرب في باريس يخبره بما جرى وما شاهد صهره من الأمير ورجال دولته وما هم عليه من التحمّس والرغبة في الحرب. وأردف الحاكم ذلك بقوله إن تغيير الحال الراهنة، يحيجنا إلى استعمال أشياء وهي أن تعلن الدولة الفرنساوية للأمير عبد القادر بأنها لا تقبل الحكّام الذين وضعهم في الأماكن المختلف فيها. ولا تعرفهم، وأنها تصدر أمرها بتهديد الأمير ووعيده. فإن لم يُجدِ ذلك نفعاً، تأمر بالهجوم عليه بكمال القوّة التي يتوصل بها العسكر الفرنساوي إلى هدم قوّته والاستيلاء على " برج حمزة" وما يليه من البلاد الشرقية، وأنها تكتب بعد هذا كله إلى الأمير: إن هذا العمل ليس المقصود به نقض الصلح بل هو متمّم له ومثبّت لروابطه.

فلينظر العاقل إلى هذا التحرير، وما هو عليه من فساد المعنى وهل عمل السيف صلح؟ وهل بعد الهجوم والاستيلاء على الأراضي المذكورة معاهدة؟ ثم إن الأمير، لما علم أن الحاكم ساعٍ فيما يحلُّ به عقدة المعاهدة، كتب إلى ملك فرنسا رأساً يخبره بالحال ويطلعه على سوء تصرّف حاكمه في الجزائر. وملخّص كتابه:

"من المعلوم -قديماً وحديثاً- أن المسلمين، من دأبهم محاربة عدوّ دينهم قياماً بما أوجبته الشريعة الإسلامية عليهم من الجهاد، إمّا لإعلاء كلمة الله، أو للدفاع والذبّ عن الدين والبلاد. فإذا عارضتهم أمور سياسيّة، أو ضرورات شرعيّة، فلهم أن يجنحوا للسلم ووضع أوزار الحرب. ونحن، لما رأينا الجنرال "بيجو" راغباً في الصلح، ورأينا بلادنا تحتاج إلى ما به عمرانها، وفيه راحتها، أجبنا الجنرال إلى مطلوبه، وعقدنا معه الصلح، ظناً منّا أنّ دولة فرنسا تحافظ على العهد كما أنّنا كذلك. فإذا بعمّالكم في الجزائر بادروا إلى ما به خيبة الظن وعجلوا بما يؤدي إلى الضرب والطعن. فكاتبناهم في ذلك، فما سمعوا. ولاطفناهم في القول والفعل، فما قنعوا بل جمعوا حَوْلهم وقوّهم، فيما يحملنا على الإجابة إلى ما لا يجوز لنا شرعاً: أن نجيب إلى مثله، وهو التخلّي عن قسمٍ عظيم من بلادنا، والتسليم في إخواننا، أهل ديننا. وحيث أنه غلب الظنّ أنكم لا ترضون بوقوع ما يكدّر صفونا، ويقطع مواصلتنا، بادرنا إلى إرسال هذه الرسالة الودّية لتعلموا منها ما هو واقع بيننا وبين عمّالكم، وتتأكّدوا أننا راغبون في مسالمة فرنسا، ومصافاتها ودوام معاملتها في المتجر وغيره من أسباب العمران. ولا تظن الدولة الفرنساوية أنّ رغبتنا فيما ذكرناه لضعف اعترى قوّتنا، أو لقصورٍ أخذ من حدّة شوكتنا؛ فإننا -بحول الله تعالى وقوّته- لم نزل ولا نزالُ على ما تعهده عساكرها من عساكرنا من كونها تعطيها في ميادين الهيجاءِ كيلاً بكيلن وتقابلها المثل بالمثل، غير أننا، لما رأينا ذلك لا يجدي نفعاً،

رغبنا في المعاهدة، طلباً للراحة والوصول إلى ما فيه عمران البلاد كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. كتبنا إلى جلالتكم هذا، إعلاماً بالحال" (انتهى).

وقد وصل هذا التحرير إلى الملك، إلاّ أن العوارض الكثيرة وقتئذ، منعت من ردِّ الجواب. قال: ثم بعث الأمير إلى الملك، مكتوباً ثانياً و لم يتيسر جوابه. وبعد مدّة، اتصل به أن وزيري الخارجية والحرب عزلا، وتعيّن لوزارة الخارجية مسيو "تيرس" الشهير، ولوزارة الحرب المارشال "جراردن". فتوهّم أن هذا التغيير يجديه نفعاً فيما هو راغب فيه. فكتب إلى الملك مرة ثالثة وإلى الوزيرين المذكورين. وملخّص كتابه إلى الملك:

"قد كنت بعثت لجلالتكم برسالتين، ذكرت فيهما ما هو واقع بيننا وبين عمّالكم في الجزائر، من الوحشة. ورغبنا في زوالها من لدن جلالتكم بوجه العدل والإنصاف. كما أننا رغبنا أن تأمروهم بالعدول عن طريق الظلم والاعتساف. وإلى الآن ما وصلني جواب عن واحدة منها. فظهر لنا من ذلك أنهما لم يصلا إليكم لأن كرم الأخلاق يأبى أن تكونوا -بعد اطلاعكم عليهما- تغافلتم عن ردّ الجواب. وبناءً عليه، كتبت هذا، علاوة على ما تقدّم، رجاء أن يصل وتطلعوا عليه وأنه يحوز القبول. وقصارى ما أقول إن عمّالكم في الجزائر أجهدوا أنفسهم فيما ينقض الصلح المنعقد بيننا وبينكم، من غير موجب من جهتنا البتّة.وإنما حملهم على ذلك ما سوّلته لهم أنفسهم من التعدِّي على حقوق عباد الله، ومدّ اليد إلى ما ليس لهم فيه وجه. فالبلاد التي ذكرها الحاكم في تذييله هي بلاد سبقنا نحن إليها ووضعنا أيدينا عليها وهي في حكم

الموات، لا حاكم لها بمقتضى الشرع، ذلك منذ انقرضت الحكومة من الجزائر وأعمالها. و لم تدخل قطٌّ في حوزة "أحمد باي" حاكم قسنطينة ولا كانت بينه وبين أهلها مواصلة سياسية.فبأيّ وجهٍ ينازعوننا فيها ونحن أحقّ بها وأهلها من وجوهٍ لا تخفى على المنصفِ، ذي القلب السليم. وهب أنها كانت من أعمال قسنطينة التي استوليتم عليها وأخذتموها من يد أحمد باي فإن أحمد باي؛ كان حاكماً عليها بالتغلّب، أيامْ دخولكم إلى الجزائر. وهب أنه كان عاملاً عليها من قبل حكومة الجزائر، فإنّ تلك الحكومة انقرضت وبانقراضها انقرضت أحكامها وحكامها. فلا سلطة شرعيّة لأحمد باي عليها. وبقاؤه فيها، إنما كان على سبيل الدعوى لنفسه، والناس لم يقبلوه أن يكون وليّ أمرهم ولا اعتبروه رئيساً عليهم مطلقاً. وتغلبّه، كان على نفس مدينة قسنطينة وبونة. ولو وجد أهل تلك النواحي من المسلمين من يَأخذ بأيديهم، ويدفعه عنهم، لسارعوا إليه كما وقع ذلك حين توجهنا إلى النواحي التي تلينا ومن جملتها الأراضي التي نازعتنا فيها عمّالكم بغير حقّ.

وبالجملة، فسلوك هؤلاء العمال معنا حائد عن طريق الحق، مغاير لأساليب العدل. ومن العجب أنّهم تعدّوا على نفر من عساكري. وحبسوهم بدون سبب شرعي ولا داع قانوني. و على فرض أن لهم وجها فيها فعلوه، فكان الواجب عليهم أن يخبرونا في أمرهم، ونحن نجري عليهم ما تقضي به الأحكام الشّرعية أو القانونية، على حسب ذنوبهم. ثم إنهم منعوا بيع الحديد والنّحاس والرصاص في أسواقنا كما أنهم منعوا تجارنا من شرائه في أسواقهم وأهانوا رسلي إليهم وأعرضوا

عن ردّ أجوبة رسائلي التي وجّهتها إليهم وجعلوا ضريبة على المكاتيب التي ترد من الدّاخليّة إلى الجزائر وغيرها من المدن التابعة لهم. ومع هذا كله، فإنهم يكتبون إلى جلالتكم إنّني عدوّ فرنسا، أطلب حربها وأسعى في أسبابه. فينبغي –والحالة هذه– أن تأخذوا من أعنّتهم وتضربوا على أيديهم وتأمروهم بالعدل عن سوء التّصرف معنا. فإنّ كمال مروّتكم، مع ما شاع عنكم من مكارم الأخلاق، يقضي عليكم بذلك. فإن قال هؤلاء العمّال إنّنا تأخرنا عن إجراء البعض من شروط المعاهدة، قلنا إنّنا لم نؤخر ذلك إلا لكون الجنرال "بيجو" تقاعد عن إجراء ما تعهّد به، ظنّاً منه أنّني غافل عن تلك المعاهدة، المحرّر عليها اسمه بخط يده. وما علم أنني أعتبر صحة مواعيد شخص، هو وكيل ملك فرنسا. فانظر–أيُّها الملك– فيما ذكرته لك واسمح بردّ الجواب والتعريف عن مقاصدك، والله يوفقك إلى ما فيه راحة العباد".

وكتب إلى وزير الخارجية ما لخّصه :

"إنني أهنيء فرنسا برجوعك إلى وزارة الخارجيّة. واعلم أنّ الأثقال المهمّة التي تقضي بصرف الهمّة وتوجيه الفكر إلى تحسين الأحوال بيننا وبينكم، تجعلني أنتظر منك ما أهنّيء به نفسي. فإنّك –على ما بلغنا– تحبُّ الهدوء والسكون وتسعى فيما يُحسّن العلائق بين شعبك وسائر الشعوب. ولا يخفى أن الأحوال الجارية، بيننا وبين عمّالكم، لا يصلحها ويحسّنها إلا تأييد السلم المنعقد بيننا وبينكم وتوطيده ومجانبة الأعداء بكلّ وجه. وأمّا استعمال الحيل، مع الإغضاء عن إجراء شروط

المعاهدة، لأجل مطامع خارجة عن جّادة الحقّ؛ فلا جرم أن ذلك يفضي بنا وبكم إلى ما لا خير فيه لنا ولكم وحيث أن الحق -تعالى- وهبك من الأخلاق الحميدة ما أكسبك الثّناء الجميل من أبناء وطنك، فينبغي لك أن تستعمل تلك الشيم الكريمة، كذلك في إفريقية. وبذلك ينتشر ذكرك الحسن بين الأمتين وتتعطر أنديتها بمدحك وكمالك وتحصل لك الشهرة المطلوبة لكلّ عاقل ويدوم ذكرك في العالم. وبالجملة، فإنّني أنتظر منك ما يسرّ السامع وتبتهج به المجامع من تجديد الروابط الودادية بيننا وبين دولتكم".

وكتب إلى موسيو جراردن ما ملخّصه :

"لما بلغني أن ملك فرنسا قلّدك وزارة الحرب، انشرح صدري لذلك، لعلمي أنك تميل إلى المسالمة وتسعى في أسبابها. ومَن يكون قادراً على نظارة الحرب، فلا بدّ أن يكون قادراً على تمكين الصّلح، وحمايته من اعتداء المعتدين. هذا، وإنّ معاملة عمال الجزائر لنا. وسوء تصرفهم معنا لابدّ أن يكون قد شاع وذاعَ، وتأسّف له كل عاقل، وتكدر منه كلّ فاضل. فإن هؤلاء العمّال -بعد أن عقدنا الصلح مع دولة فرنسا، وأسّسناه على شروط، قبلها كل منّا وجرى بها العمل-قاموا يتعاطون أسباب حلّ ما عقدناه، ونقضِ ما أسسناه. وبَنوا أمرهم على الطمع الذي يمقته كل منصف، والظّلم الذي يمجّه كل عادل. وحاولوا تغيير كثير من الشروط وبحثوا في معاني ألفاظها العربية ولا أدري هل كان

ذلك منهم لجهلهم باللغة العربية؟ أم هو على سبيل التعنّت، ومن العجب أنّهم ارتكبوا ذلك ولم يعلموا أنه حطيط في حق دولتهم العظيمة.

وبالجملة، فنحن نستدعي حسن التفاتك إلى المطالب التي أكثروا علينا فيها ونرجو نفوذك القوي عند جلالة الملك يعضد مقاصدك السليمة. والله تعالى يوفقكم إلى فعل الخير وتقريره".

فمن تأمل في معاني هذه التحارير، ظهر له منها حسن مقاصد الأمير وشدَّة ميله إلى الصُّلح كما أن دولة فرنسا كانت تظهر ذلك. ولكن إرادة الله اقتضت وقوع الحرب بين الفريقين.

ولما يئس حاكم الجزائر من إجابة الأمير إلى موافقته على ما حرّره في تذييله، وعلم أن ذلك دونه خرط القتاد، وانتضاء السيوف من الأغماد، بعث إلى دولته صورة التذييل الملحق، وذكر لها ما يحملها على اختبار الحرب. وكان معلوما عندها، أن الأمير لا يسلّم بذلك، لكنها نظرت أن مرور جيشا في تلك الأراضي يكون فيه الشرف العظيم لفرنسا. ووضع اليد لا يعدّ نقضا لدعائم الصلح. وأصدرت الأمر إلى المارشال بهذا. وعند وصوله إليه أخذ في الاستعداد. وبعد استكمال تعبيته ووصول الدوق "دورليان" ابن الملك، ورؤساء العسكر إليه، خرج -وهم في معيّته- من الجزائر، في السابع والعشرين من رجب، سنة خمسة وخمسين ومائتين وألف 1255 والسادس من أكتوبر (تشرين الأول) سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف 1839. سالكين طريق البرِّ. ولما وصلوا لمضيق

"البنيان"، قسموا جيشهم إلى فرقتين : فرقة توجَّه بها ابن الملك إلى قسنطينة. والفرقة الثانية؛استمر بها المارشال سائراً إلى أن دخل الجزائر.

قال: بعض مؤرخيهم : " وكان دخوله إلى الجزائر دخولا احتفاليا وقوبل بأعلى أصوات الابتهاج، واستمرت الاحتفالات أربعة أيام. وعملت وليمة فاخرة على ممشى باب الواد. وظن أن الجزائر قد انقلبت. فكان انتصارا وهميا، رسمته المخيلة على لوحها، وأنبأت عنه الشفاه. وكان أهل البلاد التي يمرّون فيها يعتقدون أن حاكم الجزائر قصد بمروره بابن الملك في بلادهم، مجرد السياحة والتفرج، لما هو مقرر عندهم من أمر المعاهدة بين الأمير ودولة فرنسا. ولذلك، كانوا يقدمون له جميع التسهيلات السفرية، مسرورين بحليف ودود لأميرهم. ولولا هذا ما تركوه يمرُّ في بلادهم من غير قتال.

قال بعض مؤرِّخيهم : "ولو كان عبد القادر هناك بخمسمائة عسكري فقط، لما مكّنهم أن يعبروا أبواب الحديد عند وصولهم إليه. ولا مكّنهم أن يخرجوا منه.

ولما مرَّ بوسط قبائل "بني مناصر" أحد قوادهم، وحصل إطلاق البارود بينهم، انتبه الخليفة السيد أحمد بن سالم من نومه وطيَّر الخبر إلى الأمير؛ فوجم لها.ثم نهض من مليانة إلى المدية وكتب إلى المارشال ما ملخصه :

"بينما كنا معكم في حال سلم ومعاهدة، فلم نشعر إلا وقد فعلتم ما ينافي ذلك وتجاوزتم الحدود المعلومة، بين بلادنا وبلادكم، بغير إذني، ولا تقدّم مخابرة في ذلك، ولا علم. ومررتم بابن الملك في عساكركم

الكثيرة في بلادي من الجزائر إلى قسنطينة، بدون وجه يسوغ لكم ذلك، ويجوّزه. ولو أخبرتموني أن ابن الملك يريد زيارة بلادنا كنت رافقته بنفسي أو عيّنت أحد خلفائي لمرافقته. والذي يظهر، أن القصد من فعلكم هذا إظهار التعدي على حقوقي حتى أتأثر لذلك وينجرّ الأمر إلى نقض المعاهدة والحال أن فعلكم هذا، هو نفسه ناقض للمعاهدة، مبطل لها.وبناءً عليه، أعلن لكم أنني عزمت على استئناف الحرب. وبالله المستعان. فارفعوا وكلاءكم من بلادي، وأنذروا قومكم المقيمين فيها والمسئولية عليكم وحدكم".

ذكر ما جرى بعد هذا من إشهار الحرب والمراجعات فيه وما آل إليه الأمر بعد ذلك

لما يئس الأمير من إجابة الدولة الفرنساوية إلى ما دعاها إليه من ترك مطامع عمّالها والبقاء على ما تقرر به الصلح ورأى أن العمال الفرنساوية عامدون إلى نقض العهد وإضرام نار الوغي، اعتزم على دفاعهم، والذبّ عن دينه ووطنه، وأصدر أوامره إلى خلفائه في المقاطعات بالتأهّب للحرب، والاستعداد لها، وأطلعهم على ما أظهره الفرنسيون من نقض المعاهدة، ثم أصدر إعلانا عمومياً ليتلى في المحافل والمجامع وملخصه :

"ليكن في علم سائر الخلفاء، والأغوات، والقواد، وكافة المسلمين، أهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله، ثم طاعتنا، وفقهم الله للقيام بفريضة الجهاد وأعانهم بالقوة والأمداد. إن الفرنسيين قد ظهر عدوانهم

واتضح اعتداؤهم؛ فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم. ومرّوا في بلادنا من الجزائر إلى قسنطينة بدون إذن منّا. فتأهبوا -أعانكم الله- للحرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضرب واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم وأجمعوا أمركم للذبّ عن موردكم وعطنكم. وحيث أن ما في بيت المال من النقود لا يفي بنفقات الحرب ولوازمها، فقد تعيّن عليكم أن تقرضوا أنفسكم، ومَن يليكم، إعانة جهادية وسارعوا بالحضور إلى المدية؛ فإنني أنتظركم فيها. ووطدّوا طريق الراحة والأمن في سائر أعمالكم على الوجه الذي أكون فيه مطمئن البال واعلموا أن النجاح موقوف على إخلاص النية. فوجهوا قلوبكم إلى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمته، وتشييد أركان دينه، بكم ... والسلام عليكم".

قال "بالمار" وغيرهم من مؤرخي الإفرنج : "من أطّلع على هذا الإعلان وغيره من إعلانات الأمير، علم أن ما ينسبه أصحاب الأهواء للأمير،من أنه شهر الحرب بغتة، و لم يعلنه بالوجه المعتاد بين الملوك، غير مصيب في دعواه.ومن المعلوم عندنا أن هذه النسبة الحائدة عن طريق الصدق كانت من المارشال "فالا" وحده وذلك أنه لم يرد الجواب، في وقته المطلوب، إلى الأمير عبد القادر. ولا نبّه عن الفرنساويين المقيمين في سهول متيجة وغيرها ليأخذوا حذرهم. ثم لما أصابهم بعد ذلك من الوبال ما أصابهم، أشاع هذه النسبة ليتنصل من عهدة ما وقع فيه. وفي الحقيقة، إنه وصله إعلان الأمير بالحرب في المكتوب السابق. فتغافل عنه وترك كل شيء في حاله. وأما الأمير، فإنه لما طال عليه الانتظار لرد الجواب، علم أن إعراض المارشال عنه دليل علىٰ عزمه على الحرب. فكتب إلى خلفائه، وسائر

أعيان رعيته في أمر الحرب. وأمرهم بالاستعداد لها -كما تقدم وعلى ذلك، فلا اعتراض على الأمير مطلقاً" انتهى.

ولما شاع خبر الإعلان بالحرب وسارت الركبان، وتحقق حاكم الجزائر وحاكم وهران باقتراب وقت النزال، ومقارعة النصال بالنصال، تحيروا في أمرهم وخافوا من رجوع بغيهم عليهم. وليس عندهم إذن من دولتهم في فتح باب الحرب، ثم إن حاكم الجزائر بعث "ابن دّران" إلى الأمير وأصحبه بكتاب منه، والأمير -وقتئذ- في المدية ينتظر وصول الجيوش إليه. وملخص كتابه على ما ذكره مؤرخوهم :

"إنني لم أزل أحافظ على السلم، وقد قدّمت رسالة إلى الدولة، ومنتظر جوابها فاصبر قليلا، وإنني أرجو تسوية القضية بيننا وبما يرضي، ولا يخفى أن غوائل الحرب عاقبتها وخيمة."

واتفق أن الأمير، كان وقت وصول "ابن درّان" إلى المدية، في مجلس الشورى. فلما بلغه خبره، أمر بإحضاره وأعطى الكتاب إلى الأمير، فقرأه على أهل المجلس وأمر "ابن درّان" أن يتكلم بما عنده من أخبار. فلما سمع أهل المجلس كلامه وفهموا منه مرام مرسله، أعلنوا له بما وقع عليه الاتفاق واجتمع عليه الرأي من إشهار الحرب ودخول ميدانه. فراجعهم "ابن درّان" وبين لهم سوء عاقبة ما اتفقوا عليه. فقال له الأمير :

- وإن يكن الأمر كما قلت، فإنه أسهل عندنا من احتمال الإهانة.

- فقال ابن الدرّان : الذي وقفت عليه من الأحوال أن الفرنسيين ليس لهم قصد في ضرركم، ومرور ابن الملك في بلادكم، إنما كان على سبيل

التنزّه والتفرج. فعلى هذا،أقول إن عملهم على هذه الصورة لا يستدعي الغضب ولا يوجب الحرب.

وبعد انفضاض المجلس، انفرد الأمير في قصره. فاستأذن ابن الدرّان في الدخول عليه؛ فأذن له وقرر له ما اطلع عليه من أسرار المارشال وقوّاد العساكر الفرنسية وكشف له الغطاء عن أحوال الوقت ورغبّه في مسالمة فرنسا. وقال :

– لا يخفى أن الخصومة لا ينتج عنها إلا ضعف القوى، على أني لا أرى الحرب يوافق أحوال سموكم.

– فقال الأمير : إني أعلم هذا، ولكن إذا كانت الرعايا تطلب الحرب وآراؤهم اتفقت عليها، فماذا أصنع؟ لاسيما والفرنسيس عملوا ما يوجبها. ومع هذا سأعقد مجلس الشورى مرة أخرى وأفاوضهم في هذا الأمر.

وفي اليوم الثاني، أمر باجتماع المجلس وإحضار العلماء وقوّاد العساكر ورؤساء القبائل. وبعد أن جلس الناس على حسب مراتبهم، قال لهم الأمير :

"بالأمس قد بينت لكم الأحوال وأعربت لكم عن حركة الجيش الفرنساوي وتعديّه على الحدود ومروره في بلادنا من غير علم منا. وعرّفتكم غوائل الحرب. ومن المعلوم أن فتح بابها سهل ولكن الدخول في ميدانها صعب. وحيث أنني رأيت اضطراب بعضكم في الأمس، جمعتكم اليوم. فانظروا في أمركم وأظهروا ما ترغبون فيه، بعد إمعان النظر. وإني أطلب من الله التوفيق، لما فيه عزّ الإسلام وصلاح الأمة".

فأطرق القوم ملياً ثم قالوا بلسان واحد :

"إنّ الموت أهون من العار وهدم أساس شرفنا. فقد وافقنا الفرنسيس على ما طلبوا منا أولاً وثانياً في معاهدة الجنرال "دي ميشل" ومعاهدة الجنرال "بيجو" ... وحمّلنا أنفسنا ما لا تطيقه. والآن، لما تجاوزوا حدودا ارتضوها وجرى الصلح عليها، فلا بد أن يكونوا قد قصدوا باعتدائهم هذا أن يستولوا على بلادنا ويستبعدونا، ودون ذلك، بذل أموالنا وأرواحنا، فلا عدول على الحرب والنصر مطلوب من الله القادر الذي لا نقاتل إلاّ لإعلاء كلمته".

فلما سمع الأمير كلامهم قال :

"حيث أنكم تريدون الحرب ولا محيص عنها، فاعلموا أنني لا أتأخر عن إعلانها مرّة أخرى، وهي المرّة الأخيرة ومعاذ الله أن أتخلف عن الجهاد بل سأكون فيه —بحوله تعالى وقوته– أمام صفوفكم غير أن لي حقا عليكم وهو أن تعطوني عهدا وميثاقا على الطاعة وبذل النصيحة وأن لا تسلكوا معي ولا في سائر أمور الدولة والمّلة سبيل الخيانة والغدر وأن لا تولوا الأدبار يوم الزحف وأن لا تتخلفوا عن الجهاد والذّب عن الدين والبلاد عند ما أطلبكم لذلك".

فأجابوه إلى ما أمر به، وحلفوا له عن آخرهم. ونص يمينهم :

"نقسم بالله العظيم، منزّل القرآن على نبيه الكريم، أننا لانخون حضرة سيّدنا عبد القادر بن محي الدين. ولا نسلك في طاعته سبيل الغش والخديعة، لا ظاهراً ولا باطنا، لا سرّاً ولا جهرا، وإننا لا نتأخر

عن صفوف الجهاد بل كلنا يقاتل لآخر حياته. وإننا نبذل أموالنا وأرواحنا لحماية ديننا ووطننا ابتغاءً لمرضاة الله ورسوله".

وبعد أن قرّ القرار على إشهار الحرب، صدر من المجلس الإعلان به على الطريقة المعتادة وصورته :

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً.

الحمد لله الذي أنزل الجهاد في كتابه المبين ﴿**وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما**﴾[1]. والصلاة والسلام على نبيِّه. القائل : "الجنة تحت ظلال السيوف" وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين قاتلوا في سبيل الله، ألوفا بعد ألوف، وصفوفا بعد صفوف.

أما بعد، فإن الفرنسيس المعتدين على البلاد الإسلامية، بعدما عاهدناهم وسالمناهم، نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. ومن المعلوم أن التهاون في مثل هذا والإغضاء عنه يزيدهم طغيانا واعتداءً علينا. فلذلك قد اجتمعنا في مجلس عال ، بحضور سيدنا المعظم، ومولانا المفخم، ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين -نصره الله- لأجل المذاكرة في هذا الأمر المهم والخطب الملم. فوفّقنا الحق -تعالى، جلّ جلاله- للجواب وألهمنا جادة الصواب واتفقت كلمتنا و اتحدت آراؤنا على إعلان الجهاد والقيام بواجبه على أكمل استعداد، وقد بايعنا حضرة أميرنا على الوفاء بواجبات الجهاد الشرعية.

---

1 .سورة النساء ، الآية 95

وعقدنا، على الصدق في ذلك، النية وحرّرنا هذا الصك ليكون شاهدا علينا فيما ذكرناه. فأجيبوا أيها المؤمنون داعيَ الله وانفروا، خفافاً وثقالاً، إلى ما دعاكم إليه. ومن تأخر منكم، فإنما إثمه على نفسه كما أن لومه، فيما يحلّ به من العقوبة الأميرية، عليها. ومن الله نستمد العناية وهو وليّ الهداية.

حرّر في اليوم الحادي عشر من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين وألف (1255)، والسادس عشر من كانون الأول سنة، تسع وثلاثين وثمانمائة وألف (1839) في الديوان الأميري العمومي المنعقد في مدينة المدية المحمية".

ثم ختم على هذا الصك الخلفاء والعلماء وقوّاد الجيش ورؤساء القبائل. وبعد تسجيله، قدّم لأعتاب الأمير؛ فأمر بتحرير الكتاب النهائي إلى المارشال حاكم الجزائر. ونصّه :

"أما بعد، فقد وصلني كتابكم صحبة الموسوي ابن درّان، وأحاط علمنا بما فيه. وقد كنت كتبت إليكم، من مدة خمسة عشر يوماً، ما فيه الكفاية. والآن؛ أعرفكم تعريفا نهائيا أنّ سائر أهل الوطن اتفقت كلمتهم واجتمع رأيهم على استرجاع شرفهم بالحرب لأنهم رأوا تجاوزكم الحدود المعينة في معاهدة "تافنا" مبطلا لها، ناقضا لأساسها. وأمّا أنا، فقد أجهدت نفسي في تغيير آرائهم، وصدهم عن قصدهم؛ فلم يجد ذلك نفعا بل زادهم هياجا ورغبة في إشهار الحرب وجعلوا العهدة، في تأخيره عليّ وحدي. فبناءً على ذلك، اعلموا أنني ما خنت،

ولا نكثت عهدي معكم، وإنما ذلك كان منكم لا منّي. فأذنوا لوكلائي عندكم في تعجيل الأوبة إليّ. وبالله المستعان".

وبعد مسير ابن الدرّان إلى الجزائر، أقبل الأمير إلى ما كان عليه من إعداد المهمات الحربية، وبثّ الدعاة إلى الجهاد في سائر النواحي. فأقبل الناس إلى الثغور وسارعوا إليها، وفي أيّام قلائل، امتلأت بهم الأغوار والنجود وجرى ترتيب الكتائب على أكمل وجه وظهر انقياد الرعية للأوامر الأميرية وخضوعهم لها ما شاع في الأقطار وحدا به حادي القطار.

قال مؤرِّخهم : ولما استقر رأي الأمير على الحرب، صدرت أوامره بالزّحف إلى البلاد التابعة لدولة فرنسا، من كل جهة. فهرع النّاس إليها من كل فجٍّ عميق، وتسابقوا نحوها من كل بلد سحيق امتثالا لأمر الأمير واغتناما لطاعته. وما كان في يد الفرنسيس —حينئذ— في الأرض لا يتجاوز الشطوط البحرية. ولمّا انتهت المراجعات ورأى حاكم الجزائر أن تدارك الأمر قد فات وقته وعلم أنّه لا محيد له عن الحرب، جمع أعيان مجلس الجزائر وأطلعهم على مكتوب الأمير الذي جاء به ابن الدرّان وأظهر لهم الأسف على ما فاته من تدارك أمره مع الأمير الذي طالما دعاه إلى المسالمة والبقاء على ما انعقد عليه الصلح في معاهدة "تافنا"، فلم يلتفت إليه ثم جمع قوّاد العسكر وفاوضهم في أمر الحرب وأمرهم باختيار الجيوش وعرضها وتدريبها وأخذ الأهبة للزحف إلى البلاد الإسلامية، وقال لهم إن أول ما تؤمرون به، أنكم تصدون المدن

الكبيرة. ومتى حصل لكم الاستيلاء على مدينة منها، وجب عليكم أن تقيموا فيها، ثم رتب لهم طرقا ووجوهاً لتبليغ الأخبار الحربية إليه.

وكذلك الأمير، جمع رؤساء جيوشه المدربة والمتطوعة وأمرهم بالزحف إلى الأماكن التي يوجد فيها عسكر فرنسا وأمرهم بالهجوم على الحصون واستعمال التّورية في المسير إلى الجهات وعيّن لهم من يبلغ أخبار كل فرقة إلى الأخرى ورتب بريدا مخصوصا به، يبلغه أخبار سائر الفرق.

ذكر بدء الحرب

أول سرية كانت باكورة الحرب سرية "حجوط"، وذلك أن الأمير أمر قائدهم بالغزو على ما يليه من أرض العدو. فسار بهم، ولما تجاوز نهر الشفة الذي كان يعتبر حدا في أيام الصلح، شنّ الغارة على قبيلة أولاد غانم الدّائنين بطاعة فرنسا. فغنم سائر ما يملكونه من ماشية ومتاع. وفي رجوعهم، لقيهم حشد من المتنصرة، نصرةً لهم، من أهل تلك الجهة. فناوشوهم القتال؛ فانكسرت المتنصرة وقتل قائدهم وانقلب قائد حجوط بالغنائم إلى بلاده وقسمها في قومه. وهذه الوقعة كانت مقارنة لوصول وكلاء كل فريق إليه. ولما اتصل خبرها بحاكم الجزائر، امتعض لذلك وجهّز فرقة من جيشه وبعثها لقتال حجوط. فالتقوها عند نهر الشفة وانتشب القتال بين الفريقين ولحق بكل منها أضرار تستحق الذكر، ورجع عسكر الفرنسيس إلى الجزائر بلا طائل. وبعث الحاكم إلى وزير الحرب بالخبر وذكر له ما سيتبع هذه الوقعة من النوائب وطلب الإسعاف بالعساكر والذخائر.

ذكر غزوة متيجة

ولما فرغ خلفاء الجهة الشرقية من استعداداهم، أمرهم الأمير بالغزو على "متيجة" وما إليها ،كل منهم مما يليه. وكان مسيرهم جميعا في اليوم الرابع والعشرين من رمضان وأول يوم من ديسمبر (كانون الأول) وكانت مداشر الفرنسيس التي اختطوها مالئة لذلك السهل الممتد، شرقا وغربا مسيرة أيام. ولما قربوا من تلك البسائط، شنوا الغارة عليها. فأثخنوا في ساكنيها بالقتل والأسر والسّبي، واكتسحوا أموالهم وحطموا زروعهم وأحرقوا سائر مداشرهم وأبنيتهم واستولوا على كافة ما عندهم من ماشية وأثاث وذخائر. ولم ينج من القتل في جميع جهات متيجة إلا ما ندر. ولم تزل جيوش المسلمين تجدد الغارة على التوالي إلى أن انتهوا إلى بساتين الجزائر، وضاق الفضاء على ما استولوا عليه من صنوف الغنائم. قيل إنّ هذا الهجوم كان مهولاً، لم يسبق له نظير لأن عساكر الأمير، بمجرّد هجومها، أفنت سائر من كان موجودا من الفرنساوين في سهل متيجة وغنمت كافة ما كان عندهم من سلاح وذخائر ومهمات وما يملكونه من أصناف الحيوان، ثم صدر أمر الخلفاء بحرق سائر الأبنية في تلك البسائط، فأمست رمادا تذروه الرياح وفرَّ الناس أمامهم -أفواجا- إلى مدينة الجزائر. فكان دخولهم إليها من الأمور المزعجة. فرجفت قلوب أهلها -عموماً- حتى المارشال، فإنه انتقل من قصره خارج البلد إلى داخلها وتبعه من كان ساكنا في البساتين. وعمَّ الرعب سائر القلوب، ثم رجع

الخلفاء بجيوشهم وما في أيديهم من المغانم إلى المدية لأن الأمير كان ينتظرهم فيها، ثم توجه الخلفاء إلى ولاياتهم لسد ثغورهم والقيام بشؤونهم لعلمهم أن العدوَّ لا يتغافل عن هذه الوقعة الهائلة.

قال المؤرخ : وبعد أن وقع ما وقع في سهل متيجة، أرسل المارشال "فالا" يخبر دولته بهذه الغزوة الإسلامية التي أخافت العموم وألجأت الجيش الفرنساوي إلى التحصن بأسوار الجزائر.

ذكر واقعة أبي همير وواقعة بوفاريك

وفي الخامس والعشرين من شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف 1255 وثاني يوم من يناير (كانون الثاني) سنة أربعين وثمانمائة وألف 1840، التقى حجوط مع جيش العدو على نهر أبي همير من مدن "بني يراتن" من "زواوة"، وانتشب بينهما قتال؛ تكافآ فيه، وخرج جيش آخر من "بوفاريك" (حصن في ضواحي الجزائر) قاصدا إلى البليدة. فزحف إليه المسلمون والتقى الجمعان بالقرب منها، واشتد القتال بينهما. وبالعشيِّ ألح المسلمون على العدو وحملوا عليه حملة رجل واحد، فرجع القهقري، ثم جمع أمره وهجم على المسلمين فانكشفوا، ثم قلبوا الكرة عليه وصدقوه القتال؛ فتقهقر، ثم حال الليل بين الفريقين. وفي اليوم الثاني، خرج جيش من البليدة، مددا للعدو. فتمكن بهم من دخولها.

ذكر غزوة مستغانم

وفي الثامن عشر من ذي القعدة، والرابع والعشرين من يناير (كانون الثاني)، خرج خليفة معسكر، غازيا على نواحي مستغانم، فعاث فيها وحطم زروعها وأثخن بالقتل والأسر ونازل "مزغران" وأخذ بمخنقها وقطع عنها المدد من مستغانم. ثم بعد مدة، جاءها المدد من وهران تقوية لحمايتها. ولما طال الأمر، أفرج الخليفة عنها وأغار على نواحي وهران، فاستأصل عددا كثيرا من المرتدِّين المقيمين في ضاحيتها واكتسح أموالهم وأرهب العدو، ثم انقلب راجعا إلى حاضرة ولايته وطير الخبر إلى الأمير بذلك. وبهذه الوقائع المتتابعة، امتلأت قلوب الفرنساويين رعبا وبعثوا صريخهم إلى دولتهم، فأنجدهم بعشرين ألف مقاتل، وذخائر حربية وكراع للنقل، وبهذا العدد ثم عندهم ستون ألف جندي على ما ذكره "روا" في تاريخه.

ذكر خروج حاكم الجزائر إلى المدية وصدّه عنها

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة، والثاني من فبراير (شباط) سنة ألف وثمانمائة وأربعين 1840، خرج المارشال "فالا" بجيش كثيف من الجزائر إلى البليدة ومنها سار قاصدا "المدية". فاعترضه خليفة "مليانة" بجموعه وناشبه الحرب واشتد القتال بينهما ثم وقع الفشل في حشود البربر، فانكشفوا. وثبت الخليفة في الجند المنظم؛ فكاثرهم العدو وزحزهم عن مصافهم وكثرت القتلى والجرحى في الفريقين. واتّصل القتال يوما كاملا. وفي الغد، أصبح المارشال راجعا إلى الجزائر.

ذكر مسير الفرنساوية إلى مرسى شرشال

وفي الحادي عشر من محرم سنة ست وخمسين ومائتين وألف 1256 والسادس عشر من مارس (آذار) سنة ثمانية وأربعين وثمانمائة وألف 1848، خرج المارشال "فالا" من الجزائر إلى شرشال، وهي أسكلة صغيرة على مرحلتين من الجزائر، يسكنها قليل من البربر والكول أو غلان. ولم يحتفل الأمير بها لأنها قريبة المأخذ للعدو. ولما توسط المارشال الطريق إليها، اعترضته القبائل القريبة منها وأوقفت حركته أياما عديدة، مع كثرة جيشه حتى إنه همَّ بالرجوع عنها. قال بعضهم : خرج المارشال من الجزائر في جيش كثير العدد، متوجها إلى شرشال. وبعد صعوبات وخسائر كثيرة دخلها ورتب فيها حامية كافية.

ذكر واقعة موزاية

وفي الثامن والعشرين من المحرم والثاني من إبريل(نسيان)، وصلت النجدة إلى الجزائر من فرنسا ووصل الدوك "دومال" ابن ملك فرنسا ومعه شقيقه الدوك "دورليان"، فنشط الفرنساويين في الجزائر من عقالهم وفرح المارشال "فالا" ثم اعتزم على المسير إلى المدية، حاضرة "تيطري". فخرج في اثني عشر ألف جندي. وطار الخبر إلى الأمير، وهو في المدية فعرض عساكره وسار إلى مضيق "موزاية" وكان رتب الجيوش فيه كما رتبها في غيره من المعاقل و المضايق التي في طرق العدوّ إلى الداخلية. ولما انتهى العدوّ إلى ثنية "موزاية" في التاسع من ربيع الأول والحادي عشر من أيار، اعترضه الأمير في العساكر الإسلامية. وضرب على مضيقها المصاف وأضرم على العدو نار الحرب. وفي آخر النهار، رجع المارشال القهقري وارتد في عساكره. وبات كل فريق في موضعه الذي أدركه الليل فيه. وفي بكرة اليوم الثاني تجددت الحرب واشتد القتال وكان الدوك "دورليان" في مقدمة المارشال. فكان أكثر الوبال على جيشه ثم اجتمعت صفوف العدو والتحم بعضها ببعض وحملت على المضيق حملة رجل واحد؛ فتوسطوه وانثالت العساكر الإسلامية عليهم من كلّ جهة واختلطت بهم.وتقابلوا بالسيوف والحراب. وصبر العدو إلى أن خرج من ذلك المعقل الشديد. واتصل الحرب في هذا النهار إلى الليل. وفي اليوم الثالث، ارتحل وسلك طريق المدية. وأحاط

به المسلمون يناوشونه القتال، ويدافعهم بإطلاق المدافع عليهم. وكلما وصلوا إلى مضيق أو حرج من الأحراج، يخرج له كمين يمنعه من التقدم. فتارة يتقهقر ويرتد أوله على آخره وتارة يقف في موضعه ويرتب جيشه في صورة قلعة، يحيطها بالمدافع، ويبيت أو يظل على تلك الهيئة ثم يرتحل. وهكذا دأبه في جميع مسيره ولما قرب من المدية، اشتد عليه الحال. وتكاملت الجيوش والحشود الإسلامية وحملت عليه وتفاقم الأمر.

قال بعض مؤرخيهم : "فكان إطلاق النار مستمرا متصلا حتى لاح للناظرين -وقتئذ- كأن تلك البقعة بحر من الكبريت، التهب ناراً".

ولما رأى الأمير قرب العدو من المدينة، أمر بإخلائها. فخرج أهلها، بما خفّ، إلى الجبال القريبة منها. وتخلص العدو إلى المدية، فوجدها خالية تتأجج النار في منازلها، وكان دخوله إليها في الخامس عشر من ربيع الأول والثامن عشر من مايو(أيار). وبعد أن رتب فيها حامية، تقرب من خمسة آلاف مقاتل، ارتدَّ راجعا. ولم يزل في طريقه في قتال ودفاع إلى أن وصل قرب البليدة. وأما حامية المدية، فإنها أمست -يوم خروج المارشال منها- محصورة لأن الخليفة، السيد محمد البركاني، نازلها بالجيوش وقطع جميع ما تنتفع به. وكانت هذه الواقعة أيام الصيف؛ فنال الحامية من شدة الحر وضيق الحصار مالا مزيد عليه وآل الأمر؛ إلى تلف الجلّ منها.

ذكر "روا" في تاريخه ما ملخصه : سار المارشال "فالا" في اثني عشر ألف مقاتل من عساكر فرنسا ومعه الدوك "دومال" وشقيقه الدوك

"دورليان" اللذان حضرا من باريس ليشتركا معه في المحاربة. وقصدوا في مسيرهم مضيق موزاية ليتوصلوا منه إلى المدية. فاتصل خبرهم بالأمير عبد القادر، فسدَّ في وجوههم المضيق بالعساكر العربية ورتب كماين في أماكن كثيرة في طريقهم. فكانوا كلّما ساروا مرحلة، صادفوا مصادمة قوية، ومهاجمة لم تكن منهم على بال. فتارة يضطرون للتأخر إلى الوراء، وتارة يحوجهم الأمر إلى التوقف عن المسير. وهكذا في كل مرحلة قطعوها حتى كادوا يفقدون قوتهم بالكلية".

ثم إن المارشال، وأولاد الملك؛ أنفوا من الرجوع على هذه الحال. فصبروا على مقاساة نيران الحروب العربية. وعند وصولهم إلى مضيق موزاية، صادفوا ما بهر عقولهم من المقاومة الشديدة. وكان الأمير وجيوشه على رؤوس تلال محصنة بمتاريس طبيعية من الصخر الصلب. ولما أخذت عساكر فرنسا تمرُّ في المضيق، انقضَّت عليه جيوش الأمير والتحموا بها واتصل هذا بهذا وصاروا إلى المقارعة والمصارعة. فتخلص الدوك "دورليان" من المضيق برفقته بعد أن فقد أكثرها وهان الأمر على من وراءه من الجيوش الفرنساوسة؛ ثم رجع المارشال وأولاد الملك بجنودهم، بعد أن تركوا لحماية المدية خمسة آلاف عسكري مع ما يلزمهم من الأقوات والمهمات. وصادفوا في طريقهم أهوالا يقشعر الجلد عند ذكرها، لاسيما في مرورهم في "وادي الزيتون، وشعراء"، تلك الجبال الصعبة المسالك. وفي أثناء طريقهم، أقاموا أياما لراحة الجند مما قاسوه من المشاق الهائلة التي لا يمكن لمؤرخ أن يصفها ولو تقريبا؛ وفي مدة إقامتهم في ذلك الموضع، اعتزموا على المسير إلى "مليانة". وقتل الدوك "دورليان" ابن الملك،

في إحدى هذه المعارك، فأشاع الفرنسويون أنه وقع من العربة فمات وقد بلغني أنّ تلك المعركة مصورة مجسمة في ساحة، وسط مدينة الجزائر.

ذكر مسير الفرنساويين إلى مليانة

وبعد وقائع "موزاية والمدية"، توجَّه الأمير إلى "مليانة" لما كان يتوقعه من قصد العدو إليها. ولما اتصل به خبر مسيرهم في طريقها، أمر أهلها بالجلاء عنها كما فعل في المدية، فخرج الناس بما تيسر حمله من أثاثهم وأمتعتهم وتركوها خالية؛ ثم إن الأمير والخليفة، السيد محمد بن علال، جمعوا جيوشهم مع العسكر النظامي، والتقوا بالعدو -في طريقه- وأذاقوه حرارة الحرب ومرارة القتال. فلم يصده ذلك عن قصده. ولما قرب منها حمل عليه المسلمون حملة ما سبق له مثلها منهم واتصل ذلك نهارا كاملا. وفي الغد، أصبح سائرا والمسلمون يلحون عليه في القتال. ولم يصدهم عنه تتابع الكلل المرسلة عليهم، كما أن العدو لم يصده إلحاحهم عليه وسدُّ الأودية والمضايق في وجهه حتى وصل إلى بساتينها. فجمعوا عليه واختلطوا به وثار الغبار وأظلم الجو حتى لا يكاد يتميز العدو من الصديق. وأظهر المسلمون من الشجاعة والإقدام ما أذهل عقول الفرنسيس وغيبهم عن أنفسهم حتى كان بعضهم يضرب بعضا وهم لا يشعرون. ولما كان القدر الإلهي مساعدا لهم، اقتحموا هذه الشدائد وتخلّصوا إلى المدينة، فدخلوها في التاسع من ربيع الثاني والحادي عشر من يونيه (حزيران).

وبعد أن أقاموا فيها أياما، رتبوا فيها حامية كالمدية ورجعوا إلى الجزائر واكتنفتهم الجيوش الإسلامية وأذاقوهم نكال الحرب واشتدّ بهم الأمر ...

قال مؤرخهم : "وتركوا جراحهم ومهماتهم في يد عدوهم. وما وصلوا إلى البليدة إلا وهم على آخر رمق ولا استطاعوا أن يسيروا منها إلى الجزائر إلا بعد أن جاءهم المدد منها. وأما تلك الألوف التي خرجوا بها، فقد أتى التلف عليها إلا شرذمة قليلة تخلصوا بها إلى البليدة".

ورأيتُ في تاريخ "فاليلوت" الفرنساوي، كاتب "بيجو" أن المارشال "فالا"، في أثناء هذه الحروب، كتب إلى قبائل تلك النواحي يدعوهم لطاعة الدولة الفرنساوية. ولم يتعرض لنص المكتوب وإنما ذكر الجواب. وملخصه :

"من عباد الله القادر، المؤمنين به وبرسوله، مبيد الكفرة بسيفه الباتر، الذين يحاربون أعداء الله لإعلاء كلمته، وتعظيم اسمه القاهر، الخاضعين لأوامر الله وأوامر مولانا ناصر الدين، سيدنا عبد القادر بن محي الدين، أيّده الله آمين. إلى حاكم مدينة الجزائر.

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فقد وصلنا كتابكم المشتمل على دعوتنا لطاعتكم والنداء إليها. فأخذ بنا العجب، في كل طريق ومذهب، وهل في الدنيا ذو عقل سليم يتصور هذا في فكره، فضلا عن كونه يتلفظ به،أو يكتبه؟ وكيف نترك ديننا الذي هو الدين القويم والصراط المستقيم، ونتبع دينكم الذي يجب علينا –في شريعتنا– أن نقاتلكم حتى نردكم عنه إلى ديننا؛ أما علمتم أن ديننا مبطل لسائر الأديان؟ وشريعتنا

ناسخة لكافة الشرائع؟ ولو أنصف علماؤكم لأقروا بهذا لأنه مقرر في سائر الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل. ولكن حب الدنيا مع خوفهم على مناصبهم عندكم غطّى على قلوبهم وحرّفوا الكلم عن مواضعه وأظهروا لكم ما يناسب أغراضكم من التعلق بزينة الدنيا وزخرفها وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. ثم اعلموا أننا بحوله تعالى وقوته، لا نزال نحاربكم وندافعكم عن ديننا وأوطاننا إلى أن تقفوا على سوء عاقبة ما ارتكبوه من عظيم ذنب، وأي ذنب أعظم من تعديكم على بلادنا أولاً؟ ثم سعيكم في تغيير ديننا ثانيا؟ أما علمتم أن سائر الأديان والنواميس الأزلية تأمر بالعدل، وتنهي عن الظلم والتعدي على الحقوق؟ كما هو منصوص عليه في الإنجيل الذي أنزله الله على نبيه ورسوله، سيدنا عيسى، عليه الصلاة والسلام. فلو كنتم على دينه -كما تدعون- ما قطعتم البحر إلينا لتأخذوا بلادنا وتغيّروا ديننا. فما نسبتكم من دين الله ورسوله إلاّ كنسبة الثرى من الثريا. وبالجملة فنحن لا نترك ديننا ولا نتخلى عن طاعة مولانا وأميرنا وسيدنا عبد القادر بن محي الدين. والله تعالى يقضي بيننا وبينكم بما شاء. فإن الأرض أرضه والملك ملكه ونحن عبيده، يفعل فينا وفيكم ما يشاء. ويحكم ما يريد.

حرّر في السابع عشر ربيع الأول سنة ست وخمسين ومائتين وألف (1256) من الأعيان، والأكابر، والأغوات، والقواد، في ولايتي تيطري ومليانة"

ثم قال : وكتب لهم مرة أخرى وجعل مدار ما كتبه على أمر الأسرى الذين هم في قبضته من العرب. وملخص جوابهم :

"إلى حاكم الجزائر. السلام على من اتبع الصراط المستقيم، والدين القويم. قد وصلنا مكتوبك وفهمنا ما اشتمل عليه من كونك جعلت الدعوة إلى الخضوع لدولتكم مبنيَّة على إطلاق الأسرى، منَّا عندكم. وقصدت بذلك أن فكّهم موقوف على طاعتنا لكم. فاعلموا أن عندنا أسرى منكم وعندكم أسرى منَّا. فإن شئتم الفداء، فلا بأس. وإن أبيتم ذلك، فإن لأمة الإسلامية –لله الحمد– كثيرة العدد، وأفرة المدد، والأسرى منهم لا يزيدون في عددكم ولا ينقصون في عددنا. وأما إجراء الوجه الذي ذكرتموه، فإن دونه خرط القتاد وسوق الأجناد، بل لا نقبل أن نسمعه. وكيف خطر هذا في أفكاركم؟ أم كيف تخيلتم أننا نخضع لكم، وندخل في طاعتكم؟ لأجل خلاص أشخاص، عددهم الخمسين إلى المائة. مع دعواكم قوة الفطنة والذكاء، وجودة الرأي، وإن اغتررتم بأحوال القبائل في نواحي قسنطينة من كونهم لبوا دعوتكم وأسرعوا في الدخول في طاعتكم، فما ذاك إلا لضعف دينهم، ومرض قلوبهم بداء النفاق واستيلاء الجهل على كبيرهم وصغيرهم. أما نحن، فلسنا مثلهم. ولا تروا منا –بحوله تعالى وقوته– إلا ما يخرج من أفواه البنادق وتفعله السيوف، عند التحام الصفوف لاسيما وقد اتفق الآن، سائر أهل الوطن على تأييد كلمة الإسلام، والذب عنها على الدوام، إلا إذا شاء الله خلاف ذلك فلا راد لقضائه ... وقولكم إنكم ابتنيتم في جهة بني صالح، قلاعا محصنة، أردتم بها إيقاع الرعب في قلوبنا؛ فهذا لا يؤثر فينا ولا يوهن عزمنا وقد سبقتم لمثل هذا في المدية ومليانة وشحنتموهما بالعساكر والذخائر. ولم نهتم بشيء من ذلك بل رأيناه من سوء التدبير وقبيح

النظر كأنكم أردتم بأولئك المساكين سجنهم، أو قصدتم نفيهم، أو جعلتموهم وليمة للموت. ولذلك، إننا نرى كل يوم، يتهيأ منهم عدد وافر إلى مائدتها ونرى أفواجا يفرون إلينا صارخين برطانتهم بما معناه : الجوع! الجوع! فنرحمهم، جريا على عادتنا من الشفقة من أمثالهم. ومن بقي منهم في داخل المدينتين، فهو محصور مقهور. هكذا يكون نصيب عساكركم منكم ومع ذلك، فإنكم تخدعون ضعفاء العقول منا بالأماني الكاذبة. وأما وعيدكم لنا، وتهديدكم بالاستيلاء على بلاد "موزاية وبني صالح" فإننا لا نعيره أذنا سماعة. وأهل تلك البلاد، أينما توجهوا، يتيسر لهم أمر معاشهم. فإن أرض المسلمين واسعة، شاسعة الأطراف، وفيها الكفاية لهم ولغيرهم. وعلى كل حال، فلا شرف لكم في التغلب على عباد الله. وإنما الشرف والفخر، في عمران بلادكم التي نشأتم فيها، خلفا عن سلف وفي إقامة قسطاس العدل واستعمال مكارم الأخلاق. وأما أفعال كهذه، فلا شرف فيها. وقولكم أخبرونا على أحوال المغرب، فلا خبر عندنا إلا الحث على الاستعداد للجهاد فيكم والتواصي بالصبر على قتالكم. ولا نعلم من أنفسنا إلا أننا نؤمن بالله تعالى، وبرسوله إلينا وأن لنا أميرا مسلما شريفا، من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، عالما، عادلا، وأننا لا نفعل إلا ما أمرنا به، على وفق ديننا وشريعتنا وأننا لا نغتر بمواعيدكم ولا بكلام الذين خالفوا الأوامر الإلهية من أبناء ملتنا ليعيشوا عندكم في راحة، حسبما وعدتموهم. وما ذكرتموه من قوة الدولة الفرنساوية، فإنا لا نعرفه وإنما المعلوم عندنا والمحقق لدينا هو عظيم قوة الله القادر، سبحانه وتعالى".

ذكر أحوال الفرنساوية بعد الحروب السابقة

كان المارشال "فالا" يظن أنه متى استولى على مدينتي مليانة والمدية، تنقاد له القبائل وتمتد له الطاعة في تلك النواحي. فبدا له من الله ما لم يحتسب، ولم يحصل على طائل فيما كان يتمناه من الفخر وتخليد الذكر عند دولته. وآل أمره إلى العزل والتوبيخ على سوء سيرته وقبيح سياسته وما ارتكبه من تطويح عساكرها في مهاوي الهلاك، فيما بين مدينتي مليانة والمدية والجزائر وما لحقها في تلك الأودية الوعرة والجبال الصعبة المسالك من الشدائد التي كادت تأتي على آخرها. وقد ظهر لي أن أذكر هنا ما ذكره "فاليوت"، كاتب المارشال "بيجو"، في تاريخه، نقلا عن بعض القواد الذين حضروا ذلك وعاينوه بل ذاقوا مرارته وتكبدوا مشقته وأقروا به. ولم تحملهم العداوة على كتمانه ولا دعتهم الحمية إلى موافقة حاكمهم في كذبه وبهتانه. فقال ما ملخصه :

"اجتمعت في الجزائر ببعض قواد جنودنا الفرنساوية. فأخبرني بجميع ما شهده، وحضره في بلاد الغرب. فقال :

إنني في مدة الشهر الأول من إقامتي في بلاد الجزائر، شاهدت سوء حال الفرنساويين وعاينت الشدائد التي كانت تحدث يوميا ورأيت ارتباك الحاكم العام في تدبير سياسته التي بلغ فيها إلى مركز صعب لأن أمره كان يقضي عليه، في كل وقت، أن يبعث نجدات وذخائر

ومهمات حربية متتابعة إلى العساكر التي وضعها في المدية ومليانة. وهذا لا تصل يده إلى ذلك في كل وقت لأن الجيش الذي عنده في الجزائر، لا يقوم بذلك، والذخائر والمهمات التي أعدها لما هو بصدده، نفدت، وإحضار مثلها من فرنسا متعذر من وجوه، أعظمها أنه لا يريد كشف الغطاء للدولة عن أموره كلها، خوفا من توجيه العتاب إليه على سوء تصرفه. فلذلك، رأيناه في حيرة "دائمة وارتباك متصل؛ ثم ألجأه الحال إلى إخلاء كثير من الحصون التي كان جمع أيدي العسكر على تشييدها ومن جملتها حصن "فودوك" المهم، والحرس الذين كانوا فيه، رأيتهم على أسوأ حال، سود الوجوه من حرارة الشمس، نحفاء الأجسام من ضنك المعيشة وشدة الأمراض. ولقد رأيت من فضل منهم الموت، عندما صدر لهم الأمر بمبارحة ذلك الحصن، فرحوا كثيرا. ثم إن الحاكم راجع رأيه وعيّن فيه حامية من العرب الخاضعين له. ولما كانت دواب النقل غير كافية، اضطر الحاكم إلى أخذ دواب أهل الجزائر ومن دخل في طاعته من أهل ضاحيتها، واستعملها في النقل؛ فصعب ذلك على الناس وتعطّلت أشغالهم كما أن الجيش لحقه الضجر الشديد من تتابع الاسفار. وبذلك، تكدّر مورد راحة العموم، وصار الجيش يجاهر قوّاده بالعصيان، وعدم الانقياد لأوامرهم. فقام الحاكم لذلك وقعد وتدارك الأمر في تسكين روع الأهالي وتطييب قلوب الجيش، ولا طائل تحت ذلك لأن الكثير منه قد مات بالأمراض المختلفة التي علقت بأجسامهم وفشت بين صفوفهم وفعلت بهم ما فعلته سيوف العرب ورصاصها حتى إن حامية مليانة لم يبق منها سوى اثني عشر عسكريا. ثم أزمع

الحاكم على المسير بنفسه لتبليغ الذخيرة إلى المدية. فخرج في فرقتين من الجيش وكنت أحد القواد فيها. وأخرج معه عددا كثيرا من الدواب وعجلات النقل ... مشحونةً بالذخائر والمهمات. وخروجه كان في صورة غير منتظمة لسآمة العسكر، وسائقي العجلات والدواب، وذلك لكثرة ما تكبدوه من المشاق المتوالية. فكنت أراهم مظهرين الغضب والحنق على الحاكم ومن كان على رأيه من القواد. وكانوا لا يتحاشون ألفاظ السب والشتم بلغاتهم المختلفة؛ ثم وصلنا، في مساء ذلك اليوم الدويرة وهي قرية صغيرة على مرحلة من الجزائر، فيها فندق فدخلته، فإذا هو مظلمٌ، وسخٌ، ضيِّق المساحة. وفي صباح اليوم الثاني، ارتحلنا وبعد أن قطعنا مسافة قليلة، وصلنا إلى قرية "بوفاريك" ثم سرنا إلى البليدة فوصلنا عند الزوال، وهي بلدة جميلة المناظر، خصبة المزارع، وموقعها في انتهاء سهل متيجة، عند الأطلس. ماؤها عذب رائق وحولها حدائق الليمون بأنواعه، ومن شدة تعلق أهلها به، يغرسونه داخل البيوت. فكانت روائح الزهر -عند دخولنا إليها- عابقة في أرجاء المدينة وضواحيها. وقد سمعت ممن لهم خبرة بأحوال تلك البلاد أن هذه البلدة أتى عليها الخراب مرَّات عديدة، لتوالي الزلازل عليها. وكان من جملة القواد في عسكر البليدة، الجنرال "شانكرني" والجنرال "دوفيفير"، وقد رأيت العسكر الموجود فيها على غاية الانتظام إلا أن الرعب، مع أخذ الحذر في كل آن، أثر في أجسامهم نحولة وفي وجوههم صفرة. وفي اليوم الثاني ليوم وصولنا، جهَّز الحاكم ثلاث فرق من حرسها، وضمَّهم إلى فرقته التي خرج بها من الجزائر. فسرنا معه قاصدين المدية. ولما وصلنا جبال حجوط، وجدنا العرب في الطريق

فانثالوا علينا من كل جهة وناوشونا القتال. فكنا في مسيرنا على حال الدفاع ولم نتمكن من إطلاق المدافع عليهم، لضيق المسالك وكثرة الأحراش. ولما انتهى مسيرنا إلى أول المضيق، وجدنا فيه حامية من عسكرنا، معهم مدفعان صغيران. فنزلنا عندهم. ثم إن الحاكم أمر الجنرال "شانكرني" أن يتقدم أمامه بفرقته إلى مضيق "موزاية" ليستكشف له الأحوال هناك فسار قبلنا، وسرنا خلفه وسار الجنرال "دوفيفير" بفرقته في طريق أخرى غير طريقنا. وكانت جيوشنا تسير في تلك الأودية الوعرة، وحشود العرب عن اليمين وعن الشمال يرسلون علينا رصاصهم المتوالي مثل البرد المسترسل. ومن العادة أن المدافع تدحر العدو وتفرج كرب العسكر. ولضيق الطريق، لم يتمكن الموكلون بها من إطلاقها بل لم يتمكن الواحد منا أن يخطو قبل أن يخطو الذي أمامه. فناهيك بطريق حرج يكتنفنا من الجانبين حائط عال طبيعي من الصخر. وبعد بضع ساعات، وصل أول العسكر إلى المضيق الأعظم وهو مضيق موزاية الشهير. وكان وصولهم إليه في حالة مخزنة من شدّة ما لحقهم من التعب. وهناك اجتمعنا بالجنرال شانكرني. وأما الجنرال دوفيفير، فإنه قد سلك طريقا أخرى وكانت طريقه أصعب من طريقنا، ولم يتخلص منها إلا بعد أن هلك أكثر فرقته لأن العرب أحاطت به جموعهم وانصبت عليه انصباب الصخر، من أعلى الجبل، إلى قعر الوادي وضايقته حتى كاد عسكره أن يلقي السلاح، ويطلب الأمان، ثم صبر ودافع وأخذ القتل من كل جانب. ولولا أن العرب لحقهم التعب من تلك الأوعار التي تكبدوا سلوكها، لجاءوا على آخره وبسبب فتورهم عنه، انتهز الجنرال

الفرصة في التخلص من ذلك المضيق العجيب، بعد أن فقد من ضباطه أربعة وخمسون ضابطا، و لم أقف على عدد ما فقد من العسكر. وأما نحن، فقد أمرنا الحاكم بالعبور في المضيق الأعظم، كيفما كان الحال. فاجتمع القواد، ورتبوا الجيش صفوفا. فلم يتمكن لهم ذلك وجعلوه على صفّين متلاصقين، كتف هذا عند كتف هذا ، إذ لا يسمع الممرّ أكثر من ذلك. واشتعلت نار الحرب بيننا وبين العرب، وكان الحاكم العام انفرد في بطانته على كثيب عال، على فم المضيق ليعاين منه مرور الجيش، فكنت أرى الرصاص يترل عليه وعلينا كالمطر، وجرح من أصحابه ثلاثة، وكنت أرى العرب كالأسُد الضارية يقتحمون علينا تارة بالسيوف والحراب، وتارة يتسلّقون بالصخر القريب منا. ويرموننا بالرصاص. وبهذا، كانت إصابتهم لجيشنا أكثر من إصابته لهم، ثم خرجنا من ذلك المضيق إلى سهل الزيتون، فبتنا فيه تلك الليلة، على آخر نفس، من شدة ما لحقنا من الوبال ونالنا من عظيم الأهوال. وفي غد ذلك النهار، ارتحلنا إلى طريق المدية، والعرب لم تفارقنا طرفة عين، بل تسير حوالينا على حسب سيرنا. و لم تفتر عن مناوشتنا، مع الصراخ والشتم، و لم تزل على ذلك إلى أن أنهينا إلى ساحة المدية. فخرج القائد "كافينياك" منها ملاقيا لنا، فلما رآه الحاكم، عجل إليه وعانقه وسأله عن حال الحرس. فأخذ يصف ما هم عليه، وما قاسته الحامية من الضنك الشديد وما نالها من الأمراض التي أفنت أكثرها ... وذكر له أن المدينة لم يبق من عمارتها سوى المساجد المحكمة البنيان، وأنه اضطر أن يتخذها مأوى للمرضى وأنه من شدة البرد وعدم وجود الحطب، أخذ أخشاب سقوف البيوت الفاضلة عن الحريق، لسد عوز

العسكر في التدفئة والطبخ. وبالاختصار، كانت تلك الأخبار محزنة، مكدرة جداً. فأقمنا تلك الليلة للاستراحة. وفي الغد دخلنا البلد وقدم لنا الحرس بقولا خضراء زرعوها في خربات البلد، مع جملة وافرة من البيض والدجاج الذي اتخذوه لأنفسهم وقاموا بتربيته.

وهذه البلدة، موقعها جميل. فهي مبنية على تل كبير، ينحني قليلا لجهة الجنوب. وفيها آثار قلعة قديمة، يقال إنها من أبنية الرومانيين. ومن حيث أن جموع العرب لا تترك شيئا ينتفع به الفرنساويون في هذه المدينة ولا تتخلى عن حصارها ساعة واحدة، كان من الواجب دوام إرسال الذخائر إليها، وهذا لا يتأتى إلا بعد أتعاب ومشقات شتى لأن المقدار من الذخائر الذي يجب أن تبعث لهذا الحرس في كل مرة، لا يمكن أن يكون أقل من ألف وخمسمائة حمل. ولا بد أن يتكرر إرسال هذا العدد؛ أكثر من عشرين مرة في كل سنة، والمسافة من الجزائر إلى المدية لا تنقص عن خمسة عشر يوما. ولا يمكن السير في طريقها إلا مدة الصيف. ومع ذلك فإن الأخطار متوالية. فإن لم تكن من الأمطار والثلج، فمن فرسان العرب. وبناء على ما ذكرناه، فلا بد أن يترك الحرس مراكزه ويرجع إلى الجزائر وإلا، فإنه يبقى فيها أسيرا، يترقب الفرج من الله تعالى. ومن المعلوم أن سائر أعمال الجيش الفرنساوي، في هذه المدة انحصرت في الاستيلاء على مدينتي مليانة والمدية. والغاية المقصودة من وضع الحرس فيها هي اتخاذها مركزين عظيمين يتمكن الجيش فيهما من محاربة العرب في جميع الجهات الداخلية. ولا يخفى أن الوصول إلى نتيجة هذه الآراء يتوقف على استعمال حزم شديد وساعد من حديد.

ثم إن الحاكم، بعد أن أقام في المدية أربعة أيام، أمر بالاستعداد للرجوع إلى الجزائر وسار على طريقه. وما سرنا مقدار غارة حتى ظهر لنا نحو ألف فارس من العرب، شاكين السلاح. وأخذوا يطلقون بواريدهم علينا، وبعد أن عبرنا أودية عميقة، كانت في طريقنا، هجمت جيوشنا عليهم ففرقتهم وبلغنا أنه جرح منهم عدد كثير، كما وقع ذلك في جيشنا، ثم لم يلبثوا أن عادوا إلينا. ومازالوا محيطينا بنا عن بعد، يناوشوننا القتال إلى أن وصلنا غابة الزيتون. فبتنا فيها تلك الليلة. وبات العرب في مواضعهم بالقرب من العسكر المنظم. فانضمت إليهم الجموع السابقة وجعلوا مسيرهم على الميمنة في طرف الجبل. وبوجود هذه الجيوش الكثيرة التي كان الأمير عبد القادر قائدها، توقف جيشنا عن المسير. ولما نظر بعض المهندسين الذين كانوا معنا، مسير الأمير وترتيب جيشه، قال إن هذا السير يعد من مكائد الحرب التي كان الأمير يستعملها. فطالما نجح بهذا الاستعمال الذي قضى بتكبد الفرنساويين، وألحق بهم خسائر جسيمة.

ثم إن الأمير، لما رأى جيوشه قد قربت من عساكرنا، بوجه لا يهتدي إليه إلا من مهر في أمور الحرب ومكائدها، أمرهم بالحملة عليه. فحملت الفرق الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الحشود على التتابع، واشتد القتال واحمرت الحدق واتصل ذلك عدة ساعات، ثم انفصل كل فريق عن الآخر وانكشف الجو وتبيَّن أن العرب لحقها ضرر جسيم ولكنه ليس بأكثر مما لحق جيشنا، وجرح الجنرال "شانكرني" في كتفه ولم يثبت لمقاومة جيشنا، من تلك الفرق والجموع إلا الفرقة النظامية التي كانت

تحت قيادة الفارس العربي الشهير بالشجاعة، وهو محمد البركانين خليفة الأمير في مقاطعة تيطري. ثم خمدت نيران الحرب وأخذ جيشنا في المسير. وفي اليوم الثاني، عاد الأمير إلى محاربتنا ولولا أن المطر الغزير المتتابع حال بيننا وبينه، لآل الأمر إلى خسارة عظيمة. وربما كانت تأتي على آخر جيشنا لشدة ما لحقه في هذه المرحلة المتوالية من تعب السَّير، ومقاومة الخصم ونقص عدده بالموت في تلك الحروب الهائلة، مع عدم تمكننا من الإقامة والرّاحة لأننا تورطنا في جبال شاهقة، وأودية وعرة لا نعرفها، وأهلها أعداء لنا، والمدد ميؤوس منه.

ثم بعد مشقة زائدة، تمكنا من عبور المضايق وسلكنا في طريق سهل إلى متيجة. واتصل سيرنا إلى الجزائر. فدخلنا على هيئة يرثى لها. وأما الأمير عبد القادر، فإنه ، لما هو عليه من شدة الحزم، وقوة العزم، لا يخطر في أفكاره أن يقر للعدو بالتقدم أو يجعل له طريقا لذلك بل كان مستضعفا له، مستصغرا لأمره، عاكفا على إنفاذ أوامره، متيقظا لشأنه. وبعد أن أخذنا الراحة في الجزائر، أمر الحاكم العام بترميم سورها وإصلاح خلله.

ذكر عزل المارشال "فالا" عن الجزائر وتولية الجنرال "بيجو" في مكانه

لما اتصل بالدولة الفرنساوية ما أجراه المارشال "فالا" في داخلية الجزائر من الحروب واطلعت على ما عليه الأمير من الاستعداد لمقاومة جيوشها ورأت أن تلك الحروب قد أفنت عساكرها وذخائرها من غير طائل، عزلت المارشال "فالا" عن الجزائر فذهب إلى فرنسا، منكسر القلب، محمولا على كاهل اللوب والعتب.

قال بعضهم : لما كان المارشال "فالا" متخلقا بأخلاق لا تناسب أحوال البلاد العربية ورأته فرنسا أنه في سائر حروبه، لم ينجح نجاحا تقر به عينها بل آل أمره إلى فناء عساكرها ومهماتها، عزلته وولت مكانه الجنرال "بيجو" المشهور، في السابع من ذي القعدة وأول يناير (كانون الثاني) سنة ثمانمائة وإحدى وأربعين وألف 1841. وأمرت بتجهيز ثمانية وثمانين ألف جندي، علاوة على ما هو موجود —وقتئذ— في الجزائر، من العساكر لقتال الأمير عبد القادر. وهذا، ما عدا المتطوعة من بعض الدول لأنه كان يوجد، بين أسرى الفرنساوية، متطوعة من ألمانيا وإسبانيا وخلافهم. وأرسلت من المهمات والذخائر ما لا يأتي على حصر. ولما وصل الجنرال "بيجو" إلى الجزائر، واتصل خبره بالأمير، بعث إليه بمكتوب ملخصه.

إلى الجنرال بيجو، وسائر قواد العسكر الفرنساوي في الجزائر.

السَّلام على من اتبع الهدى واجتنب الرّدى.

أما بعد، فقد بلغني أنكم جئتم من فرنسا إلى الجزائر، لقتالنا بما ينوف عن ثمانين ألف جندي، زيادة على عساكركم السَّابقة فيها. فاعلموا أنني —بعونه تعالى وقوته– لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم لعلمي أنَّكم لا تضرونني بشيء إلا أن يضرني الله به ولا يلحقني منكم إلا ما قدَّره الله عليَّ وقضاه. وإنني منذ أقامني الله في هذا الأمر وجعلني ضدًّا لكم، ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثا من عساكركم التي تكافحونني بها. ومدَّة ملكي —كما لا يخفى– ثمان سنين، ومدَّة ملككم يتعدى مئات من السنين. وعساكركم كثيرة وآلاتكم الحربية قوية، ومع هذا البون العظيم الذي بيني وبينكم، فإني أعرض عليكم أمورا. فاختاروا واحدة منها وهي :

إما أن تعطوني ما أحتاجه من أدوات الحرب بالشِّراء ثم أنظِّم عسكرا يكون نصف عسكركم الذي تحاروبونني به. وحينئذ، نتحارب.

وإما أن تبقوا في مواضعكم التي تغلبتم عليها وأبقى أنا في بلادي التي تحت حكمي، ثم لا يقارب أحدنا من الآخر مدة أثني عشرة سنة. فيبلغ عمر ملكي عشرين سنة. وحينئذ أقاتلكم. فإن غلبتكم، فلا عار عليكم إذ يقال غلبكم رجل، له قوة عشرين سنة. وإن غلبتم أنتم، فتكونوا قد غلبتم رجلا له قوة. فيحصل لكم الفخر عند الملوك! وأما اليوم

فانتصاري عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول. وانتصاركم عليَّ لا يعد فخرا، حيث إنكم غلبتم رجلا، عمر ملكه ثمان سنين، ولا قوة عنده يقابلكم بها!

ومن الأمور التي اقترحها عليكم أنكم تبعثون، من قِبلكم، من يعدُّ عسكري. ثم أخرجوا من عندكم في مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم. وأعطيكم العهد أني لا أزيد عسكريا واحدا على ما تعدّون. وحينئذ، الغالب يملك الوطن.

ومنها، أن يخرج المارشال للبراز ويخرج له واحد من خلفائي. فإن غلب صاحبكم، فلا أنازعكم في طريقكم، من الجزائر إلى قسنطينة. ومن أراد من المسلمين، أهل تلك النواحي، البقاء تحت حكمكم، فلا نعترض له. وإن أراد الخروج منها، ويلحق ببلادي، فأنتم لا تعترضون له.

ومنها، أن ابن الملك يبارزني. فإن غلبته، فإنكم ترجعون بعساكركم إلى بلادكم، وتتركون سائر المدن التي في يدكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات. وإن غلبني فإنكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع.

فإن اخترتم واحدة من هذه الأمور، فلا بد أن تحضروا قناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولكم ذلك. وأما نحن، فلا نخالف كلمتنا. وإن استضعفتمونا ولم تبالوا بما قلناه، اعتمادا على قوتكم، فنحن قوتنا، بالله القادر على كل شيء، هو ولينا وناصرنا".

ولما اتصل هذا المكتوب بالجنرال بيجو، قرأه على قواد العسكر، وأعيان مجلس الجزائر؛ فوجموا له ثم اتفق رأيهم على الإعراض عن رد الجواب.

ذكر سؤالات وجهها الأمير إلى قاضي فاس

ولما رأى الأمير أن بعض القبائل، في الساحل، القريبة بلادهم من المدن التابعة للعدو، مالوا إلى طاعته والدخول تحت ظله وحمايته ، أرسل إليهم من العلماء والأشراف من يعظهم ويحذرهم من مقت الله -تعالى- وغضبه. فلم يجد ذلك نفعا فيهم. ثم هددهم وأوعدهم وأمرهم بالخروج من مواطنهم واللحوق بإخوانهم المسلمين في الداخلية، فلم يقبلوا. وتمادوا على ما هم عليه. فاعتزم حينئذ على غزوهم والفتك بهم ثم توقف في شأنهم واستشار الفقهاء في أمرهم. وبعث إلى قاضي فاس في ذلك لينظر ما عنده فيه. وزاد أسئلة أخرى عن أشياء متفرقة عرضت له. ونص ما كتبه إليه :

"الحمد لله حقَّ حمده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

من خادم المجاهدين والعلماء ، عبد القادر بن محي الدين، إلى الشيخ الإمام، علم الأعلام، السيد عبد الهادي العلوي الحسني، قاضي القضاة بفاس المحميَّة.

السلام عليكم ورحمة لله وبركاته. وبعد؛ فما حكم الله في الذين دخلوا في طاعة العدو الكافر باختيارهم، وتولوه ونصروه. يقاتلون المسلمين معه ويأخذون مرتبه، كأفراد جنوده؟ ومن ظهرت شجاعته في قتالهم للمسلمين، يجعلون له علامة في صدره، يسمونها "لتور" عليها صورة ملكهم. هل هم مرتدّون؟ أم لا؟ وإن قلتم بردَّتهم، فهل يستتابون؟ أم لا؟

وما حكم نسائهم؟ وهل هن كرجالهم؟ أم لا؟ وإن قلتم إنهن مثلهم، فهل يحكم باستتابتهن؟ أو يقتلن؟ أو يسترققن؟ كما نقل عن ابن الماجشون أم لا ؟

وما حكم ذراريهم؟ هل لنا سبيهم أم لا؟ وهل ما حكاه ابن بطّال، من الإجماع على أن المرتد لا تسبى ذريته منقوض بما نقل عن ابن وهب وعن جمهور الشافعية أن المرتد كالكافر الأصلي أم لا؟ وهل يسوغ لنا العمل بما ينقل عن أصحاب مالك -رضي الله عنه- من الأقدمين كابن وهب وأمثاله في طبقته، في هذه النوازل، وأمثالها مما لا يشهره المتأخرون أم لا؟.

وما حكم الخوارج الإباضية، المعروفين في مغربنا "ببني مزاب" وهم -على ما لا يخفاكم- من عدم صلاة الجماعة والجمعة مع المسلمين، فهل قول ابن العربي بكفرهم صحيح؟ يعمل به أم لا؟

وهل ما ذكره شرّاح ابن الحاجب من أن الباغي لا يرد عليه ماله، يسوغ لنا العمل به أم لا؟

وهل ما تقررّ من أن العدو، إذ نزل بقوم وعجزوا عن دفعه، ينتقل الوجوب والخطاب إلى مَن يليهم، عامٌّ في جماعة المسلمين؟ أو هو خاص بالسلاطين؟ من حيث أنهم حاكمون على الرعايا؟ وهل وجوب الدفاع والإعانة خاص بالأبدان؟ أو هو عام في الأبدان والأموال؟ حتى أنّ من عجز عن الدفاع بنفسه، مع قدرته على الإعانة بماله، وترك ذلك، يكون عاصيا؟ وهل هذا العصيان يكون قادحا في العدالة أم لا؟ وهل مجازاة ومكافأة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- للشعراء

والمهديّين؛ كانت من بيت مال المسلمين؟ أو من خمس الخمس؟ وإن كانت من بيت المال ؟ فهل لولاة المسلمين هذا؟ بعد ذلك أم لا؟

وهل لهؤلاء السلاطين قبول الهدية أم لا، كما نقل عن عمر بن عبد العزيز؟ وهل يردونها جملة أو يضعونها في بيت المال؟ وهل قول مالك : لا ينبغي للأمير، ولا لعامل الصدقة –إذا خرج لبعض عمله– أن يترل عندهم أو يأكل من طعامهم، خاصٌّ بعمل الشعوب والبطون أم عام، حتى في ولاة الأقاليم؟ ولفظ "لا ينبغي" هل هو على الحرمة أو الكراهية؟.

أجيبوا –أدام الله وجودكم– جوابا يشفي المرض ويأتي على الغرض، محيطا بالتفاصيل والجمل، مبينا لنا ما يكون به العمل، مع ملاحظتكم زماننا ووطننا.

والسلام مكرّر ومعاد، عليكم وعلى أهل مجلسكم الشريف. ولا تنسونا من صالح دعائكم. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين".

ذكر الأجوبة

الحمد لله وحده.

إلى نخبة أفاضل المجاهدين، الأمير السيد عبد القادر بن محي الدين، لازلت منصور الراية على الكفرة المعتدين، مظفرا بالفتح والتمكين. وسلام الله يتوالى على عليٍّ مقامكم المتين.

هذا، وإني أحمد الله لكم على ما به خصكم في هذا القطر المغربي، من صرف الهمَّة إلى إعلاء كلمة الله والنبي، ثم المرغوب من كمال فضلكم أن تسهمونا من صالح دعائكم، ولكم منا مثله، ومن الله يرجى لجميعنا فضله.

وجواب ما أشرت إليه في كتابك من المسائل أن اللائذين بالنصارى المقاتلين معهم، قال فيهم البرزلي في القضاء من نوازله، أما نصه :

أن المعتمد بن عباد استغاث بالكفار في حرب المرابطين؛ فنصرهم الله عليه وهرب، ثم نزل على حكم يوسف بن تاشفين، أمير صنهاجة. فاستفتى فيها الفقهاء؛ فأفتى أكثرهم أنها ردَّة. وقاضيه، مع بعضهم، لم يرها ردَّة و لم يبح دمه. فأمضى الأمير ذلك و لم يبح دمه. وأخذه أسيرا ونقله إلى إغمات إلى أن مات فيها.

ونقله الزياني في نوازله بواسطة الكتاني، ويؤيده ما في ابن جزي، على قوله تعالى : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[1]. ونصه : من كان يعتقد معتقدَهم، فإنه منهم، من كل وجه، ومن خالفهم في الاعتقاد وأحبهم، فهو منهم، في المقت عند الله تعالى، واستحقاقه العقوبة.

وقد قال الغزالي في كتاب "التفرقة بين الإيمان والزندقة": الذي ينبغي الاحتراز عن التكفير، ما وجد إليه سبيل، فإن استباحة المصلين المقرين بالتوحيد خطأ ... والخطأ في ترك التكفير أهون من الخطأ في دم مسلم ولا سيما إذا كان فيه تأليف، وردّ عمَّا هم عليه؛ فهو متعين" فعلى القول بعدم ردَّهم، لا إشكال في عدم سبي نسائهم، وذراريهم. وعلى القول بردَّهم، فكذلك.

قال خليل : وإن ارتد جماعة، وحاربوا، فكالمرتدين. قال شارحه "ابن عبد الصادق" : سار فيهم عمر سيرة المرتدين بردّ النساء والصبيان إلى عشائرهم كذرية من ارتدَّ. فلهم حكم الإسلام. وعلى هذا، جماعة العلماء والسلف -إلا القليل منهم- مضى على رأي أبي بكر بأنهم كالناقضين للعهد، قتلُ الكبار وسبي النساء والصغار ، وجرت في أموالهم المقاسيم، وذهب ربيعة وأبو القاسم وابن الماجشون إلى فعل عمر. واقتصر عليه المصنَّف لأنه قول جماعة.

وأما حكم الإباضية، فالصحيح عدم كفرهم، كما عند "ابن رشد" في البيان. وقال في الفتح، عن ابن حزم : إهداء الخوارج والبغاة. وأقربهم إلى قول

1 .سورة المائدة، الآية 51

أهل الحق، الإباضية. وذكر الخلاف فيهم غيرُ واحد. وتقدم أن التكفير صعب، والميل إلى عدمه أهون. وقد ترجم البخاري بترجمته لقتل الخوارج وبأخرى لتركه إشارة إلى خلاف كما قاله في الفتح.

وأما البغاة، فلا يؤخذ من مالهم، غير السلاح، قطعا، كما قيد به شرّاح خليل قوله : "واستعين بما لهم عليهم ثم رد". وأما السلاح، فعليه يحمل المتن، ومقابل ما في المتن في غاية الضعف، لا يعمل به. وقد قال ابن عرفة : إن العمل بالراجح هو الواجب. ولا ينبذ الحكم بما سواه ونحوه : للعقباني والسنوسي.

وأما الزكاة، فلا تصرف في غير المصاريف الثمانية التي قصَّ الله عنها : "إنما الصدقات؛ للفقراء ... " الآية. قال خليل : ومصرفها فقير ومسكين ... إلى قوله : لا سور ولا مركب. وما نسبه الجنّان وغيره لحفيد ابن رشد : من إعطائهما للعلماء —ولو أغنياء– وكذا سائر المصالح، لا يجوز العمل به كما للشيخ التاودي وغيره ممن حشّاه من المتأخرين.

وأما إن عجز من حلَّ بهم العدو عن دفعه، فيتعين على كل من يقربهم ، أميرا كان أو غيره، الأقرب فالأقرب أن يدافعه. قال خليل : وتعيَّن بفجء العدو، وإن على امرأة وعلى من يقربهم إن عجزوا، أو خوطب بنفسه وماله. قال تعالى : ﴿**وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله**﴾[1] ﴿**إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾[2].

---

1. سورة التوبة، الآية 41

2 . سورة التوبة، الآية 111

وأما مكافآت النبي (ﷺ) للشعراء والمهديين، فمن جملة مكارمه، وهي من الفيء والخمس تُؤدَّى. ففي تفسير "ابن جزي" لقوله تعالى ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه... ﴾[1] الآية ما نصّه الخمس إلى اجتهاد الإمام، يأخذ منه كفايته. وفيه أيضا ما نصُّه : ما يؤخذ من الكفار، منه ما يخمَّس ومنه ما يكون جميعه للإمام، يأخذ منه حاجته ويصرف سائره في مصالح المسلمين. وهو الفيء الذي لم يوجف عليه.

وأما الزكاة، فلا يكلف أرباب الأموال بغيرها. وأمَّا الولاة، فجميع ما زاد بأيديهم، على ما يعرف لهم من قبل؛ فلمن ولاَّهم أن يضيفه إلى بيت المال ويصرفه في مصارفها.

وأما هدايا مَن تحت حكم السلطان له، فلا يجوز له قبولها لأنها رشوة. قال خليل في القرض وعدم هديته، إلى قوله : "وذوي الجاه والقاضي" وهو مضمون قول الباجي، ونصُّه : إذا كان المهدي، تجري عليه أحكام المهدى إليه؛ فقال سحنون وأشهب : لا تقبل هديته مسلما كان أم كافرا، ووجه ذلك أن هديته ريبة، إذ ربما تكون لدفع مظلمة يجب دفعها أو ترك حق لا يحل تركه، ويؤيِّده ما أشرتم إليه، من قول عمر بن عبد العزيز كما في البخاري، في كتابه الهبة. وقضيَّة "ابن الأنبية" المكررة في البخاري. لمّا استعمله النبي (ﷺ) فجاء بمال كثير وجعل يقول -عند محاسبته- هذا لكم وهذا أهدي إليَّ، فغضب (ﷺ)وعاتبه

1 .سورة الأنفال ، الاية 41.

وقال: "هلاَّ قعد في بيت أبيه وأمه، فينظر ما يهدى له؟" تدلُّ على أنها تردُّ إلى بيت المال إن قبل، كما لابن بطَّال. (انتهى).

كتبه أجهل عباد الله، رادًّا العلم لمولاه، عبد الهادي بن عبد الله الحسني وفَّقه الله.

في أول يوم من محرم، فاتح عام ستة وخمسين ومائتين وألف (1256).

ذكر ما تكلم به الجنرال بيجو في المجلس الحربي في مدينة الجزائر

لما شاع أن الأمير استفزَّ سائر أهل مملكته، من حدود المغرب الأقصى إلى حدود تونس، إلى الجهاد وأمر بأخذ كمال الأهبة والاستعداد لمحاربة العدو، ومدافعته عن البلاد، واتصل ذلك بحاكم الجزائر "بيجو"، امتعض له لاسيما وقد رأى أن أهل الجزائر استولى على قلوبهم الرعب وخامرها الاضطراب. فعقد مجلسا حربيا وتكلَّم فيه بما نقله عنه "بالمار" المؤرخ. وهو قوله :

"إنني –أيها القوَّاد والرؤساء الأنجاد– قد كنت أظن أن للأمير عبد القادر جنودا نظامية، كافية، لها خبرة بفنون الحرب وأساليبه، واقتدارا على مقاومة الجيوش الفرنساوية. والآن تحقق عندي أن الأمر على خلاف ذلك. وكنت أظن أن العرب ذو ضخامة وجسامة. فتبيَّن لي الآن أنهم ليسوا كذلك، غير أني لا أنكر قوَّة بأسهم وشدَّة شوكتهم، وصلابتهم في الجلاد، ومقاومة الأضداد، لكن هذا، ما داموا في أوطانهم وما دامت أملاكهم

في أيديهم التي عليها مدار معاشهم. فلاح لي من الرأي الذي نتوصل به إلى تفريق كلمتهم وإخضاعهم للطاعة أنّ عسكرنا تتصدى -أولا- للاستيلاء على بسطائهم، التي فيها انتجاع ماشيتهم التي يرتزقون منها، فإن حصل هذا فلا شك في الفوز والنجاح، ثم نضع الحامية الكافية والمسلحات الوافية في الأماكن الصعبة في الطريق التي نمر فيها لنتمكن من أتباع آثار الفارين منهم، المتوغلين في الداخلية. ونضع جنودا وافرة في الحدود لتمنعهم من الدخول إلى الممالك المجاورة لبلاد الجزائر. فإذا ضاق عليهم المجال واشتدت عليهم -من كل جهة- الفتن والأهوال، فلا محالة أنهم يلوذون بطاعتنا. ومما ييسر علينا الوصول إلى هذا أن أكثر رؤساء عساكرنا تعلّموا اللغة العربية وصاروا ماهرين فيها، عارفين بعوائد العرب، وأحوالهم ، أو نستعمل هذا، فنعيّن قسما من الجند للمحافظة على الأماكن المهمة في سائر الجهات وقسما آخر يقيم في التخوم لمنع الوارد والصادر عن البلاد، كما يمنع من فرار أهلها إلى الخارج عنها، وباقي الجند نعدُّه للهجوم والحرب.

واعلموا أن استعمال المحاربة بالنوع النظامي لا يجدينا نفعا لأن الخصم لا يعرف ذلك. وإنما نقابل العرب بما يقابلونا به. والمقصود الأهم هو أن جيوشنا تجعل همتها في استعمال ما تتلاشى به قوة الأمير وتزعزع أركان دولته. هذا ما ظهر لي من الرأي. فانظروا ماذا ترون أنتم!

– فأجابوا : "إن ترتيب الحاميات، في المراكز الصعبة، لا نراها صوابا، إذ ربما يوقعنا ذلك فيما هو أدهى وأمر مِن تركنا إياها. وذلك

لأننا نخشى أن يحوجنا الحال إلى تعيين قسم كبير من جيوشنا لحمايتها، أو لتخليصها من يد العرب. ويبقى في أيدينا من الجيوش ما لا يفي بالمطلوب عند شبوب نار الحروب. فالأولى الإضراب عن هذا الآن" ... فاستحسن بيجو رأيهم، ثم اتفقت كلمتهم على أن ينهضوا بجيوشهم الجرارة إلى المدن. وبعد الاستيلاء عليها، ينظرون فيما يلزم من المحافظة عليها. ولما انتشر هذا الخبر، حدث في المعسكر قلقٌ وامتلأت قلوب الجنود رعبا لجهلهم بما يؤول إليه أمرهم في داخلية البلاد وخافوا أن يقع بهم نظير ما وقع بمن تقدّمهم من إخوانهم. فيستولي عليهم التلف كما استولى عليهم مدة عشر سنين.

قال فاليوت، في تاريخه : كنت، ذات يوم، مع الحاكم بيجو، في محل عال. فقلت له :

- أيها المارشال! أنظر، إلى هذا المنظر البهيج.

- فأجابني : " إنه منظر جميل لأهل الجرنالات[1]. أما لأمثالنا، فلا!" ثم قال لي : "أنظر إلى تلك الحيطان السود الشمالية من البلد؛ فلربما يكون هناك سجن العساكر الفرنساوية، ومن الممكن أن يقاد الحاكم -يعني نفسه- ذليلا في بلاد حجوط. وعندها ،كلمة واحدة تكفي في قتله. ألم تعلم يا فاليوت أن حاكم الجزائر يحتاج إلى سياسة قوية، لأن الأمير عبد القادر خصمٌ صنديد، وقرمٌ عنيد، لا يخشى بطش الجيوش الفرنساوية ولا ينظرها بعين الاعتبار".

---

1. أي للصحفيين

ثم إن فاليوت استطرد ذكر حكاية عن بعض الجنود في الجزائر فقال :

قد وقفت على رسالة لبعض أفراد الجند الفرنساوي أرسلها إلى والديه وأخواته في فرنسا عندما شاع اتفاق المجلس الحربي. ونصُّ الرسالة :

"من مدينة الجزائر، في الخامس والعشرين من شهر آذار، سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وألف 1841. إلى والديَّ وأخواتي :

أخبركم أن حياتي قد صارت في خطر، وذلك أننا في هذا الوقت متوجهون من مدينة الجزائر إلى المدية ومليانة. ومن دون شك أننا نصادف في طريقنا أخطارا ومهالك. ولا أدري هل أرجع سالما أم ذلك آخر العهد بالحياة الدنيا ... ولا يخفى أن الموت أقرب من السلامة، ولكن يلزمنا الصبر. وحيث أن احتمال الموت عندي أقرب، فاعلموا أنه يوجد عندي ألفان وخمسمائة فرنك، فأريد أن تعطوا عمي منها مائتين يستعين بها على عوزه وأن لا تتركوا أولادي بدون ألبسة حسنة. وما بقي من الدراهم، فالوالدة تفعل بها ما تشاء. وإني أخبركم أن العرب فرسان مشهورون بالشجاعة والإقدام. وحالنا معهم في الحرب أن رصاصهم يصب علينا كالمطر. وأما نحن فلا نقابلهم إلا بالكلل ليبعدوا عنا. وإن وقع في أيديهم جندي منا، يعرضون عليه الإسلام. فإن قبل وأجاب، تركوه وإلا قتلوه. وعندما نسير من محل إلى آخر، نأخذ أزوادنا معنا لأنه لا يوجد في طرقنا فنادق، ولا خانات، وفراشنا

وغطاؤنا ليس إلا كالكبوط[1] لا غير. فهذه حالنا في بلاد العرب. وعلى كل حال، فأنا أودعكم، وعيناي غريقتان في الدموع".

قال بالمار : "لما اعتزم بيجو الحرب، اتخذ والبغال الجمال لحمل الأثقال والذخائر والمدافع، عوضا عن العجلات. وعرض العساكر، فوجدها قد أكسبها تمرينها في المدة السابقة نشاطا. فحينئذ، قوي عزمه. واشتد حزمه.

وقال رُوا : كذلك العرب، قد تدربوا على الحرب. وتمرّنوا؛ فزاد بذلك نشاطهم الغريزي، المفطورون عليه".

ذكر مسير الجنرال بيجو إلى مليانة وهزيمته في رجوعه منها

وفي الخامس من ربيع الأول، سنة سبع وخمسين ومائتين وألف (1257) وفي الثامن والعشرين من أبريل (نيسان) سنة إحدى أربعين وثمانمائة وألف (1841)، نهض الجنرال بيجو من الجزائر، في جيش كثيف، إلى مليانة ثم انقلب -راجعا- إلى الجزائر، على طريقه. وكان الأمير، أعدّ فرقة من عساكره النظامية قرب البلد وأكمن له فرقة أخرى في الغابة، قريبة من الفرقة الأولى. فلما خرج العدو من البلد، بادرته الفرقة الأولى بالقتال. ولما حمل عليها، استجرّت له وأرخت العنان أمامه؛ فلحقها

1 .هو المعطف الكبير يتدثر به -غالبا- من البرد والمطر.

إلى أن وصل إلى الغابة، فخرج الكمين واشتَّد القتال. وبينما هم كذلك،أقبل الأمير بباقي الجيوش الإسلامية، وهجم على العدو من ورائه. واختلطت العساكر بالعساكر. وحمى الوطيس؛ فانهوم بيجو بجيوشه. ورجعوا إلى مليانة، تاركين القتلى والجرحى والذخائر التي كانت معهم في أيدي المسلمين.

قال "رُوا" " وهذه أول وقعة وقعت بالمارشال بيجو في ولايته على الجزائر ورئاسته على العساكر الفرنساوية ولأوّل تفويضه في أمر الحرب مع الأمير عبد القادر، ثم قال : "ولما هجم لأمير بالقسم الكبير من جيشه الذي كان معه على المارشال، انبهر عقله و لم يسعه إلا الفرار. فساقته جيوش العرب والفرق النظامية، قهرا عليه، إلى مليانة، تاركا قتلاه، وما معه من الأثقال. وهذه الوقعة نكّلت بالعساكر الفرنساوية أشد النكال وأوقعتهم في ورطة الوبال. وكانت خسائرهم جسيمة، ونوائبهم عظيمة. (انتهى).

ثم إن بيجو رجع إلى الجزائر وقسم جيوشه على الثغور المهمة. فعقد للجنرال "بركوباي ديلي" على الجهة الشرقية وللجنرال "بارتسمي" على ما يلي الجزائر. وتوجه بالقسم الأكبر إلى مستغانم. ومعه الدوك "دومال" وأخوه الدوك "دوتيمور" وضمّ إلى جيشه جيش وهران. وبعد إقامته أياما في مستغانم، نهض منها على طريق "مجاهر" قاصدا قلعة "تاكدمت". فأمر الأمير أهلها بالجلاء عنها وحمل ما خفّ من الذخيرة الحربية والمؤن التي كانت فيها واتصل سير العدو مع اتصال القتال

إلى أن وصلها واستولى على سائر ما بقي فيها من السلاح وآلات المعامل، ثم توجه منها، إلى العاصمة "معسكر". وكان أهلها خرجوا منها إلى ضواحيها، فاستولى عليها. وأقام فيها حرسا. ثم رجع إلى مستغانم. وكان الأمير صمد له،في الجيوش عند مضيق منها "عقبة خدّة" ومضيق "فرقوق". فلما وصل بيجو إلى أوّل مضيق منها، إنثال عليه المسلمون من كل جهة وأحاطوا به من كلّ ناحية واتّقدت نار الحرب، بين الفريقين، واتّصلت من شروق الشمس إلى مغيبها. وكثر القتلى والجرحى من الجانبين. وجرى في ذلك النهار ما يعجز عن وصفه القلم واللسان.

قال رُوا : "لما وصلت العساكر الفرنساوية إلى مضيق "عقبة خدّة" ، وجدت فرسان العرب وحاميتها ينتظرون فيه. وانتشب القتال بين الفريقين واستمر الرمي بالرصاص، والضرب بالسيوف، والطعن بالحراب ... يأخذ كل منهم حضه من النفوس من طلوع الشمس إلى غروبها، وكانت خسائر الطرفين جسيمة. ففقد العرب الكثير من رؤساء عسكرهم، وأغواته كما أن بيجو فقد من العساكر الفرنساوية وقوّادها عددا كثيرا. وعندما أذن الظلام بإغماد سلاح الطرفين، أخذ العرب يتفقدون قتلاهم وجرحاهم. وأما بيجو، فإنه انتهز الفرصة، وتسلل -بجيوشه- تحت ستر الظلام، على حين غفلة من العرب إلى أن تخلّص من المضايق كلّها وجدّ في المسير إلى أن لحق بمستغانم على أسوء حال. وبالجملة، فإن هذه الوقعة، من الوقائع المشهورة التي استمر ذكرها في محافل فرنسا ومجامعها.

ذكر ما كتبه الأمير عبد القادر إلى المارشال بيجو

قال اسكندر بالمار : بعد وقعة عقبة خدّة، كتب الأمير عبد القادر إلى المارشال بيجو ما نصّه :

الحمد لله وحده. من ناصر الدين، عبد القادر بن محي الدين، إلى المارشال بيجو :

أما بعد؛ فإن كانت دولة فرنسا ليس عندها من الأرض ما يكفي رعاياها وأرسلتكم لتغصبوا أراضينا وتبذلوا في ذلك نفوسكم وأموالكم، فنحن نتخلّى لها عمّا هو في أيدينا الآن، من السواحل. ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم من بعض. وإن أبت إلا أن تستولي على جميع وطننا فنحن نبذل وسعنا في مدافعتها، وحماية أرضنا منها إلى أن يقضي الله، بيننا وبينها، بما شاء. فإن البلاد بلاده، والعبيد عبيده. ولا يخفى عليكم -أيُّها الحاكم- أن مهاجمتكم بلادنا، كما أنها سبب لإتلاف الكثير من جنودكم وذخائركم، فكذلك نحن. وهذا شيء لا يرضى به عاقل، فضلا عن فاضل ، ودولتكم تدّعي أنها أول دولة في العالم، تحب الإنصاف وتستعمله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به. ففعلها هذا، يكذّب دعواها ويبطل مدّعاها، وأنتم وغيركم من رجالها، نراكم -دائما تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب وتبذلون أنفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها. ولو كان عندكم أدنى نظر سديد، ما وافقتموها، على إتلاف جنودها في الحرب ومواسم الأمراض المختلفة التي لا تذر ولا تبقي. فيا هل ترى بأي شيء

تعوّضون ما تخسره بلادكم من الرجال والأموال والكراع؟ فإن كان يرضيها منكم أن تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر، أو من تراب الأرض التي اغتصبتموها فافعلوا. وإني أراك -أيُّها الحاكم- تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا، لتَقِلَّ الحبوب عندنا ظنًّا منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم. والحال أن هذا ليس بشيء عندهم. فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم. بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ويقيم أودهم كيفما كان، على أنه يوجد عندهم، من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدّة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية. وما تأخذونه أنتم من ذلك، فهو جزء من جملة أجزاء. ولا أراكم في هذا الأمر إلا كمن ملأ قدحه من البحر، معتقدا أنّه ينقصه. وبالجملة، فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون، وفي سبيل اعتدائكم تمشون. والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبنها. فنحن أهلها من المهد إلى اللحد. وحروبنا -كما علمتم- لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها، بل نحن فيها مخيرون، مطلقون ... نصرّفها كيف نشاء. وأما أنتم فقد بذلتم أموالكم وأفنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية[1]؛ وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف. ومما علم من كتب التواريخ القديمة أنّ العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه. فلا يخطر في بالكم أنهم يضجرون منها أو ينكرونها من ذات أنفسهم ما دامت الأقدار الإلهية

---

1 يقصد : الطرق النظرية، خلاف الطرق التطبيقية، العملية.

مساعدة لهم. فإن حكمت عليهم بغير ذلك، فمن المعلوم أن الأرض لله من بعدهم، يورثها من يشاء من عباده. فلا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه.

والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى.

حرر في عاشر جمادى الأولى سنة 1257 وفي آخر حزيران 1841.

ذكر مسير المارشال بيجو إلى ولاية معسكر

بعد رجوع بيجو من وقعة "عقبة خدّة" إلى مستغانم، أخذ أهبته وخرج بجيوشه إلى شمال ولاية معسكر. وكانت قبائل "أولاد خليف" و "صبح" وأمثالهم دانوا بطاعته عندما مرّ في بلادهم إلى "تاكدمت" ثم توجه إلى الجهة الجنوبية وانتهى في مسيره إلى بلد "سعيدة"، وهذه البلدة اختطها الأمير وأسكن فيها مهاجري مستغانم ووهران. ولما قاربها، خرج أهلها إلى النواحي. فوجدها خالية؛ فخرّبها. ولاذ أهل تلك الجهات القريبة منها "كأولاد ابراهيم، والحساسنة، والجعافرة" بالطاعة. وعدل الأمير عن قتاله وسار غازيا على قبيلتي الدوائر والزمالة في ساحة وهران، فصبّحهم واكتسح أموالهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر، ولما اتصل الخبر ببيجو، امتعض لذلك وارتحل -راجعا- من الجهة الجنوبية إلى مستغانم ثم إلى وهران.

وفي هذه الأيام، أرسل حضرة الأسقف "دوبيش" إلى خليفة مليانة "السيد محمد بن علال" يستأذنه في الحضور عنده ليتوسط له في الاجتماع بالأمير، فأجابه الخليفة : إن الأمير في نواحي الصحراء، على مسافة

أيام متعدّدة منّا. فإن كنت تكتفي بملاقاتي، نيابة عن الأمير؛ فأنا مستعد لقبول زيارتك. فأجاب الأسقف إلى ذلك وحضر عند الخليفة. فاحتفل لملاقاته. وبعد أن عزم على الرجوع إلى الجزائر، قدّم إليه الخليفة فرسين من جياد خيله، هدية على عادة أمراء العرب، قدرا وشهرة. وكان عنده من أسرى الفرنسيس نحو الخمسمائة أسير. فأحضرهم بين يدي الأسقف، بسلاحهم وألبستهم، ثم قال له: حيث أنه ل يتيسر اجتماعكم بسيدنا الأمير، وكنت أنا، من جملة أتباعه وخدمه؛ فعلي حسب استطاعتي أجريت، بعض ما يجب إجراؤه مع أمثالكم ... وهؤلاء الأسرى من عساكركم، بسلاحها وأمتعتها، قد سمحنا بإطلاقها تكرمة لكم. فخذوها معكم. ولو ساعد القدر، واجتمعتم بسيدنا الأمير، لكنتم شاهدتم من إكرامه ما تستقلّون له أعمال الملوك العظام! ففرح الأسقف بذلك، فرحا لا يعبّر عنه قلم ولا لسان. وانقلب بالأسرى -إلى الجزائر. وكان يوم دخوله إليها بهم يوما مشهودا.

فانظر إلى هذه المعاملة الحسنة والمعاملة التي قابلها بها بيجو -كعادته- فإنه بعد رجوعه من غزوة بلد سعيدة ووهران، كتب إلى رؤساء القبائل عدّة رسائل، يدعوهم إلى طاعته ويتهدّدهم، إن أبوا ذلك عليه! وهذا نص جواب أولئك الرؤساء عن إحداها :

"من كافة الحشم : الشراقة والغرابة ومَن إليهم، كبني شقران وبني غدو إلى النصراني بيجو.

السلام على من اتبع الهدى، وثبت عليه قد وصلنا تحريرك، وعلمنا ما فيه من كونك تدعونا إلى الطاعة، وتخبرنا أنّك عازم على أن تجعل بلادنا سعيدة مباركة، وأي سعادة أحب إلينا من سعادة الجهاد؟ وحماية البلاد؟ وثباتنا أمام أعدائنا؟ ولو بدون محاربة ولا طعان. فإن الله تعالى جعل لنا ثوابا عظيما إذ نحن أذقناهم مرارة الوبال ونكّلناهم شديد النكال وكبّدناهم أنواع المشقات وألجأناهم إلى التفريق والشتات،وإذا لم نتمكن من ذلك كلّه، فمن بعضه. فإن لم يتيسر لنا، فيكفي الثبات في وجوههم وعلى قدر التعب يحصل الأجر.

وكونك تعدنا –كعادتك– مع غيرنا بالفخر والمجد إذا نحن أطعناك وإلى مطلوبك أجبناك، فهذا لا نسمعه ولا نلتفت إليه بل نعدّه ضربا من المحال؛ والذين أطاعوك من أهل وطننا فإنهم –عندنا– قوم لا دين لهم ولا خلاق بل لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه. فلا تغترًّ بكلامهم فإنما قادهم إليك الطمع فيما عندك. فباعوا لك دينهم بالذهب والفضة. وأمّا نحن، فلا نبيع ديننا وإنما نبيع أنفسنا إلى الله تعالى الذي يشتريها منّا بالجنة.

ومن الواجب عليك أن تنظر إلى عظمة سيدنا الأمير كما ننظرها نحن. فإنه يقاتلكم ويكبدكم المشاق العظيمة من غير كبير مدد، ولا ذخائر مؤثلة، ولا خزائن قائمة وافرة. وأما أنتم، فلا مزيّة لكم لأن دولتكم قديمة من ألف سنة؛ فجمعت الأموال الطائلة ودرّبت الجيوش الجرارة على الحروب. فإن هي غلبت الآن، فإن أميرنا حديث العهد بالملك

ورعيته قد أنهكتها الحروب الأهلية والأجنبية من مدة متطاولة. فأيّة مزيّة لدولتكم في تغلبها عليها؟

والظاهر أنك -أيها الحاكم- مسرور بكونك أخرجتنا من وطننا وأحرقت أغلالنا وأرسلت -لدولتك- تبتهج بذلك. ولو كنت من أهل النظر، ما ظهر هذا منك. نعم، لو جئتنا بجيوش، تعادل جيوشنا عددا واستعدادا وفعلت بنا ما فعلت، كان يحق لك أن تبتهج بعملك وتفتخر به. ولكن، حيث أنك جلبت لنا جيوشا يزيد عددهم على عدد نفوسنا وكراعنا وشجرنا وحجرنا، فلا حق لك في سرورك لأن من غلب كثرة، فلا مزية له ولا فخر وإنما المزيّة، لمن غلب من يكافئه عددا وعُددا، أو يكون أكثر منه. ونحن -لله الحمد- مع قلّة عددنا، فقد وقفنا في صدوركم وأذقناكم نكال الحرب ومرارة الجلاد والضرب مدّة أحد عشر عاما، من حين استيلائكم على مدينة الجزائر إلى يومنا هذا. ولا نزال -بحوله تعالى وقوته- على ذلك إلى أن نغلب أو نُغلب ويهلك كبيرنا وصغيرنا. وعلى كل حال، فإنك تتعب نفسك ولا تحصل على طائل من الفخر لتذكر به عند ملوك الأرض، هو في بالك لأن ذلك؛ إنما يصحُّ لك لو غلبت دولة قديمة عظيمة مؤثلة من كل شيء. وأما دولة قليلة العدد والعُدد، فلا مزيّة لمن غلبها. ومما يُتَعَجَّبُ منه كل العجب؛أن دولتك تفتخر بالظلم والاعتداء. حاشا وكلاّ إنما الفخر في تركهما، وعدم التخلق بهما. وجميع ما أتلفتموه من محصولاتنا في هذه السنة لا يضرنا لوجود غيره عندنا من مستغلالتنا المدّخرة من سنين عديدة فإن نفدت، فالطرق لجلب ما نقتات به من المغرب أو المشرق مفتوحة. وكما أنّ

مراكبكم البحرية ترد عليكم مشحونة بالمؤن والذخائر، فكذلك نحن. عندنا الجمال تحمل إلينا ما نحتاج إليه، من القاصية... ومن الواجب عليك أن تنظر فيما دخل في يدك من الذخائر والمؤن في هذه المدّة. وما خرج منها، فإن وجدتها ناقصة؛ فبادر إلى إرسال ما يسدّ نقصها من حجر "معسكر" وتراب "غريس" إلى دولتك. وبذلك، تجعلك محبوبا لديها، كبيرا في عينها. ولو أحصيت -أيها الحاكم،- قتلاك وأسراك، ثم قابلناها بمن قتل منّا وأسر، لظهر لك خسرانك وتحقّق عندك نقصانك. والمكافأة في الحرب -وان كانت لا تقضي بالمزية لأحد الطرفين- فإنها تقضي لنا به نظرا لكثرتكم وقلتنا، وكبر دولتكم وصغر دولتنا.

هذا جوابنا، فاعلمه. فإننا فصّلناه تفصيلا مفرطا في الإسهاب والإكثار، رجاء أن تفهم.

حرّر في العشرين من ربيع الثاني سنة سبع وخمسين ومائتين وألف 1257 والحادي عشر من حزيران سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وألف 1841".

ونصّ جواب الرسالة الأخرى المؤرخة في التاسع والعشرين من ربيع الثاني والعشرين من حزيران:

"من الحشم وغيرهم من القبائل المتمسكين بدينهم الإسلامي، الوثيق العرى إلى النصراني بيجو.

قد وصلنا مكتوبك، الذي تركته في موضع نزولك من بساتين "بني يخلف" واطلعنا عليه. فوجدناك تطلب منّا نصّ ما طلبته سابقا، غير مرّة.

فتعجبنا من إلحاحك وإكثارك علينا في الطلب مع أننا بذلنا وسعنا في إقناعك؛ فلم تسمع، وأوقفناك على ما انطوت عليه بواطننا من التمسّك بديننا وطاعتنا لأميرنا؛ فلم تفهم، ولو فهمت، لعدلت عن إلحاحك وتتابع طلبك. وعلى كلّ حال، فهذا آخر جواب يأتيك من طرفنا. فليكن مكتوبك المذكور آخر مكتوب ترسله إلينا. وكيف نترك ديننا الذي هو أشرف الأديان، وتتخلى عن أميرنا الذي هو عندنا أعظم أمير وأشرف من يطاع؟ هذا ممّا لا يقول به عاقل ولا يعلق به أفكاره آمل.

والذي حملك على الإلحاح هو تصديقك لأولئك المتنصرة، الذين يسارعون إلى الدخول في طاعتك. ولو كانوا مما يعتد في الديانة، ما جحدوا نعمة الله عليهم بالإسلام وأطاعوك. ودخلوا تحت رايتك وأنت عدوّ دينهم ودنياهم.

والذي أخذ بنواصيهم وقادهم إلى ذلك، إنما هو حبّ المال الذي يسرتم لهم طريق الطمع فيه، ولم تعلموا أنهم كما أزاغهم الشيطان وتركوا دينهم ورفضوا طاعة أميرهم، كذلك يتركون دينكم وطاعتكم لأن من كان بهذا السبيل لا يوثق به... وأنت -لغرورك بهم- وثقت بحالهم واتبعت إشارتهم وآرائهم.

وبالجملة، فنحن في وطن واسع الأطراف، ممتدّ القاصية، لا نزال نتنقّل فيه غربا وشرقا وجنوبا وشمالا. وأنتم تتبعون آثارنا،فلا تدركون شأونا. وغاية ما هنالك أنّ عساكركم تفنى جوعا ومرضاً، وذخائركم

تنفد، وكلّ ذلك من غير طائل. فالأولى لكم أن تعمروا بلادكم التي نشأتم فيها ونشأ آباؤكم من أجيال متطاولة.

وأما بلادنا، فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجة. وهب أنكم استوليتم عليها وأقمتم فيها ثلاثمائة سنة مثل من ملكها قبلكم، فإنكم -لا بدّ- أن تخرجوا منها كما خرجوا وتمسوا كأمس الذاهب، والدهر -هكذا- واهب ناهب.

والظاهر أنه يخطر في فكرك أنك إذا استوليت على وطننا أن فرنسا تجعلك ملكاً تدين بطاعتك. هيهات، إنما أنت عسكري، تعيش عسكرياً وتموت عسكرياً و لم تستفد شيئاً. فإنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً.

والذين استهووك وغرّوك -من العرب- بطاعتهم، لا يعبأ بهم إذا حضروا ولا يسأل عنهم إذا غابوا. فأقوالهم ومواعيدهم إنما هي "كسراب بقيعة يحسبه الظمآن -مثلكم- ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً". وغاية أمرهم أنّ الذي يؤمّلونه منكم لا يصلون إليه وإنما يموتون كفّاراً تحت رايتكم. نسأل الله العافية والحماية من ذلك.

ومن العجب أنكم تعلمون أننا -وإن كنّا خاضعين لأميرنا- فإننا ما طلبنا الصلح معكم إلاّ قهراً وامتثالا لأمره. فكيف الآن نميل إليكم ونرغب في طاعتكم؟

ثم لا يخفي أن بلادنا تمتدّ غرباً إلى حدود الأقصى، وشرقاً إلى حدود إفريقية، وشمالا وجنوباً من البحر إلى القفر. وجميعها -مع اتساع

أقطارها- في غاية الأمن بالنسبة إلينا. فلا تظنوا أنه يلحقنا ضرر منكم أو يرهبنا وضع عسكركم في: "معسكر ومليانة والمدية". فإن الضرر والخسارة وأمثالها -في الحقيقة- لا تعود إلاّ على أولئك الجنود الذين لا نراهم إلاّ أسرى في بلادنا، إذ لا يأتيهم ما يقتاتون به ، إلاّ بمشاقّ وأتعاب يتلف فيها -من إخوانهم- عدد كثير ومن الذخائر أكثر.

وملخص ما نقول إنّنا وإيّاكم عبيد الله تعالى، والأرض أرضه، والبلاد بلاده. وهو الذي وطّن فيها آبائنا. فإن أبقانا فيها، فله الفضل والطوّل، وإن أخرجنا منها وجعلها في ملككم وقبضة تصرفكم فهو مختار في فعله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد."

ثمّ إنّ بيجو، بعد رجوعه من غريس إلى مستغانم، تفقد الجنود التي كانت قبله في الجزائر والتي حضرت معه وبعده. فوجد التلف قد أتى على أكثرها. فكتب إلى دولته بذلك واستمدها؛ فأمدّته بالعسكر والذّخيرة؛ وأقام أربعة أشهر يأخذ في الاستعداد ويتأهب لتجديد الحروب، وكان في هذه الفترة يكاتب القبائل والعشائر ويدعوهم إلى الطاعة ويعدهم ويمنّيهم تارةً، ويتهدّدهم ويوعدهم أخرى، ويبالغ في الطّرفين. ولّما استكمل أهبته، عقد مجلساً حربيّا، في وهران، جلب إليه قوّاد الجيوش الفرنساويّة من الجزائر وغيرها، وفاوضهم في تعيين مدينة من المدن الدّاخلية يجعلها مركزاً للعساكر ومخزناً للذّخائر. فوقع اختيارهم على مدينة معسكر. فخرج بسائر الجيوش إليها واتخذها مركزاً. وبهذه الواسطة، تيسَّر له الحمل على القبائل وإدخالهم تحت السلطة الفرنساويّة لأنّ أهل

الوطن لّما رأوا ما نزل بهم من الجائحة التي لا دواء لها ولا سبيل لزوالها، تحيَّروا في أمرهم وسئموا من القرار في الفيافي والقفار، وهلكت ماشيتهم وفنى كراعهم وعلموا أنّ الأمير لا قدرة عنده على حمايتهم، والذّبّ عن الوطن من سائر جهاته لا سيَّما وقد تهافتت قبائل البربر -الذين ليس عندهم من الدّين الإسلامي إلاّ النطق باسمه- على أداء طاعتهم للفرنسيين وأكبّوا على التقاط ما نثره لهم من الذهب والفضّة ونالوا من إحسانهم ما لم يكن لهم في حساب ولم يعلموا أنّ السّمَّ في ذلك الدسم. فبذلوا نفوسهم في نصرة عدوّهم، وإعلاء كلمته، وأعانوه على المسلمين المستمسكين بدينهم وطاعة أميرهم وكثّروا عدده ودلّوه على عورات المسلمين وأرشدوه إلى الطرق التي يتوصّل بها للاستيلاء على الوطن وصاروا يكاتبون الناس في الجهات ويرغبونهم في اللّحاق بهم والدخول في زمرتهم.

سبحانه لا رادَّ لقضائه ولا معقّب لحكمه .

ذكر مسير المارشال بيجو الى تلمسان

وفي الخامس عشر من ذي الحجة سنة سبع وخمسين ومائتين وألف 1275 والتاسع والعشرين من يناير (كانون الثاني) سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وألف 1842، خرج بيجو من معسكر، بجيش كثيف، إلى تلمسان. فطار الخبر إلى الأمير. فأمر بإخلائها، ونقل سائر المهمّات منها إلاّ ما عسر حمله كآلات معمل المدافع وشبهها. ودخلها العدوّ.

أخبرني من يوثق به أنّ بعض أهالي تلمسان الذين بارحوها، رجعوا إليها من الطريق ودخلوها ليلاً وقدموا طاعتهم إلى الجنرال وأخبروه أنّ جيوش الأمير قد سئمت الحرب ولانت قوتها . وكان في عزمه أن يتركها. ولما سمع ذلك، عقد النيَّة على الإقامة فيها، والاستيلاء الدّائم عليها وشرع في تحصينها خشية أن يسترجعها الأمير منه. وأقام بها حكومة وسلّم إدارتها للجنرال "يادو"، من مشاهير قوّادهم. ثمّ ارتحل الأمير من ضواحي تلمسان إلى "ندرومة" وفيها اجتمعت عليه قبائل تراره، وولهاصة ومن إليهم من قبائل السّاحل في تلك الأطراف. فأغزى خليفته السيِّد مصطفى بن التهامي على الدوائر والزمالة في ساحة وهران؛ فأثخن فيهم وغنم غنائم كثيرة. ثمّ سار إلى مضيق "الجيرة" من بلاد الغرابة ومنها انتقل إلى "سيك". وأمّا الأمير؛ فإنّه استمرَّ في نواحي تلمسان ينتظر الفرص الموافقة لحرب الجنرال. ولمّا اتصل خبر الخليفة بنائب بيجو في "معسكر"، أرسل سرية من جنده لتباغت الخليفة في موضعه من "سيك". فواصلت سيرها

إلى أن رأت مضارب العسكر ليلا. فتوقف قائدها عن الهجوم. وبعد أن أخذ عسكره الرّاحة، عدل عن الخيام ومرّ في طريق أخرى، في حالة هدوّ وسكون حتّى لا يحسّ به العسكر الإسلامي. وكان الحرس فطنوا بهم ولكن ظنوا أنهم من إخوانهم المسلمين، جاءوا نجدةً لهم فلم يتعرَّضوا لهم بشيء. ثم اقتفوا أثرهم. ولما طلع الفجر وعرفوا أنّهم من الغدو، حملوا عليهم وطيَّروا الخبر إلى الخليفة. فركب في سائر الجيش ولحقوا بالعدّو وعظم الأمر واشتعلت نار الحرب واتصل ذلك من طلوع الفجر إلى وقت الظهيرة؛ فانهزم العدوّ واستولى المسلمون على سائر مدافعه وذخائره وأثقاله. ثمّ رجع الكرّة عليهم؛ فأزاحهم عن موقفهم واستردّ ما أخذوه منه. وصمد العسكر النظامي الإسلامي وحافظوا على موقفهم، ثمّ حملوا على العدوّ حملة رجل واحد واختلطوا به هبراً بالسيوف، وطعناً بالحراب. واستمرّ ذلك إلى الغروب. ومن الغد أصبح العسكر الفرنساويّ سائراً إلى وهران والمسلمون -أخذ بهم التعب والإعياء مأخذهما- فلم يلحقوه. ثم انتقل الخليفة، بعسكره النظامي ومن بقي معه من الجيوش المتطوعة إلى الجبل المطلّ على "سيك".

ولمّا استولى بيجو على تلمسان، رجع إلى الجهة الشرقية على طريق الخط الفاصل بين بلاد الصحراء وبلاد التّلّ؛ فوصل إلى قلعة "سبدو" وبُعْدُهَا عن تلمسان نحو المرحلة، وجرت بينه وبين قبائل تلك النواحي حروب كان الظفر فيها له، ثم لاذوا بطاعته. ومنها توجَّه إلى قلعة "سعيدة" على مرحلتين من معسكر -وقد كان خرَّبها قبل- فقدم الجعافرة والحساسنة وأولاد إبراهيم وأولاد خالد ومن إليهم مقاليدَ الطّاعة إليه؛

فأفاض فيهم العطاء، جلباً لغيرهم. ومنها سار إلى "القيطنة" فأحرقها، وهي بلدة عائلتنا، اختطها جدنا، السيد مصطفى بن المختار، سنة ست ومائتين وألف 1206، لجهة الشمال من معسكر. تبعد عنها بمرحله.

قال القبطان "دي مونرون" في تاريخه: وكانت تلك البلدة مبنيّة؛بوسط واد يانع بالأزهار، تندهش منه الأبصار. وكان لا يظنّ أنه يوجد في أقصى إفريقية أبنية محكمة البناء كأبنيتها.

وفي هذه الأيام، خرج جيش من مدينة الجزائر، قاصداً قبيلة "بني مناد" في نواحي "شرشال"، فأوقع بهم. ولما رأت قبائل تلك الجهة ما حلّ بجيرانهم، لاذوا بالطاعة.

قال مؤرخهم "روا" : ولما توجه المارشال بيجو إلى نواحي "شلف"، ضرب خيامه على أطراف الجبال، ملجأ القبائل التي كانت لم تزل تعكّر كأس راحته وتناوشه الحرب. وبأداء طاعتهم له، حصل الأمن في سهول "متيجة" إلى مدينة الجزائر، نوعاً ما. وصارت المواصلة بين المدية ومليانة وشرشال قليلة الخطر في بعض الأوقات. (انتهى).

وأما الأمير، فإنه سار بجنوده إلى الجهات الصحراوية، وسائر القبائل التي كانت قدّمت طاعتها للعدوّ لاذت بطاعة الأمير واعتذرت بالعجز وارتكاب أخف الضررين؛ فعفا عنهم. وانتظموا في سلك جنوده. وضرب معسكره في معبر الأطلس، وهو من المعاقل القديمة ومنه كان يغزو على العدوّ ومن دان بطاعته من العرب والبربر؛ ويتابع شنّ الغارات عليهم، ويذيقهم النكال ويجلب إليهم الويل والوبال ويبث

السرايا والبعوث إلى الجهات؛ فانحازت المتنصرّة إلى ضواحي المدن وخلت البلاد من أهلها وانحصرت العمارة في الصحراء للمسلمين، والسواحل وما قاربها للعدوّ.

قال "بالمار": إن الأمير رأى أنّ من الواجب عليه ديانةً أن يؤدب القبائل التي خرجت عن طاعته وانضمت تحت راية عدوّه، وقصد بذلك قطع علائق الفساد وحفظ الشعائر الدينية والمحاماة عن الوطن... فصار يتابع الغزو والغارات عليهم، ولكنّ ذلك لم يجد الأمير نفعاً لأن الناس توجهت قلوبهم لطاعة عدوّه، طلباً للراحة من مشقّات الانتقال من موضع إلى آخر. وغزا بني عامر والغسل وتلك النواحي؛ فصدّوه. وأظهروا عداوته، والمارشال بيجو، وإن كانت انتصاراته متتابعة، فانّه لم يثق بذلك لما هو معلوم من أحوال العرب والبربر قديماً. وعلاوة على ذلك، فإنّ فرسان الحشم، الشراقة والغرابة، المشهورين بالشجاعة، واقتحام الشدائد، لم يميلوا إلى طاعته بل لم يفارقوا سيّدهم وأميرهم الذي بايعوه على الموت وارتحلوا بأهليهم وأولادهم معه وخيّموا حيث خيم بأهله وأولاده وجنوده بمعبر الأطلس. ولذا، ترى أن المارشال، كان دائماً يخشى الوقوع في محذورات لا خلاص له منها. و لم تهدأ أفكاره من اضطرابها ولا سيّما أنه رأى القبائل، بعد أن بذلت طاعتها إليه، راجعت طاعة سيّدها لّما رأته وهرعت إلى أعتابه.. تطلب العفو، وتعتذر -بعجزها - عن دفاع العدوّ الكثير الجنود، فهذا الفعل وأمثاله أدّى المارشال إلى الحكم بأن جميع ما يراه من العرب من إظهار الطاعة

والقتال معه، إنما هو من قبيل الأمور الخيالية التي لا أساس لثبوتها. فعقد -في معسكر-مجلساً حربياً وقال لهم:

-إن الأمير-كما ترون-قد نزل بجيوشه في جبال "وانشريس" قرب التلّ، وسائر بلاد "شلف" ونهر "مينة" الجنوبيَّة رجعت إلى قبضة يده، وجميع من يحاذيها من قبائل العرب والبربر لن تخرج عن طاعته. فالأولى أننا نجمع جيوشنا ونخرج بها دفعة واحدة من الجزائر ومستغانم ووهران، كل إلى ما يليه، إلى الداخلية.

– فأجابه أهل المجلس: إنّ فصل الشتاء قد أقبل، فلا نتمكن من مطلوبنا.

– فقال : إذاً يلزمكم أن ترتبّوا الفرق الآن. وبعد مضي الشتاء، نجري ما يقع عليه اتفاقكم.

فأجابوه إلى ذلك وقرّ قرارهم على أن سائر الجنود تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم يكون تحت نظر المارشال بيجو. ويكون مركزه في نواحي شلف.

والثاني تحت قيادة الجنرال شانكرني. ويكون مركزه البليدة.

والثالث تحت قيادة الجنرال "لامورسيير" ويكون مركزه معسكر. وفي أواخر الشتاء خرج كلّ قسم إلى موقفه المعيّن له. وأخذ كلّ من القواد الثلاثة يشنُّ الغارات المتتابعة على ما يليه من القبائل. فما نجح واحد منهم في عمله! لأنّ سائر الشعوب والقبائل تركوا أوطانهم وارتحلوا إلى الصحراء، كلٌّ إلى ما يليه منها. فاتبعتهم الجيوش الفرنساوية؛ فلم تدرك لهم أثراً واستولى التعب والنصب عليهم، والدبر والنقب على دوابّهم، ونفذت

ذخائرهم، ورجعوا إلى مراكزهم من غير طائل. وأما الأمير، فإنّه كان، كلّما توجهت فرقة فرنساوية على جهة، يخالفها إلى جهة أخرى، فيصيب من المتنصرّة ولا تصيب الفرقة من المسلمين شيئاً. وتوغّل الجنرال لامورسيير في الجنوب وشنّ الغارات على البسائط والجبال في نواحيها. فخالفه الأمير إلى جهة "معسكر"، فاكتسح ما في قرية "البرج" من الأمتعة والأموال واستاق ماشيتها ثم أضرمها ناراً وسار -على وجهه- إلى الجهة الشرقية فمرّ بجيوشه -ليلاً- على معسكر بيجو في شلف وشنَّ الغارة على قبائل تلك النواحي، فغنم وأثخن في القتل والأسر والسبي. وتوجّه إلى الجنوب؛ فتعجب الفرنساويون من أمره وسرعة سيره وبلوغه — ما قصده — من الخوارج في أيام قلائل متوالية.

وفي أثناء هذه الحوادث، حدث بين دولتي فرانسا والإنكليز نزاع في قضية تتعلق بمدينة "إرثاهية"، إحدى مدن الأوقيانوس. فحسبها الأمير فرصة يجب اغتنامها. فأرسل إلى دولة الإنكليز، معتمداً من طرفه ليفاوضها في أمره ويلتمس منها أن تشغل عنه وجه الفرنسيس حتى يتمكّن من مدافعتهم عن الوطن. فأحسّ الفرنسيس بذلك وتلافوا أمرهم مع الإنكليز ثم إن الأمير كتب إلى الدولة العثمانية يستنجدها ويخبرها بما وصل إليه حال الوطن الذي هو جزء من ممالكها؛ فلم ترد له جواباً. وكتب إلى صاحب مراكش يستدعيه للمشاركة في دفاع العدوّ لاتصال المغربين، الأقصى والأوسط وقال: إن أصبحت بلاد المغرب الأوسط في يد دولة فرنسا، فكيف تأمن على بلادك؟ وما الذي يمنعها منها؟ فتغافل عن الجواب.

وانتهت أيام سنة ثمان وخمسين ومائتين 1258، واثنين وأربعين وثمانمائة 1842 على ما ذكرناه من الوقائع المتتابعة.

ثم إن الأمير، لما رأى أنّ العدوّ قد استولى على المدن والقلاع، ظهر له أن يتّخذ عاصمةً كبيرة رحالة، مؤلفة من خيام كثيرة، ومضارب أثيرة. فباشر في ترتيبها. وفي أقرب مدّة ظهرت للوجود على أحسن الأساليب، وأجمل التراتيب، وسمّى ما يخصه منها "الزمالة" وما يخص الأعيان والعامة "بالدائرة" وما يخصّ الجند "بالمحلة". واتخذ فيها جملة مضارب لمعامل السلاح وأخرى لوضع المهمات الحربية ومثلها للذخائر، وأعدّ فسطاطا واسعاً لاجتماع المجلس العام، وآخر اتخذه مسجداً. ورتّب مضارب للباعة وأهل السوق، تضرب بعيدة عن الزمالة والدوائر وما يتعلّق بهما. فكانت تجبى إليها الذخائر وسائر ما يلزم الإنسان وتقصد بالتجارة في صنوف البضائع وما تدعو الضرورة إليه من الحرف والصنائع. وبالجملة، فقد كانت الزمالة والدائرة ومتعلقاتهما على أتمّ ما يكون من الانتظام والالتئام المدني. وكان لها منظرٌ جميلٌ، ترى منازلها من بعيد كأنها مدينة حافلة، ذات قصور مشيدّة وأبنية جليلة. وكانت تعدّ مركزاً حربياً ومقراً مدنياً، تشتمل على مائتي ألف نفس. وكان الأمير يبثّ من هذه المدينة الرحالة غوازيه وبعوثه، وفيها يستعدّ للحرب. وكانت الجيوش الفرنساوية تتقيها وتحذر منها. ولم تزل تزداد كميّة واتساقاً وارتباطاً حتى صارت ملجأ عظيماً وحصناً أمينا، وقد عيّن لحراستها وحماية حوزاتها أربع قبائل من العرب وفرقة كثيرة العدد من العسكر النظامي. فمن اطّلع على هذه المدينة الرّحالة

وترتيبها، عرف ما كان عليه الأمير من الآراء المصيبة والتدابير العجيبة التي انفرد بها في وقته ولم يسمع فيما مضى بملك اتخذ عاصمةً ملأت النجود والأغوار، تتردّد بين الحلول والارتحال والإقامة والانتقال.

وحيث أن الفاعل المختار في فعله قضى بأن مصير كلّ شيء إلى الزوال وأنه لا وسيلة لبقائه ولا احتيال، فلا عتاب ولا ملامة ولا تحسّر ولا ندامة. إن الأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده.

ذكر ما كتبه الأمير جواباً عن سؤال قدّمه إليه عضّة الأعيان من خواصه

الحمد لله، حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده. وصلى الله على سيّدنا محمد، وآله ومن تبعه، وجرى على منواله.

اللهم إني أعوذ بك من معضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن ونضرع إليك يا مقلّب القلوب أن تثبّت قلوبنا على ديننا المحبوب.

أما بعد، يا أخي فإني رأيتك متعطشاً إلى سماع ما لائمتنا من الكلام في هؤلاء الذين ركنوا للعدوّ . فأحببت أن أذكر لك ما روي عنهم في ذلك. ولولا أني رأيت شدّة تعطشك وأوامك ما ذكرت لك شيئا. ممّا هنالك إذ ربّما تفني في نصيحة أولئك الجهلة باقي أيامك من غير طائل ويكون تعبك في علاجهم كتعب من رام إصلاح الفاسد أو حياة الهالك. وهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر؟

وأعلم أن الراكن إلى الكفّار، الداخل تحت ذمّة أهل البوار، أحد رجلين، إمّا رجل كذب الله في ضمانه لرزقه -نعوذ بالله من كفره وحمقه- وقال إن هاجرت مت جوعاً، وازداد -بذلك- هلوعاً، واعتقد أن وطنه هو رازقه، لا أن الذي يرزقه هو موجده وخالقه. ولما خطر هذا في قلوب جماعة من المؤمنين، في زمانه (ﷺ) بعد أن نزل قوله تعالى، آمراً بالهجرة : **﴿يا عبادي الذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإيّاي فاعبدون﴾**[1] أنزل الله قوله **﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم﴾**[2] قال المفسرون: في هذه الآية تحريض على الهجرة لأن بعض المؤمنين فكّر في الجوع والفقر اللذين يلحقانه في الهجرة. وقال: غربة في دار، لا مال فيه ولا عقار ولا من يطعم الجار. فضرب الله لهم المثل بحال الدوابّ التي لا تسعى في تحصيل قوت ولا تدّخرة... وإمّا رجل، متكالب على الدنيا، أصمّهُ وأعماه حبّها، يريد الظفر بها سواء كان ذلك بالإسلام أو بالكفر. وكلا هذين الرجلين لا يرجى صلاحهما. ولا يؤمل نجاحهما. **﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾**[3] **﴿إن هي إلاّ فتنتك تضلّ بها من تشاءُ وتهدي من تشاءُ﴾**[4]

1. سورة العنكبوت، الآية 56
2. سورة العنكبوت، الآية 60
3. سورة المائدة، الآية 41
4. سورة الأعراف، الآية 155

﴿فإن الله لا يهدي من يضلّ﴾[1] وهذه الفتن، جرت بها سنة الله التي قد خلت في عباده، وحكمته الجارية في أرضه وبلاده ليتبيّن الصادق من المدّعي ومن تحلّى بحلية ليست له فضحته شواهد الامتحان. **﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾**[2] **﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾**[3] يعني إن الله -تعالى- يختبر عباده ويمتحنهم حتى يتبيَّن للناس، الذي لم يتخذ وليا ولا نصيراً من دون الله ورسوله والمؤمنين من الذي يتّخذ، نعوذ بالله من المهالك. **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولّما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾**[4] ولعلّ هذا هو الزمان الذي أخبر به الرسول (ﷺ) بقوله: "تأتي في آخر الزمان فتنٌ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً إلاّ من أجاره الله بالعلم". وفي رواية: "بعلمه" ولقد ظهر في أهل هذا الزمان مصداق قوله (ﷺ) لتتبعُنَّ سنن مَن قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه. قالوا: اليهود والنصارى؟

يا رسول الله. قال: فمن؟ رواه البخاري في صحيحه. لأن أهل هذا الوقت كانوا يطلبون الجهاد ويتمنّون مجيء النصارى. فلمّا ظهر

1. سورة النحل، الآية 37
2.سورة العنكبوت، الآية 2 - 3
3.سورة التوبة، الآية 16
4. سورة آل عمران، الآية 142

الجهاد، نكصوا على أعقابهم. فهم في هذا كبني إسرائيل، إذ قالوا لنبيٍّ لهم: ابعث لنا ملكاً، نقاتل في سبيل الله. قال : ﴿**هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلا منهم والله عليم بالظالمين**﴾[1]،﴿**فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية قالوا ربّنا لَمَ كتبتَ علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب**﴾[2] ثم بعد هذا، أرادوا من سلطانهم، أن يجاهد وحده ويتكفّل بردع العدوّ ويعرّفه حدّه. فهم في هذا كبني إسرائيل أيضاً إذ قالوا لموسى -عليه السلام-﴿ **فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون**﴾[3] ثم بعد هذا، صاروا ردءاً للكفّار ومعينين لهم بالأنفس والأموال على مَن بقي مستمسكا بعروة الإسلام. وأعظم هؤلاء ذنباً، وأشدّهم هلاكاً، وأبعدهم نجاةً، وأكثرهم في الأمر سقوطاً، رجلان:

أحدهما رجل عرف الحق وعاند. وهو أوَّل مَن تسعَّر به النار، إذ هو عالم لم ينفعه الله بعلمه وجحد الحقَّ مع معرفته به أنه حقّ، وهذا أصل من أصول الكفر الستة. ومنه، كفر الموجودين في زمانه (ﷺ) المشاهدين لمعجزاته. قال -تعالى- فيهم: ﴿ **إنهم لا يكذبونك ولكن**

1. سورة البقرة، الآية 246
2. سورة النساء، الآية 77
3. سورة المائدة، الآية 24.

الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[1]. وهذا أعظم الضلال والداء العضال، أضّله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً. فبعد الختم، لا ترجى زيادة ولا نقصان في الشيء المختوم عليه.

والآخر رجل قرأ بعض أبواب الفقه، فعلم بعض أحكام الصلاة والنكاح والبيوع؛ فظنَّ أنه وصل إلى غاية استحق أن يسمى بها عالماً. فصار يقول في دين الله ما ليس له به علم ويفتري على الله الكذب، ومَن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟ أو كذب بآياته؟ إنه لا يفلح الظالمون. ويستدلّ : بآيات، وأحاديث وكلام الأئمة.. وهو -مع هذا- لا يحسن النطق والتلّفظ بمبانيها فكيف له الغوص على معانيها فالحمار أحسن حالاً من هذا إذ جهل الحمار بسيط وجهل هذا مركّب.

قال حمـــارُ الحكيم يوما　　لو أنصف الدهر كنت أركـب
لأن جهلي جهلٌ بسيـطٌ　　وصـــاحبـي جـــهله مركـــب

والجهل المركّب أصل من أصول الكفر الستة. فجميع هذا الصنف -مع قبح ماهم عليه من الدخول تحت ذمّة الكافر- استحّلوا ما حرّم الله من ذلك. والمستحلّ لما حرم الله كافر، وخرقوا الإجماع وهو منعقد على وجوب الهجرة، ومخالف الإجماع كافرٌ.. وجعلوا ما ورد في القرآن والسنّة من ذكر الهجرة ومدحها والأمر بها عبثاً ومنسوخاً، وذلك باب لميلهم، وأقوالهم الكاذبة. كيف؟ والقرآن مملوءٌ بذكر الهجرة ومدحها وذمّ تاركها. وقد قال -عليه الصلاة والسلام- : "لا تنقطع الهجرة

---

1 . سورة الأنعام، الآية 33

حتى يغلق باب التوبة. ولا يغلق باب التوبة؛ حتى تطلع الشمس من مغربها." وقال -عليه الصلاة والسلام-"أنا بريءٌ من كلّ مسلم مقيم بين أظهر الكافرين". رواه أصحاب الصحيح ما عدا البخاري، وقال آخر -وهو ممّن بلغ رتبة الاجتهاد، الحافظ السيوطي، في: "حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة" لّما ساق هذا الحديث:"ما تبرّأ منهم- (ﷺ) إلاّ لكفرهم"، وفي الصحيح: "مَن جامعهم أو ساكنهم فهو منهم. قالوا لَم يا رسول الله؟ قال ألا تترايا نارهما؟ وقال مالك -رضي الله عنه- : تجب الهجرة من أرض الظلم والعدوان. فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن؟ وتعبد -من دونه- الأوثان؟ وقال تعالى : **﴿قالوا فيمَ كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾**[1] قال أبو السعود: في الآية دليل على أنه لا عذر في ترك الهجرة إلاّ عدم اتساع الأرض وقد وسّعها الله. ولو كان هناك عذرٌ يقبل في ترك الهجرة، ما كان في الآية تبكيتٌ لتاركيها.. إذ ربّما يعتذرون بعذر آخر فلمّا ذكر الله اتساع الأرض، دلّ على أنه لا عذر غيره. وقال الوانشريسي في كتابه. "المعيار": الواجب الفرار من دار غلب عليه الشرك والخسران إلى دار الأمن والإيمان. ولذلك، قوبلوا بالجواب عند الاعتذار: ألم تكن أرض الله واسعة؟ فلا عذر للمستطيع بوجه، وإن كان بمشقة في العمل أو الحيلة أو اكتساب الرزق في ضيق المعيشة إلاّ المستضعف رأساً الذي لا يجد حيلةً ولا يهتدي سبيلاً وعجز المسلم عن حمل أهل بيته وولده لا يبيح

[1] سورة النساء، الآية 97

له التخلّف عن الهجرة بل يهاجر بنفسه وقد هاجر (ﷺ) لما تعذّر عليه إخراج أهله معه. وما لحقوا به إلاّ بعد حين، وكذا إن خاف إن هاجر يُسلب ماله. فإن مفارقة الوطن أو سلب المال ليس بعذر في ترك الهجرة. نصَّ على ذلك صاحب المعيار. وقد ذكر أهل الأحوال أنّ الضرورات التي تجب المحافظة عليها خمسة: الدين، والنفس والعقل، والنسب، والمال. فكلٌّ واحد من هؤلاء يجب حفظه ما لم يعارضه حفظ ما قبله. فالمال هو آخر المراتب والدين أولها. فهو مقدّم على غيره. وكذا تجب الهجرة على المرأة إذا لم يهاجر زوجها. وقد هاجر كثيرٌ من المسلمات إلى الحبشة، قبل هجرته (ﷺ) وفيهن أنزل الله تعالى قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن**﴾[1]. ولم يعذر الله تعالى في المقام، تحت ذمّة الكافر، إلا الذي لا يستطيع حيلةً ولا يهتدي سبيلاً كالأعمى الذي لا يجد قائداً والزمن الذي لا يجد حاملاً. مع نيّتهما أنهما متى وجدا ذلك، هاجرا. فإن تركا النيّة وماتا، ماتا على غير سبيل المؤمنين. نصَّ على ذلك غيرُ واحد. والكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، محذّر من مخالطة الكفّار وموالاتهم ومواددتهم. قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة**﴾[2] إلى قوله: ﴿**ومن يفعله**

---

[1] سورة الممتحنة، الآية 10

2 سورة الممتحنة، الآية 01

منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾[1] وقال: **﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوّهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون﴾**[2]. وقال: **﴿بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما﴾**[3] إلى قوله **﴿فإن العزّة لله جميعاً﴾**[4] فعيّن الله تعالى مراده في المنافقين، في الآية بقوله : **﴿الذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾**[5] فالذي يتّخذ الكافر وليّا منافق إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث القاطعة الصريحة الصحيحة التي لا تحتمل تأويلاً. وقد ذكر صاحب المعيار في باب الجهاد أنّ هؤلاء المقيمين تحت ذمّة النصارى لا تصحُّ لهم صلاة ولا صيامٌ ولا حجٌ ولا جهادٌ بوجه من الوجوه. فانظره، فإنه قد طال عهدي به. وممّا ذكره أنّ الزكاة شرطها أن تدفع للإمام، يعني سلطان المسلمين. فاذا دفعها للنصارى ليتقوّوا بها على المسلمين كانت المصيبة أشدّ ومنها أنّ شهر رمضان -في الغالب- لا يثبت إلاّ برؤية عدلين، إبتداءً وانتهاءً والعدالة إنما تثبتُ عند الإمام وقاضيه. وحيث أنه لا إمام ولا قاضي، فيكون رمضان مشكوكَ الأول والآخر، إلى غير ذلك من الوجوه. ولا تجوز شهادة المقيمين تحت ذمّة النصارى إلا من له عذرٌ مقبول شرعاً ولا تنفذ

---

1 سورة الممتحنة، الآية 01

2 سورة الممتحنة، الآية 09

3 سورة النساء، الآية 138

4 سورة النساء، الآية 139

5 سورة النساء، الآية 139

أحكام قضاتهم. قال بعض العلماء هم أشدّ من أهل الأهواء. وقد رُدّت شهادتهم وأحكامهم. قال ابن عرفة: شرط قبول خطاب القاضي صحّة ولاية ممّن تصحُّ ولايته بوجه الشرع، احترازاً من أهل الدجن كقضاة مسلمي بلنسية ومرسية وقوصرة من الأندلس. ومرادهم بالدجن المسلمون الداخلون تحت ذمّة النصارى وأهل الجزائر يسموهم المنافقين. وسئل المازري عن أحكام تأتي من صقلية،من عند قاضيها. فأجاب: القادح في هذا وجهان: الأول من جهة القاضي من حيث العدالة. فلا يباح له المقام في دار الحرب في قيد أهل الكفر.

والثاني من جهة الولاية، إذ القاضي مولّى من قبل أهل الكفر. ومن كان هذا حاله، فلا يعتبر حكمه في الشرع. وقد بلغني عن هؤلاء الرؤساء الجهال الذين أفتوا بغير علم، فضّلوا وأضلوا، المعنيين بقوله (ﷺ) "يأتي على الناس زمان، عالمهم أنتن من جيفة حمار". أنهم يستدلون بقوله (ﷺ) "لا هجرة بعد الفتح" قاله لسائل سأله عن الهجرة من مكة إلى المدينة بعد الفتح، فأجابه، بأنّ الهجرة التي كانت واجبة من مكة إلى المدينة، قد انقطعت بالفتح، ونسخت كما نسخت حرمة رجوع المهاجر إلى وطنه، إذ عاد دار إسلام وأمّا وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، فهو باق إلى طلوع الشمس من مغربها، قال ابن العربي: الهجرة أقسام. منها الهجرة من الخوف على الدين والنفس كهجرة النبي (ﷺ) وهجرة أصحابه المكّيين. فإنها كانت عليهم فريضة ولا يجزئ إيمان بدونها. ومنها الهجرة إلى النبي (ﷺ) في داره التي استقرّ فيها، فقد بايع (ﷺ) من قصده على الهجرة كما بايع آخرين على الإسلام

وهاتان الهجرتان انقطعتا بفتح مكّة. وأمّا الهجرة من أرض الكفر، فهي باقية إلى يوم القيامة. وكذا الهجرة من أرض الباطل والحرام، والهجرة من أرض الفتنة. وروى أشهب عن مالك: لا يقيم أحدٌ في موضع يعمل فيه بغير الحقّ. وقال البرزالي في بعض أجوبته: الإجماع على وجوب الهجرة إن وجد المسلمُ إليها سبيلاً. وكذا يستدلون بقوله تعالى : إلاّ أن تتقوا منهم تقاةً وهذه الآية منسوخة. روى البخاري في صحيحه، من كتاب التفسير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: لا تقيَّة اليوم لاتساع البلاد الإسلامية، وكذا يستدلون بقوله تعالى: ﴿**إلا مَن أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان**﴾[1]. والآية إنما وردت فيمن يظفر به الكافر من غير اختيار كالأسير فاذا حملوه على معصية أو نطق بكفر، يسوغ له ذلك، لخوف القتل.. والصبر أجمل. أما كونه متمكناً من الفرار ويبقى تحت حكمهم، فلم يقل به مسلمٌ. وكذا يستدلون بما ذكره البيضاوي في تفسير قوله تعالى ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾[2] عليم. فانه قال: في الآية دليلٌ على جواز التولية على يد الكافر. ولا حجّة لهم في هذا فإنّ البيضاوي قال بعد هذا، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحقّ وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به، وهذا الشرط معدوم اليوم. وقد قال غير واحد: إن الملك كان أسلم قبل ذلك على أنه إنما يكون ما ذكره البيضاوي على تقدير صحّته فيمن كان تحت أسرهم، فإنه يجوز له أن يطلب منهم ذلك في التولية، إذ بعض الشرّ أهون من بعض. ويوسف

---

1 سورة النحل، الآية 106.

2 سورة يوسف، الآية 55.

-عليه السلام- جدّه الخليل -عليه السلام- وهو أوّل مَن سنَّ الهجرة، قال الله تعالى حاكياً عنه، وقال : إني مهاجر إلى ربي. ومعه سارا. فدخل قريةً فيها جبَّار من الجبابرة... (الحديث بطوله) وكذلك يستدلون بما نقل عن النووي والرافعي أن المسلم إذا كانت له عشيرة تحميه، أو له جاهٌ، لا تجب عليه الهجرة. ولكن تستحبُّ في حقّه. نقل ذلك ابن النحاس "في مشارع الأشواق إلى مصارع العشّاق". وهذا أيضاً لا دليل فيه لأن كلام النووي والرافعي فيمن كان كافراً في دار الحرب ثم أسلم. وكان لا يخاف الفتنة في دينه، لحماية عشيرته، وتوفرُّ عصابته، أو جاهه، بحيث لو أراد الكفّار ذلك لا يقدرون. فيأمن لذلك من الفتنة. وقد وقع من هذا النمط كثير في الصدر الأول، كما ذكر ذلك أهل السير والأخباريون. أمّا مَن كان مسلماً في دار الإسلام ودخل عليه الكفّار بالقهر والغلبة، فلا يتصوَّر أن تكون له عشيرة تحميه أو جاه يأمن بهما من الفتنة في دينه، مهما أرادهما الكفّار منه. وهل يوجد واحد من هذه الشعوب والقبائل الداخلة تحت ذمّة الكفّار مَن له عشيرة تحميه من الكفّار إذا أرادوا إجراء حكم من الأحكام عليه ؟ أو يأمن الفتنة بواحد من هذين الوجهين اللذين ذكرهما الرافعي والنووي؟ اللهم إلاّ أن يكون أحمق ضعيف العقل والإيمان، فيأمنهم ويثق بعهودهم ومواثيقهم. وإنّ الشارع الحكيم لا يقبل شهادتهم وأقوالهم، بالإضافة إلينا. وكأن هذا الأحمق لم يصل إليه خبر الأندلس خصوصاً أهل قرطبة. فإنهم تعاقدوا مع الكافر -لّما غلبهم- على نيف وستين شرطاً اشترطوها عليه. فلم يحل الحول عليها حتى نقضوها عروةً عروةً، وآخر الأمر صار الكافر يأتي إلى المسلم فيقول له إن جدّك أو جدّ

أبيك وأباك أو جدّك كان كافراً. فارجع إلى الكفر الذي كان عليه جدّك واترك دين الإسلام إلى غير ذلك ... فالنصارى لا يوفون بعهد إلاّ إذا كانت كلمة الإسلام هي العليا وشوكته قائمة. كيف؟ والله تعالى يقول : ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾[1] وقال: كيف؟ وإن يظهروا عليكم؛ لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة. (والإلُّ : القرابة) وأولئك هم المعتدون أي المتجاوزون أي لا يقفون عند شرط ولا عهد. ومن شنيع حمق هؤلاء وضعف عقولهم ومرض إيمانهم؛ أنهم يسمُّون طاعتهم للكافر مهادنة؛ وهل يسوغ لمن له أدنى عقل وتمييز أن يتلفظ بهذا؟ وأحكام الكافر وشرائعه وتصرّفاته جارية على شريفهم ووضعيهم، ويؤدّون إليه المغارم ويحملون أثقاله إذا أراد الغزو على المسلمين ويقاتلونهم معه في جملة عساكره وجيوشه. هذا -والله- الهذيان الذي لا يُعقل، على أن المهادنة خاصّة بالإمام ونائبه. فلا يعقدها سواهما. قال خليل: وللإمام المهادنة، يعني: لا لغيره فقدَّم الخبر مع جرّه باللام وكلاهما يفيد الحصر والاختصاص. واعلم أن هذه المصيبة التي هي ظهور الكفّار على المسلمين حتى دخلوا تحت ذمّتهم، لم تكن في القرن الأوّل ولا في الثاني ولا في الثالث ولا في الرابع، وإنما حدثت في الخامس وبعده. ولذا لم يوجد فيها قولٌ ولا نصٌّ لواحد من الأئمة (رضي الله عنهم). ولمّا حدثت ووقع السؤال عنها، قاسها ساداتنا أهل النظر والاجتهاد المذهبي على مسألة: مَن أسلم ولم يهاجر. قال ابن رشد: وهو قياس صحيحٌ. وقد اختلف الأئمة فيمن أسلم، ولم يهاجر، وأقام تحت ذمة

---

1 سورة البقرة، الآية 217

الكفار من غير أن تحصل منه إعانة لهم: لا بالنفس ولا بالمال. أما إن أعانهم بماله طوعاً أو كرهاً بأن أخذوه منه مغرماً أو بايعهم أو شاراهم ولو في أقلّ شيء، فقال القاضي ابن الحاج التجيني الأندلسي: من القواعد أن الإعانة بالمال تبيح المال والإعانة بالنفس تبيح النفس. وقال الإمام المغيلي في كتاب له سمّاه "مصابيح الفلاح": إن هؤلاء المؤمنين (يعني: الذين طلبوا الأمان من الكفار وأمّنوهم وأقاموا تحت ذمتهم ودانوا بطاعتهم) تؤخذ أموالهم ولو كانوا يقرؤون القرآن. وقال ابن القاسم: والصحيح في مال المسلم المقيم في دار الحرب أنه مباح وأنّه لا يدَ لصاحبه، وإنما اليد للكافر. وقد حرّره في هذه المسألة الإمام ابن عباد، شارح الحكم في جواب له ونصّه: حالُ المتنصرّة على حسب فرقهم. فإنّ منهم من يلجأ لحصون العدوّ ليدافع بها عن نفسه. ومنهم من يكون معيناً له بنفسه وماله (بمعنى أنهم يقاتلون مع العدوّ ويدافعون عنه ويغيرون على المسلمين) فهؤلاء أشدُّ ضرراً على المسلمين. وحكمهم حكم أهل دار الحرب: في قتلهم وسلب مالهم... وأما أولادهم فلا يقتلون ولا يكونون فيئاً وإنما أُبيح قتل البالغين لكونهم ردءاً للعدوّ الحربيّ، معينين لهم بأنفسهم. وحكم الردء إذا لم يقاتل مع العدوّ حكم المقاتل. فأحرى إذا قاتل. قال بعض المحققين، من علماء تونس، في جواب عن أهل حصن كانوا ردءاً للكافرين المحاربين، ما نصّه: وقول هرقل لو كنت أرجو أن أخلص إليه لتجشمّت لقيه، يعني دون خلع من ملكه. وهذا التجشم هو الهجرة. وكانت فرضاً على كلّ مسلم قبل فتح مكة. فإن قيل: إن النجاشي لم يهاجر قبل فتح مكة وهو مؤمن، فكيف سقط عنه فرض الهجرة؟ قلنا إنه هو في مملكة أغنى عن الله ورسوله وعن جماعة

المسلمين منه لو هاجر بنفسه فرداً لأن أوّل غنائه أنه حبس الحبشة كلهم عن مقاتلة النبي (ﷺ) مع طوائف الكفّار. وهذا، مع أنه كان ملجأ لمن أوذي من أصحاب رسول الله (ﷺ) ورداً لجماعة المسلمين، وحكم الردء في جميع الأحوال حكم من كان رداءً له. وكذلك ردءُ اللصوص والمحاربين عند مالك والكوفيين، يقتل بقتلهم. ويجب عليه ما يجب عليهم وإن كانوا لم يحضروا الفعل. ومثله في المساواة: تخلُّف عثمان وطلحة وسعد بن زيد -رضي الله عنهم- عن بدر. وضرب لهم النبي (ﷺ) بسهامهم من غنيمة بدر. قالوا: وأجرنا يا رسول الله؟ قال : وأجركم (انتهى)

فانظر قوله: وحكم الردء... إلى آخر كلامه؛ ففيه الكفاية في تبيّن ما يجب العمل به. ومنه تعلم أن مَن يدخل تحت جوارهم وأمانهم من غير إعانة لهم بنفسه ولا بماله، وأنه لم يكن لهم عيناً ولا ردءاً دونهم، لا يباح قتله وإنما هو عاص، لا يباح ما عصمه الإسلام من دمه وماله، وإنما يباح سلبُ مال من يكون معيناً للعدوّ به على قتال المسلمين ومقاومتهم ومناهضتهم. وقد أفتى العلماء بإباحة أخذ مال قوم كانوا بقرب حصن العدوّ، وهم قادرون على منازلته بذلك المال و لم يفعلوا، فجوّزوا للقيام بالحقّ المتعيّن أن يأخذ الإمام القدر الزائد على كفايتهم ويصرفه في منازلة ذلك الحصن، لا سيّما إذا علم: أنهم ينفعونه ويعينونه به،مثل هؤلاء الذين نتكلم في أمرهم. وإنما لم يبح قتل أولادهم ولا سبيُ نسائهم فلعدم تعلّق الإثم بهم لصغر الأولاد وضعف النساء وأصالة إسلامهم بخلاف الحربيّ، إذا أسلم وأقام بدار الحرب حتى أخذ، فولده وماله فيءٌ

مطلقاً -ولا يقاس المسلم- بالأصالة عليه، خلافاً لابن الحجاج. هذا هو التحقيق في هذه المسألة. ومنهم من لجأ للمسلمين وصار يقاتل العدوّ وهو مع ذلك يعين العدوّ خفيةً ويعلمه بأحوال المسلمين ويطلعه على عوراتهم، وكذلك إن أطلعهم على كتب يكتبونها؛ فإن حكم هؤلاء حكم الزنادقة. إن اطلع عليهم قتلوا وإلاّ فأمرهم إلى الله (انتهى كلام ابن عبّاد) وقال القاضي ابن الحاج: الأرجح سبي ذراري هؤلاء ليعيشوا في دار الإسلام، آمنين من الفتنة في الدين: يعني: لا لِيُملكوا. وأما الذين يستجيشون بالكفّار ويطلبون منهم الغزو على المسلمين، فهم مرتدّون. قال البرزالي، في نوازله: احفظ أن أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، استفتى علماء العدوة، في المعتمد ابن عباد. فاتفقت فتياهم على أن مجرّد الاستجاشة على المسلمين بالكفار ردَّة. مقصودهم بذلك: ولو لم يحصل المطلوب والمعتمد بن عباد هذا، كان من ملوك الأندلس واستجاش بالطاغية على يوسف المذكور، ونصر الله المسلمين، فظفر به يوسف.. وقال بعض شرّاح (رسالة ابن أبي زيد القيرواني): الفرار من دار الإسلام إلى دار الحرب ردّة. وقال الحطّاب، في باب الردّة: إدخال السرور على الكفار ردّة. ولا يخفى على كل مميّز ما يدخل على الكافر من السرور عند دخول مَن يدخل تحت ذمته. قال الأجهري في حاشيته على المختصر: جعل البرنيطة على الرأس ردّة. وهؤلاء المتعضدّون بالنصارى الداخلون تحت ذمتهم يحبّون نصرة الكفّار على المسلمين الذين يغيرون عليهم، ويفرحون بذلك -كلّهم- رجالاً ونساءً وهذه ردّة. نسأل الله السلامة. والمرأة إذا ارتدّت، قال كثير من الفقهاء: تقتل كالرجل. وقال أشهب: تسترقّ ولا تقتل.

نقله التلمساني في حاشيته على الشفا لعيّاض. قال القاضي أبو بكر بن العربي: ومنشأ الخلاف في ذلك أنّ قتل الكافر، هل هو لكفره أو لحرابته؟ فأمّا من قال لكفره، قال تقتل المرأة. وأمّا من قال لحرابته، قال لا تقتل لأنها لا تحارب. وإذا تاب أحدٌ ممّن ارتدّ -والعياذ بالله- فالمشهور أنّ ماله يردّ عليه ونقل ابن عرفة في مختصره عن ابن شعبان أنه لا يردّ عليه بل يبقى فيئا، كما كان في حال ارتداده، كما أفتى به بعض العلماء. ففي سبي نسائهم وذراريهم خلاف. فالذي ذهب إليه من الفقهاء أنه لا سبي في نسائهم وذراريهم، والذي ذهب إليه خليل، حيث قال: وإن ارتدّ جماعة وحاربوا؛ فكالزنديق. يعني: يقتل ولا تسبى إمرأته ولا ولده. وقال ابن وهب من المالكية وجمهور الشافعية: المرتد يسبي كالكافر الأصلي. وهو حكم أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في أهل الردّة. فإنه حكم بسبيهم وأعطى علياً بن أبي طالب -رضي الله عنه- أمّ محمد بن الحنفية، وكانت سبيت يوم حرب أهلها بني حنيفة، وقتل مسيلمة الكذّاب. ووطأها عليٌّ -رضي الله عنه- بملك اليمين. قال ابن حجر في شرح الأربعين: قول ابن بطّال: الإجماع على أن المرتدّ لا يسبى منقوض بما ذهب إليه ابن وهب من المالكية وبما ذهب إليه جمهور الشافعيّة. وخالف عمرُ بن الخطاب أبا بكر -رضي الله عنه- فإنه أطلق سراح المرتّدين بعد موت أبي بكر -رضي الله عنه- وقد كانوا في أسره. وقال بعض العلماء كما نقله الشيخ سالم: لا خلافَ بين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- في سبي المرتدّين إذ الإمام مخيرٌّ بين الاسترقاق والمنّ. فأبو بكر -رضي الله عنه- اختار استرقاقهم، وعمر -رضي الله عنه- مَنَّ عليهم، ولا تناقض في ذلك. وإذا قتل الغزاةُ نساءَ هؤلاء المتنصّرة

الذين تحت ذمّة النصارى، وصبيانهم، فلا حرج على قاتلهم ولا إثم. وقد عقد البخاري لذلك باباً في صحيحه. قال: باب أهل دار الحرب يسبون وفيهم النساء والصبيان. ثم ساق الحديث على أنه: (ﷺ) سئل عن ذلك؛ فقال: هم منهم. وذكر في آخر الباب: لا حمى إلاّ لله ولرسوله. (انتهى)

المقصود، بحمد الله وحسن عونه من جواب سؤال المحبّين، قطعاً لشبه المرتدين، ونحن في الثغر مرابطون ولا كتب عندنا. ولا مواد في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف 1258، من هجرة حائز الفخر والشرف (ﷺ).

وعندما تغلّب العدوّ على الجهة الغربية من الوطن، هاجر إخوان الأمير إلى المغرب الأقصى وبقي الأمير بأهله وجيوشه في الجهة الشرقية لمدافعة العدوّ. ولما طالت المدّة، كتب الأمير إلى إخوانه يتشوّق إليهم وذكرهم بأسمائهم، فقال:

يا سوادَ العين يا روحَ الجسد	يا ربيعَ القلب يا نعمَ السند
كنتَ لي قرّةَ عين وبها	راح قلبي لا بمال وولد
فرمى الدهر بعيني أسهماً	مذ نأيتم لا أرى فيها أحد
أيروق الطرفَ شيء بعدكم	لا وربِّ البيت في هزل وجدّ
مُذ ترّحلتم أذبتم مهجتي	ودموعي فائضات من كمد
قد فني صبري ولم يفنَ الجوى	ما أراه فانياً حتى الأبد
وانزوى ما كان رطباً يانعاً	ووهى العظم ولم يبقَ الجلد
مذ تواريتم ؛ توارى فرحي	ما يسرّ القلب في أخذ وردّ
فحياتي -بعدكم- مذ غبتمُ	من مجاز مرسل -عندي- يعدّ
طال ليلي يا أحبّائي ولا	يعلم الحال سوى الفرد الصمد

كم أنادي -حين يبدو صبحه- يا سعيدٌ هل خيالٌ لي يُردّ؟
فتردُّ الروح للجسم ويا مصطفي هل من دواءٍ للكمد؟
شاقني حبٌّ حسين شاقني ما لحكم الله في الخلق مردّ
هل يجود الدهر من بعد النوى باقتراب يحيي ميتاً لم يعد
فإذا -لي- تمَّ ما أمّلته عاد إنساني وروحي للجسد
يا ذوي القربى قريباً من أبٍ أنتم ذخري وكنزي والسند
لي كونوا مثلَ ما كان الألى سلفوا لي أهل سعيٍ لا يردّ
فإذا ما أقبلت فلتبذلوا وإذا ما أدبرت فارضوا بودّ
وعليكم من سلامٍ صَيِّبٍ طيّب يترى إلى غير أمد
يشمل الأحباب أنّى قد ثووا كلُّ حبّ لي هو الصنوُ الأودّ

ذكر دخول الأمير إلى أرض متيجة الغربية وانتصاره على القبائل المتنصّرة هناك

وفي المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف (1258) الموافق سنة اثنين وأربعين وثمانمائة وألف (1842)ن توجّه الأميرُ وخليفتاه: السيد محمد بن علاّل والسيد محمد البركاني، في ثلاثة آلاف من العسكر المنظّم وعدد كثير من المتطوعة واحتلّ بوادي شلف، ثم تجاوز جبال مليانة إلى أرض متيجة وبثّ البعوث في جهاتها وشنّ الغارات على نواحيها وحصلت بين المسلمين والمتنصرّة وقائع عظيمة ثم لاذوا بالطاعة. فتقبلها الأمير منهم وعفا عنهم وردّ إليهم ما غنمه المسلمون منهم. واستولى الخوف والرعب على العدوّ. وطار الخبر إلى الجنرال "شانكرني" في الجزائر

فخرج في جيوشه إلى سهل متيجة الشرقي. ومن هناك توجه الى ثنيّة "الحدّ" و"واد الزيتون" وقوّى حاميتها بالجند والذخيرة. وكان الأميرُ لأوّل دخوله أراضي متيجة الغربيّة أضرم سائر الأبنية الفرنساوية ناراً وقتل من الفرنسيس عدداً كثيراً وسبى نساءهم وذراريهم. فامتعض -لذلك- الفرنساويون وسرى الخوف في قلوب المتنصرّة. فحملهم على التوبة والندم وأظهر الكثير منهم خضوعهم إلى الأمير ونصحوا له واجتهدوا في إصلاح ما كانوا أفسدوه، طلباً لرضاه وعفوه عنهم.

قال رُوا في تاريخه: إنّ الأمير عبر القادر كان لا يملُّ من التعب ولا يكلُّ من الحرب ومشقاتها. وكان يشاهد انتصارات فرانسا ولا يشاهد نفسه مغلوباً لها. وبعظيم حكمته وكمال فطنته استمال قلوب الكثير من القبائل، رغبةً ورهبةً. فانضمّوا إليه وصاروا في جيوشه.

وقال شرشل: لما رأى الفرنساويون ما أجراه الأمير في نواحي شرشال من أرض متيجة، ممّا كان سبباً في رجوع القبائل إلى طاعته وشاهدوا انقياد الناس إليه.وبذل نفوسهم دونه، في أقرب مدّة، بادروا بإرسال بِدَرِ الذهب والفضّة، رشوةً لأكابر القبائل كي يستميلوا -بذلك- قلوبهم ويردّوهم إلى ما كانوا عليه من الانقياد إليهم. وتارة يتهدّدونهم، فلم يجدهم ذلك نفعاً ولم يصغ لهم أحد، بل عكفوا على طاعة أميرهم وحافظوا على أموالهم وأوطانهم. ولم تزل غزوات الأمير متتابعةً، وفرسانه إلى قهر الأعداء متسابقةً؛ إلى أوّل آيّار، ثم رجع بقوّته إلى الجهة الغربية.

ذكر ما أجراه الجنرال بيجو
لمنع دخول الأمير إلى نواحي الجزائر

ولما اتصل بالحاكم بيجو ما أجراه الأمير في بلاد متيجة وتحقّق وقائعه فيها مع المتنصرّة، وما أمعن فيه من قتل الفرنسيس وسبي نسائهم وذراريهم وحرق محلاتهم في تلك الجهات، خرج من الجزائر بجميع الجيوش التي كانت فيها إلى وادي شلف وقسم العساكر ثلاثة أقسام: قسم عقد عليه لابن الملك "الدوك دومال"، والثاني عقد عليه للجنرال "لامورسيير"، والثالث أبقاه تحت نظره. وأمر ابن الملك ولامورسيير بالسير الى الأمير أينا كان، ثم توجّه بمن معه من العسكر إلى بلاد متيجة الغربية وأجرى مع القبائل ما حملهم على رجوعهم إلى طاعته. ولما رأى أن العساكر الموجودة في مليانة والمدية من المدن البريّة وفي شرشال ومستغانم من المدن البحرية غير كافية لحماية قبائل الجنوب من بطش الأمير، أنشأ مدينةً بين نهر مينة ونهر شلف سماها "الدوك دورليان" وكانت قديمة الأصل تسمى "الأصنام"، ثمّ شحنها بالعساكر والذّخائر ووضع حاميةً في مدينة "تاهرت" في حدود "التلّ" وحامية في مرفأ "تنس" بين شرشال ومستغانم. وأمَّا الجنرال لامورسير، فإنه سار بعساكره إلى مدينة "تاكدمت" وجرى بينه وبين الأمير وقائع وحروب تشيب لها الأطفال. وكان الأميرُ -قبل ذلك- في دائرته. فأخبره بعض الجواسيس أنّ لامورسير قد سار قاصداً الدائرة. فركب الأمير لحينه. ولقيه في "تاكدمت". ولامورسير لم يزل

في نواحي "معسكر" حين بلغ الأمير سيره إلى الدائرة. فأقام في نواحي "السرسُّو"، في نواحي ألف وخمسمائة فارس. ليس معهم زاد. فكانوا يقتاتون بالبلّوط ويعلفون خيلهم من أوراق الشجر، والأغرب أنَّ تلك المدَّة من أيام رمضان والناس على صيام، وأغرب منه أنَّ بعض رؤساء العسكر جاءه مستبشراً وقدَّم إليه خروفاً وجده بعض أنفار العسكر ضالا عن أهله. فقال له خذه للعسكر يقتاتون به، وآثرهم على نفسه مع أنهم في الاضطرار سواء. فقد تأسَّى بنبيِّ الله داود – عليه السلام – حين ورد على بيت لحم، وكان ظمآن، فقدموا إليه ماءً، فقال: أليس هذا دم الذين خاطروا بأنفسهم في سبيل الله؟ ولم يشرب منه. وماثل الاسكندر حين قلَّ الماء على جيشه، وأوتي بقليل منه، فامتنع من شربه، وقال كيف أشرب الماء وأصحابي أضرَّ بهم الظمأ؟

ذكر واقعة طاكين

منذ اتخذ الأمير الزمالة ودائرتها عاصمة رحالة، يأوي إليها الرائح والغادي ويؤمُّها الصادر والوارد، أخذ الفرنساويون يدبرون في نكبتها وينظرون في وجه مضرَّتها. ولمَّا ساعدهم الوقت، توجَّه الجنرال لامورسيير بمن معه إلى معسكر ومنها إلى "تاكدمت"، فلقيه الأمير. ووقعت بينهما وقائع تكافؤوا فيها. وتوجَّه الدوك دومال، ابن الملك، بمن معه إلى النواحي الشرقية ونظره إلى الزمالة لأنهم علموا أنَّ قوة الأمير الماليَّة قد جعلها فيها. فصارت مطمح أنظارهم، ومنتجع أفكارهم. فخاضوا لذلك بحر الأهوال واستعملوا الوسائل والوسائط حتى استمالوا

قلوبَ بعض القبائل المتنصرة بالأموال الجسيمة. وكان من جملة مَن تعهَّد لهم بترصُّدها، ودلالتهم على موضعها، المتنصّر عمر العيادي فجعل يتتبَّع مراحل الزمالة، من موضع إلى موضع حتى احتلت في "كوجيلة" من نواحي الجنوب الشرقي من "تاهرت". فطيّر الخبر إلى ابن الملك وكان أقرب ما يكون إليه. فانتهز ابن الملك الفرصة لأنّ الأمير وقتئذ مقابل للجنرال لامورسيير في نواحي السرسُّو. فسار من "بوغار" في ألفين من المشاة وخمسمائة فارس، من جنود فرنسا، وخمسمائة من القبائل المتنصرّة وواصل سيره ليلاً ونهاراً إلى أن احتلّ "بكوجيلة" فوجد الزمالة انتقلت إلى القرب منها بمرحلة ونزلت في الموضع المعروف "بطاكين". وفي نهار السَّادس عشر من ربيع الثاني سنة تسع وخمسين ومائتين وألف 1259، والخامس عشر من مايو (أيَّار) سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة وألف 1843، صبَّحها؛ فاكتسحها واستفّ ما فيها. ولم يكن –وقتئذ– من حاميتها سوى خمسمائة جندي من ضعفاء العسكر، وقد اغترّوا بالمكيدة العظيمة التي أجراها ابن الملك بإشارة عمر العيَّادي وهي إلباس فرسانهم لباس الخيّالة المسلمين. فلمَّا طلعوا على الزمالة من بعيد، ظنَّ الناسُ أنهم طلائعُ الأمير، فاستبشروا وخرجوا إلى لقائهم بالتَّهليل والتكبير. فما قربوا منهم حتى ظهرت جيوش العدوّ بشاراتهم المعروفة. فحينئذ، فطن الناس للمكيدة وحاولوا أن يتداركوا أمرهم؛ ففاتهم ما أملوه ودافعوا ساعة زمانية ثم تكاثرت عليهم جيوش العدوّ وانتشرت على منازل الزمالة ودائراتها يقتلون وينهبون ويفعلون الفعائل الشنيعة التي يفعلها العدو بعدوّه إذا هو غلبه وملك قياده ولم يجد من يدافع عنه. وتفرَّق الناس، شذَر مذَر، في الشعاب

وشعف الجبال. وبالجملة فإنها كانت من أعظم الوقائع التي لا تؤدي العبارة تفصيلها ولا بدرك اللسان تحصيلها.

قال بعض المؤرخين: "ولذلك رسمها بعض مصوري فرانسا. وقد نظرت صورتها في سراي فرساي".

ثمّ إنّ العدوّ استولى على أشياء نفيسة، وأموال جسيمة احتوت على: صنوف وأنواع من الجواهر التي يكلُّ عن وصفها اللسان، وخزائن كلّية وآلات حربية، ومكتبة للأمير قيمتها خمسة آلاف ليرة، وأسلحة مجوهرة، وحليّ مجوهر كان ملك فرنسا أهداه إليه. ولوفور الأموال وكثرتها، اقتسمت عساكر العدوّ الذّهب والفضّة بالبرانيط. وأسر من المسلمين ثلاثة آلاف نفس كان فيهم عمّال الخليفة: السيّد محمد بن علاّل، وكاتبيه السيد محمد الخرّوبي، والسيد قدور بن الرويلة.

هذا ما كان من أمر الزمالة، ودائرتها. وأمّا ما كان من أمر الأمير فإنه ما زال مقيماً في أحراش السرسُّو حتّى أخبره من فرَّ من أهل الزمالة بما جرى عليها. فأثر فيه ذلك الخبر وألحق به التأسف والكدر وفكر في تلك التقلبات الغريبة وصرفَ الناس واعتزل وبالصلاة والدعاء اشتغل. وشاع الأمرُ بين جيوشه. فما منهم إلاّ من تأوَّه وتحسَّر وتمنى أن يكونَ في تلك الواقعة حاضراً ليشفي غليل فؤاده ويطفي أواره. ثمّ إنّ قوَّاد العسكر اجتمعوا إلى الأمير، وهم باهتون حائرون لأنّ عيالهم وأموالهم استولى عليها العدوّ. فخرج عليهم من خيمته، فازدحموا عليه وحدَّقت أبصارهم

إليه و لم يستطع أحد منهم أن يبدأهُ بكلام أو يصرّحَهُ بمرام. ثم آنسهم وابتسم في وجوههم وقوّى قلوبهم ولسان حاله ينشد:

وما نُبالي إذا أرواحنا سلمت   بما فقدناه من مل ومن نشب

فالمال مكتسبٌ والجاه مرتجعٌ   إذا النفوس وقاها الله من عطب

وبعد أنْ هدأت قلوبهم وسكن اضطرابهم، قال لهم: سبحان الله. كلُّ شيء كنّا نحبّه وتعلقت أفكارنا به، كان يعوق حركاتنا ويقف في صدورنا عنْ الوصول إلى مطلوبنا والآن صرنا أحراراً،متجرّدين، لا شغل لنا إلاّ مقارعة الأعداء ومصارعتهم. ثم التفت إلى بعض الأعيان – وكانت شدّة الحزن أخذت منه مأخذها– وقال له : على أيّ شيء تحزن؟ ما فقدناه من الرجال فنحن نعلم أنهم شهداء وهم الآن في الفردوس الأعلى وأما الأموال فسيخلفها علينا الكريم الوهّاب على أن هذا الخبر لم يبلغنا إلاّ بعد وقوعه بثلاثة أيام وقد فات تداركه. ولو كنَّا حاضرين لحاربنا عن نسائنا وأولادنا وأموالنا، ودافعنا الأعداء عنهم ورأينا الفرنسيس ما لم يكن في حسابهم وأمضينا عليهم يوماً مهولاً. ولكن لا مفرَّ من القدر وحكم الله؛لا بدَّ من نفوذه وهذا الأمر الذي وقع لنا مدخول عليه، منتظر الوقوع منذ دخل العدوّ بلادنا.

ثم كتب إلى خلفائه يخبرهم بما وقع. وقال لهم: حيث أن الله تعالى أنفذ أمره في الزمالة، ينبغي لنا أن نجبن، بل نكون من الآن فصاعداً أشدّ ما كنا عليه من قوّة القلوب، وكثرة الاستعداد للحرب.

ثم أخذ في النظر فيما تتصلح به أموره ويردّ قوة جيوشه. فصار يشن الغارات ويقرع الكتائب وينزل بمن خانه من قبائل العرب والبربر أنواع

البلاء والمصائب بعد أن ضمّ إليه خليفته السيد محمد بن علاّل، بمن معه من الجند. وقد أنزل على الفرنساويين في هذه المدّة ما فيه عبرة للمعتبرين وأحلّ بهم من الويل ما تركهم في حيرة ثم جمعوا جيوشهم وأكملوا استعدادهم وتهيئوا لتجديد الحروب.

ذكر مهلك مصطفى آغا بن اسماعيل رئيس قبيلة الدوائر

لما حلّ بالزمالة ما حلّ، اجتمع فلُّها بالقرب من موضع الواقعة وتلاحق بها من كان أخذه الفرار إلى الجهات. فاتّصل خبرها بالجنرال لامورسيير -وهو في نواحي "تاكدمت"- فجهّز فرقة من جيشه، وجعل أمرها لنظر المتنصّر مصطفى آغابن اسماعيل، رئيس قبيلة الدوائر. فلما بلغ الخبر إلى أهلها، ارتحلوا وساروا -على سمتهم- إلى جهة الصحراء. فلحق ابن اسماعيل بمؤَخرّها وانتشب الحرب بينه وبين المسلمين. ولما كانت جيوشه أكثر وأقوى، انهزم المسلمون بين أيدي الأعداء. فأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً ورجعوا؛ فلقيهم جيشُ الأمير ووقع القتال بينهم والتهبت نيران الحرب، فانهزم الأعداء وولوّا الأدبار. فلحقهم المسلمون يقتلون ويأسرون ويسلبون. وكان فيمن قتل وشفا المسلمون منه أنفسهم الرئيس ابن اسماعيل، وكان قتله سبباً في الهزيمة. ووقف عليه بعض المجاهدين؛ فوجده يتخبّط في دمه فأجهز عليه وقطع رأسه. واستمر العدوّ على هزيمته إلى أن أبعد المفرّ. وأمّا المسلمون، فإنهم رجعوا إلى الأمير بالأسارى والغنائم، وأعظمها وأحبَّها إليه وإلى كلّ مسلم رأس مصطفى

بن اسماعيل، قائد الفتنة، وموقد نارها، وعين الفرنساوية ولسانهم ويدهم. ولما وضع الرأس بين يدي الأمير، نظر إليه واستعاذ بالله تعالى من غضبه وعقوبته. وعندما وصل الخبر إلى الفرنسيس، عظم عليهم الأمر واشتدّ حزنهم وكدرهم على فقد أعزّ أصدقائهم عليهم وأكبر حلفائهم وأنصارهم وأشدّ أعوانهم على المسلمين.

ذكر واقعة الجعافرة

وكان الأمير قد بلغه ما أوقعه ابن اسماعيل بالزمالة قبل مهلكه، فلمّا رجعت إليه جيوشه، ارتحل قاصداً الزمالة -وهي في بلاد الأحرار في الجنوب- فأقام فيها أياماً لتأنيس أهله وأولاده ثم ارتحل إلى الجهة الغربيَّة وأنزلها في أطراف بلاد الحساسنة واختار، من جنده، خمسمائة فارس وستمائة من العسكر المنظّم المشاة وشرذمة من المتطوعة، وسار قاصداً نواحي معسكر. فطار الخبر إلى الأمير آلاي "جيري" في معسكر. فجمع جيوشه وزحف بها إليه وفي طريقه لقيه الجنرال "بيدو" والأمير آلاي "تاميور" ومعهما الفرق التي كانت في تلمسان، في الجهة الغربيّة ولحقت بهم الفرق التي كانت في قسنطينة ووهران وأخبرهم بما عزم عليه من ملاقاة الأمير ومحاربته. فأجابوه إلى ذلك. وساروا نحوه إلى أن أدركوه- وهو في قلّة من الجيش وقلّة من الذخيرة- فلم يجد بدّاً عن ملاقاتهم. فاجتمع الفريقان واشتعلت نار الحرب. فدافعهم الأميرُ بمن معه ثم كاثروه وأحاطوا به وباشر القتال بنفسه وأبلى فيه بلاءً حسناً حتى إن ثيابه صارت مثل الغربال من كثرة وقع الرصاص

عليه. وقتل فرسه ووقع بين الصفوف. فشدّ عليه مائة جندي من الجنود الفرنساوية كانوا -من قبل- هربوا إليه من معسكرهم مع ضبّاطهم، وحسن إسلامهم. ولا زالوا يدافعون عن الأمير إلى أن استشهدوا عن آخرهم.

وانتقل الأميرُ إلى فرس آخر و لم يزل الأمر يتفاقم إلى أن استولى العدوّ على المعسكر. ونجا الأمير في لمّة من خيله وحال الليل بينه وبين باقي جنده، فظنوا أنه قتل ولحقوا بالدائرة.

وأشاع المرجفون أنه استشهد. فركبت شقيقته السيدة خديجة واستقبلت العسكر وأخذت تسلّيهم عن مصيبتهم وتقوّي قلوبهم وتشجّعهم وقالت لهم: إن فقد شقيقي وذهب،؛ فإنّ مدافعتكم عن الدين والوطن باق ذكرها إلى آخر الأمد وهؤلاء أهله وأولاده في كنف الله، ثم كنفكم فحافظوا عليهم إلى أن يظهر الله ما في غيبه... ثمّ قدّمت لهم ضيافةً. وبينما الناس غارقون في بحر التأسف والتحسّر، إذ وردت البشائر بقدوم الأمير عليهم، فانقلب الحزن سروراً.

قال بعض المؤرخين من الفرنسيس: وكان جملة ما عثر عليه الجيش الفرنساوي ، في المعركة سرج الأمير، على جواده المقتول، مع مهمازه.

ذكر واقعة الخليفة السيد محمد بن علاّل

وبعد رجوع العدوّ إلى معسكر، بلغه أن الزمالة نزلت في بلاد الحساسنة من الجهة الغربية وقاربت التلّ وكان الخليفة السيد محمد بن علاّل فيها. فخرج "تاميور" من معسكر قاصداً إليها، فأجفلت إلى بلاد الجعافرة. والتقى الخليفة وتاميور بالقرب منها واشتدّ الحرب بينهما واتصل أياماً عديدة. وفي اليوم الأخير منها، استشهد الخليفة واختلّ مصافه. وتمكّن العدوّ من الاستيلاء على المعسكر وقُتل من المسلمين، في ذلك اليوم، أربعمائة نفس وأسر ثلاثمائة وستون.

وكان الخليفة، السيد محمد بن علاّل، من الشجاعة والسياسة بمكان، لا يدرك أحدٌ شأوه فيه. وله وقائع وحروب، مع الفرنسيس، في نواحي مليانة ومتيجة وشرشال، تشهد له بذلك. وناهيك برجل جمع الله له بين الجهاد والشهادة، كما جمع له بين النسب والحسب. ولما اتّصل خبره بالأمير، جاء إلى الزمالة وولّى السيد قدور بن علاّل، في مكان عمّه الشهيد وأصلح خلل العسكر ونظر في أحوال الزمالة ثم أمرها بالانتقال إلى حدود المغرب الأقصى من الجهة الجنوبيّة. فارتحل بها الموكّلون بشأنها وأقام بمن معه من الجند يتنقّل في المحلات ويواصل الغارة على المتنصّرة وينتهز الفرص التي تمكّنه من قهر العدوّ وشفاء النفس منه.

قال بعض مؤرخيهم، مفصلاً ما أجملناه: ولما بلغ الأمير خبر خليفته، السيد محمد بن علاّل، صعب عليه وكبر لديه وولّى ابن أخيه خليفةً في موضعه

وهو السيد قدور بن علاّل. ثم أخذ في التدبير لأمره الخطير حيث إن أصحابه قد تبدّد أمرهم، وأكثر القبائل ارتدّوا وصاروا له أعداء. وبارزوه بالقتال وأظهروا له صنوف العسف والاعتداء. وغدت بلاده الواسعة الأطراف قريبة المأخذ لأعدائه، ولا طاقة له على الدفاع عنها... ومع هذا كلّه، فإنّه كان، على عزمه المعروف وحزمه المعلوم، لم يلحقه ضعف فيهما، ولا نقصه شيء من دواعيها. لا يبالي بالمصائب ولا يفزع من الشدائد والنوائب. فجمع نحو الخمسة آلاف مقاتل وأقبل يغزو بهم على القبائل والعرب المتنصّرة، ويذيقهم شديد النكال ويسطو على جيوش فرنسا؛ فيوقع بهم البلاءَ المبين. وكان يباشر القتال بنفسه ويخوض بحر المجامع والشدائد حتى قمع بماضي عزمه كلّ معاند فقويت همّة عسكره لذلك وخاضوا معه لظى الحروب والمهالك.

ذكر واقعة سيدي يوسف

بعد انتقال الزمالة إلى نواحي تخوم المغرب الأقصى، عسكر الأمير في الخط الفارق بين التلّ والصحراء في الثامن والعشرين من شعبان سنة تسع وخمسين ومائتين وألف 1259 والثاني والعشرين من أيلول سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة وألف 1843. ثم جرّد، من جيشه، خمسمائة فارس، ومثلها من العسكر النظامي وتقدّم إلى التلّ؛ فأحسّ به بعض جواسيس "لامورسيير" فبادر بالمسير إليه في جيوشه، من غير أن يشعر به الأمير حتى نزل بالقرب منه، بنحو ستة فراسخ فجعل الأمير العيون عليه. وفي إحدى الليالي، نام الحرس وكان العدوّ سار على مهله ينسلّ كالسارق. فما انصدع الفجر حتى وصل إلى معسكر الأمير وكان الأمير، من عادته، إنه يصّلي الصبح ثم ينام بقصد الراحة من تعب قيام الليل. فبينما هو نائم، إذ سمع صراخ جيشه: الفرنسيس، الفرنسيس، الفرنسيس! فقام، وأمرَ العسكر بالمدافعة وحاول أن يركب فرسه؛ فلم يسعه الحال ولم يمكّنه من ذلك تفاقمُ الأمر واشتباك العسكر بالعسكر. وبعد ساعة، انكشف العدوّ وتمكّن الأمير من الركوب وصالت فرسانه صولة الأسود وهجموا على العدوّ فهزموه أقبح هزيمة وغنموا منه غنائم عظيمة ورجع العدوّ إلى معسكر.

ثم ارتحل الأمير وقصد بجيوشه أرض بني عامر. فوجد عندهم فرقةً من عساكر الفرنسيس حرساً لهم. فصمدوا له. ثم تقدّم إليهم، وصادمهم بمن معه من الفرسان والمشاة. وكان في مقدّمة العدوّ القائد بالحميدي الزائري،

فهجم على الأمير، فأخذ الأميرُ البارودة من تابعه وأقبل عليه بقوّة ورماه بالرصاص، فأصابه في صدره، فوقع وبقيت رجله معلقةً في الركاب وفرسه يجرّه. فأخذ الأميرُ بزمامه حتى لحقه الأتباع، فسلّمه إليهم. وكان هذا الرجل من صنائع الأمير ولاّه قيادة قبيلة أولاد الزاير.ثم خانَ ودانَ بطاعة الفرنسيس وقاد قبيلته إليهم، فلما رأى بنو عمّه وإخوته ما حلّ بقائدهم، فشلوا واختلّ مصافهم. وانهزموا؛ فانهزم لهزيمتهم عسكر الفرنسيس الذي كان معهم وغنم الأمير غنيمةً عظيمةً ورجع بها إلى الزمالة وكانت في بلاد "حميان" الغرابة" تجول في أنحائها. ثم أجمع أمره على أن يدخل بها أرض المغرب الأقصى. فسيَّرها أمامه، وبقي بعدها ردءاً لها. فاعترضه الجنرال "لامورسيير" بجيوشه ووقع بينهما حروب أخذ السيف فيها حظّه. واشتدّ الأمر حتى صار النساءُ يشجّعن الرجال، ويحرّضن الأبطال على القتال. وأظهر الأمير وجنده، من الشجاعة -في ذلك اليوم- والبسالة ما يعجز القلم عن وصفه واللسان عن ذكره. وسُقطَ في يَد "لامورسيير" ورجع خائباً مقهوراً. وما زال الأمير حارساً للزمالة، محافظاً عليها حتى أدخلها إلى جبال "بني زكري"، ثم بلاد "تكفايت" قرب "وُجدَه" في الجنوب الغربي، ثم توغّل بها إلى عيون "ملوك" ثم إلى عين "زورة" قرب الأطلس الأكبر الممتدّ على سواحل البحر المتوسط.

والذي حملَ الأميرَ على دخول بلاد المغرب الأقصى أمران :

أحدهما أنه طمع في أهل البلاد أن يقوموا معه في أمر الجهاد. وينجدوه بالطريف والتلاد ولما كان يبلغه عنهم من القيام بأمور الدين واتباع السنّة والجماعة.

الثاني اطمئنان مَن كان يميل إليه، من أهل وطنه، لوجوده في أمن وحرز من العدو. وربّما يكون ذلك وسيلةً لهم في الهجرة إليه، لما يعلمه من بغضهم للفرنسيس ونفورهم منهم، وليأمن على الزمالة حتى إذا أراد الغزو إلى أرض العدوّ، فإنه يتركها في حرز حريز.

ولما استقرّت الزمالة في عين "زورة" كتب الأمير إلى عبر الرحمن، سلطان المغرب الأقصى، يخبره بما جرى عليه من الأمور ويلمّح له بطلب المعونة والنجدة. فكان من جملة جواب السلطان عبد الرحمن إلى الأمير في كتابه: "وإنّا نتمنّى الحضورَ بأنفسنا في غمار المسلمين ومباشرة القتال بأيدينا بين صفوف المجاهدين. ولكن ما نحن فيه،من قمع العُتاَة وكفّ البغاة جهادٌ بل أفضل من جهاد النصارى حسبما نصَّ على ذلك إمامنا مالك -رحمه الله- ولو كمُل قتالهم وانتظم -على الاستقامة- حالهم، لسرنا وإياهم لنصرة الدين، وقمع الكفرة المعتدين. وبذلك ينال الموفّق غاية أمله، ونيَّة المرء خير من عمله... والسلام.

حرّر في الخامس عشر من ربيع الأول سنة ستين ومائتين وألف (1260).

قال شرشال الانكليزي: لما حصل للأمير الأمنُ على الزمالة، أخذ يحرّض الناس على الجهاد ويدعوهم إلى قتال أعدائه ويحمل على القبائل المتنصرّة.ويهجم على الفرنساويين، فيملأ قلوبهم رعباً. ثم بدا له؛ فزحف على القبائل الخارجة عن طاعة سلطان المغرب الأقصى، منذ زمان طويل، فأخضعها. وكتب إليه بخبره بما أجراه، ونيَّته في ذلك استنهاض همته في إعانته على الجهاد. فلم يردّ له جواباً. فعلمَ الأميرُ أن هذه الرسائل لا تجديه نفعاً. فجمع ما عنده من الجند، وعيَّن منهم حاميةً للزمالة وسار بالباقي إلى الصحراء.

فأقام في أرجائها، يتنقّل شهوراً عديدة. فلمّا نظر الفرنسيس قلّة حركات الأمير، وانقطاع غزواته، اعتقدوا أنّ شغلهم قد تمّ وأن تردّد الأمير في الصحراء البعيدة عن الوطن دليل على ضعفه. فهنّأ المارشال بيجو نفسه وكتب لدولته يقرّر بَعْدَ الوقائع الأخيرة أن الجزائر قد غلبت وخضعت، لا سيَّما وقد عدم الأمير جنده من مشاة وفرسان وقتل خليفته الشهير المرعب فبناء على هذا، أقول بجسارة إن الحروب المخيفة قد تناهت ومن المحال أن يقتحم الأمير أمراً ذا أهمية أو يقيم بشرذمة قليلة من الفرسان حرباً قوّية، حيث أن غبار خيله أمسي كغبار شاة ضعيفة. (انتهى).

ثم بعد هذه المدَّة، جرت محاربةٌ عظيمة ومقتلةٌ جسيمة بين السيد محمد بن السيد عقبة، خليفة الأمير في بسكرة وبين الجنرال "بلراكو" الذي كان تقلّد قيادة الجيوش الفرنساوية في عمالة قسنطينة. واتصلت الحروب والوقائع الهائلة بينهم اياماً وليالي، بدون فتور. وبعد ذلك توجّه الجنرال بجيوشه إلى "القالة" في حدود تونس. فاستولى عليها.

ذكر ما كتبه الخليفة السيد أحمد بن سالم من جبال جرجرة إلى الأمير وما أجاب به

"الحمد لله وحده.

بعد الثناء والدعاء وأداء واجب الإعظام والإفخام، فإننا -معاشر عبيدكم- متعّطشون إلى مكاتيبكم. ومن المعلوم أن ما تسطره يدكم الشريفة يحيي النفوس منّا والآمال. وقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف. وأشاعوا أن والدتكم تصدر المكاتبات والتحارير اللازمة باسمكم الكريم. وقد بلغني أن الفرنسيس عازمون على الزحف إلى بلادنا. وليس عندي ثقة أكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم إلى كلمتي. وإن كان تأخرّكم عنّا، لظن أن الخليفة، السيد محمد البركاني، يساعدني وينجدني، فهو -مع ما هو عليه- من مصادمة العدوّ، بعيدٌ أن يساعدني ويقوم بناصري كما أنني لا قدرة عندي على مظاهرته. وعلى كلّ حال، فأنا أسألكم بالله تعالى: أن تردُّوا لي الجواب من هذا المكتوب بخطّ يدكم الشريفة".

فأجابه الأمير بخطه :

"إني اطلعت من مكتوبكم، مخبراً بأن خبر موتي قد امتدّ في الشرق. فاعلم أنّ الموت لا مفرَّ منه، ولا محيد عنه، إذ هو من قضاء الله الذي لا يردُّ ولا يُصدّ. وإني أحمد الله إذ لم تأت ساعتي بعد. و لم يزل عندي من القوّة

والاقتدار ما أؤمِّل به مهاجمة أعداء ديننا. فكن في راحة ساكن البال، صبوراً. ومتى استقرّ الأمر لنا هنا، نتوجَّه إلى نواحيكم. (انتهى).

وفي هذه الأيام، انتهز الجنرال بيجو الفرصة لتتميم أعماله في الشرق. فجهّز الدوك "دومال" ابن الملك في جيوش كثيرة وسيَّره إلى نواحي بسكرة. فالتقى مع الخليفة، السيد محمد بن عقبة. وجرت بينهما حروب عنيفة متوالية؛ انتصر فيها العدوُّ واستولى على "بسكرة" ثم "باتنة" ووضع فيهما حاميةً وذخائر. ثم سار إلى نواحي قسنطينة. وكان أحمد باي صمد له في جموع من العرب، من نواحي "الزيبان" وناوشه الحرب ثم انكسر ورجع إلى محلّ إقامته من الصحراء. ولما توالى الخطب على المسلمين، حارت العقول ووقفت الأفكار ويئس كلٌّ من ملاقاة صاحبه في الحياة الدنيا حتى إن السيد قدور بن علاَّل كان في الجهة الغربيَّة مع الأمير. فكتب إلى السيد أحمد بن سالم وهو في محله من جبال "زاواوه" شرقاً :

"إن الخطوب ألّمت بنا، والمصائب أنشبت أظفارها فينا... فلذلك انقطع أملي من اجتماع الشمل في الدنيا إلا إن شاءه الله، والحقّ - تعالى- يظهر العجائب والخوارق".

فأجابه:"أيها الأخ ،إن الشدائد لا تدوم والليالي حبالى، لا يدري ما تلد. وإني أسأل الله تعالى أن ينصر إمامنا، ويؤمّننا في أوطاننا، ويردّ علينا ما أخذ منّا، وأعطاه لعدوّنا. فكن أيها الأخ -دائما- في كلّ حال ملتجئا إلى الله تعالى. ولا تيأس، فإني موقن باجتماعنا -نحن الثلاثة- مع ما نحن عليه الآن من مقاساة كثرة الأعداء، وشدّة الحروب".

فأجابه: "إن ما ذكرتَه على حسب ما نشاهده من ضعف الحال، وقلّة المال والرجال، غير مأمول أن يكون".

ثم إن الأمير أخذ يتابع غزواته على البلاد ويسم أهلها بالخسف والدمار. وفي أثناء ذلك، حضر وفد من الخليفة ابن سالم إلى الأمير، من الشرق، فأكرم وفادهم وأطلعهم على سائر أحواله. وعند رجوعهم إلى أوطانهم، سيّر معهم مكتوباً إلى الخليفة، هذا نصّه.

"أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله -تعالى-، وشكره في الشدّة. وكن صبوراً على المصائب. فالصبر مفتاح الفرج. وكن جسوراً واجمع عساكرك وعضّدهم برأيك السديد وتحمّل منهم هفواهم ودبّر أمورهم، حسبما يجب؛ فإنّ هذه الأحوال لا تدوم. وإني لأرجو أن أكون عندكم. ومن هناك تظهر لنا الجادّة التي نتّبعها ونسلك عليها.

وكتب إلى جيوشه، في تلك الجهات، يتشوّق إليهم ويمدحهم بقوله:

يا أيها الريح الجنوب تحمّلي	منّي تحيّة مغرم وتجملي
واقرِ السلام أهيلَ ودّي وانثري	من طيب ما حمّلت ريح قرنفل
حلّي خيام بني الكرام وخبّري	أني أبيت بحرقة وتبلبل
جفني لقد ألف السهاد لبينكم	فلذا غدا طيب المنام بمعزل
كم ليلة قد بتّها متحسّراً	كمبيت أرمد في شقا وتململ
سهرانَ ذا حزن تطاول ليله	فمتى أرى ليلي بوصلي ينجلي
ماذا يضرّ أحبّتي لو أرسلوا	طيف المنام يزورني بتمثّل
كلّ الذي ألقاه في جنب الهوى	سهلٌ سوى بين الحبيب الأفضل
أدّ الأمانة يا جنوب وغايتي	في جمع شملي يا نسيمَ الشمأل

واهديإلى مـن بالريـاض حـديثهم   أذكى وأحلى مـن عـبير قرنفـل
تهـدي إلــيَّ طرائفـاً وظرائفـاً   ولطائفـــا بتعطّــــر وتعــسّل
حاولت نفسي الصبرَ عنهم قيل لـي   مهْ ذا محال ويك عنه تحـــوّل
كيـف التـصبّر عـنهم وهـمُ هـمُ   أربابُ عهدي بالعقود الكمّــل
أيحلُّ ريبُ الدهر ما عقدوا وكـم   حلّـت عقـودٌ ، بالمنـا المتخيّـل
تفـديهم نفـسي وتفـدي أرضـهم   أزكى المنازل يا لها على منـــزل
أفدي أناساً ليس يـدعى غيرهـم   حاشـا العـصابة والطـراز الأوّل
يكفـيهم شـرفاً وفخـراً باقيـاً   حمـلُ اللـواء الهـاشميّ الأطـول
قد خصَّهم واختصّهم واختـارهم   ربُّ الأنـــام لـذا بغـير تعمّــل
هـم بالمـديح أحـقّ. لكـن ربّمـا   ضـاعت حقـوقٌ بالعـدا والعـذّل
إن غيرهم ، بالمـال شحَّ ومـا سـخا   جادوا ببذل النفس دون تعلّـــُل
البـــاذلون نفوســـهم ونفيـسهم   في حبِّ مالِكنـا العظـيمِ الأجلـل
كم يضحك الـرحمن مـن فعلاتهـم   يـومَ الكريهـة نعـمَ فعـلُ الكمَّـل
الصادقون الـصابرون لـدى الـوغى   الحـــاملون لكــلّ مــا لم يُحمــل
إن غيرهـم نـال اللذائـذ مـسرفاً   هم يبتغون قراعَ كتـب الجحفـل
وألـذُّ شـيء عنـدهم لحـم العـدا   ودمـاؤهم كـزلال عـذب المنهـل
النـــازلون بكـــلّ ضـنكٍ ضـيّق   رغمـاً علـى الأعـدا بغـير تهـوُّل
لا يعرف الـشكوى صـغيرٌ مـنهمً   أبداً ولا البلـوى إذا مـا يـصطلي
مـــا مـــنهم إلا شـــجاع قـــارعٌ   أو بـــارعٌ في كـــلّ شـــيء مجمـــل
كم نافسوا كم سارعوا. كـم سـابقوا   مـــن ســـابق لفـضائل وتفـضُّل
كم حاربوا كـم ضـاربوا كـم غـالبوا   أقـوى العـداة بكثـرة وتمـوُّل
كم صابروا كم كـابروا كـم غـادروا   أقوى أعاديهم كعصف موكـــل
كم جاهدوا. كم طاردوا. وتجلّدوا   للنائبـــات بـــصارمٍ وبمقـــول

كم قاتلوا. كم طاولوا. كم ما حلوا من جيش كفر شبه موج يعتل
كم ثبّتوا. كم بتّتوا. كم شتّتوا شملَ الكوافر باقتحام الجحفل
كم أدلجوا. كم أزعجوا. كم أسرجوا بتسارع للموت لا يتمهّل
كم شرّدوا. كم بدّدوا. وتعوّدوا تشتيتَ كلّ كتيبة بالصيقل
يومُ الوغى يومُ المسرّة عندهم عند الصباح له مشوا بتهلُّل
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحةٌ ممسوحةٌ، بثياب كلّ مجندل
لا يحزنون لهالكٍ بل عندهم موتُ الشهادة غبطةُ المتموّل
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة والنقص -عندهم- بموت الهمّل
يا ربّ إنك في الجهاد أقمتهم فبكلّ خير عنهم فتفضّل
يا ربّ يا ربّ البرايا زدهم صبراً ونصراً دائماً بتكمّل
وافتح لهم -مولاي- فتحاً بيّناً واغفر وسامح -يا إلهي- وعجّل
يا ربّ يا مولاي وأبقهم قذىً في عين مَن هو كافرٌ بالمرسل
وتجاوزن -مولاي- عن هفواتهم والطف بهم في كلّ أمر منزل
يا ربّ واشملهم بعفوٍ دائم كن راضياً عنهم رضا المتفضّل
يا ربّ لا تترك وضيعاً فيهم يا ربّ واشملهم بخير تشمّل
متوسّلاً -مولاي- في ذا كلّه متشفعاً بشفيع كلّ مكمّل
وجهت وجهي في الأمور جميعها بمحمد غيث الندا المسترسل
صلّى عليه الله ما سحّ الحيا والآل ما سيف سطا في الجحفل

ولما نظر بيجو أعمال الأمير، وتوالي غزواته على الوطن، علم بأنهم إن تغافلوا عنه، وبقي مستمراً على ما هو عليه، لا بدّ أن ترجع إليه قوّته الأصلية. فجمع أعوانه وأهل مجلسه وقال لهم :

"قد تعيّن علينا أن ننظر إلى أحوال الأمير عبد القادر، وما هو بصدده الآن. فإنه أقلق أهل البلاد بتتابع غزواته عليهم من سائر الجهات. ولا يخفى ما انطوت عليه قلوب المغاربة المراكشيين من المحبة والتشيع له حتى إنهم يودون أن يكونوا تحت طاعته وإدارته لما رأوه من إتباعه الشريعة الإسلامية وشاهدوه من حسن سياسته معهم التي تركت قوافلهم تسافر من فاس ومراكش إلى الأقطار الجنوبية والشرقية في غاية الأمن والسكون، بعد أن كانت قلّ أن تسلم. والذي زادهم رغبة في طاعته، ما كانوا يسمعونه عنه من حسن سيرته مع رعاياه، فإنه كان لا يقرر عليهم ضريبة ولا يجعل عليهم خراجا وإنما كان يأخذ من أموالهم ما أمرت به شريعتهم الإسلامية"

فأجابه أهل المجلس: "لا بد من الاستئذان من الدولة".

فكتب إلى دولته؛ فبعثت إلى سلطان مراكش، عبد الرحمن بن هشام وعرّفته بما يلزم إجراؤه في هذا الشأن فأجابها إن بلاد الريف قد خرجت من يدي ودخلت في طاعة الأمير عبد القادر. فلا يمكنني إجراء شيء من مطالبكم. فكان هذا هو الداعي الأكبر لفتح باب الخلاف بين سلطان مراكش ودولة فرنسا. وجهز بيجو جيشا كثيفا لنظر الجنرال "لامورسيير" والجنرال "بيدو" وأمرهم بالنزول في تخوم مملكة مراكش، في محل يعرف بمقام السيدة "مغنية" في شمال "تلمسان" وهذه السيدة كانت من العابدات، دفنت هناك. وكان مقامها معظما عند أهل تلك النواحي. فعمدت جيوش فرنسا إلى هدم مقامها

وابتذاله. فوصل الخبر إلى حاكم "وجدة" من قبل سلطان مراكش وشاع في المغرب الأقصى. فحصل، من ذلك، الهيجان ووقع سلطانهم بين أمرين خطيرين : إما الخوض في تيار الحروب. وإما انتقاض الرعايا عليه، لما حصل لهم من الاضطراب لإهانة ذلك المقام المحترم. فبعث إلى عامله على "وجدة" "علي بن الكناوي" أن يخاطب الفرنسيس في هذا الأمر. ويشير عليهم بالارتحال من مقام السيدة "مغنية". فلما بلغهم رسول العامل، استهزؤوا به وازدروه. ولما وصلت جيوش المغرب الأقصى وجموعه إلى وجدة، زحف بهم "الكناوي" إلى المعسكر الفرنساوي والتقى الجمعان واضطرمت نار الحرب بينهما. فكانت الدبرة فيها على "ابن الكناوي" وجموعه. فانهزموا هزيمة تفرقوا منها شذَر مذَر واستولت عساكر الفرنسيس على جميع أثقالهم وذخائرهم. وهذه أول واقعة وقعت بين سلطان مراكش وفرنسا.

ذكر خروج "بيجو" من الجزائر إلى جبال "زواوة"

لما بعث الجنرال بيجو لامورسيير وبيدو إلى الجهة الغربية في الجيوش، استكمل تعبئته وخرج إلى جبال زواوة؛ فلقيه الخليفة السيد أحمد بن سالم في جموع المسلمين، بأرض "فليسة". وجرت بينهما حروب شديدة ووقائع متتابعة، احتاج فيها بيجو إلى النجدة؛ فأنجدته دولته بالجند والذخائر. وقوي على المسلمين وكسرهم. وأحرق أربعين قرية. ثم دان "ابن زامون" أحد رؤساء القبائل بطاعة الفرنسيس. فلما رأى الخليفة ذلك، ترفع بجيوشه إلى جبال أخرى ورجع بيجو إلى الجزائر.

ذكر مسير بيجو إلى الجهة الغربية وما جرى بينه وبين حاكم وجدة "ابن الكناوي"

بعد أن رجع بيجو من بلاد "زواوة" إلى الجزائر، توجه في المراكب إلى وهران. ثم سار إلى مقام السيدة "مغنية". ولأول وصوله إليه، دعا حاكم وجدة للمخابرة في اتفاق الكلمة؛ فأجابه إلى ذلك مع عدم إركان كل منهما إلى الآخر.ولما تقاربا، تقدم ابن الكناوي في لمة من خيله نحو الجيش الفرنساوي في صورة سلمية. فأمر الجنرال بيدو بمقابلته. فلقيه؛ في شرذمة خيالته وبينما هما يتحادثان إذ هجمت فرقة من جيش ابن كناوي على جناح الجيش الفرنساوي وابتدؤوهم بالقتال خوفاً من أن يؤول أمر المخابرة إلى الصلح. وعند ذلك، وقع بين الفريقين

حربٌ شديدة، كانت الدبرة فيها على جيوش ابن الكناوي. فانهزموا إلى وجدة.

قال بعض مؤرخي الإفرنج :

وقد انذهل بيجو من تلك الأعمال الدالة على الخيانة. وعزم على الاستيلاء على مدينة وجدة. فكتب إلى ابن الكناوي يستوضحه السبب الباعث على ما وقع؟ فأجابه يعتذر إليه، ويعترف بذنب جيشه، ويتنصل من عهدة ما وقع فكتب إليه بيجو : "إن جلّ المقصود الأهم هو أمر الأمير عبد القادر وتحديد الحدود التي كانت بينكم وبين حكومة الأتراك الجزائرية. وليس مقصودنا ما يختص بكم من البلاد. وإننا نلح عليكم أن لا تقبلوا إقامة عبد القادر في بلادكم، وأن لا تساعدوه علينا. فإن قبلوكم لإقامته في أرضكم نعده حربا لنا وعداوى لا صداقة. وبالجملة فالذي تريده دولة فرنسا منكم أن تخرجوا عبد القادر من بلادكم إلى الجنوب الغربي هذا؛ إذا لم تقدروا على أن تشتتوا شمل جيوشه. وتريد منكم أيضا أن لا تقبلوا من ينتقل إلى بلادكم من رعاياها. فإن أجبتم إلى هذه الأمور؛ فنحن نرتبط معكم ونجري الصداقة بين أمتين مختلفتين. وبها نحافظ على شرف السلطان عبد الرحمن. وإن أنتم لم تفعلوا ذلك؛ فنحن أعداء لكم. ولابد أن تردوا الجواب سريعا."

قال المؤرخ فلم تجد هذه المخابرة نفعا. ولذلك، هجم بيجو على وجدة فدخلها بعد أن فرّ أهلها، وتفرقوا في الجهات.

قال شرشل : ثم إن دولة فرنسا لم تكتف بهذا حتى أرسلت مراكبها الحربية إلى طنجة. فأطلقت عليها نار مدافعها وهدمت قلاعها. ونشأ عن ذلك هيجان في فاس، عاصمة سلطان مراكش. وفي الوقت، جهّز

السلطان ابنه، ولي عهده محمداً، في عشرين ألف من الجند. فأرسل إليه الأمير عبد القادر يحذره من مقارعة الفرنسيس وحربهم؛ فلم يقنعه ذلك اعتمادا على كثرة جيوشه. واستمر سائرا إلى وادي "إيسلي" بالقرب من وجدة. فزحفت العساكر الفرنساوية إلى معسكر ابن السلطان في محلّة "إيسلي"، واشتبك الفريقان على النهر، واشتعلت نيران الحرب. وفي آخر النهار، انكسر ابن السلطان وجيوشه ومنحوا أكتافهم للعدو. فعمل فيهم السيف أعماله واستولى على سائر المعسكر، بما فيه من أموال وذخائر ومؤن وكراع، وعلى اثني عشر مدفعا وخيمة ابن السلطان وشمسيته. وآب المغاربة بها شنعاء إلى آخر الدهر. وهذه آخر وقائعهم مع الفرنسيس. ولم ينتصروا في واحدة منها. ومن غريب الاتفاق[1] أن في هذا النهار، أطلق البرنس "دبيجو نوفيل" الأميرال مدافعه على الصويرة وخرّ أسوارها. فكانت الغلبة على جيوش المغاربة برّا وبحرا في يوم واحد.

قال بعض المؤرخين : وبهذه الواقعة تلقب بيجو "دوك دي إيسلي" ثم قال وانحط لذلك شأن سلطان المغرب الأقصى وأجمع على المصالحة؛ فالتمسها من القائد العام؛ فأجابه إلى ذلك على هذه الشروط :

---

1. ليس في ذلك غرابة. بل هناك اتفاق عسكري مدروس. مما لم يكن المؤلف –في ذلك الوقت– بمستطيع إدراكه. وهذا الفرق بين العقليتين : الشرقية، المتصلة جذورها بالقرون الوسطى والغربية، المستمدة من النهضة العملية الحديثة. الفرق بين الارتجال والدرس المبحوث على أساس علمي، فهل صدق القائل : الشرق شرق. والغرب غرب، ولن يلتقيا.

(الأول) سرعة ارتحال العساكر الماركشيّة من "وجدة" وما إليها في الحدود.

(الثاني) إجراء القصاص على الذين تعدّوا الحدود الفرنساوية.

(الثالث) إخراج الأمير عبد القادر من البلاد. وإن بقي فيها فلا يحصل له إسعاف من حكومة مراكش.

(الرابع) أن يصير تعيين حدود فاصلة بين حكومة فرنسا وحكومة مراكش.

فقبل سلطان مراكش هذه الشروط وتقرر الصلح. ولما شاع هذا الأمر في نواحي المغرب الأقصى، وسارت الركبان بما وقع لجيوشهم وجموعهم مع الفرنسيس، كبر عندهم ذلك ونسبوا المعرّة فيه إلى سلطانهم وقواد الجيوش، وكثر القيل والقال. واتفق أكثر القبائل على الانتقاض على السلطان وإعطاء الطاعة إلى الأمير لما كانوا يسمعون عنه من الإقدام والشجاعة، والقيام بأمور الجهاد على ما ينبغي من أعاظم الملوك. فكاتبوه في ذلك؛ فلم يقبله منهم وقال إني دخلت بلاد السلطان لا لأكون ضدّه أو لنأخذ منه ملكه. فهذا مما لا يقول به عاقل.

قال بعضهم : ومن هنا؛ يتبين أن الأمير، كان مقصوده، فيما يعانيه من قتال الفرنسيس، مقصورا على الذب عن الدين والوطن، لا مجرد الملك. ولو كان كذلك لقبل من رعايا سلطان المغرب ما ندبوه إليه، ولظفر به في أقرب وقت من غير كلفة.

وقال الآخر : ما كان الأمير في جميع ما تكبده من المشاق ومعاناة الحروب إلا حبا في نصرة الدين، وإنقاذ وطنه من يد الأعداء. ولا بذل نفسه وماله وحوله وقوته، ولا صبر على تلك الأهوال التي يعجز عنها

أكبر سلطان في العالم إلا لإعلاء كلمة الله، وإنقاذ وطنه. فتحمل لذلك من الأمور التي تقصم الظهور، وتدكدك الجبال. وباع نفسه في رضى الله تعالى وحب وطنه بيع سماح.

قال شرشل الإنكليزي : قد آل أمر بعض من كان الأمير يؤمل مساعدتهم إلى أن صاروا أكبر الأعداء له. وعضدوا أعداءه ونصروهم عليه وحاربوه معهم وأعانوهم في ذلك بالمال والرجال. فكيف يقبل —بعد هذا– قول القائلين أو يجب دعوة الداعين؟

ولما أحس سلطان المغرب بما وقع من رعاياه من الاضطراب والتذمر منه ومن رجال دولته؛ كتب إلى الأمير يختبر ما عنده ويسبر نيته فيما طلب إليه. وأكد عليه في زيارته في فاس ظنا منه أنه ينخدع له أو هو ممن يجهل مكره وغشه. فأجابه إن الجيش منعوه من الإجابة إلى ما طلب منه.

وأقبل على بعث الغزوات والسرايا على الوطن. ووصلت جيوشه إلى "بلعباس" من بلاد "بني عامر". فاهتز المغرب الأوسط بأهله واشرأبت نفوس المرتدين إلى التوبة من الردّة، وإرجاع الطاعة، والخضوع للأمير. وأسبق الناس في هذا بنو عامر واتبعهم مجاوروهم. وأظهروا للفرنسيس العداوة؛ فاضطربت حكام الجزائر ووهران لهذا الأمر، وبذلوا وسعهم في منع الناس من الخروج من بلادهم، وجعلوا عليهم العيون. فارتحل الكثير من بني عامر ولحقوا بدائرة الأمير في وادي "ملوية"، فيما وراء جبل بني "يزناس" غرباً.

قال المؤرخ "روا" : وأقام الأمير يتابع الغزوات على بلاد الجزائر من أول الشتاء إلى أواخر فصل الربيع. وتوغلت بعوثه وغوازيه إلى "تيارت" و"تاكدمت" وتلك النواحي. فاضطرب الحكام الفرنسويون لذلك وكاتبوا سلطان مرّاكش في هذا الأمر. فأرسل إلى الأمير يأمره بالخروج من الحدود. ولما وصل إليه الرسول بذلك وتحقق أن الأمير لا نية له إلا في الجهاد، وتأديب رعاياه لذين تركوه واتّبعوا دولة فرنسا، وافق الأمير على قصده وأخبره بما له في قلوب أهل المغرب الأقصى من الميل، والمحبة، وحسن الاعتقاد.

ثم إن الأمير أرسل رسله تترى على القبائل، يدعوهم إلى القيام بوظيفة الجهاد المفروضة عليهم؛ فأجابه إلى ذلك خلقٌ كثيرٌ. وأظهروا الخروج عن طاعة الفرنسيس. ونادوا بطاعة سلطانهم تملّصا مما لحقهم منهم من المظالم والتكاليف الشاقة.

وبينما الناس على ذلك، إذ ظهر محمد بن عبد الله، المعروف بأبي معزة في نواحي شلف، داعيا إلى نفسه، مدّعيا أنه محمد بن عبد الله، المهدي المنتظر! وطفق يدعو الناس إلى الجهاد، ويحثهم عليه نحو سنة. ودخل الناس في طاعته لأمور شعوذية كان يظهرها لهم. ووقع بينه وبين الفرنسيس عدّة حروب، انتصر فيها؛ فأيّد له ذلك دعواه. ثم إنهم رجعوا الكرة عليه وشتتوا شمله وفرّقوا جموعه، وفرّ ناجيا بنفسه إلى نواحي الصحراء.

قال بعض المؤرخين : ومن أين لمثل هذا الرجل المدّعي أن يحوز بعضا من الصفات التي امتاز بها الأمير عبد القادر من حسن الإدارة،

وعلو الهمّة، وقوّة الفروسيّة، والنشاط في الحروب، والحزم، والعزم في إدراك الأمور، لاسيما في الوقائع الشديدة الطويلة المدى التي كادت تضعف بها قوة أعظم أمة على وجه الأرض في هذا العصر.

ذكر واقعة الغزوات

وفي الحادي عشر من شوال، سنة ثلاث وستين ومائتين وألف 1263، والحادي والعشرين من سبتمبر (أيلول) سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف 1847، سار الأمير من الدّائرة وكانت بوادي "تافنا" قاصداً إلى "الغزوات" وهي مرسى صغير في الحدود، وأرسل في مقدّمته بعض رؤساء جيشه. فعلم بهم أحد المرتدِّين وأخبر القائم قام الفرنساوي" دي مونتانيال" فجمع جيوشه وقدّم أمامه طليعةً. ثم خرج بعساكره وسار إلى الأمير؛ فالتقى الحرس بطليعة العدو، فأوقعوا بها. ثم زحفت الجيوش الإسلامية والفرنساوية والتقى الفريقان عند تل قرب "الغزوات" واشتد القتال بينهما. والتحمت الجيوش الإسلامية بجيوش العدو، وخالطوهم فتركوهم حصيدا. وأذاقوهم كأس الدمار والبوار. ولم يفلت منهم سوى ثمانين جنديا التجأوا إلى مزار كان قريبا منهم، وأغلقوا بابه عليهم. فاتبعهم المسلمون وأحاطوا بهم وقتلوا منهم نحو السبعين، والباقون سلّموا أنفسهم؛ فقادوهم أسرى. وفي هذه الواقعة أصيب الأمير برصاصة مسحت طرفا من أذنه اليمنى. ولّما أحس بها،

نزل وصلّى ركعتين شكراً الله تعالى على ما لحقه في سبيل الله. وهذا أوّل جرح أصابه في الجهاد.

قال لي -رضي الله عنه- : إن الذين كانوا معي أيّام الجهاد يظنون أنّي كنت حاملا حجبا، للحفظ من رصاص العدو لما يرون من تأثيره في برنسي وعدم وصوله إلى جسدي، مع أني لم استعمل ذلك قط، وإنما كنت أحفظ نفسي بالتعاويذ الواردة في السنة فقط. قال تعالى : "فالله خير حافظاً".

وقال لي أيضا إن العسكر الفرنساوي إذا انكسر، يحصل له تلاشٍ ويختل نظامه وترتيبه ولا يلتفت لأوامر قوّاده، لا سيما الخيالة. فإنهم إذا فرّوا لا يردون الكرّ أبدا.

ذكر واقعة تَموشَّنتْ

وبعد فراغ الأمير من وقعة الغزوات، توجّه الأمير بجيوشه إلى بلاد بني عامر. فالتقى بفرقة، من الجيش الفرنساوي، معها مهمات حربية قاصدة بها تلمسان. فلما تراءت لها الجيوش الإسلامية، رفعت علامة التسليم، فتقدّم إليهم الأمير في لمة من خيلة. فاستأمنوا له وألقوا إليه سلاحهم بدون قتال. وكانت تلك الفرقة يزيد عددها، على ستمائة جندي. وكانت المهمات الحربية كثيرة وافرة. فانتشرت هذه الأخبار في سائر الأقطار المغربية. وخفقت لها قلوب الفرنسيس، والمرتدين. وكتب الأمير إلى خلفائه في الجهات الشرقية يخبرهم بما أسنى الله له من الفتح والنّصر ويعدهم بالمسير إلى نواحيهم. وهذا نص ما كتبه إلى بعض خلفائه :

"الحمد لله وحده. والصلاة والسلام، على من لا نبي بعده.

من ناصر الدين، عبد القادر بن محي الدين، إلى خليفتنا، حفظه الله. ومكّن سيوفه من رقاب عداه.

أمّا بعد، فإنّي أحمد الله على نصرة الدين القويم وشريعة نبيّه -عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم-.

وأخبركم بما حبانا الله به من النصر المبين في جامع لغزوات، وما لاقته الجيوش الفرنساوية من الوبال والبليّات. فإننا قد حصدناهم -في هذه الواقعة- حصداً وأذقناهم كأس الفنى والرَّدى. ولم ينج منهم أحد.

والذي نأمركم به ونؤكد عليكم فيه أن تجمعوا جيوشكم، وتتفقدوا أمورهم، وتندفعوا على العدو في نواحيكم. وأنهاكم عن تخريب الدّيار. فإن ذلك مما يؤذي أهلها، ويكون سببا في تأخرهم عن الطاعة.

ثم أبشركم : بعد أن فرغنا من قضية الغزوات، دخلنا بلاد بني عامر فألقينا بنحو الستمائة جندي من جنود الفرنسيس، معهم مهمات حربية. ولأول ما رأونا، رفعوا إشارة التسليم. وتقدّم قوادهم إلينا في طلب الأمان؛ فأمناهم وسلّموا لنا سلاحهم وجميع ما كان معهم. واستولينا على الكل من غير قتال. فكانت هذه النصرة نافلة على الانتصار العظيم في الغزوات. نسأله -تعالى- أن يمدنا بتأييده ويصلح العباد والبلاد.

والسلام عليكم، وعلى من حواه ناديكم ورحمة الله وبركاته".

ولما بلغ الفرنساويين هذه الأخبار، تكدّر عيشهم وأحسوا برجوع الكرة عليهم وعلموا أنهم صاروا في خطر عظيم، حيث أنهم فقدوا

ثمرة خمس سنين في بضع ساعات. واجتمع بمجلسهم في الجزائر. فاتفقوا على أن يرفعوا هذه الأخبار وما آلت إليه الحال إلى دولتهم. فحرروا وطلبوا النجدة والإمدادات، وألّحوا عليها في إرجاع المارشال بيجو إلى الجزائر في أسرع وقت.

ولما اتصل ذلك بدولتهم، هالها الأمر وعظم عندهم؛ فعزلت المارشال "فالا"من الجزائر وعينت مكانه المارشال بيجو. وأمرته بسرعة السفر. وجهّزت معه مائة ألف من العساكر، وما يلزمها من الذخائر والمهمات. كذا نقل شرشل الإنكليزي في تاريخه.

وأما الأمير، فإنه جمع جيوشه ودخل إلى الساحل وجعل ينتقل فيه يمينا وشمالاً، والقبائل تراجع الطاعة وتلوذ بها وتقدّم أعذارها فيقبل، ويعفو ويصفح. ثم بلغ الخبر الجنرال "لامورسيير" -وهو في الجزائر- فركب البحر في جيش كثيف إلى وهران، وتوجه إلى تلمسان. فاجتمع "بكافنياك" وخرجوا إلى الحدود المرّاكشية يطلبون الدائرة إلى الأطلس في الجهة الشمالية من الريف.

ثم عدل كافنياك إلى جهة الصحراء؛ فأغار على أولاد سيدي يحي، نحصل على عشيرة منهم وكانوا، لما رأوا الجيش، دخلوا في غار قريب نهم يعرف بغار "العقبة البيضاء" وكانوا نحو الخمسمائة نفس بين رجال نساء وأطفال. فجمع جيش الفرنسيس الحطب والتبن على فم الغار أضرموه ناراً، فدخل الدخان إلى داخل الغار، فاختنق به كل من كان داخله. وحسب الجنرال أنه أخذ الثأر بهذا القصاص الشائن بالإنسانية

والمشعر بفقد الشفقة والرحمة والحميّة، واستمر الأمير في جهات معسكر يجول فيها بجيوشه، والقبائل تتوارد عليه، لائذة بطاعته ... ولما رأى حاكم معسكر أن جميع القبائل التي كانت قدّمت لهم الطاعة قد تركتهم، ودخلت في يد الأمير، اهتزّ لذلك، وجمع ما عنده من العسكر وخرج يطلب الأمير؛ فلقيه، وجرت بينهما حروب شديدة، واستمرت أياما كثيرة ثم انكسر حاكم معسكر، ورجع إليها بخسارة جسيمة، وأمست العساكر الفرنساوية محصورة من جميع الجهات. واضطرب الوطن بأهله. اشتدّ الهيجان في نواحيه وأدمن الأمير على الغارات وبعث البعوث والغوازي. فلا يخلو يوم من هجوم عساكره على الجهات.

قال بعض مؤرخي الإفرنج: قد اضطربت القبائل والفرنساويون لسرعة الأمير، وتعاقب ظهوره وخفائه، وحضوره وغيبته، مع الأيام لأنه جعل دأبه سرعة الحضور في سائر المقاطعات، وإهاجة روح الحصار في كل المحلات. فشهاب حضوره السريع جعل الفرنساويين في حالة اضطراب وخيبة ظن. وبذلك ثارت المنازعات، واشتدّت الحركات حتى إن الأمير، في اليوم الواحد، يظهر في غدوته في مكان، وفي عشيته وروحته يظهر في آخر، بعيد المسافة عن الأول حتى إنهم سموه أبا ليلة وأبا نهار. ومن حركاته أنه سار في ستة آلاف من الفرسان إلى "تاكدمت" ومنها إلى وادي "شلف" فبلغه أن أولاد شعيب -وهم قبيلة عظيمة، كثيرة البطون والعشائر، عازمة على الاتحاد مع الفرنسيس؛ فعدل -في طريقه- عن التوجه إلى جهته التي كان قاصدا إليها وسار إليهم. ثم هجموا عليهم وكانوا في خمسة آلاف فارس. فأخذهم أخذ عزيز مقتدر،

وألقى القبض على رؤسائهم، ومشايخهم، وأخذ جميع أموالهم، ومواشيهم وغنم ما عندهم من الأثاث والأمتعة.

ذكر أبي معزة الثائر وما آل إليه أمره

أصله من أولاد "خويدم" في جهة وادي "شلف"، ادعى أنه المهدي المنتظر. وسبب هذه الدعوة الكاذبة أنه جاء في قبيلة "سنجاس" فوجدهم مغاضبين لرئيسهم. فزيّن لهم ما أضمروه من قتله. وقوّى بصائرهم. وقال لهم : إن هذا كافر بالله -تعالى- وهو الذي أدخل الفرنسيس إلى بلادكم وقادكم إلى طاعتهم. فاستحسنوا ما دلهم عليه وبيتوا رئيسهم وقتلوه.

ثم جمع كلمتهم وغزا بهم فرقة من جيوش الفرنسيس، كانت مخيمة في وادي الفضّة، قريبة من وادي الشلف. فانتصر عليها وغنم ما عندها من الذخائر وأثخن فيها قتلا وأسرا ... ثم أخبرهم أنه المهدي المنتظر وأن سلاح العدو ورصاصه لا يعمل فيه ولا في جموعه، ودعاهم إلى بذل الطاعة له فأطاعوه.

ثم إن الفرنسيس تجمعوا له، وكسروه وفرّ بنفسه هاربا. ومازال يجول في تلك الجبال، يتنقل فيها، من جبل إلى جبل، ويدعوا الناس إليه؛ فلا يجيبه إلا الأوغاد منهم إلى أن غدرت قبيلة "صبيح" "بسانجي" قائد الفرقة الحامية بتلك الجهة؛ فقتلوه وقتلوا أصحابه معه. فانتهز أبو معزة الفرصة وآوى إليهم وقرّر في عقولهم أنه يقوم بأمرهم . ويحمي

حوزهم من عدوّهم. فهاجت العشائر والقبائل، ونادى مناديهم بالجهاد. فأرسل حاكم الجزائر القومندان "موريلون" في جيش كثير إلى قبيلة صبيح لينتقم منها ويأخذ بثأر الحاكم وأصحابه. فزحفوا إليه مع أبي معزة. فلما التقى الجمعان وانتشب القتال، انهزموا. وفرّ رئيسهم أبو معزة. فلم يلوِ على أحد وسكن الجبال إلى أن لحق بالأمير مع أهله وأولاده.

ذكر أعمال الجنرال بيجو بعد رجوعه إلى الجزائر في المرة الأخيرة وما آل إليه الأمر

وبعد أن حصل أن وصل بيجو إلى الجزائر وتلاحقت به العساكر من فرنسا وعددها مائة ألف جندي، جمع مجلسه الحربي للمفاوضة فيما هم بصدده، فقرّ القرار على إظهار الشدة، والحزم، وأن هذه الجنود مع ما كان موجودا في الجزائر وملحقاتها من العسكر؛ تنقسم إلى أربعة أقسام وتزحف دفعة واحدة على الداخلية كل قسم مما يليه. وتعيّن "لامورسيير" على القسم الأول، و"بيدو" على الثاني، و "يوسف المتنصر العنابي" على الثالث، والقسم الرابع يرأسه بيجو بنفسه. ثم خرجوا جميعا. وفي ذلك الوقت، كان الأمير في جنوبي إيالة وهران. فقصده لامورسيير. وطيّر الخبر إلى بيجو ويوسف يخبرهم به لأنهم تواعدوا على أن يجتمعوا عليه ويحولوا بينه وبين الصحراء.

قال بعض مؤرخيهم : ولشدة عزمه، وقوة حزمه، وسرعة حركاته كان يوجد في المكان المعين ثم يفقد منه في أقرب وقت. فلذا، تركهم يجولون، عدة أسابيع، في نواحي شلف، بدون طائل. ثم بعد عناء

وشدة اجتمع به بيجو ويوسف بجيوشهما، في "أبي الشطوط"، من بلاد "أولادٍ شريف" فوقع بينه وبينهما قتال شديد، على وادي "رهيو" فقصدت فرقة من العدو إلى مركزه، فألجأته إلى الوادي. فشدّ على فرسه فارتمى به إلى العدوة الأخرى، وكانت المسافة بين العدوتين، في مجرى النهر نحو الثلاثين ذراعاً هاشمياً، ولم يلحقه انزعاج ولا لحق الفرس ضرر. فعدّها النّاس من أعظم خرق العوائد. وفي آخر القتال، انتصر على العدو، مع كثرته وغنم منه نحو الخمسين فرساً. ثم سار إلى "فليتة". وبيجو يتأثّره. ثم ارتدّ عنه، ليأسه من اللحاق به. فلقيه يوسف في "كوجيلة" في "جيبته" وكان الأمير في نحو ألفي فارس. فاستجر له ليريه أنه انكسر أمامه، ثم ردّ الكرة عليه؛ ففرق شمل تلك الجيوش الكثيرة وبدّد كتائبها وتحيز يوسف في ناحية من محل المعركة، فقصده الأمير ليبارزه، فهرب. وكان اليوم شديد المطر والرياح؛ فلم يتمكن منه. ولولا ذلك لأخذه أسيرا أو أصماه بسيفه وأعدمه الحياة. ونعم الحارس الأجل. وفي تلك الليلة، سار الأمير من محل المعمعة غازيا على قبيلة "صدامة" في "وادي العبد" غير ملتفت إلى بيجو، ولا إلى لامورسيير، مع قربها من بلاد "صدامة". ثم غزا قبيلة "الأحرار"، فاكتسح من لحقه منها. ثم توجه إلى الجهة الشرقية؛ فلاذت كافة قبائلها بطاعته. ولم يزل يتنقل إلى أن وصل إلى جبال "زواوة" واحتل بجبل "جرجرة" وفيها التقى بخليفته، السيد أحمد بن سالم. وفي أثناء مسيره إلى تلك النواحي؛ بلغه قرب العدو منه، فخشي أن يتعرض له في طريقه. فأغذّ السير وقطع مسافة أربعة مراحل في ليلة واحدة! وكان كلما وصل إلى قوم، ركبوا معه

إلى قوم آخرين إلى أن وصل إلى "جرجرة". ولذلك سمي بأبي ليلة. وبعد أن أخذ الراحة في تلك الجهة؛ غزا بني "هيدورة" من القبائل الذين دانو بطاعة الفرنسيس، ومنازلهم بشرقي "المدية" ثم اجتمعت عليه قبائل "زواوة" —وكانوا مستعدين للجهاد تحت رايته— فانتخب منهم نحو الخمسة آلاف فارس؛ وغزا بهم نحو متيجة. فاكتسح الأموال وفعل، في تلك النواحي، الفعائل وهرب الفرنساويون أمامه إلى مدينة الجزائر. واستمر على فعله إلى أن وصل قرب "المدية"، كل ذلك وجيوش الفرنسيس تطلبه في إيالة وهران وإيالة مليانة. وبينما هم كذلك؛ بلغتهم أخباره وفتكاته في بلاد متيجة وأنحاء الجزائر. فتعجبوا من أمره وارتاعوا من بطشه. وبعد أن بلغ مراده من غزاته تلك، وامتلأت أيدي جيوشه بالغنائم، رجع إلى جرجرة ومنها ارتحل إلى الجهة الشمالية. ونزل بأرض "فليسة" من قبائل "زواوة" بالقرب من "دلس"، وتبتعد عن مدينة الجزائر بمرحلة. وصار يشن الغارات المتتابعة على سهول متيجة. وقد مضى له أكثر من سنة بعيدا عن أهله، فكتبتُ متشوقا إليه، متعطشا للقائه، فأجابني بقوله :

بنيّ لئن دعاك الشوق يوما وحنّت للقا منا القلوب
ورمتَ بأن تنال سنا ووصلاً يصح —بعيده— القلب الكئيب
فإني منك أولى باشتياق وناري في الفؤاد لها لهيب
وإن أخفي اشتياقي في فؤادي فإن الشوق يكتمه الأريب

وقال يفتخر بنفسه وبجيشه

لنا في كل مكرمة مجالُ ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول وخضنا أبحرا ولها زجال
إذا عنها توانى الغير عجزاً فنحن الراحلون لها عجال
سوانا ليس بالمقصود لمّا ينادي المستغيث ألا تعالوا
ولفظ الناس ليس له مسمى سوانا والمنى منّا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصر ومصر هل بهذا ما يقال
رفعنا ثوبنا عن كلِّ لؤمٍ فأقوالي تصدّقها الفعال
ولو ندري بماء المزن يزري لكان لنا على الظمأ احتمال
نرى ذا المجد حقّا قد تعالى وصدقاً قد تطاول لا يُطال
فلا جزع ولا هلع مشين ومنّا الغدر أو كذب،محال
ونحلم إن جنى السفهاء حقّا ومن قبل السؤال لنا نوال
ورثنا سؤدداً للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجلد القديم علت قريش ومنا فوق ذا طابت فعال
وكان لنا دوام الدهر ذكرٌ بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنّا لم يزل في كل عصرٍ رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم بهم ترقى المكارم والخصال
لهم هممٌ سمت فوق الثريا حماة الدين دأبهم النضال
لهم لسن العلوم لها احتجاج وبيض ما يمثلها النزال
سلوا عنا الفرانس تخبرنكم ويصدق إذ حكت منها المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب به افتخر الزمان ولا يـــــزال

ومما وجدته مقيدا بخط السيد قدور بن رويله، كاتب الأمير.

قال : ولما بلغ سيدي وسندي ومولاي الأمير عبد القادر، ابن سيدنا محي الدين نصره الله أني وصلت المدينة المنورة كاتبني وهنّأني بهذه الأبيات :

أخي نلت الذي قد كنت تطلبه	وفزت دوني بما ترجو وترغبه
وساعدتك الليالي -لاشقيت- فدُم	قرير عين بوصل لست تسلبه
قد طاب في طيبة الغرا مقامكم	جوار محبوبنا من كنت ترقبه
يا هل ترى مثلما فزتم أفوز وهل	تعلو سعودي على نحسي فتقلبه

ثم إنه -نصره الله- ذكر لي أبيات ابن المبارك المروزي للفضيل بن عياض كنى بهما -نصره الله- عن أمره لي بالقدوم إلى حضرته العلية. وكان -حفظه الله- جرح في بعض مغازيه برصاصة أصابت طرف أذنه. فلطف الباري، والحمد لله على سلامته، وهي :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا نتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب

فأجبته

بأبي وأمي أفتديك من الردى	وبأحمد وبأخته أتقرب
واحسرتي واضيعتي واخيبتي	إن لم أكن بفدائكم أنلقب
وحياتكم فلأنني بفراقكم	لعلي لظيٍّ وجمارها أتقلب
هل من قطا يوما يعير جناحه	صبًا غدا بفراقكم يتعذب

حتـــى أرانـــي في حمـــاكم واهبـــا روحـــي فـــداكم في رضـــاكم أرغـــب

ذكر واقعة نهر يسمر وما آل إليه أمر الأمير ورجوعه إلى دائرته

ولما اتصل انتصار الأمير؛ في تلك الأنحاء واشرأبّت نفوس أهل الوطن إليه، غصّ به حاكم الجزائر فجهّز إليه الجنرال "جانفيل" بعسكر جرّار. وكان الأمير معسكراً على شاطئ نهر "يسَّر" من العدوة اليمنى. فصبّحه العدو، في محلّه، على حين غفلة. فركب الأمير فرسه ودافع بمن حضره، من العسكر. واشتد القتال بين الفريقين.واختلطوا هبراً بالسيوف، ووخزا بالرماح ولا زال الأمير يقاتل حتى وقع فرسه من تحته، وركب فرسا آخر -ثم رجع القهقري.بمن بقي من جيوشه وقصد جهة نهر "سرار".

وقال بعضهم : وبهذه الواقعة انتهز بيجو الفرصة؛ فوالى مسيره إلى جرجرة واجتمع -فيها- بالجنرال جانفيل. ثم زحفوا إلى بلاد "فليسة"؛ فاستولوا عليها وتنحى الأمير -مع جيوشه- من مصادمتهم مرّة أخرى. ثم سارت الجيوش الفرنسازوية إلى نواحي الجنوب وتفرّقوا في كل جهة. وأخذت القبائل يلوذون بالطاعة والانقياد إليهم. ورجع الذين كانوا هاجروا من بلادهم، منهم، إليها.

ثم إن الأمير لما رأى اضطراب الأحوال، مع كثرة جيش العدو، وعجز المسلمين عن المدافعة والمهاجرة، اعتزم على التوجه إلى نواحي الصحراء، مراقبا سنوح الفرص. ولا زال في طريقه يشن الغارات ويبث

البعوث والغوازي، يمينا وشمالا، على مستعمرات الفرنسيس إلى أن اجتمع عنده من الغنائم ما لم يدخل تحت حساب. فعمد -بالجمع- إلى جبل "العمور" طالباً بلاد "أولاد نائل" وقدم أثقاله وعساكره وتأخر في نحو السبعين فارسا يستطلع أخبار العدو. فطار الخبر إلى الجنرال يوسف العنابي المتنصّر. فسار بجيشه يطوي الليل والنهار حتى أدركه. فالتفت الأمير إلى العدو بمن معه وصدقوه القتال. واستمرت نار الحرب تضطرم نحو أربع ساعات. واستشهد من المسلمين نحو الأربعين فارسا. ولم يبق مع الأمير إلا نحو الثلاثين. فجمعهم وردّ الكرة على العدو؛ فتطايروا أمامه ثم اختفى بمن بقي معه في بعض الأودية القريبة من موضع القتال. فطلبهم العدو فلم يجد لهم أثراً.

قال شرشل : فعجب الفرنساويون من بسالته، وشجاعته، وسرعة اختفائه حيث إنهم طلبوه فلم يجدوه. فكأنه طار في الهواء أو خرق الأرض، هو ومن معه.

ثم قال : وقد أوردت هذه القصة في باريس بين الأعيان في المحافل السياسية في معرض التعجب والحيرة، فشهد الجنرال يوسف للأمير بالفضل، على كل من عرفت بسالته، وحماسته، من رجال الأمم. والذي أذهل العقول تواريه السريع عن أعين الجميع بعد أن كان بينهم.

قال الجنرال : ولقد رأيت من ثبات الأمير، وشدّة هجومه ما يحير الأفكار. ولما رأى الأمير كثرة الجيوش الفرنساوية، وانتشارها في سائر نواحي البلاد ورأى القبائل الذين كانوا يمدونه بالذخيرة وسائر ما يلزم

له ولجيوشه، تركوا طاعته ولحقوا بالفرنسيس، علم أن الوقت غير مساعد على الوصول إلى اجتماع الكلمة عليه، والعدول عن طاعة عدوه إلى طاعته. فسار بجيشه مغرّبا على طريق الصحراء. فنزل على أولاد سيد الشيخ "ابن الدين البكري" في بلدهم المعروفة بالأبيض. فتلقوه بالتعظيم، والاحترام، وأكرموا نزله. ثم تقدّم إليه كبيرهم وقال : أيها الأمير المعظم، إنا نسألك بالله –تعالى– أن لا تعرضنا للحرب، والبلاء، مع عدو ديننا، ودنيانا بإقامتك عندنا في بلادنا. فإن الفرنسيس لا يخفى عنادهم وظلمهم. ولولا أنهم أشد الخلق عتواً وظلما واعتداء ما تسلطوا علينا. وأين بلادنا من بلادهم؟ فهم في بر ونحن في بر آخر. ومع ذلك، فإنهم اعتدوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا ورقابنا ... فلما سمع الأمير كلامهم، رقّ لهم وأشفق عليهم وارتحل عنهم، مغرّبا إلى دائرته. وكانت على نهر "ملوية" فيما وراء جبل بني "يزناسن" ولأول وصوله، أخبروه بقتل الأسرى الفرنساويين المستولى عليهمفي واقعة "الغزوات" و"تموشنت". فأسف لذلك وتكدّر، ووبّخ خليفته على الدائرة، السيد الحاج مصطفى بن التهامي. فاعتذر عن ذلك بأعذار كثيرة أشدّها دسائس السيد محمد البوحميدي، وذلك أن الأمير، قبل واقعة الغزوات قد جعل امر الدائرة وما يتعلق بها إلى خليفته البوحميدي. فلما وقعت واقعة الغزوات، واعتزم على المسير لحمل القبائل على الرجوع إلى طاعته؛ سلّم الأسرى إلى صهره،وخليفته، السيد مصطفى، وعهد إليه بأمر الدائرة والنيابة عنه وفوّضه تفويضا مطلقاً بإجراء ما يعود نفعه على الدائرة، وأن يمنع من أراد الخروج منها لأن البعض وخصوصا بني عامر أضمروا

على الخروج منها والدخول إلى مراكش لما نالهم من المشقة والتعب.
وأمره أن يبلغ البوحميدي لأن يلحقه بنجدة، إلى جنوب إقليم الجزائر.
ولما بلّغ البوحميدي ظنّ ذلك من عدم ثقة الأمير به. فأخذ يهيج بني عامر
على العود إلى أوطانهم، أو اللحوق بسلطان المغرب الأقصى، ويمنعهم
من تقديم الطاعة لابن التهامي. فحنق التهامي، لاسيما من عدم توجهه
بالنجدة للأمير وأمر بأن الذي لا يريد أن يتوجه للنجدة، يعطي فرسه
إلى من قتلت دابته في الحرب. فحصل -من ذلك- قلق عظيم في قبيلة
بني عامر لأن العرب تعزّ خيولها، أكثر من معزة نفوسها. فأخذوا في الخروج
من الدائرة إلى بلاد مراكش. فخرج في ليلتين مقدار مائتي خيمة.
والتجئوا إلى القبائل المجاورة للدائرة، وتبعهم الناس. فافتكر السيد
مصطفى لعمل واسطة تخوفهم من الخروج؛ فلم ير -بحسب فكره-
أحسن من ذبح أسرى الفرنساوية الذين سلمهم الأمير له. وأوصاه
بحسن معاملتهم. وظن أن ذلك الأمر يؤخّر العرب عن الخروج عن الدائرة،
خيفة من الفرنساويين حيث إنهم ارتكبوا أمراً فظيعا في حقهم. فمنعه
الخوف من غضب الأمير، وعتابه له، لما هو محقق عنده من شدّة اعتنائه
بأمر الأسرى، وبذل الإكرام، وحسن المعاملة لهم. وصار يقدّم رجلا
ويؤخر أخرى حتى ورد عليه الخبر بزحف جيوش السلطان عبد الرحمن
لإنقاذهم من يده. فازداد حيرة لوقوعه بين أمرين خطيرين : إما سفك
الدماء بين المسلمين لأجلهم. وإما أن يسلّمهم لهم اختيارا. ويصعب
عليه الاعتذار عند مواجهة الأمير. ثم قوّى عزمه على ما كان مصرا
عليه وقتلهم. وكانوا مائة وسبعة وثمانين أسيرا. وأبقى أحد عشر

رئيسا. وكانت هذه الفعلة الشنيعة أفظع شيء وقع من هذا الخليفة في جميع تلك الحوادث والمواقع.

والحق يقال : إن هذا الفعل خارجٌ عن العدل. ولولا ما اشتهر به الأمير من حسن المعاملة للأسرى لظن الناس أن له دخلا في هذا الأمر ولذا، قال بعض مؤرخي الإفرنج : إن حسن المعاملة المألوفة من الأمير رفعت هذا الظن لأنه كان ينزل أسراه منزلة الضيوف ويأمر لهم بأفخر الطعام وأحسن الملبوس، وكان مرتب كل واحد من خمس ريالات إلى عشرين، على حسب مراتبهم.

وقد أفرد شرشل الانكليزي الفصل السادس عشر من تاريخه بذكر ما كان يعامل به الأمير الأسرى الواقعين في يده من المعاملة الحسنة والرحمة، والشفقة. وأيد ذلك بحكايات صدرت من الأمير في حقهم تستحق أن تكتب على طروس المواقع بماء الذهب. وملّخص ما ذكره :

إن الاعتناء الموجود عند الأمير عبد القادر لأسراه، الزائد عن الحد لم يكن له مثال في أخبار الحرب. ولذا، يجب على كافة المسيحيين أن يخروا عند قدميه نظرا لما أبداه من الرحمة، والشفقة وحسن المعاملة لأن الأسرى، الذين يقعون في أيدي العرب المتوحشين كانوا معرضين للتهديدات البربرية. ولعدم فهم لفظة "أسير" عند القبائل المتوحشين كانوا لا يبقون على كل من قبض عليه في ساحة الحرب. وكان جل مرامهم تكثير عدد الرؤوس من الأعداء، افتخارا بحملها على جوانب الخيول، وطمعاً بما ينالهم، على كل رأس، من الجائزة حتى صار ذلك الفعل طبيعة لهم،

لا يمكنهم تركها. فكيف وقد اضطرمت نار غيظهم مما ألّم بهم من الفرنساويين. بيد أن رحمة الأمير وشفقته، وبديع حكمه، والسياسة التي أبداها، بجعله لكل من أتى برأس أسير سالما، ضعفي ما كان يأخذ، على الرأس أو ثلاثة أضعافه. وكل من أتى برأس أسير يجازى بالجلد على رؤوس الأشهاد. وأصدر الأوامر اللازمة، بهذا الشأن، في سائر مملكته ... وهذه المعاملة الحسنة وأضرابها سرت في سائر خلفائه وعماله، وأثرت في العرب والبربر تأثيرا غريباً. فغلبت مرحمتهم الإنسانية على شدتهم البربرية غير أنه لم يفق أحد، لما كان لوالدته، من كمال الحلم والرحمة، ولطف المعاملة والشفقة على أسرى النساء ... فقد اعتنت بهن اعتناء أنساهن ما هن فيه وجعلت خيمتهن ملاصقة لخيمتها، وعينت اثنين من إمائها خفرا عليهن. وفي كل صباح ترسل إليهن القهوة، والشاي، والسكر، والزبدة، واللحم، وكافة ما تدعوهن إليه حاجتهن. ومن شدة حرص الأمير على الاعتناء بشأنهم، كتب إلى أسقف الجزائر أن يرسل إليهم كاهنا ليسليهم، ويخفف مصائب الأسر عليهم، ويكتب لهم ما يريدون أن يكتبوه، لعيالهم، ويكون ذلك الكاهن أمينا على نفسه وضيفا مكرما عنده! ثم قال وإن كان قلب الأمير قاسيا عند لقاء الخطر، لكنه يلين ويذوب شفقة عند مشاهدة حزن الأسرى.

وكان أشد كراهية عنده أن يرى الأسرى من النساء ويضطرب عند تصوّره وقوعهن فرائس الحرب. وقد جاء إليه أحد أعوانه بأربعة من النساء أسرى فحوّل وجهه، وقال له متهكماً : الأسد يقنص الحيوانات القوية، ويقع ابن آوى على الضعيفة. وأطلق –مرة– أربعة وتسعين

أسيراً بلا فدية ولا عوض. وأرسل معهم خفرا يوصلهم إلى رفقائهم. فقال أحد قوادهم : ينبغي لنا إخفاء هذا الأمر، وكتمه عن العسكر لأنهم، إن علموا به، لا يتأتى لنا أن نحارب عبد القادر بالترتيب المناسب.

ولم يكتف بتحسين حالة الأسرى فقط، بل كان يود المبادلة. وقد طلب ذلك مرارا عديدة من الفرنساويين وأصرّ عليه؛ فلم يجده نفعا. ومما يؤكد عدم اطلاعه على ما وقع بهم، ما ذكره "روا" الفرنساوي في تاريخه من أن الضباط الباقين منهم أرسلوا إلى أهليهم، في فرنسا، كتبا يبرئونه بها. ونص كتبهم : إن معاملة الأمير للأسرى، لم تزل معاملة حسنة بل عديمة النظير. وإن كان إكرامه لهم لا يقاس عليه لعزّته. وجميع ما جرى على رفقائنا لم يكن بإذنه ولا بعلمه، بل لا يخطر في البال أن يصدر مثل هذا الأمر منه لأنه يخشى مقابلة الفرنسيس له بالمثل؛ فيذبحون الأسرى من المسلمين الذين عندهم. وهذا –لاشك– أنه يهيج القبائل التي لها أسرى. وعلى فرض أنه أمر به صهره، لما كان تأخر في إنفاذ الأمر تلك المدة الطويلة ولو قيل إنه استشاره فيه، بعد وصوله إلى الدائرة؛ فالوقت لا يقتضي أن يحصل على جواب في تلك المدة لأن الدائرة كانت –إذ ذاك– في "ملوية" والأمير في بلاد "زواوة" وبينهما مسافة ستمائة وثمانين كيلو متر. نعم! إن الأمير تغافل عن إظهار التهمة، وتوجيه المسؤولية على الرؤساء الذين فعلوا تلك الفعلة الشنيعة. وهم السيد مصطفى، ومن وافقه ليبرئ ساحتهم خوفا عليهم من وقوع الخطر على أحدهم، إن وقع في يد الفرنسيس، كما هو مقتضى طباعه الكريمة (انتهى)

وبالجملة، فإن شرف نفس الأمير، وكرم أخلاقه، مع ما عهد منه -فيما مضى- من معاملة للأسرى، يحققان عدم صدور ذلك منه حتى إن المارشال بيجو قبل هذه الواقعة أرسل نيشان افتخار لبعض الأسرى الذين عند الأمير، اسمه "اسكوفيه". فلأول وصوله إلى سمّوه، أمر بإحضار "اسكوفيه" عنده وأمر بعض أعيان العسكر أن يقلّده النيشان بيده، ثم أحسن إلى الأسير المذكور بما ملأ قلبه سرورا.

وكتب أسقف الجزائر : يسأله إطلاق أسير من أقاربه. وقال في كتابه : "ليس لي مال أفديه به، بل أقابلك بالدعاء، والثناء، والراحمون يرحمهم الله".

فأجابه الأمير إلى مطلوبه، وأطلق له أسيره، وكتب إليه : "حيث إنك زعمت أنّك مشفق على أسيرك؛ فكان ينبغي لك أن تعم بإشفاقك سائر الأسرى، فتطلب إطلاقهم"؛ وقال فاليوت في تاريخه : إن الأمير كان في صورة عدو كريم الأخلاق. فإن كل من كان أسيرا، في قبضة يده من الفرنسيس، قد أثنى عاذليه الثناء الجميل. وكان يأمر بإعفائهم من الخدمة، يوم الأحد، ملاحظا في ذلك؛ اعتبار الديانة المسيحية مع أن الفرنسيس لم يلاحظوا اعتبار يوم الأحد، بل هو عندهم كسائر الأيام. فإذا كانت، هذه أحواله في مبدإ أمره. فكيف يكون على خلافها في منتهى أمره. (انتهى).

ثم إن الأمير بدا له أن يفادي بالأسرى الباقين. ولما لم يحصل على طائل، أطلقهم وكتب إلى ملك فرنسا ما نصه :

"الحمد لله وحده

من ناصر الدين، عبد القار بن محي الدين، إلى جلالة ملك فرنسا، لويس فليب، أحسن الله مقاصده في كل ما يؤول إلى سعادته، وجعله من الذين يتبعون سواء السبيل.

والمعروض لجلالتكم أنني كنت مستعدا لقبول شروط الصلح. وطالما تعاطيت أسباب تقريره وسعيت وراءها، فلم يجد ذلك نفعا لشدّة ما انطوت عليه نواطن عمال الجزائر من الفساد، والعناد، وتشبُّثهم بما يلقيه إليهم المنافقون من العرب والبربر الذين تورطوا في مهوى غيهم الداعي إلى مكر الله تعالى بهم، وغضبه عليهم. وقد كتبت إليكم عدة مكاتيب، فلم يأتني جواب منكم. فقويت البواعث الردّية في الجزائر على استمرار الحرب إلى الآن. وفي أثناء الوقائع بيننا وبين عساكركم، كان يقع في أيدينا أسرى كثيرة منكم. فنفادي بها أسرانا الذين في أيديكم. وفي السنة الماضية، كتبت لنوابكم بمبادلة الأسرى؛ فلم يردوا لي جواباً. فراجعتهم مرارا؛ فما أفادت المراجعة شيئا، بل سجنوا رسلي وأهانوهم وهذا أعظم دليل عند العرب بين المتحاربين، على نقض العهد من فاعله حيث أن الرسل شأنها أن تعاد إلى مرسلها، بلا إهانة ولا إيذاء. وبعد ذلك شاع أن الفرنسيس عازمون على إنقاذ أسراهم جبرا،من أيدي العرب ثم فشا بين الناس أن سلطان مراكش عازم على إنقاذهم من يد خليفتنا رغماً عنه، فكان هذا، مع سوء سلوك نوابكم، سببا لما وقع بالأسرى، من غير إذن منّا، ولا علم لنا. والآن قد أطلقنا عشرة ضباط مع الرئيس "كورلي دي كوفري" وهم يعلمون بما

أجريناه من الوسائل، والتدبيرات الحسنة لأجل الوصول إلى الفدية بما عندكم من أسرى المسلمين. ويعلمون حسن معاملتنا لسائر الأسرى الذين يقعون في أيدينا، ويعرفون أن عدم ردّ نوابكم عن مكاتيبنا في هذا الأمر هو الذي عارض حسن المقاصد فيما بيننا وبينكم، وأوجب ما أوجب مما كان من غير اختيار، ولا قصد" (انتهى).

وبعد أن أطلق الضباط المذكورين، أرسل معهم حرسا يوصلونهم إلى مليلة، وهي مرفأ لإسبانيا. فوصلوا على أحسن الأحوال. وبعد وصولهم، كتب كل واحد منهم، بخطه، بصورة الحال. ونصّ ما كتبوه:

حينما كنا أسرى عند الأمير عبد القادر كنا نعامل أحسن معاملة، وكانت جرايتنا اليومية الخبز الخالص، واللحم الجيد، والسمن والسكر والقهوة، ما أشبه ذلك. ولم يحصل لنا أدنى إهانة من سائر الوجوه. وعندما كان الأمير في الصحراء، حرر خليفته البوحميدي إلى المارشال في الجزائر في أمر الفداء؛ فلم يرد له جوابا. وعندما أخذ العرب يقتلون رفقاءنا من غير علم الأمير سألنا عن السبب، فأخبرونا أنه قد عزم المراكشيون، على أخذهم جبرا. وبعد هذا كله، أنعم الأمير علينا بإطلاق سراحنا، وأرسلنا إلى مليلة. وكان هذا منه إحسانا من غير عوض.

حرر في السادس من تشرين أول (أكتوبر) سنة ست وستين وثمانمائة وألف (1876).

كاتبه : توما، باربوت، هابوس، رئيس الفرقة الثامنة من معسكر أورليان، مينا كرينا، ماريسن، كورلي دي كوفري، رئيس فرقة الفرسان".

وإطلاق هؤلاء الضباط، لم تحتفل به فرنسا، ولم تلتفت إليه، وتمادت على غيها، وإغرائها لسلطان مراكش على الأمير؛ فارتاع السلطان عبد الرحمن وبعث إلى الأمير يأمره بالخروج من الحدود، ويذكر له : "أنه لا سبيل إلى خلاصك إلا بأحد أمرين : إما أن تسلّم نفسك إلينا وإما أن تخرج من الحدود. فإن أبيت تجري أحدهما طوعا؛ فنحن نجريه كرها".

ثم دس إلى القبائل القريبة من الدائرة في التضييق عليها، وقطع الميرة عنها، والتجافي عن مواصلتها بكل ما يعود بالنفع عليها، فوجم الأمير لهذا الأمر وكتب إلى السلطان ما نصه :

"... أما بعد، فإني كاتبتكم أولا، والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا، وتعدّيها على من تبعني،وسوء معاملتهم لهم، لأنهم كلهم أولاد دين واحد، وشريعة واحدة؛ فلم يأتني جواب عن ذلك، ولم يحصل لهم ردع من طرفكم. ومع هذا كله، أنا صابر، ومتحمل لما يجرونه كراهة سفك دماء المسلمين مدّة ستة أشهر، طمعا في رجوعهم عن البغي والطغيان إلى العدل والإحسان، مع قدرتي عليهم، في كل آن. فإن لم تردعهم -الآن- عن أفعالهم، وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم، ألتزم المحاماة عن حقوقي، والمحافظة على شرف أتباعي. ولذا، بادرت بإخباركم. والسلام عليكم".

ثم جمع أعيان جيشه ودائرته. وأطلعهم على حقيقة الحال، فعلموا أن الرجل قد ضلّ رشده في التخلي عمّن ينصره، ويحمي حوزته، وأنه وافق العدو على إذلال المجاهدين في سبيل الله والغض من شأنهم. ثم قالوا

للأمير إننا قد بايعناك على السمع والطاعة والجهاد إلى الموت، ونحن مستعدون للوفاء بالعهد من أتباعك والكون معك في سائر أحوالك.

ثم اتفقت كلمتهم على الإقامة في مواضعهم والدفاع عن حوزهم.

وكتب الأمير إلى علماء مصر يستفتيهم في ذلك ونصه :

"الحمد لله حمدا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله، وارض -اللهم- عن الصحابة أجمعين، وعن الأئمة الراشدين.

من خديم المجاهدين، والعلماء والصالحين، عبد القادر بن محي الدين إلى سادتنا العلماء، الأبرار، الأفاضل الأخيار، رضي الله عنكم، وأرضاكم، وجعل الجنة منزلكم ومثواكم.

جوابكم عمّا فعله بنا سلطان المغرب من المنكرات الشرعية التي لا تتوقع من مطلق الناس، فضلا عن أعيانهم. فأمعنوا نظركم فيها شافيا، وأجيبونا جوابا كافيا، خاليا عن الخلاف ليخلو قلب سماعه عن الاعتساف. وذلك أنه لما استولى عدو الله الفرنسيس، على الجزائر، وخلت الإيالة عن الأمير وانقطعت السبل، وعطّلت الأسباب، وطالت شوكة الكافر؛ احتمع ذوو الرأي وتفاوضوا على أن يقدموا رجلا من ساداتهم يؤمّن السبل ويكفّ المظالم ويجمع المسلمين للجهاد لئلا يبقى الكافر في راحة، فتمتد يده. فاختاروا رجلا منهم. وقدموه لذلك، فتقدم وعمل جهده فيما قدّموه له. فتأمّنت السبل -بحمد الله-وتيسرت الأسباب -بعونه-، وجاهد في سبيله، وذلك من لدن سنة الستة والأربعين إلى سنة ثلاث وستين، هذه. ولن نزال كذلك -إن شاء الله-. فإذا بسلطان المغرب

فعل بنا الأفعال التي تقوي حزب الكافر على الإسلام، وتضعفنا. وأضر بنا الضرر الكثير. ولم يلفت إلى قول رسول الله - ﷺ- : المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه. إلى قوله -عليه الصلاة والسلام- المؤمن لأخيه كالبنيان المرصوص، يشد بعضهم بعضا. ولا إلى قوله-عليه الصلاة والسلام- المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم. إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة.

فأول ما فعل بنا أننا لما كنا حاصرنا الكافر، في جميع ثغوره، نحوا من ثلاث سنين، وقطعنا عليه السبل، ومادّة البر من الحب والحيوان وغيرهما، تضييقا عليه، وتضعيفا له خصوصا من جهة الحيوان لأن قانون عسكره أنهم إذا لم يأكلوا اللحم يومين أو ثلاثة يفرّون عن طاغيتهم، ولا يقاتلون، ولا يلامون حتى بلغت قيمة الثور عندهم مائة ريال "دورو"؛ فإذا بالسلطان المذكور أمدّهم -وهم في ضيق شديد- بألوف من البقر وغيرها.

الثاني : أنه غصب من عاملنا ألفا وخمسمائة بندقية انكليزية.

الثالث : أنه غصب من وكيلنا أربعمائة كسوة جوخ، أعددناها للمجاهدين.

الرابع : أن بعض المحبين، في الله ورسوله، من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين به المجاهدين. فإذا بالسلطان المذكور زجره، ونزعها منه، وقال : أنا أحق بها، والحال أنه لم يجاهد.

الخامس : إن بعض القبائل من رعيته عزموا على إعانتنا بأنفسهم في سبيل الله، فمنعهم من ذلك، وأعاننا آخر من رعيته بسيوف في سبيل الله فحبسه، إلى الآن زجرا له، وردعا لغيره.

السادس : أنه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة مع الفرنسيس، أياما قلائل، ثم تصالحا، واشترط عليه الفرنسيس أن لا يتم الصلح بينهما إلا إذا حلّ أمر هذه العصابة المحمدية، المجاهدين، ويقبض رئيسهم. فإما أن يحبسه طول عمره وإما أن يقتله وإما أن يمكنه من يد الفرنسيس أو يجليه من الأرض ... فأجابه السلطان إلى ذلك كله ثم أمرني بترك الجهاد فأبيت لأنه ليس له علي ولاية، ولا أنا من رعيته. ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعا من لم يجد صبراً وأسقط من المجاهدين ركنا. ثم أخذ يسعى في قبضي؛ فحفظني الله منه. ولو ظفر بي لقتلني أو لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيس. ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا وكأنه استحلّ ذلك، فأبوا، جزاهم الله خيراً. فإذا تصورتم –أيها السادات– هذه الأفعال التي تنفطر منها الأكباد، وتتأثر –عند سماعها– العباد، فهل يحرم عليه ذلك؟ ويضمن ما غصب؟ ويقتل بنا إن قتلنا حسبما نص عليه المعيار في أول باب الجهاد وزبدته "أنه إذا نزل الكافر بساحة المسلمين وقال لهم إن لم تعطوني فلانا، أو ماله، أويقتل، استأصلتكم: فإنه لا يسعهم ذلك، ولا يعطوه شيئا مما طلب. ولو خافوا استئصاله، فإن أعطى ماله، ضمنه الآمر به". ونقل ذلك عن نصوص المالكية والشافعية. وكما نص على ذلك أيضا : الشيخ ميارة في شرح "لامية الزقاق" في آخر باب الإمامة الكبرى. ونصه : "قال ابن رشد : إذا أمر

الإمام بعض أعوانه بقتل رجل ظلما ففعل. فلا خلاف أنهما يقتلان معا. نقله المواق عن قول خليل في باب الجنايات كمكره ومكره. فإن فعل المأمور ذلك، خوفا على نفسه؛ فإنه لا يعذر بذلك ... قال ابن رشد أيضا : "الإكراه على الأفعال، إن كان يتعلق به حق لمخلوق، كالقتل والغصب؛ فلا خلاف أن الإكراه غير نافع ... نقله أيضا عند قوله في الطلاق : لا قتل مسلم وقطعه. ونقله الحطاب في هذا المحل الثاني ونصه في آخر معين الحكام : "ومن هدّد بقتل أو غيره على أن يقتل رجلا أو يقطع يده أو يأخذ ماله، أو يزني بامرأة، أو يبيع متاع رجل؛ فلا يسعه ذلك. وإن علم أنه عصى، وقع به ذلك. فإن فعل؛ فعليه القود ويغرّم ما أتلف ويحدّ إن زنى ويُضرب إن ضرب ... وهل المهادنة التي أوقعها فاسدة ومنقوضة لأن الجهاد تعين عليه قبلأن يفاجئه العدو؟ بسبب قربنا منه، وعجزنا عن الجهاد؟ ولأن منفعتها عائدة على الكفار ووبالها على الإسلام؟ كما هو مشاهد حسبما نص على ذلك في المعيار أيضا، في باب الجهاد، في الجواب عن سؤال التلمساني. وحاصله أن "الخليفة أوقع الصلح مع النصارى. والمسلمون لا يرون إلا الجهاد. فأجابه بما حاصله: إنّ مهادنته منقوضة وفعله مردود". ونقل –على ذلك– نصوصا. وهل يحلّ بيع البقر لهم في وقت حصرهم المسلمون؟ على حرمة بيع الخيل لهم، والشعير، وآلة الحرب ... أم لا؟ وعلى أنه لم تسعه مخالفة الفرنسيس فيما شرطه عليه من قتلنا، وتفريق جماعتنا، وما ينشأ عنه من ترك الجهاد بالكلية. واقتحم الأمر وشق العصا وجاءنا بالجيش ليقتلنا ويأخذ أموالنا ويفرّق جمعنا. فهل يجوز لنا أن نقاتله؟ بمقتضى ما نقله الشيخ ميارة أيضا

في شرحه المذكور في الباب ونصه : "انظر، إذا خلا الوقت من الأمير، وأجمع الناس رأيهم على بعض كبراء الوقت ليمهّد سبلهم ويردّ قويّهم عن ضعيفهم، فقام بذلك، قدر جهده وطاقته ... والظاهر : أن القيام عليه لا يجوز. والمعترض له؛ يريد شق عصا الإسلام، وتفريق جماعته. ففي صحيح مسلم -رضي الله عنه- عن زيادة بن علاقة، قال : سمعت عرفجة، قال سمعت رسول الله -ﷺ- يقول : إنها ستكون هنات وهنات. فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهو جميع فاقتلوه كائنا من كان(ﷺ) وبسنده، قال : سمعت رسول الله -ﷺ- يقول : من أتاكم، وأمركم جميع على رجل واحد، يريد تفريق جماعتكم؛ فاقتلوه ... أم لا يجوز لنا ذلك؟ ونترك الجهاد، ليس إلاّ؟

جوابكم، تؤجرون وتحمدون، وعليكم السلام في المبدإ والختام. والحمد لله رب العالمين".

فأجابه العلامة الحجّة الشيخ محمد عليش، مفتي المالكية بالديّار المصريّة بقوله :

"الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله المهتدين.

نعم : محرم على السلطتان المذكور -أصلح الله أحواله- جميع ذلك الذي ذكرتم،حرمته معلومة من الدّين بالضرورة. لا يشك فيها من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان. وما كان يخطر ببالنا أن يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن -وفقه الله تعالى-مثل هذه الأمور مع مثلكم. فإنا لله، وإنا إليه راجعون. وما قدّر الله -سبحانه وتعالى- لا بدّ أن يكون

خصوصا وأنتم جسر، بينه وبين عدوّه. وإن كنّا في اطمئنان، على إقليمه من استيلاء عدوّ الله عليه بما في الأحاديث الصحيحة من بقاء أهله على الحق حتى تقوم القيامة. منها ما وجد بخط الشيخ المقري ونصه : " من خط الفقيه المحدث العالم، أبي القاسم العبدوسي- حفظه الله تعالى- ما نصه : "وجدت في ظهر تقييد الشيخ أبي الحسن الصغير على المدونة بخط من يُقتدي به، قال : ذكر صاحب كتاب "نقط العروس" عن أبي مطرف، قال : حدّثنا محمد بن الموز، عن ابن القاسم، عن مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله (ﷺ): ستكون بالمغرب، مدينة يقال لها فاس، أقوم أهل المغرب قبيلة، وأكثرهم صلاة، أهلها قائمون على الحق لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة ......" وكذا ضمانة لما غصب؛ ضروري، لا يشك فيه مسلم ... وكذا : استحقاقه القصاص منه بقتله مؤمنا عمدا، عدوانا مباشرة أو بإكراه غيره عليه معلوم من الدين بالضرورة ... والنصوص التي ذكرتم صحيحة صريحة، لا تقبل التأويل، والمهادنة التي أوقعها فاسدة منقوضة. وما نسبتم للمعيار هو كذلك فيه؛ وبيع البقر، وسائر الحيوان، والطعام، والعروض وكل ما ينتفع به في المنازل المذكورة حرام قطيعاً، إجماعا، ضرورة لا يشك فيه مسلم سواء في حال حصر المسلمين إيّاهم، وفي حال عدمه. إذ قتالهم فرض عين على كل من فيه قدوة عليه ولو من النساء والصبيان من أهل تلك البلاد، ومن قرُب منهم كأهل عمل السلطان المذكور -وفقه الله تعالى- فكيف يتخيل مسلم أن معاملتهم، بما ينتفعون به، ويتقوّون به

على البقاء في أرض الإسلام؛ جائزة مع ذلك. قال الحطّاب : "وأما بيع الطعام ، يعني للحربين، فقال ابن يونس، عن حبيب : يجوز في الهدنة. وأما في غير الهدنة، فلا ... قال ابن الماجشون ..." وظاهره أن هذا؛ فيما يذهبون به لبلادهم. وأما ما يستعينون به على البقاء في أرض الإسلام، وقتال أهله فأولى بالمنع. وإن اقتحم الأمر، وشق العصا وأتاكم بجيشه وجب عليكم قتاله، وجوبا عينيا، إذ هو حينئذ كالعدو والبغاة المتغلبين، الفاجئين، القاصدين الأنفس والحريم ... لعدوانه وتجريه على ما أجمع المسلمون على تحريمه. وهو أنفسكم، وحريمكم، وأموالكم ... ومنعكم مما هو متعين عليكم بالإجماع من جهاد الكفار، والفاجئين لكم، والمقتول منكم، في قتاله كالمقتول في قتال الكفار، ليس بينه وبين الجنة إلا طلوع الروح. فصمموا على قتاله. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة نصركم الله –تعالى– عليه، وعلى أعداء الدين، وبارك فيكم وفي كل من أعانكم، من المسلمين، وخذل كل من عاداكم، وخذلكم كائنا من كان، وجعل كيده في نحره.

ونص ما في المعيار : "وسئل بعض فقهاء تلمسان، جوابكم سيدي عما عمت به البلوى في بلادنا وعظم من أجله الخطب، واتسعت فيه المقالات، وذلك أن الخليفة –أصلح الله حاله– صالح هؤلاء النصارى الذين أخذوا سواحلنا إلى أجل معلوم. والمسلمون يرون أن جهادهم من أعظم القربات. فصاروا يغيرون على أطراف بلادهم؛ فيقتلون، ويضيقون بهم؛ هل ذلك طاعة أو معصية؟ والفرض أن الخليفة لا يوافق على ذلك ويعاقب عليه. أجيبونا أرشدتم الله ووفقتم." فأجاب :

"الحمد لله الذي أيد الدين المحمدي بالجهاد ووعد الساعي فيه بالوصول إلى أسنى المراد. والشهيدة بالحياة المحفوقة بالرزق والحسن في برزخ الموت والأمداد. فما من ميت إلا يتمنى العودة إلى الدنيا إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة من ذي العرش المجيد ... فيطلبها ليزداد له من الكرامة : ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر بعد الميعاد. فأعظم به من وصفٍ لا تحصى فضائله؛ إذ قدمت على نوافل الخير العلي نوافله عند أهل الإجتهاد. وصلى الله على سيدنا محمد النبي المبعوث لجميع الخلائق، المنعوت بجميع الخلائق القامع بلسانه وسيفه وبرهانه أهل الباطل والعناد، وعلى آله وأصحابه الذين وازروه على إظهار الخزي عنه من الأضداد. فجلبوا —ببركته— لأمته المصالح، وبذلوا لهم النصائح، ودفعوا العناد ... صلاة وسلاماً، ننال ببركتهما من الخيرات والبركات ما يخرج عن العتاد.

أما بعد، أيها الأخ الكريم محتده، الجميل معتقده فإن جواب سؤالك يتوقف على تقرير مقدمة بتقريرها؛ يتبين ما يتضح به المسئول عنه، فنقول : الصلح الواقع بين إمام المسلمين وأعداء الدين على ضربين : الضرب الأول حيث يكون الجهاد فرض كفاية. والثاني حيث يكون فرض عين. أمّا الأول فحيث يكون المسلمون طالبين على الكافرين الحربيين. فالصلح لمصلحة يراها الإمام بحسب اجتهاده جائز عند المالكيين. ونقل ابن عبد البرّ عن سحنون، أنه قال : لا يبعد في المدة ونقل ابن شاش عن أبي عمران : أنه استحب أن لا تكون المدة؛ أكثر من أربعة أشهر إلا مع العجز ... وأما الضرب الثاني، فمهما تعين

الجهاد في موضعٍ لم يجز فيه الصلح كما لو كان العدو طالبا على المسلمين،وقد يفجأ موضعهم، وهو ضعف عدد المسلمين فأقلّ، لا شدّة وعدة، على المشهور عند المحققين. فيتعين على من نزل بهم، ومن قاربهم دفعهم في الحين. ونقل اللخمي عن الداوودي فرضية الجهاد على من يلي العدو، ويسقط عمّن بعد عنه، وقرّره المازري بأنه بيان لتعلق فرض الكفاية، لمن حضر محل تعلقه، قادراً عليه، دون من بعد عنه لعسره. فإن عصى الحاضر، تعلّق بمن يليه وحاصل كلام المازري أن فرض الكفاية الذي هو حكم الجهاد، قد يعرض له ما يوجبه على الأعيان في بعض الأحيان. وفي تلقين القاضي عبد الوهاب ، قد يتعين في بعض الأوقات على من يفاجئهم العدو، وفي نوازل ابن أبي زيد، عن سجنون : إن نزل أمرٌ يحتاج فيه إلى الجميع، كان عليهم فرضا ولو سبى المشركون النساء، والذرية، والأموال، وجب استنقاذهم على من قوي عليه، ما لم يخافوا على أنفسهم أو على أهليهم برؤية سفن أو خبر عنها. فكل ما نقل في تعين فرض الجهاد، مانع من الصلح لاستلزامه لإبطال فرض العين الذي هو الجهاد المطلوب فيه الاستنقاذ. وفي العتبية ،سئل مالك : أواجب على المسلمين افتداء من أسر منهم؟ قال : نعم. أليس واجبا عليهم حتى يستنقذوهم؟ قال بلى! قال فكيف لا يفدونهم بأموالهم؟ وفي مثل هذا، أعني حيث يتعين الجهاد؛ حكي القاضي ابن رشد : الاتفاق على أنه أقوى من الذهاب إلى حجة الفريضة، لأن الجهاد إن تعين، كان على الفور. والحج قد قيل فيه إنه على التراخي. ولما تقررت هذه المقدمة، بما فيها من النصوص للأئمة؛ تعين بها أن الجهاد فرض عين

وفي مسألة السؤال. فيمتنع فيه الصلح على كل حال، لاسيما إن طالت مدّته. فقد عادت على العدو -أهلكه الله- مصلحته وعلى المسلمين؛ مفسدته. وإن تخيلت فيه مصلحة؛ فهي للعدو أعظم من وجوه مكملة. فإنه يتحصن في تلك المدة، ويكثر من آلات الحرب والعدة؛ فيتعذر على المسلمين الاستنقاذ، ويصعب عليهم تحصيل المراد، بعد تيسره، لو ساعد التوفيق. ولكن المولى -جلّ جلاله- المسئول في هدايته إلى سواء الطريق. فما وقع من الصلح هو مفسدة على الإسلام، فلا يكون له في نفس الأمر إبرام. فالصلح المذكور، يجب نقضه لأنه -بمقتضى الشرع- غير مبرم. فحكمه غير لازم، عند كل من حقّق أصول الشريعة. قال في التلقين : ولا يجوز ترك الجهاد لهدنة إلا من عذر، لا يقال الصلح، المسئول عنه داخل في المستثنى من كلام القاضي عبد الوهاب، والصلح من المسلمين لا يكون في الغالب إلا من عذر على أنه حكم من اجتهادي من إمام، فلا سبيل إلى نقضه. لأنا نقول : وقع ذلك عقب الداهية الدهياء. وهي انتهاز العدو -دمّره الله- الفرصة في بلاد المغرب مع توفر الإسلام ، والعُدد، والعدو ليس له فيها مدد، والمسلمون لا يقصرون عن ضعف العدو، فضلا عن أن يكون عدوهم ضعفهم. فإما أن يكون الصلح لخوف استئصال الكافرين بقية المسلمين. وإما للخوف من المحاربين. والأول باطل لمخالفته الفرض والثاني كذلك أيضا، لأن الخوف من المحارب بالفرض لا يتأتى مع إمكان انقسام العدو واتصال المسلمين بحصول المعدد. فالواجب القتال وإن كان العدو ذا جلد، ومعه كثرة العدد؛ فلا يدخل الصلح في المستثنى من كلام القاضي عبد الوهاب. وحكم الجهاد ينقض

إذا تبين فيه الخطأ، كما نقل عن سحنون. وطول المدة في الصلح المذكور خطأ فيه، فينتقض الصلح وذلك أيضا لأن الصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين. وترك الجهاد المتعين ممتنع. فالصلح المذكور ممتنع وكل ممتنع غير لازم. والجهاد في الموضوع المذكور لم يزل متعينا من زمن الوخزة إلى الآن. وعن ابن القاسم: إن طمع قوم في فرصة في عدو قربهم، وخشوا إن أعلموا الإمام يمنعهم، فواسع خروجهم وأحب إلى أن يستأذنوه. قال ابن حبيب : سمعت أهل العلم يقولون إن نهى الإمام عن القتال لمصلحة، حرمت مخالفته إلا أن يرحمهم العدو. وقال ابن رشد : طاعة الإمام لازمة وإن كان غير عدل، ما لم يأمر بمعصية. ومن المعصية النهي عن الجهاد المتعين على ما تقدم. والله –سبحانه تعالى– أعلم ومما ينبغي أن يذيّل به ما وقع من جواب السؤال: بيان حقيقة الصلح لغة وشرعا وبيان : الممتنع منه و الجائز بمال. أو بغير مالٍ وهو المعبر عنه في كتب الفقه بالمهادنة. قال الجوهري : هادنه، صالحه. والاسم الهدنة. وأما حقيقته في العرف الفقهي؛ فهو عبارة عن توافق إمام المسلمين والحربيّين على ترك القتال بينهم مدّة لا يكونون فيها تحت حكم الإسلام. فقولنا : "الإمام" يخرج من سواه من المسلمين. فإذا حصل منه؛ فلا يتم، ولو كان أمير السرية، وبقية الرسم مخرج للأمان، والاستئمان. وذكر المدّة غير مقيدة فيه إشارة إلى أنها موكولة إلى اجتهاد الإمام، ما لم تطل. ويفهم ذلك من تنكيرها. فإنها للنوعية. وأما حكمه : فالجواز إن اقتضته مصلحة للمسلمين. والمنع إن تضمن مفسدة عليهم. قال ابن حبيب، عن ابن الماجشون : إن رجا الإمام فتح

حصون، لم ينبغ له صلح أهله على مال. وإن على أياس منه، فلا بأس بصلحهم على غير شيء كصلح الحديبية. وإن لم يتضمن مصلحة ولا مفسدة؛ فهو مكروه لما فيه من توهين الجهاد. فإن نزل مضى ما لم تتبين فيه مفسدة، بعد عقده؛ فينتقض. قال الشيخ ابن أبي زيد عن سحنون : ولو هادنهم الإمام على مال، ثم بان له أنهم غرّوا بالمسلمين، لم ينبذه حتى يرد ما أخذ منهم. وكذلك إن بان ذلك لمن بعده ولا يحبس من المال بقدر ما مضى من الأجل. قال سحنون : وليس للإمام نقض الصلح، لغير بيان خطئه ولو ردّ ما أخذ إلا برضا من عاقده.. ونقل الشيخ ابن زيد، عن ابن الموّاز : أنه قال : كره علماؤنا المهادنة على أن يعطينا أهل الحرب مالا كل عام. قال محمد : وإنما هادن النبي -ﷺ- أهل مكة لقلة المسلمين حينئذ. هذا ما يتعلق بالصلح على مال يأخذه الإمام أو بغير مال. وأما لو وقع بمال يعطيه المسلمون لهم فقال المازري : لا يهادن العدو بإعطائه مالا لأنه عكس مصلحة أخذ الجزية منه إلا لضرورة التخلص منه. لخوف استيلائه على المسلمين. وقد شاور النبي -ﷺ- لما أحاطت القبائل بالمدينة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في أن يبذل المسلمون ثلث الثمار لما خاف أن يكون الأنصار ملّت القتال. فقالا : إن كان هذا من الله؛ سمعنا وأطعنا. وإن كان رأيا فما أكلوا منها في الجاهلية تمرةً إلا بشراء. فكيف وقد أعزنا الله تعالى بالإسلام؟ فلما رأى النبي -ﷺ- عزمهم على القتال، ترك ذلك. فيؤخذ من القضية جواز إعطاء المال على الوجه المصروف، للضرورة، إذ لو لم يخير، لم يشاور فيه،الرسول -ﷺ- لكنه قد شاور فيه، فهو جائز. وبيان الملازمة

هو أن المشاورة في دفع المال ملزومة للهم بدفعه، على تقدير الموافقة على إعطائه. ولا يهم الرسول -ﷺ- بممتنع، وأما بيان المقدّمة الاستثنائية فيما ذكره أهل السير. والله -جلّ جلاله- الموفق بفضله، لا ربّ سواه.

ذكر نكبة أبي معزة ووقوعه في قبضة الفرنسيس أسيراً

تقدّم أنه ظهر في نواحي شلف وادعى بأنه المهدي المنتظر. ثم انكشف عواره وتلاشى أمره ولحق بالأمير وانخرط في سلك قوّاده وأقام معه في الدائرة مدة. وفي ثلاث وستين ومائتين وألف (1263)، وسبع وأربعين وثمانمائة وألف (1847)؛ انفصل عنه في لمة من أصحابه ولحق بقبائل الصحراء ثم أظهر دعوته في قبيلة "فليتة". فقام بها رئيسهم "ابن جلول" واستفحل أمره في تلك الجهة وبلغ حاكم الجزائر خبره. فجهّز -لقتاله- الجيوش تحت نظر الجنرال "مونج" والجنرال "هربيلون". وجرت -بينهم وبينه- في نواحي "مينة" حروب انكسر فيها أبو معزة ولحق بأولاد "نائل" فشنّ "مونج" الغارة عليهم. واكتسح أموالهم واستحلهم منهم جموعا كثيرة. ثم انضم "هربيلون" إلى "مونج" وساقوا جيوشهم إلى أبي معزة فأدركوه في نواحي "تاهرت" وشتتوا شمله. ولما ضاقت به الأرض وأحس بالعجز من نفسه؛ استأمن إلى القومندار "سنت آرنو" فلم يجبه. وأخذه أسيراً إلى الجزائر. ثم أشخصه المارشال "بيجو" إلى باريز فأقام بها مدّة وفرّ بها هارباً إلى مرسى "برست" فألقى عليه القبض. وسجن في قلعة "هام". وفي أيام الإمبراطور "لويس نابليون" الثالث، أطلق سبيله ولم يزل يتجول في بلاد فرنسا إلى أن جرت الحرب بين الدولة العليّة والروسيا المشهورة بحرب

القريم. فسافر إلى الأستانة ودخل في سلك الجيوش العثمانية المتطوعة وبعد انعقاد الصلح، خرج من الأستانة، ولحق بالعراق وأقام ببغداد مدّة ثم انتقل إلى باطوم، وفي سنة خمس وتسعين ومائتين وألف (1295). جاء إلى دمشق وأقام عند الأمير شهورا، ثم توجّه إلى بيروت ومنها إلى طرابلس الغرب ودخل إفريقية، ودعا الناس إلى الجهاد، ثم رجع إلى باطوم من غير طائل.

ذكر تسليم الخليفة السيد أحمد بن سالم إلى الفرنسيس

لما طال الأمر على الخليفة، السيد أحمد بن سالم، وعجز عن مدافعة العدو. ويئس من الانتصار عليه، استأمن إلى الحاكم الفرنساوي، في "صور الغزلان" وطلب منه تخلية سبيله إلى الشرق؛ فأمنه، ووعده باجابة دولته إلى ما طلبه منه. وفي الثاني عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وستين ومائتين وألف (1263)، والتاسع والعشرين من شهر فبراير سنة سبع وأربعين وألف (1847) حضر في لمة من ذويه إلى صور الغزلان معلنا بطاعته وتسليمه. فتلقاه الحاكم بما يليق بمقامه من الإكرام لما عهد عنه واشتهر به من شدة البأس، وقوة الجأش، وحسن السياسة ... وطار الخبر إلى الجزائر؛ فاستعظم أهلها هذا الأمر، أكثر من أمر أبي معزة. ثم هاجر إلى دمشق الشام وتوفي بها سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف(1273) وبتسليم هذا الخليفة، ضعف أمر المسلمين في الجهة الشرقية وتلاشى عزمهم واشرأبت نفوس رؤساء القبائل إلى الدخول في طاعة الفرنسيس. وتقدّمهم في ذلك قاسم بن قاسي الزواوي، واقتدى به جمّ

غفير من الرؤساء. وانتهز المارشال بيجو الفرصة؛ فخرج -في الجيوش- إلى الجبال البربرية، وأوقع بأهلها، ثم سار في الجهات الجنوبية ووصل إلى سطيف والزيبان، وبسكرة، ونواحي الجفنة، وأولاد نائل، وجبل العمور. ووقعت في تلك النواحي حروب جسيمة كانت النصرة فيها لجيوشه وتمهّدت له الطاعة في سائر الأعمال الشرقية. ثم كتب إلى القبائل الغربية، ما ملخصه :

"من المارشال بيجو، والى مملكة الجزائر، وسائر أعمالها إلى كافة بني يزناسن، وأهل أنكاد، والأحلاف، والمهاية، والمطالسة، وبني بويحيي والقليعة، وكافة أعراش نواحي الغربية، بين الجزائر والإيالة الغربية. اعلموا أني أتكلم معكم بكلام يدلّ على الخير والمحبة االبالغة. ولولا المحبة، لم أذكره. وكنت أفعل ما رمته. فأنصتوا لمقالتنا. وتأملوها لأنها نصيحة وإرشاد. وهي إنّ لكم مدّة أربع سنين وأنتم جادّون في فعل الشر معنا؛ ونحن نسامحكم حتى كثر العيب ووقع منكم ما وقع كما هو محقق لديكم. وبعد الوقائع كلها؛ ألهمنا الله للسداد والرشاد. وكان أول الشروط التي وقعت بيننا أن لا يبقى الأمير عبد القادر بين إيالتكم وإيالتنا، وأن لا تقبلوه في أرضكم. فلما ضاق عليه المجال في أرضنا فرّ منّا. وجرّ ذيله ببلادكم. فقبلتموه.وأكرمتموه وبجلتموه. وكان فعلكم هذا سبب الفساد الذي وقع بيننا وبين المعظم الأرفع محبنا وصديق دولتنا، صاحب السياسة والرياسة، مولاي عبد الرحمن بن هشام أعزّه الله. فانتبهوا من غفلتكم. وفرّقوا بين ضرّكم ونفعكم، واعلموا بأن الأمير عبد لقادر كالحية الرقطاء : لمسها لين، وهي قاتلة سمّاً. وقد ذكر بعض

الأوائل أن رجلا وجد لفعة[1] سياق الموت[2] من ألم البرد فأشفق لحالها وأدخلها بين ثوبه ولحمه. فلما أفاقت، وتحرّكت، لسعته فمات. وصار هذا مثلا، يضرب لمثلكم. ونحن جعلنا الحدود وسويناها ووضعناها بيننا وبينكم. وبيّناها، ولم تتم أربعة أشهر حتى أفسدتم الأمر وصار الأمير عبد القادر يسير بخيولكم، ورجالكم، إعانة له. وأعراش بلادنا فرّت إليكم وتحزموا معه. وقد وصل لنواحينا؛ وعزا، ولم يحصل على مراده. ولما وقع ذلك، عزمنا على الدخول لإيالتكم بجيوشنا ولم يبق إلا التحرك. فإذا بصديقنا المعظم، الأرفع، مولاي عبد الرحمن كتب لسعادة سلطاننا، راي[3] فرنسا، وبعث له البشدور[4] يقول له تربص ولا تعجل حتى ننظر أمر هؤلاء الرعية ونكفّهم عن فسادهم وربما ينصتون بعد النهي. وقد مضى ستة أشهر ونحن نراقب ما يصدر من الخير لكم ولنا. فإذا به نسمع جعجعة ولا نرى طحناً. والآن ، إنا طردنا الأمير عبد القادر. وأفسدنا أمره. ودخل أرض الفلات [5]. وقرب منكم وصار البوحميدي يمدّه بخيل، ورجال منكم، ومن غيركم. وهو يحكم بوسطكم ويصول عليكم مع إمساكه الزكاة، والعشور، والمطالبة المخزنيّة ولم تكفوه عن ذلك أو تتجنبوا عنه وتتبرؤا منه ومن حلمنا، وعدم عجلتنا؛ بقي عسكرنا

---

1. أفعى.
2. أي تكاد تموت،
3. محرفة من Roi الفرنسية ومعناها الملك.
4. البشدور : السفير
5. يقصد الفلاة : أي الصحراء

كأنه في السجن منتظرا لأمرنا. وهذا هو العجب وقد امتلأ القلب، وفاض الكيال، وكل شيء له نهاية وكمال. وإن هذا –والله– لم يقع بين الأجناس أصلا في الماضي والمستقبل. وصبرنا لم يكن عند ملك أبدا لأنا مراقبون أمر هذا الثغر. وقد أردنا ابتسامة. واطلعنا على جميع أحواله. وفهمنا مراد أناسه. ونظن أحد أمرين : أولهما أن السلطان مولاي عبد الرحمن أمركم بالكفّ عن الفساد وخالفتم أمره. فليس لنا كلام مع السلطان المذكور. ولكن ندخل بلادكم بالجند الموفور. وإما أن يكون أمركم بهذا خفية منا. فهو العدو، حيث قبل عدوّنا وحاشاه من ذلك. ولاسيما أن الملوك إذا عاهدوا؛ أنجزوا واعلموا أن هذا ليس خوفا منكم. وإنّما هو الواقع. وفعلكم هذا يوافق الشريعة وربما لم يوافق جميع الأديان لخروجكم عن طاعة أميركم. وهو دليل شرّكم بلا فائدة. فابشروا بخرابكم نطلب من الله تعالى أن ينبهكم من غفلتكم ويعرفكم بطاعة أميركم وتطردوا الأمير عبد القادر وأتباعه. وننسى كلّ ما فات. ويتبدل الغضب بالرضى والجوار أوصى عليه الرسول. وفي هذا كفاية، والسلام. في الرابع من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين ومائتين وألف 1263".

فمن نظر كتاب المارشال بيجو، المرسل لهذه القبائل، وتأمله ثم قابله مع الكتاب المرسل إليهم من السلطان عبد الرحمن الآتي ذكره، وتأمل تأمل المنصف فعل كل من دولتي فرانسة ومراكش، وما أجرته ضدّ حركات الأمير، علم بداهة ما كان بينهما من المخادنة، والمواطأة : سرا وعلنا على إبطال حقّ الحق وإطفاء نور الصدق. وعند الله تجتمع الخصوم.

ثم رجع بيجو إلى الجزائر، وأمر حاكم وهران بالخروج في العسكر إلى الصحراء الغربية ... فجال في جهاتها وأوقع بقبائل "حميان" وأولاد السيد الشيخ "ابن الدين" في التخوم لجهة الجنوب، وصارت السلطة الفرنساوية متمكنةً في النواحي الغربية والشرقية، من حدود مراكش إلى تخوم تونس.

ذكر استعفاء المارشال بيجو من ولاية الجزائر وسفره إلى فرنسا

قد تقدّم أنه كان جنرالا وقائدا للعساكر الفرنساوية في وهران. وهو الذي أبرم معاهدة"تافنا" مع الأمير. ولم يحسن الإدارة بتلك المرّة. بيد أنه تدرّب، مذ درس في مدرسة الأمير الحربية، أحسن الإدارة في المرة الثانية وأظهر من الإقدام، والشجاعة، وتحمل من الخطوب ما لم يكن في حساب. وكان في سن الشيخوخة؛ فسماه الأمير "الأسد الهرم"

قال بعض مؤرخيهم : ولذلك منحته دولته قوة لم تمنحها لأسلافه لاسيما أنها اعتبرت عبد القادر، بعد الحوادث الأخيرة، رجلا عظيماً، في كل أمر. فأمرت بتلاحق إرسال النجدات العسكرية، والذخائر الحربية. ولما تم الأمر المقصود للمارشال بيجو في بلاد الجزائر، وتمهدت فيها الطاعة لدولته؛ قدّم استعفاءه، طلبا لراحة نفسه، مما لحقه، من أتعاب الحروب، ومعاناة الخطوب، مدّة تزيد على ست سنين متوالية؛ لم يسكن فيها روعه ولم يهدأ في سائر أوقاتها، فكره. فأجابته إلى مطلوبه، فترك الجزائر وسافر في الحادي والعشرين من جمادى الثاني سنة ثلاث وستين

ومائتين وألف 1263، والرّابع من مايو (أيّار) سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف 1847. وأقام الجنرال "بار" وكيلا فيها. ثم أبدل بالجنرال "بيدو" وفي الخامس والعشرين من شوال. والخامس من تشرين الأول جاءها الدوك "دومال" ابن الملك، حاكما عامّا. فضبط أمورها. وأقر الجنرال "لامورسيير" على ولايته، في وهران. وعين الجنرال "بيدو" حاكما على قسنطينة، والجنرال "كافينياك" على الجزائر، ثم خرج يتفقد الحاميات والمسالح، وخلا له الجو. فلم يتعرض له أحد. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ذكر واقعة تافرسيت من بلاد الريف الغربي

قد تقدّم أن عبد الرحمن، سلطان المغرب الأقصى، تعرّض للأمير بإقامته في تخوم مملكته. وطلب منه الخروج منها. فتغافل الأمير ولم يلتفت إليه. فاغتبط لذلك. وأرسل إلى الشيخ "بزيان" يأمره باستعمال الوسائل الفعالة، في إخراج الأمير، ودائرته، من إيالة مراكش. وكتب إلى مشايخ بني "يزناسن" وأهل "أنكاد" أن يكونوا معه، يداً واحدة، في إخراجه منها. وصورة ما كتبه إليهم :

الحمد لله وحده

خدّامنا بني "يزناسن" وأهل "أنكاد". وفقكم الله، وأرشدكم. وسلام عليكم، ورحمة الله —تعالى- وبركاته.

وبعد، فقد بلغنا أن الأمير عبد القادر؛ نهض في قومه، ومن انضاف إليه من إخوانكم الذي استنفرهم وخدعهم بتمويهه وإبطاله حتى نزل "بجامع الغزوات" على من بها من النصارى، وعسّهم وأوقع فيهم وقتل

جلّهم ولم ينج منهم إلا من فرّ بنفسه، وما مراده إلاّ إثارة الفساد، وجلب الشر والفتنة، للمسلمين، كما جلبها لإيالة الجزائر وغيرها حتى أوقعهم في الكفر —والعياذ بالله-. وانقادوا بسببه لاستيلاء الكفار، وأسلموا أنفسهم لأحكامه. وعاد عليهم شؤم فعله بالدين الذي لا يرضاه مسلم. ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم. وقد خدعكم بإظهار الدين وأحوال الصالحين. وما في ضميره إلا الفساد، وإيقاد الفتنة بين العباد. ومن يتبعه على ذلك إلا هو من الأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. ونحن لا نكره الجهاد بشروطه. ونكره ما يعود بالضرر، والغلبة، لجانب الإسلام. ولكن هذا المشؤوم أراد نقض ما أسسناه من الصلح الشرعي وإيقاد الفتنة بعد إطفائها، سعياً في هضم جانب عزّكم، وإفساد دينكم ودنياكم وتكدير خاطرنا عليكم وأنتم لا تشعرون. فها نحن أمرنا خالنا الأمجد الشيخ "بزيان" بالقيام على ساق الجدّ، في إخراجه ودائرته، من إيالتنا السعيدة طوعا أوكرها. وحسم مادة فتنتهم وظلالهم. فكونوا معه يدا واحدة وشدّوا عضده على ذلك حتى يقضي الغرض، إن شاء الله تعالى. وكفّوا إخوانكم عن متابعته، ونهوضهم عن مقاطعته، فإن من قاطعه، ونبذ متابعته، فقد أحاط نفسه ودينه، ومن متبعه وشدّ عضده وكثّر سواده فقد تعرّض لسخط الله، ورسوله وسخطنا. لا ينجح له زرع، ولا ضرع. وقد أعذر من أنذر. اللهم أشد. وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون وما عقدناه من الصلح، مع العدّو الكافر؛ أسّسناه على قواعد الشرع العزيز، وبنيانه، واقتدينا فيه برسول الله -ﷺ- فإنه صالح كفّار قريش

صلح الحديبية حين صدّوه عن البيت الحرام مع تدافع الصحابة، وقوة عزمهم، وقهر عدوهم ولم يكن ذلك غلبة وإنما هو تشريع. ولو شاء -عليه الصلاة والسلام- لأمر أن ينكب عليهم الأخشبين حتى قال سيدنا عمر لرسول الله : أنعطي الدنيّة في ديننا؛ ألسنا على الحق؟ وهم على الباطل؟ فقال بلى-ﷺ- فقال : أبو بكر : الله ورسوله أعلم. وقد صالحهم على أن من فرّ إليه يردّه إليهم. ففرّ إليه أبو هريرة ليلة فردّه إليهم، وفاء بعهده وإمضاء لعقده. وكان هذا الصلح هو الفتح بعينه. فنحن برسول الله اقتدينا. وبشريعته اهتدينا. ونظرنا للمسلمين بما لم يضيقوا به، رفقاً بهم ليتهنّوا، ويتمتعوا في سعة وعافية. ونحن على سنة الجهاد وعقده عارفون ما أعدّ الله لأهله من أجره. فكيف يأتي هذا البدّاع؟ يعلّم أحوال الجهاد وأحكامه؟ ونحن أعرف به منه، وما ورد فيه. وما أعدّ الله لأهله ولو رأينا الخير للمسلمين في غير صلح ما ارتكبناه. فلا يفيدهم إلا ذلك. فاسألوا أهل العلم وما ورد في صحيح البخاري ومسلم : في فضل الجهاد وأحكامه، والصلح وأقسامه؛ ليعلم حال عبد القادر، وجهله بالسنّة، وغيرها وإن من تبعه فقد باء بالظلال والرّدى. وحاد عن شريعة الهدى.

في الثالث من شهر رمضان سنة ثلاث وستين ومائتين وألف 1263.

من المولى عبد الرحمن، بن المولى هشام".

فضاق الأمير لذلك ذرعا. ولم يجد بدّا عن أن يحمي حوزته ويدوّخ النواحي، التي هو مقيم فيها. فأنذر وأعذر وأوعد وحذّر. ثم بطش

بأهل الفساد. ومهّد ما قرب منه. ومدّ يده إلى إقامة أحكام الشرعية فيهم. وأخذهم بالرهبة. وبالغ في ذلك؛ حتى لاذوا بالطّاعة. وتذرعوا بالخضوع فزال –بذلك– عن المهاجرين؛ ما أهمّهم وغمّهم. وأدركوا : من رخاء العيش، وبعد الصّيت، ما حرّك من سلطان مُرّاكش السّواكن.وأوقعه في الخوف، على ملكه. ثم بلغه : أنّ أهل فاس قاعدة مملكته وغيرهم من أهل القاصية؛ بعثوا إلى الأمير : يدعونه إلى الإستيلاء على بلادهم. وأخذهم بنصرته؛ فازداد غضبا. وجهّز قائده الشهير "بالأحمر"، في عسكرٍ كثيف، لقتال الأمير، وإخراجه من البلاد.

وكان في تلك المدة، وصل إلى حضرة الأمير، مولاي عبد الرحمن، بن سليمان، سلطان المغرب الأقصى السابق؛ ليكون في جملته.

ولما بلغ الأمير خبر القائد الأحمر، استعد للدفاع عن حماه. وكان –وقتئذ– مخيما بين أرض بني "توزين" و "مطالسة" من قبائل الريف. ولم يزل القائد الأحمر، يطوي المراحل؛ إلى أن خيّم "بتافرسيت" على مسافة مرحلة، من الدّائرة. ثم بعث بعض الرؤساء، في شرذمة من الجيش؛ يستكشف أحوال الدّائرة. ويستطلع أخبارها. ولما تراءى الرئيس لها؛ ركب بعض فرسانها إليه. فلما رأى الخيل قد أقبلت عليه؛ امتلأ قلبه رعبا. ورجعوا إلى معسكرهم؛ لا يلوي أحدهم على الآخر. وقُبض على عدّة خيالة منهم. ثم إن الأمير بعث إلى القائد، يدعوه إلى المسالمة، ويعتذر إليه، بالعجز عن الخروج، بضعفاء المهاجرين؛ إلى الصحراء لبعد المسافة. ويظهر له سلامة صدره. ويؤكد له : أنّه لا يخطر في باله، ما بلغ السلطان عنه. وأنه. وأنه ... لا يريد إلا العافية. وإقامة

المهاجرين تحت أنظار لسلطان، فلم يجده ذلك نفعا. وأبى القائد إلا الخروج أو القتال. فحينئذ أخذ الأمير حذره منه، واستعد للمدافعة عن الأهل والأولاد. ثم بدا له في مراجعة القائد ثانية. فبعث إليه يقسم بالله تعالى: أنه ما أظمر للسلطان شر قط، ولا سعى في إفساد القلوب عليه. ثم حذّره من قتال المسلمين، المهاجرين في أرض، لا تنالها الأحكام منذ أحقاب. فأبى إلا بإرجاء ما جاء لأجله. وأمر بتنفيذه. فلما رأى الأمير : أنه لا محيد له عن المدافعة. والنصوص الشرعية؛ موافقة له. بادر إلى الأخذ بالاحتياط. ثم اختار، من فرسانه، مائتي فارس. وسار بهم غازيا على العدو وهو في "تافريست" فصبّحه. واستولى على معسكره بما فيه. وهجم بعض رؤساء جيشه، على القائد؛ فقتله واحتزّ رأسه. وجيء : بحريمه وأولاده إلى الدائرة. وبعد مدّة عيّن الأمير لهم حرسا. وأرسله معهم. فأوصلهم إلى فاس.

وقد قُدِّر ، ما كان في المعسكر، من : المتاع والخيام والكراع والمهمات الحربية؛ بألوف من الليرات. وكان من جملة تلك الأمتعة؛ ألبسة فاخرة جاء بها القائد؛ ليفرقها في رؤساء القبائل، إذا أعانوه على الأمير، وقاموا بنصرته. فسُقط في يده. وخاب أمله. واهتزّ المغرب الأقصى؛ لهذه الواقعة. وخطأ الشعب سلطانه. ونقموا عليه. حيث بعث جيوشه لقتال المسلمين المهاجرين، الذين التجأوا إلى بلاده، طالبين حمايته لهم، من عدوّه وعدوّهم.

ذكر واقعة بني عامر في نواحي فاس

لما ترك المهاجرون، من بني عامر، الدائرة. ووقع بينهم وبين ابن التهامي خليفة الأمير عليها، بدسائس الخليفة، السيد محمد البوحميدي. وارتحلوا إلى فاس مغاضبين. فأكرم سلطان المغرب نزلهم. وأقطعهم أرضا؛ تشتمل : على محرث عظيم، وبسائط خصبة؛ فاستوطنوها. ولما رجع الأمير من الجهة الشرقية إلى الدائرة؛ اشرأبت نفوسهم إلى الرجوع. وأقاموا ينتظرون سنوح الفرصة. فلما تمكن الأمير، في أرض الريف. وثبتت قدمه فيها؛ اعتزموا على الرحلة إلى سيدهم، وولي نعمتهم. وكتبوا إليه : أن يراقبهم في بلاد مكناسة. فأجابهم إلى ذلك. وارتحل بدائرته إلى "كرط" قريبا من جبل "كلعية" ثم سار، في نخبة من فرسانه إلى بلاد مكناسة. وكان بنو عامر ارتحلوا مشرقين ففطن بهم جيرانهم من أهل الوطن، فطيروا الخبر إلى سلطانهم. فسيّر في أثرهم جيشا كثيفا من "الشراردة" عليهم القائد، إبراهيم بن أحمد الأكحل. ولما نزل بساحتهم؛ أرسلوا إلى رئيسه يقولون : نحن قومٌ، خرجنا من دائرة أميرنا، لأمر اقتضى ذلك والآن، أردنا الرجوع إلى إخواننا وأهلينا فلا سبيل لكم إلى منعنا : شرعا ولا قانونا. فما كان جوابه غلا انه أغار عليهم. فدافعوه يوما كاملا. ثم كاثرهم الجيش، وحشود أهل الوطن، وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالساعد؛ فاعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون عن حريمهم. وكانوا رماة، لا تسقط لهم رصاصة واحدة في الأرض، فكلما

توجهت إليهم، طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص. وكانوا يجمعون موتاهم، فينصبونهم أشبارا يتترّسون به ويقاتلون من خلفه. ولما أعيى الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف، وطاعنوهم بالرماح والتوافل. وانقطع البارود. فكانوا يقتلون بناهم ونساءهم بأيديهم فراراً من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسير ومن بقي منهم من النساء والأولاد؛ أخذهم المراكشيون وباعوهم في أسواقهم بأبخس ثمن وباؤوا بها شنعاء إلى آخر الدهر لأنهم استحلوا دماء قوم مؤمنين باذلين أنفسهم وأموالهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الدين ولم يدخلوا بلاد هذا السلطان حتى أذن لهم وأمّنهم وأجارهم فليت شعري بماذا استحل دماءهم؟ على أن الشارع حرّم قتل المؤمن من الحربين؛ فكيف به إذا كان من المؤمنين. أما سمع قوله -عليه الصلاة والسلام- : كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ : ماله، وعرضه، ودمه. حسب المرء من الشرك أن يحقر أخاه المسلم. أما بلغه، ما روى ابن المبارك، عن حمزة بن عبيد : ما يحلّ لمؤمن، أن يشتد على أخيه؛ بنظرة تؤذيه ... وغاية ما أقول : "لقد وتعدى" وعند الله تجتمع الخصوم.

ولما اتصل الخبر بالأمير، وهو بخيِّمه، في بلاد مكناسة؛ رجع إلى الدائرة. ووجد قبيلة "كلعية" أغاروا على كراع الدائرة؛ فأخذوا منه عددا وافراً. فأسرَّها بنفسه. وبعد أن أقام -للراحة- أياماً؛ ارتحل بدائرته. ونزل على قبيلة كلعية.وبعث إليهم بردّ ما اختطفوه من الدائرة؛ فأبوا ذلك. وأصرّوا على بغيهم، واعتدائهم. فحينئذ؛ سار إليهم في جموعه،

فأثخن فيهم : بالقتل والأسر. وأذاقهم شديد النكال. ورجع إلى دائرته. وكان أكثر الأسرى؛ من أعيانهم. فتعهدوا برد جميع ما أخذته قبيلتهم من الدائرة. وبعد الوفاء بذلك؛ أطلق سراحهم. واشتهرت هذه الواقعة؛ فكانت من أعظم الوسائل؛ لردع الذعّار والغوغاء من القبائل الغربية؛ من منازل الدائرة. وبعد مدة؛ انتقل الأمير إلى "زايو" وهو موضع، مطل على سهل "تريفة" فجاء محمد بن عبد الرحمن، رئيس قبيلة الأحلاف. وفاوضه : في بعث أحد خلفائه؛ إلى حضرة سلطان مراكش؛ ليعتذر إليه. ويستعطف قلبه. فأجابه إلى ذلك. وعيّن لهذه السفارة؛ خليفته البوحميدي. فسار، ومعه الرئيس المذكور، إلى فاس؛ فلم يحتفل به السلطان. ثم ألقى القبض عليه. وبعد أيام قلائل؛ أتلفه بسمٍّ أكرهه، ناظر الحبس، على شربه. فمزق أمعاءه. ولما اتصل الخبر بالأمير، علم ما في نية صاحب المغرب، من جهته.

قال بعضهم : وبما فعله سلطان المغرب بالخليفة البوحميدي، يئس الأمير من مواصلته وإعانته على عدوه. وتبين له أنه أمسى وحيداً، لا نصير له. غريبا، لا وطن له. ومع ذلك فإنه لم يلحقه جزع ولم ينله ضجر. ولم يكن عنده —وقتئذ– من الجيش سوى ألفي مشاة وألف ومائتين فارس، وهم من الأبطال الذين شاركوه في اقتحام الشدائد، وصبروا معه على مقاساة الخطوب والمكاره، ولازموه في جميع مدّته التي أظهر فيها من الشجاعة والإقدام ما بهر الأفكار. وخلّد له الذكر الجميل مدى الدهور والأعصار. وهم الذين عملوا بإشاراته، وفازوا —في خاتمة أمره– بصالح دعواته.

ذكر آخر الوقائع في المغرب وما آل إليه الأمير بعدها

لما استحكمت العداوة بين الأمير وصاحب المغرب، وقوي ما عنده من الإحن والضغائن، وبلغه ما لحق الأمير من الضعف وقلة العَدد والعُدد؛ جهّز ولديه محمدا —وهو ولي عهده- وأحمد؛ في خمس ألف مقاتل، وسيرهم إليه. في الثاني من المحرم سنة أربع وستين ومائتين وألف (1264). والعاشر من ديسمبر سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف (1847). نزلا بجيشهما؛ في قلعة "سلوان" على مسافة ثلاث ساعات من الدائرة. فرأى الأمير : أن يبادرهم بالهجوم. ويأخذهم بالرهبة قبل أن يزحفوا إليه. فجمع جيشه. وشد عزائمهم. وأخبرهم بما عزم عليه من مهاجمة العدو. فنشطوا لذلك. وبايعوه، على الثبات معه، إلى الموت. وأشار بمكيدة، يستعينون بها، على إرهاب العدو. فأحضر جملين، وشدّ على كل منهما، حزمتين من الحلفاء، بعد أن لاشوهما بالقطران والزفت. وأمر : أن يكون إيقاد النار، في الحزمتين؛ مقارنا للحمل على العدو، في ليلة الرابع والثاني من الشهرين المذكورين.

سار الأمير بجيشه قاصداً "سلوان". ولما قرب منها؛ رتّب جيشه للهجوم وأمر بتقديم الجملين؛ أمام الجيش. ثم أضرمت النار في الحزمتين؛ فنفر الجملان وذهبا يجوسان، خلال خيام العدو. وحمل الجيش بعدها حملة رجل واحد، فما راع القوم إلا مشاعل النار تجول بين الخيام. وأمطار الرصاص تنزل عليهم من حيث لم يحتسبون فلم يسعهم إلا الفرار،

وترك الخيام، بما فيها من الأمتعة والمهمات. واستمر الأمير وجيشه على هجومهم، من غير أن يلتفت أحد منهم، إلى الغنيمة. حتى انتهوا إلى سرادق أولاد السلطان. فوجدوا العسكر؛ قد أحاطوا به. واتخذوا الظهر والأثقال، وقاية لهم، من الرصاص. واشتدّ القتال على السرادق. من نصف الليل الأخير؛ إلى أن لاح الفجر. فحينئذ؛ تأخر الأمير بجنده. ونزل، غير بعيد، من منازل العدو. وبعد أن صلى الصبح؛ ركب-راجعا- إلى الدائرة، بعد أن أثخن فيهم. وفرّق جمعهم. وفعل بهم الفعائل. حتى إنه : بم يبق مع ولي العهد وأخيه؛ إلا حاميتهما. وقد استولى القتل على أكثرها. وفي وقت الظهر؛ تراءى للأمير جيش، أكثرهم من أهل الوطن. مغيرين في أثره. يطلبونه. فعطف عليهم في نحو المائتي فارس. فكسرهم، مع كثرهم. وشتت شملهم. ولازالوا منهزمين؛ لا يلوي أحد منهم على أحد، إلى أن دخلوا معسكرهم.

ثم انقلب راجعا إلى الدائرة. وارتحل بها من "زايو" مع نهر "ملوية" ونزل : بالقرب من مصبّه، في البحر.

وأقام لعدو في سلوان؛ إلى أن تراجع من جموعه، من فرّ إلى الجبال القريبة منه. وأما الذين أبعدوا المفرَّ؛ فاستمروا على فرارهم، إلى مواطنهم. وأرسل في جبل "كلعية" و "كيدانة"، ومن قاربهم من قبائل البربر وعرب تريفة. حاشرين. فانثالوا إليه أفواجا أفواجا، معتذرين إليه في تخلفهم عنه، حتى وقع بجموعه، ما وقع من قوم غرباء لا ناصر لهم. وبعد أن استكمل تعبيته؛ ارتحل من سلوان. ونزل "بزايو" فاتصل الخبر بالأمير؛ فأجاز -بدائرته- النهر.

ونزل بالعدوة الشرقية منه. ثم جاء العدوّ؛ فترل في منازلها الأولى، في العدوة الغربية. فأمر الأمير أن ترفع الدائرة؛ إلى ناحية "عجرود". وعيّن العسكر المشاة لمحافظتها. وبقي -فيمن معه- من الفرسان، ووقع المصاف على النهر. وكان شائلا. وليس في تلك الجهة إلا مجاز واحد. فلما هجم العدوّ غرق منهم خلق كثير بخيلهم. والذين اصطفوا على ضفته الغربية؛ اشتد القتال بينهم وبين الأمير، كل من ناحيته. واضطرمت نار الحرب. وكثرت القتلى والجرحى من الجانبين. واستمر القتال -على النهر- ساعات. ثم تقدّمت حشود البربر، من أهل الوطن، إلى المجاز؛ فأجازوا منه. واتبعهم العدوّ، واختلطت الجيوش. وخاض بعضهم في بعض والتحموا. وكثر القتل قعصا بالرماح، وطعنا بالسيوف. وكان القائد الشهير محمد بن يحي قد استشهد في تلك المعمعة، بعد أن أبلى بلاء حسنا. فاختل مصافه. وأصيب فرس الأمير؛ فوقع من تحته. وركب غيره. وتكاثر العدو؛ فتزحزح الأمير عن النهر. وصار القتال في السهل، مناوشة. ثم أصيب فرس الأمير الثاني؛ فترل عنه وركب. ثالثاً. فأصيب أيضا. وركب رابعا. ولما تولى النهار، أقبلت جموع بني "يزناسن" وغيرهم من الوطنيين؛ نجدة لولَدَي سلطان. فحمل الأمير عليهم حملة صيّرهم فرقا وملأت قلوبهم رعبا. وما زال يوالي الكرّ عليهم إلى أن ردّهم إلى النهر، ثم انصرف وقد أيقن بانتشار سلكه وذهاب ملكه. فلحقه العدو في الكتائب العديدة، من الميمنة؛ فانكشف جنده لقتله ونفاذ -ما بيدهم- من البارود. وأخذ الأمير بأعقابهم يدافع عنهم. فكان ردّا لهم إلى أن انتهوا إلى "عجرود". ثم مال العدو إلى الدائرة،

فدفعه العسكر المشاة بقوة وثبات إلى أن أجازت الأثقال والحريم والأولاد، وادي "عجرود". وقد قتل في المعسكر –في تلك العشية–
رحم الله طرفة الشاعر حين يقول :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

نحو المائة.وأُسر مثلها. واستمر الأمير سائراً بأهله وخاصته، تلك الليلة؛ مانعا لحوزته، دافعا الذُّل بعزَّته؛ إلى أن بلغ جبل "بني خالد" من بني يزناسن. ودخلت الدائرة وفيها بعض إخوته وأقاربه في أرض الفرنسيس. وبهذا انتهت خاتمة المحن، وانطفت نارُ الحروب والفتن.

هذا الذي سبق القضاء به والدّهر في الإنسان ذو دول
ما قرّ في أيدي قوابـــــله حتى أُذيق الصّابَ بالعســـلِ

وكان الجنرال "لامورسيير"، حاكم ولاية وهران، لما بلغه سوقُ صاحب المغرب جموعه على الأمير؛ سار من وهران في نحو الخمسين ألف جندي إلى الحدود الغربية ليراقب أعمال المرّاكشية. ويمنع الأمير من التخطي إلى الصحراء. فخيم في "عطية" من أرض "مسيردة" على مسافة بضع ساعات من وادي "عجرود" وأقام هناك إلى أن انتهى الأمر، بين الأمير والمراكشية. ولما اتصل به خبر دخول الدائرة في أرضهم؛ بعث بقواد جيشه، من ينظر في أمرها. ونصب العيون على الأمير. وفرّق الجيوش فيما بين بني "يزناسن" ومعسكره. وربط عليه الطرق حتى لا يتخطى تلك البلاد إلى الصحراء. وكان المطر سحّاء متّصلا بالليل والنهار. وعميت عنه أخبار الأمير؛ فاضطرب لذلك. وارتبك في أمره. وخشي

أن يفوته ما خرج لأجله. وأما الأمير فإنه لما وصل إلى بني "خالد"، نزل على أستاذهم الشيخ "مختار بودشنيش" في بلدة "تفجيرت" وكان قبل ذلك، من أصدقاء الأمير. فظن فيه أنه يقوم بشأنه؛ فإذا به رأى منه ما أنكره. وبلغه عن قومه ما أنذره وحذّره. وتبين له أنهم داخلون في الجملة المنحرفة والفئة المتطلعة إلى الغالب. جرت عادة الله في أرضه بذلك. فلم يسعه —حينئذ— إلا النظر في أمره. وانتهاز الفرصة في خلاصه، من مكائد العدو ومكره. فجمع خاصته وذويه.

– وقال : يا قوم إن الأحوال، كما ترون، والأخبار على ما تسمعون. فما الرأي؟ وما الحيلة؟

– فقالوا : الرأي لسيدنا. فالّذي راه فنحن معه فيه.

– فقال : لا رأي إلا التسليم لقضاء الله —تعالى— والرِّضى به. ولقد أجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد. وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد. وذلك من حين اهتز غصن شبابي. وافترّ عن شباة الهند نابي. وأقمت على ذلك ما ينيف على سبع عشرة سنة أقتحم المهالك وأملأ –بالجيوش الجرارة– الفجاج والمسالك. أستحقر العدوّ على كثرته وأستهل استعصابهُ وأتوغل غير خائف –أوديته وشعابه وأرتِّب له –في طريقه– الرَّصائد وأنصب له فيها المكائد والمصائد تارةً أنقضُّ عليه انقضاض الجارح وأخرى أنصبُّ إليه انصباب الطير إلى المسارح. وكثيراً ما كنت أبيّته فأفنيه. وأصبحه فأبرد غليلي منه وأشفيه. ولا زلتُ –في أيامي كلها– أرى المنية ولا الدّنيّة، وأشمّر عن أقوى ساعد وبنان وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان إلى أن فقدت المعاضد والمساعد

وفني الطارف -من أموالي- والتّالد، ودبّت اليّ -من بني ديني- الأفاعي واشتملت عليّ منهم المساعي. والآن بلغ السيل الزبى، والحزام الطبيين. فسبحان من لا يكيده كائد ولا يبيد ملكه، وكل شيء بائد.

إن سلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجوع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلي تأخر لم يكن يهواه ذلّي والخضوع
ما سرت -قطّ- إلى القتال وكان من أملي الرّجوع
شيم الأولى أنا منهمُ والأصل تتبعه الفروع

فاستكان القوم لهذا الخطاب وتذكروا أيام الله فيهم. وإنما يتذكر أولوا الألباب ثم أخذوا يتداولون الأمر بينهم إلى أن قرّ القرار على أن يكون التسليم إلى الفرنسيس. ثم إن الأمير عاجله الحال، أن يكتب كتابا، في ذلك، إلى الجنارل لامورسيير، رئيس الجيوش الفرنساوية فبعث رسولا من حاشيته ليخير الجنرال باللسان. ولما وصل الرسول إلى "مناصب كيس" وجد الدّائري الشهير "بابن خوبة" بالمرصاد. فأطلعه على الأمر وسار معه -في لّمة من خيله- إلى المعسكر الفرنساوي. فبلّغ الرسول الرّسالة الشفاهية إلى الجنرال؛ فاهتز لذلك سروراً وبادر يبعث سيفه إلى الأمير، مع ورقة، ختمها بختمه، على بياض. ليشترط الأمير ما أراد. وأرسلهم صحبة "ابن خوبة". وفي الوقت نفسه؛ كتب إلى ملكه إنني بهذه الدقيقة، ممتطيا جوادي، للذهاب لدائرة عبد القادر. ولا يوجد عندي فرصة لأبعث إليكم بنسخة التحرير الذي أخذته منه أو جوابي له. ويكفيني أن أقرّر بأنّي قد

اتفقت معه بأنه هو وعائلته يذهبان إلى عكّا أو الإسكندرية. وهذان المحلان هو الذي عينهما في شروطه. وصادقت عليهما. وإني ملتزم بأن أقوم بما اشترطه. وقد عملت ذلك بكامل الاعتقاد من أن جلالتكم، والحكومة تصادقون عليه، ما دام عبد القادر اعتمد على قولي وخطي ... وبعث البريد إلى الدوك "دومال" ابن الملك؛ حاكم الجزائر. فارتاح لذلك. وركب -من حينه- بارجةً. وجاء إلى مرسى "جامع الغزوات". ولأول وصوله إليها بعث إلى الجنرال يخبره أنه قد وافقه على قبول ما اشترطه الأمير. وأمره أن يزيده في ذلك تأكيدا ويعطيه ميثاقا غليظا؛ يطمئن به قلبه. و الأمير -وإن كان في حالة يأس- إلا أنه، لقوّة جأشه، وصبره لم يظهر اليأس والجزع، وأظهر غاية التربص والتأني. ولذلك، تردّدت الرسل بينه وبين الجنرال في ربط الميثاق. وإحكام العهد ثلاثة أيام بلياليها. وبعد أن تم الأمر بينهما، على شوط منها :

أن يحملوه، مع جميع عائلته، إلى عكّا أو الإسكندرية.

وأن لايتعرضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر.

وأن الذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنا على نفسه وماله.

ثم سار الأمير بأهله، وخاصته، وأتباعه، من "تفجيرت" قاصدا المرسى حيث أن ابن الملك والجنرال لامورسيير، والجنرال كافنياك ينتظرونه فيها. وعندما وصل -في طريقه- إلى مقام المرابط سيدي إبراهيم، وهو الموضع الذي كان الأمير انتصر فيه على جنود فرنسا، وأوقع بهم، الوقعة الشهيرة منذ سنتين قبل ذلك، الكولونيل "مونتبان"

في خمسمائة فارس ينتظره.فواجه الأمير بكل اعتبار واحتفال. وبعد أن نزل الأمير، وصلّى -في المقام- ركعات؛ ركب وسار في ذلك الموكب؛ إلى أن قرب من مرسى "الغزوات". فاستقبله ابن الملك، وفي معيته الجنرال "لامورسيير" وغيره من القواد والأعيان، في الأبّهة والاحترام.

وبعد أن استقر بهم المجلس، قال الأمير لابن الملك :

هذه الساعة التي قدّر الله -تعالى- أن يكون فيها ما نحن فيه الآن. وقد أخذت على الجنرال "لامورسيير" عهدا وميثاقا فلا أخشى أنه ينقضه ابن ملك فرنسا، وعظيمها. فأجابه ابن الملك بما يوافق قول الجنرال ويثبت عهده.

ثم قال الأمير، وقدّم له سيفه:

إني أحسب هذا شرفا قدِّم لفرنسا وفخرا عظيما، حصل لها. وفي غد تلك الليلة توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيما إلى "جامع الغزوات ". وعند رجوعه تلقاه الأمير على جواده الأدهم. وبعد أن نزل عليه أهداه إليه مع طبانجته وساعته. فقبلها ثم اجتمعا مخصوصا، جدّد فيه ابن الملك، العهد للأمير، وزاده وثوقا. وأهدى للأمير أيضا طبانجته وساعته. ثم سأله عمّن يرافقه في غربته إلى المشرق؟ فسمى له أهله وأولاده، وخليفته السيد مصطفى بن التهامي والسيد قدور بن علاّل وغيرهما من حشمه وأتباعه، في مائتي نفس.

قال بعض مؤرخيهم : إن مما يوجب الحيرة، ويستحق التعجب أن عسكر الأمير عبد القادركاد أن يصل عدده إلى الألفين من الخيّالة، وعشرة

آلاف من المشاة. وقد قاوم به جيشا عظيماً من جيوش أكبر دولة، من دول أوربا، يبلغ عدده مائة ألف وستة آلاف مابين فارس وراجل، مدّة ست عشر سنة وأعجب من ذلك؛أنهم كانوا يدخلون في معسكرنا ويقاتلوننا من ورائنا، ومن ميمنتنا، وميسرتنا، ويهربون في الوقت الذي نتصوّره فيه القبض عليهم باليد والعجب كلّ العجب أنهم كانوا يتبعون عسكرنا، بتجاوزاتهم الدائمة ويظهرون بالأمنية التامة، غير مبالين بما كان. ولا مهتمين بما سيكون. فليت شعري بماذا يجاب من سأل عن الفرق، بيننا وبينهم ومن الذي يستحق المدح، منّا منهم؟...

قال الأديب، صاحب الجامعة، بعد ذكر ترجمة الأمير، في مشاهير المتقدّمين والمتأخرين "فلا يسع المؤرخ الشرقي غير الوقوف، بإزاء عظمته متفكرا، وبأسباب سقوطها معتبرا لأن الصراع، بينه وبين الجنود الفرنساوية كان بين مبدأين، لا بين قوّتين حربيتين. أحدهما استقلال الممالك الشرقية والثاني أطماع أوربا الاستعمارية غير أن قوّة الطمع زعزعت استقلال الشرق، واستشعر أهله أنهم مطحونون برحاه. فازداد يأسهم ولو قوي المبدأ الأول لقوي رجاؤهم. وزاد بأسهم. وليت شعري ما يقول المؤرخ الغربي، بعد إمعان النظر في دولة أحكم أساسها منذ ألف وأربعمائة سنة. فقد استولت على مستعمرات أمير، عمر دولته سنة، بعد أن قهر رجالها وأباد أبطاها. وشغلها خمسة عشر عاما إلى أن أراد الله، إنفاذ ما قدّره وقضاه. عاضدها أقرانه، وساعدها عليه جيرانه، فاستسلم لقضاء مولاه وسلّم إليها نفسه برضاه على شروط، موقّع عليها من الجانبين. وهذا هو سبب انهدام ملكه. فليت شعريً من يُمدح؟ ومن الذي يطعن فيه ويقدح؟ وينبغي لكل

شرقيٌّ، وقف بقبر هذا الأمير أن يخضع لعظمته. ويمرِّغ وجهه في تربته ويعلم أن هذا الأسد الرئبال محطُّ رحال الآمال والأنضال.

سقى الرحمن قبراً حلّ فيه أميرٌ بالمفاخر لا يضاهى
همامٌ قد حمى الأوطان ممّا دهاها واقتدى بأبيه طاها
به قرّت عيون الرشق فخراً وأهل المغرب ما بلغت منها
ولكن الإله قضـــــاه مـــاضٍ وكيف تردُّ أشياء قضـــــاها

وبتسليم سيفه، انتهت سيرته السيفية، وهي **الجزء الأول**،

ويليه **الجزء الثاني** في سيرته العلمية.

والله ولي التوفيق.

إنجاز وتصميم منشورات ثالة – الأبيار، الجزائر.

هاتف: 58 36 92 / 11 42 92 021

فاكس: 11 42 92 021

e.mail : thalaed @ hotmail.com

"...تكتسي تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر مكانة خاصة ضمن السير الخاصة بالأمير، لأنها من تأليف أقرب الناس إليه، وأعزّهم عليه، نجله الأمير محمد الذي لازمه في البأساء والضراء، وكان يتمتع بثقافة تؤهله لفهم الأحداث وتدوينها في نسق يربط بينها وبين مسبباتها وعواقبها، يراجع في تدوينها الأمير عبد القادر نفسه، ويدعمها بتصريحات مناسبة لضباط جيش العدو وبشهادات ملاحظين وذوي الاطلاع والخبرة من جنسيات مختلفة.

ويجد فيها القارئ ملخصا مفيدا لجغرافية الجزائر وذكرا لسكانها وتذكيرا بأهم مراحل تاريخها، مع تلخيص لمختلف الدول التي تعاقبت عليها من بني الوطن وغزاة وفاتحين. وفيها إشادة بكل عمل صالح وجهاد مخلص، ولو كان صادرا عن ألد الخصوم والأعداء".





ر.د.م.ك : 978-9947-834-08-4